فتوح الشام

محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي
أبو عبد الله الواقدي

الجزء الثاني

راجعه وقدم له
طه عبد الرءوف سعد

الناشر

اسكندرية ☎ ١٤٥٩٧٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ (١)

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال أبو عبيدة : معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملّككم الله إياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ (٢) كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز . فما تشيرون به على ؟ أندخل فى هذه الدروب وراء أعدائنا ؟ فلم يجبه أحد، فأعاد الكلام .

ثم قال ما السكوت أفشل بكم بعد الشجاعة ، أم كسل بعد النشاط ، أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب ، وإن الحسنات لكم كثيرة ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة إلى الله أن يعينكم على الجهاد ، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها . قال فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسى .

فقال : أيها الأمير إنا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا ، وإنما بعضنا ينتظر إجلالا وأدبا ، واعلم أيها الأمير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد فى أعداء الله ، وهـا نحن لك وبين يديك ومنك الأمر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك ، وأما أنا فلا أملك إلا نفسى فوجهنى حيث شئت تجدنى طائعا .

فقال أبوعبيدة : معاشر المسلمين من له رأى وحضرت مشورة فليقلها ويظهر ما عنده ، فقال خالد أيها الأمير إن إقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا فى ديننا وطلبهم هو الغنيمة ، والنصر من عند الله ، والذى أشير به أيها الأمير أن تبعث الجيوش فى كل درب

---

(١) سورة الفتح : الآية : ١ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٢٧ .

من هذه الدروب ، فإن ذلك يوهن العدو وتقر به أعين المسلمين ، قال : فجزاه أبو عبيده خيرا ، وقال يا أبا سلمان : إنى قد رأيت أن أعقد لميسرة وأسيِّر معه رجالا لأنه هو أول من سارع إلى هذا الأمر وأشار به ، فيفتح الله لهم الدروب ويغيرعلى ما قرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب ما نرى .

فقال خالد : هذا الصواب ، فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان ، وجعل من كل قبيلة نقيبا ، وجعل على العبيد دامسا أبا الأهوال ، قال فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول إنه يلقى الكتيبة وحده ، وجعل أمير القوم ميسرة .

وقال أبو عبيدة : يا أبا الأهوال كُنْ أنت بجماعتك فى أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به . فإنه مبارك الطلعة . فقال سمعا وطاعة . قال وجهز القوم .

ثم إن خالدا قال : أيها الأمير أرسل معهم أدلاًء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم ، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم ، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية ، وقال لهم: فى أى درب يكون دخول المسلمين فى طلب العدو ؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا فى الدرب الأعظم من بلد قورص .

ثم إنهم قالوا أيها الأمير إن هذه الدروب ليست كمثل البلاد التى فتحتموها بل هى بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات، فقال أهل اليمن سيروا أنتم أمامنا فإنكم ترون منا عجبا ، فسار أبو الأهوال والمعاهدون أمامه ، وسار ميسرة فى أعقابهم بعدما ودعوا الناس ومضوا وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة . قال عطاء بن جعيدة : وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة حنداس فقطعناها ، وعبرنا نحو الساجور وأتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا ، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضا وعرة وأشجارا ومياها جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال، فهالنا وحشة ذلك المكان إذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة .

فقلت فى خاطرى : إن طالت علينا هذه الأودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم والأدلاء أمام المسلمين ، وقد تعلقوا فى جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد إلا وترجل عن فرسه ، وقال ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاء يقولون لنا كونوا على يقظة ، فإن أخذعليكم المجاز هلكتم ، فلما كان فى اليوم الرابع خرجنا إلى أرض واسعة ، وكان دخولنا إلى بلاد الروم فى أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا إلى تلك الأرض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا إلى الثلج ، وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا . قال وكان دامس أبو الأهوال لم يأخذ معه ثيابا تدفئه فحصل له من البرد فقال يا أبا الهول ما لى أراك ترتعد ؟ فقال أخذنى البرد وليس معى ما يدفئنى . فدفع إليه فروة فلبسها فدفىء . فقال كساك الله من ثياب الجنة .

(قال الواقدى) وساروا إلى أن وصلوا إلى أرض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها . ثم إنهم ساروا فلم يروا أحدا لأن الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين . فلما كان فى اليوم الخامس ونحن سائرون إذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون وإذا هى خالية بل سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعا ولا دافعا فعرفنا أنهم تواروا عنا فصاح ميسرة ، وقال خذوا حذركم . فإن القوم قد انهزموا . فدخل الناس إلى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع . قال سعيد بن عامر : فرأيت أبا الأهوال ، وهو يحمل على عاتقة ثلاثة أكسية وقطعتين . قال فقلت له : يا أبا الهول ما هذا؟ فقال استعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدا . قال : وأخذوا ما كان فى القرية من طعام وعلوفة وساروا إلى أن وصلوا إلى مرج يقال له مرج القبائل ، وهو مرج واسع ، فانبثت الخيل فيه يمينا وشمالا ونزل الجيش هناك ، وميسرة يراود نفسه فى الرجوع إلى حلب ، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطىء عنه ، وأن يكون حذرا ، فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمه، إذ أقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده ، فلما وصل إلى ميسرة ، قال له : ما شأن هذا ومن أين أخذته ؟ فقال : اعلم أيها الأمير أنى سبقت أصحابى فرأيت شخصا يلوح مرة ويختفى مرة فأسرعت إليه . فإذا هو هذا

فأتيته وسقته إليك . قال فتقدم إليه رجل من المعاهدين فسأله فحدثه فأطال معه الكلام والناس سكوت ، فلما أطال ، قال ميسرة : ويلك ما الذى يقول هذا العلج ؟

فقال أيها الأمير إنه يقول : إن الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من أنطاكية ووصل إلى قسطنطينية قصدته الروح من كل مكان من المنهزمين وغيرهم ، وبلغه أن أنطاكية قد فتحت صلحا وأنه قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال : « السلام عليك يا أرض سوريا إلى يوم اللقاء » ، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير ، فقال لهم : إنى أخاف من العرب أن ترسل فى طلبنا . ثم أنه جهز ثلاثين ألفا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم أن يحظروا له الدروب . فقال له ميسرة : قل له كم بيننا وبينهم ؟ قال: يقول لكم فرسخان . قال : فلما سمع ذلك ميسرة أطرق إلى الأرض لا يرد جوابا ولايبدى خطابا . فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم ، وكان له عمود من حديد ، وكان يقاتل به لا يقله فى الحرب سواه وكان ذميم الخلقة ، فقال لميسرة بن مسروق : ما لى أراك أيها الأمير مطرقا إلى الأرض إطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقابل ألفا من الروم .

فقال والله يا عبد الله ما أطرقت خوفا ولا جزعا، ولكن خوفا على المسلمين أن يصابوا تحت رايتى وهى أول راية دخلت الدروب فيلومنى عمر بن الخطاب، وكل راع مسئول عن رعيته . فقال المسلمون : والله ما نبالى بالموت ولا نفكر فى الفوت لأننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء فلا يبالى بما وصل إليه من الكفار ، ثم إنه قال أيها الناس أترون أن نلقاهم فى موضعنا هذا أو نسير إليهم ؟ فسألوا المعاهد ، وقالوا إن كان موضعهم أفسح من هذا رحنا إليهم . فقال : ليس من هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان ، فإن عوّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم ، وإن عدتم إلى ورائكم كان خيرا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوكم . قال : فعرض ميسرة على العلج الإسلام فأبى، وكانوا كالجراد المنتشر . وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران . فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر ، فلما فرغ قام فى الناس خطيبا ، فقال أيها الناس هذا يوم له ما

بعده ، وإن رايتكم هذه أول راية ، فبينما هم على ذلك إذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بإزائهم ما لا يحصل لغيره . فقال : قبح الله تلك البلاد ، فإذا كان هذا البرد عندهم فى الصيف فكيف يكون فى الشتاء . وجعل يرتعد فرآه ميسرة ، فادخلوا الدروب . واعلموا أن إخوانكم مطاولون لفعلكم ، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا ﷺ « الجنة تحت ظلال السيوف » ولا تنظروا إلى قلتكم وكثرة أعدائكم ، فقد قال تعالى ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ سورة الأنفال . فقال المسلمون : اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا ، وإنا لنرجو من الله النصر عليهم . قال : فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبى الأهوال وأخذوا على أنفسهم قتال عدوهم واستنصروا بربهم ، وهو يوصيهم ، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمى وعلى الميسرة سعد بن أبى سعيد الحنفى وقدم العبيد مع أبى الأهوال فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم فى عددهم وعديدهم ، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين ، وقال : إن الباغى بغيه يرديه ، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال ؟ وإنما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان ، وقد حلفوا بالصلبان أن كلا منهم لا ينهزم وإن وقع ميتا ، فإن أردتم أن نبقى عليكم فاستسلموا للأسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد فخرج أبو الأهوال والراية بيده ، وقال له : صدقت فى قولك إن الباغى يرده بغيه .وأما قولك أنا نلقى إليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت إذا باغ بقولك هذا إذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لا قدر لى ولا قيمة عند ذوى الرتب فاقرب منى حتى أجندلك صريعا تخور فى دمك ، ثم إن دامسا همز حصانه إليه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلا . ثم جال على فلوه وهز رايته ، وقال: الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر ونظرت الروم إلى أبى الهول ، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم ، فغضبوا لذلك فخرج إليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه فى نحره فأخرج السنان من ظهره . ونظر الروم إلى ذلك ، فقالوا : هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون.

قال : فلم يجسر أحد أن يخرج إليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحدا ورجع . قال : فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحملت العبيد وحملت المسلمون والتقى الجمعان.. قال ميسرة : فالله درّ العبيد لقد أبلوا بلاء حسنا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون : « نحن عبيد لعباد الله وضربنا مثل الحريق فى سبيل الله ونقتل من كفر بالله » ، قال : ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس فى قبة الفلك وحمى عليهم الحر وافترق الجمعان . قال : وإن المسلمين موقنون بالظفر والنصر ، والمشركون قد أيقنوا بالهلاك ، وقد قتل منهم خلق كثير وأسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء من ألف . فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه ، فقال ميسرة : « إن كان أبى الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به وإلى الله تعالى أشكو ما أصبنا من فقد أبى الهول » ، وأسر من المسلمين عشرة . ثم إن ميسرة قال : من فيكم يكشف لناخبرهم ؟ وإذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالا شديدا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون إلى أن يقتلوه أو يأسروه ، وكانت العرب فى أربعة آلاف والروم في ثلاثين ألفا ، فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب ، فلله درّ ميسرة بن مسروق العبسى ، لقد جاهد فى الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادى : أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لأحدكم من رجوعه لأهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الأدبار عنها فإن أصاب القوم منا فإنى أخشى أن ذلك وهن بنا ثم إنه نادى أحطموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة .

قال زيد بن وهب : فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه ، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه . وسميت تلك الواقعة باسمين : وقعة مرج القبائل ووقعة الحطمة ، لأجل حطم أغمدة السيوف . قال : وقتتلوا حتى أن الرجل يقول إن سيفه ما بقى يقطع ، والمسلمون يبتهلون إلى الله والكفار تعج بكلمة كفرهم . قال وإن المسلمين يطلبون الفرج من الله ، والسودان تقاتل قتال الموت ، وكان شعار العرب فى ذلك اليوم النصر النصر ، وشعار السودان يا محمد يا محمد . قال ابن ثابت: وكنت قد أخذنى القلق على المسلمين ، ونحن فى ركب عظيم إذ سمعت فى الروم ضجة هائلة

وإذا بهم يقاتلون أناسا من ورائهم وهم فى وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلا يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله . فقلت هذه أصوات الملائكة . فاتبعت الصوت ، فإذا هو صوت دامس أبى الأهوال ، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم إلى أن خلصوا من بينهم ، وسمعته يقول هذه الأبيات :

يوثقنى الأعداء فى الحديد ... وناصرى وسيدى المبيد

مهلك عاد وبنى ثمود ... أغاثنى بعونه الشديد

محمد الطاهر الرشيد ... فحل عنى القيد والحديد

ذاك رسول الملك المجيد ... صلى عليه الناصر الحميد

قال فحملت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا فى بحر دم ،ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلا بواحد أو باثنين ، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه فى وسط عسكر الكفر . فلما نظر ميسرة إلى دامس أراد أن يترجل إليه فأقسم عليه أن لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامسا إلى صدره وقبله بين عينيه وقال له : كيف كان أمركم ؟ . قال اعلم أيها الأمير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسى فقتلوه ووقعت فأخذونى أسيرا وجعلونى فى الحديد وفعلوا بأصحابى مثلى وقد أيسنا من أنفسنا ، فلما جنّ الليل رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتى عند الله عظيمة ، ثم انه أمرّ يده الكريمة على الحديد فسقط منى وفعل ذلك مع أصحابى وقال لنا أبشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله . وقال لى: أقرىء عنى ميسرة السلام وقل له جزاك اللهخيرا ، ثم غاب عنى فانتهيت فوجدت الموكلين بنا نياما مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله ﷺ فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا . قال : فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

النجدة

(قال الواقدى) ثم ان بطريق الروم كان اسمه جارس ، فلما رأى ما قد حل بأصحابه قال : وحق المسيح خاب ملك أنتم حماته ، فإن لم تقاتلوا بعزم وشدة وإلا قتلتكم، قال : فتحالفوا أن لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم ، فلما وثق منهم أمر أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأمر ان ينفذ النفير الى البلاد بأسرها ، قال : فأتت إليه الروم من كل جانب فأتى إليه عشرون ألفا ، ولكن المسلمين لم يكترثوا بذلك ، فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول من صلاها داخل الدروب وأول راية دخلت كانت رايته، فلما فزع من صلاته قام فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: أيها الناس اثبتوا لما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب ، وهذه رحمة من الله لنا إذ نحن فى صدور الأعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لا نقاتل إلا بنصر الله لنا وأن الأمير أبا عبيدة كان قد أمرنى أن لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن أبو عبيدة أننا نلاقى جيشا .

فقال له سعيد بن زيد : يا ميسرة ما الذى تريد بهذا الكلام ؟ إن كنت تريد أنك تحرضنا فنحن أشوق إلى لقاء الله من الظمآن إلى الماء البارد . فقال ميسرة : ما أردت بذلك إلا مشورتكم ، وقد رأيت أن ننفذ إلى أمير المسلمين رجلا نعلمه بما قد بلينا به وأن مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا بإخواننا . فقال سعيد : نعم ما قد أشرت به . فدعا برجل من الأربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وأن يسير إلى أبى عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد ، وقد نزلوا بإزائنا وان يحدثه بما قد رأى . قال : فسار المعاهد والرجل إلى حلب وأجهدا نفسيهما فى السير فى طرق يعرفانها إلى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب . فأمروا أن يرش عليهما الماء ، فلما أفاقا قال لهما : ما وراءكما أهلكت الكتيبة ؟ قالا : لا والله ولكن نفر

عليهم العدو من كل مكان ... وأخبره بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر أبو الهول وكيف خلص وما هم فيه ؟ فقلق أبو عبيدة عند ذلك وقام مسرعا وأتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه ، فلما رآه قام إليه قائما وقال له : خيرا أيها الأمير ، فأخذ بيده وسار به إلى أن أتى رحله وقال للرجلين : قوما فحدثا الأمير بما عاينتما فحدثاه بما كان من أمر المسلمين . فقال خالد إن الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ما خذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عز من قال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ الآية (٢٠٠) ، وقال : إن الله مع الصابرين . وأما خالد فقال أحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على اللهورسوله فلعل الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة .

ثم أسرع إلى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير في الناس. قال : فأقبلوا من كل جانب فلولا أن منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم . فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين أخبرنا أحمد بن هشام عن عياض عمن حدثه قال لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه، رفع خالد يديه إلى السماء وقال: اللهم اجعل لنا إليهم سبيلا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد . وسار نحو الدروب . قال : وأما ميسرة ومن معه فإنهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم أشد القتال إلى أن يقبل الظلام فيفترقون ، وفي كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل ، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت بإذن الله تعالى .

(قال الواقدي) حدثنا عمر بن راشد عن الزبيدي قال : لما سار خالد ليلحق ميسرة وينجده إلى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة أطال فيها ، وقال : اللهم إني أسالك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لانبيائك ورسلك ألا طويت لهم البعيد وسهلت لهم كل صعب شديد والحقتهم بأصحابهم يا قريب يا مجيب . قال وميسرة ومن معه منتظرون من الله فرجا يأتيهم ونصرا ينزل عليهم .قال عبد الله بن الوليد الانصاري حدثني ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الأنصاري قال : كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم

حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان إلى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحا . قال سليمان بن عامر : فخرج يوما من الأيام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر وبيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفا . قال : فجعل يدعو إلى البراز ويطمطم ، فقال ميسرة للترجمان : ما يقول هذا الاغلف ؟

قال : انه يذكر انه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم . فقال ميسرة : من يبرز إليه ؟ فأسرع إليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم . فقلنا انه من المتنصرة وقد عاد إلى الاسلام. فجعل العلج يتكلم وهو يظن انه يفهم كلامه ، فلما رآه لايبرز إليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعى عنها وعطلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه ، وسار النخعى على قدميه فناداه ميسرة : يا أخا النخع ارجع ، فرجع القهقهرى والعلج يطلبه والنخعى راجل والعلج فارس ، فسار إليه عبد الله بن حذافة السهمى وصاح بالعلج فأدهشه ، فالتفت إليه وسار النخعى إلى أن وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه وصعب بينهما المجال صار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيئا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه وأراد الفرس أن يرجع عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل إليه وأخذ سلبه ورجع إلى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظما وعند الملك ، قال : فبرز بطريق آخر وقال : هذا صاحب الملك قد قتل ولا بد لى من أخذ ثأره من الذى قتله إما بقتله أو أسره وابعث به إلى الملك يصنع به ما يريد . ثم إنه أتى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح : معاشر العرب لا شك أن الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز إلى قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره .

فلما سمع عبد الله بن حذافة همّ بالخروج فمنعه ميسرة شفقة عليه لاجل راحته . فانه قد تعب وأراد ميسرة أن يلقاه بنفسه . فقال عبد الله : يدعونى أيها الأمير باسمى وأتخلف ، اننى إذا لعاجز . فقال له ميسرة : اننى أشفق عليك . فقال عبد الله : اتشفق على من تعب الدنيا ولا تشفق على من حر النار وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ لا يبرز إليه غيرى ثم برز إليه وتحته فرس المقتول وما غير من لامته شيئا وبيده سيفه وحجفته ، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم انه قاتله فما أمهله حتى نفر إليه وحمل عليه عبد الله كأنه جبل قد انهدمن علو وتشبث به وجذبه فأخذه اسيرا وذهب به إلى قومه وقال : أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به الى الملك في هذه الساعة . قال : ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق إلى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج إليه ، فقال ميسرة : ما يخرج لهذا اللعين غيرى واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وسلم الراية إليه ، وقال له : كن للراية حافظا حتى أخرج إلى هذا اللعين . فإن عدت أخذتها . وأن قتلنى فأجرى على الله فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة إلى البطريق ، وهو يقول :

قد علم المهيمن الجبار بأن قلبى قد كوى بالنار
على الفتى القائم بالأسحار سيعلم العلج أخو الأشرار
أنى منه آخذ بالثار

قال : وحمل عليه وتجاولا طويلا وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الأبصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر إلى صاحبها وتدعوا له ، ثم انكشفا وهما للتفرق أقرب منهما للتقارب فقال العلج لميسرة : بحق دينك ما هذه الراية التى طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت إلى كلامه بل قال له : « وما ذلك على الله بعزيز » . فقال : وحق دينى ما قلت لك إلا حقا . قال وهو يحلف كاذبا . فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتى الله بالفرج وينظر بحقيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكن يده منه ليأخذه أسيرا ، وإذ قد طلعت راية خالد بن الوليد وهى مشرقة بالنور وهى فى يد خالد بن الوليد . وكبر المسلمون يدا واحدة

فمن عظم تكبيرهم ارتجت يد العلج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى ما الخبر ، فقبض عليه ميسرة وهم أن يقلعه فلم يقدر لأنه كان مرفلا فى السرج ، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها وانتخع ميسرة وانثنى البطريق إلى اصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه .وأما خالد فإنه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له مع الروم وكيف أسروا عبد الله بن حذافة السهمى فتأسف خالد واسترجع ، وقال : يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه إن شاء الله تعالى . وأقام خالد بقيد ذلك اليوم ، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بازائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد ، وقال : ما الذى تريد ؟

قال: إن كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما تريدون وترجعون . فقال خالد : ما نرجع إلا على انفصال ، وأما الأسير فاذا لم تطلقوه طوعا أطلقتموه كرها . قال : أنت أمير هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : إن رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندبر ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم إلى ما تريدون . قال له : أجبناكم إلى ذلك. فرجع الشيخ إلى قومه ، وقال البطريق : قد أجابوا ووضعت الحرب أوزارها ونزل خالد والمسلمون بازائهم فى أماكنهم وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل ، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثرا فعلموا أنهم قد ولوا الأدبار . فتأسف خالد على ما فاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة ، وقال له : إنها بلادهم وهى عرة وأن الصواب رجوعنا إلى معسكر المسلمين . قال : فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبد الله بن حذافة السهمى وساروا حتى أتوا حلب فلقيهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم وأقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف أسر عبد الله بن حذافة ، فتأسف عليه ، وقال : اللهم اجعل له من أمره فرجا ومخرجا . وكتب إلى عمر بن الخطاب يخبره بما وقع له من أمر السرية إلى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسر عبد اللهبن حذافة وبعث الكتاب .

كتاب عمر

فلما وصل إلى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتمّ على عبد الله بن حذافة وأسره لأنه كان يحبه حبًا شديدا ، فقال : وعيش رسول الله لاكتبن إلى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة ، فإن لم يفعل والا سرت إليه بالجيوش والعساكر . ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . أما بعد فإذا وصل إليك كتابى هذا فابعث إلى بالأسير الذى عندك وهو عبد الله بن حذافة . فإن فعلت ذلك رجوت لك الهداية ، وان أبيت بعثت إليك رجالا وأى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله،والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى . ثم انه طوى الكتاب وبعث به إلى أبى عبيدة وأمره أن ينفذه إلى هرقل . فلما وصل الكتاب إلى هرقل ، قال له : من أين كتابك هذا؟ قال من أمير المؤمنين أمير العرب فقرأه ، فاذا هو من عند عمر بن الخطاب . قال : فدعا بعبد الله بن حذافة إليه . قال عبد الله بن حذافة فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله ، فلما وقفت بين يديه ، قال لى : من أنت ؟

قلت : رجل من المسلمين من قريش . قال : أنت من بيت نبيك ؟ قلت لا أنا من بنى عمه . قال : هل لك أن تتبع ديننا وأزوجك ابنة بطريق من بطارقتى وأجعلك من أخصائى ؟ فقلت : لا والله الذى لا اله إلا هو ، لا فارقت دين الإسلام أبدا وما جاء به محمد عليه السلام . فقال : أجب إلى ديننا ، وأنا أعطيك المال كذا وكذا ، ومن الغلمان كذا وكذا ، ومن الجوارى كذا وكذا . قال عبد الله : ثم دعا بسفط من الجوهر وقال : إذا دخلت فى دينى أعطيتك اياه . فقلت لا والله لو أعطيتنى ملكك وملك قومك ما فارقت دين الإسلام أبدا ولو أعطيتنى كل ما تملكه . فقال : إذا لم ترجع إلى دينى قتلتك شر قتلة . فقلت : لست أفعل ولو قطعتنى قطعا ولو أحرقتنى بالنار لا رجعت عن دينى فاصنع ما أنت

صانع . قال : فغضب من كلامى ، وقال : اسجد لهذا الصليب سجدة وأخلى سبيلك . فقلت : لست أفعل . قال : فكل من لحم الخنزير وأنا أطلقك . قلت : حاشى لله ما كنت بالذى أفعل . قال : فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأطلقك . قلت : لا والله لا أشرب أبدا . قال : وحق دينى لتأكلن وتشربن قهرا . ثم أمر بى فجلعنى فى بيت ، وجعل عندى من ذلك اللحم والخمر ، وقال : إذا أضر به الجوع والظمأ أكل وشرب . وأغلقوا على الأبواب .

قال : حدثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عمن يثق به ان هرقل كان قد مات بعد هزيمته من انطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال إنه مات مسلما والذى فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده نسطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل . قال : فلما كان فى اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان : ما فعل ؟ قالوا : لم يأكل شيئا ولم يشرب وهو على حاله . فقال له وزيره : أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف فى قومه لا يرى الذل فكل ماتفعله فى هذا الرجل تفعله المسلمون إذا قبضوا على ملك منا . قال : فاستدعاه ، وقال له : ما فعلت باللحم ؟ قال : هو على حاله . فقال: مامنعك أن تأكل ؟ قال : فزعا من الله ورسوله، وأيضا أنه قد حلٌ لى بعد ثلاثة أيام ، ولكن ما أردت أن يشمت بى الملحدون . وورد كتاب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فلما قرأه أعطى عبد الله مالا كثيرا وثيابا وأعطاه لؤلواكثيرا هدية لعمر بن الخطاب وبعث معه خيلا إلى أن أخرجوه من الدروب ووصل إلى حلب ولقى المسلمين ففرحوا به . ثم إنه سار إلى عمربن الخطاب ، فلما رآه سجد لله شكرا وهنأه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل : وأخرج له اللؤلؤ . فلما رآه عمر عرضه على التجار ، فقالت : التجار له : هذا ما يقوم ومن جاءك به ، فقالت الصحابة : خذه إليك بارك الله لك فيه ، فقال : لا اله إلا الله محمد رسول الله ، إذا كنتم قد جعلتمونى منه فى حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن فى بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين فى سبيل الله ،ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة . ثم باعه وجعل ثمنه فى بيت المال .

حدثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبى بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ، قالوا : جميعا : انه لما فتح أبو عبيدة انطاكية صلحا ، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبوعبيدة بحلب ينتظر ما يأتى إليه من عمرو بن العاص لما مضى إلى قيسارية فى خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو ابن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر.

ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحرثانى : كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام ، وكان البرد شديدا ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرمة فى دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود . فقلت قبح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم . قال : فسمعنى رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب إلى لاداعبه ، فقال لى : يا أخا العرب إن كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه. قال سبيع : ثم إنه دلنا على دنّ كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرا فأخبر بذلك عمرو بن العاص ،فكتب إلى أبى عبيدة يعلمه بذلك فكتب إليه أبو عبيدة :أمابعد فمن شربها فحده عليها وأقم حدود الله كما أمر، ولا تخشى لومة لائم ، فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع بن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط. قال سبيع : فلما ضربنى عمرو وأوجعنى . قلت : والله لأقتلن العلج الذى دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحد فأخذت سيفى ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عينى عليه أردت قتله فولى هاربا فتبعته وهو يقول : ما ذنبى عندك ؟ فقلت أنت دللتنى على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب ، فقال والله ما علمت أنه محرّم عليكم. قال : فنادانى عبادة بن الصامت وقال : يا سبيع إياك أن تقتله فإنه تحت الذمة قال : فتركته ومضى العلج وأتى إلى بتين وجوز وزبيب وقال : كل هذا بذاك فانه يدفئك . قال : فأكلته فوجدته طيبا فقلت لحاك الله أين هذاكان قبل أن أضرب بالسياط ؟

(قال الواقدى) ثم أن عمرا ارتحل فنزل بموضع يقال له محل وبلغ الخبر فلسطين ابن هرقل ، وكان قد أتاه المنهزمون من عسكر أبيه ولجئوا إليه واكتمل جيشه فى ثمانين ألفا ثم إنه دعا برجل من المتنصرة وقال له : امض واحرز لى عسكر العرب واكشف لى أخبارهم فوصل إليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار ، فجلس بينهم يسمع حديثهم ، فلما أراد القيام عثر فى ذيله . فقال : باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه، فلما سمعوا علموا أنه متنصر جاسوس للروم فوثبوا إليه وقتلوه ووقع الصائح فى العسكر فسمع عمرو الضجة . فقال ما الخبر ؟ قيل إن قوما من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه . قال : فغضب عمرو وطلبهم ،وقال ما حملكم على قتل الجاسوس ؟ وهلا أتيتمونى به لأستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا ثم انها ترجع فتصير لنا ، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء . ثم إنه نادى فى جيشه : من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به إلىّ . قال وإن فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد إليه فأخبره أنهم فى خمسة آلاف ، إلا انهم كالأسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة يرون الموت مغنما والحياة مغرما فلما سمع ذلك . قال : وحق المسيح والقربان لا بدّ من قتالهم . فإما أن أبلغ المراد أو أموت صبرا ، ثم إنه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شدادا وولى عليهم بطريقا اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه : وقال سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشى فسار من ساعته ، ثم انه عقد صليبا آخر وسلمه إلى دمستق العسكر واسمه جرجيس بن باكور وضم إليه عشرة آلاف وقال له : الحق بصاحبك فسار فى أثره ، فلما كان فى اليوم الثانى خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه قسطاس فى قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف . قال بشار بن عوف : فبينما نحن نازلون إذ أشرف علينا البطريق الأول فى عشرة آلاف فارس ، فلما قربوا منا رأيناهم فحزرناهم فإذا هم عشرة آلاف . قال : ففرحنا وقلنا نحن خمسة آلاف وعدونا فى عشرة آلاف، فكل رجل منا يقاتل اثنين ، فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا البطريق الثانى فى عشرة آلاف ، فقال عمرو رضى الله عنه: اعلموا أن من أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدوّ ولو

تزايد المدد ، فإن الجهاد أوفر متجرا وأعز قدرا ، وأى فخر عند الله ممن يقتل فى سبيل الله .. بين صفوف الكفار ويكون حيا عند الله يرتع فى مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنة ، فقد قال الله تعالى ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم ... الآية** ﴾ ، ولو أن الجاسوس الذى قتلتموه لم تعجلوا عليه ، لأخبرنا بمسير هذا الجيش إلينا وكثرته ، وكنا قد أخذنا حذرنا على أنفسنا واحتطنا، ولكن أمر الله لا يرد ثم إنه جمع أبطال الموحدين ، وقال : قد رأيت أن ننفذ إلى أبى عبيدة نعلمه ليمدنا بالخيل والرجال ، فإن هذا جيش عظيم . ثم قال : أيها الناس من يركب ويسير إلى الأمير أبى عبيدة ويعلمه بما قد صرنا إليه ؟ فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبى سفيان . وهو محاصر قنسرين وأجره على الله .

المعارك فى فلسطين

فقال له ربيعة بن عامر : يا عمرو ألق بنا العدو وتوكل على الله ، فإن الذى نصرنا فى مواطن كثيرة ونحن فى قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين . قال : فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة ، وقال : والله لقد صدقت وأمر الناس بالتأهب إلى لقاء العدو ، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار ومن فى تلك الأرض من العمار ، وقالوا : إلهنا ومولانا إنا نسمع أصواتا موحدة غير مشركة ولا ملحدة فى التوحيد ، وقد أسمعتنا كلام التوحيد وأريتنا وجوه أهل التمجيد ، الهنا ما أطيب سماع ذكرك ومن لنا أن نوفى بشكرك قال : وضجت الوحوش والسباع إلى مولاها شاكرة لما أعطاها وأولاها ، ونادت عالم سرها ونجواها : يا من جمع الوحوش راضية بما آتاها أخرج رزقها ومرعاها تغدو خماصا وتروح بطانا إلى باب سيدها ومولاها يا من لو توارت دودة تحت الأرضين السبع لرآها ، ولو كانت فى غلس الظلمات تحت اليم المظلم حبة لرزق عبد لبلغه إياها ، إلهنا إنا سمعنا أصوات توحيدك فى هذه الأرض وماكنا عهدناها ونسمع آيات ما كنا عرفناها ولا سمعناها ، سبحانك يا من قدرته لا ننساها ويا من إحسانه وفضله لا يتناهى . قال : فهتف بهم هاتف من الجو ، كم لله من مسبح فى الجبال وذراها

تحت تخوم الأرض وثراها ، وفى فلوات البرارى المقفرات ، وفى قعور البحار الزاخرات ومياها. قال : فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا فى الجو هذه الأصوات ، وكأنما الأرض وأقطارها وأهلها تجاوبهم ، وكأن فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر إلى جيش العرب وقد زاد فى عينيه أضعافا فقال : وحق دينى لما أشرفت على القوم ما كانوا فى هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف ،وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم ، ولا شك أن الله قد أمدهم بالملائكة ، ولقد كان أبى هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب ، وليس جيشى هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمنى لما لقيهم باليرموك فى ألف ألف ، ولقد ندمت على خروجى إليهم ، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب ، ثم انه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية ، وهو قس قيسارية وعالمها وقال له : اركب إلى هؤلاء القوم وكلمهم بالتى هى أحسن ، وقل لهم إن ابن الملك يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب .

قال : فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبا من الجوهر وسار حتى وصل إلى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه . فقال : يا معشر العرب إنى رسول إليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا ، وانه والله يريد صلحكم ولا يبغى قتالكم ، لأنه عالم بدينه بصير بأموره ، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور ، فلا تبغوا علينا فالباغى مقهور والمبغى عليه منصور ، وقد قال لنا المسيح لا تقاتلوا إلا من بغى عليكم ، وان الملك يريد أن تبعثوا إليه رجلا من أفصحكم لسانا وأجرئكم جناناً ، ثم سكت . قال : فلما سمع عمرو كلامه . قال : أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا الأغلف ، فمن منكم يبادر إلى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم .

فتقدم إليه بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، وكان غلاما أسودا طويلاً من الرجال وأنه النخلة السحوق بصاص من السواد، عيناه جمرتان كأنهما العقيق جهورى الصوت . فقال يا عمرو : أنا أسير إليه فقال يا بلال : إنك قد حطمك الحزن على رسول الله ﷺ ،

وأيضا إنك من جنس الحبش ولست من العرب ، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة . فقال بلال : بحق رسول الله ﷺ الا تركتنى أمضى إليه . فقال عمرو : لقد أقسمت عليَّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه فى الخطاب وأفصح فى الجواب وعظم شرائع الإسلام . فقال بلال : ستجدنى إن شاء الله حيث تريد . قال : فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة ، وكان من عظم خلقته إذا نظر إليه أحد يهابه ، وكان لابسا يومئذ قميصا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلدا بسيف ومزوده على عاتقه وبيده عصا. قال : فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر إليه القس أنكره ، وقال إن القوم قد هنا عليهم فإنا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا إلينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم . ثم قال : أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك يريد أميرا منكم حتى يخاطبه بما يريد ، فقال بلال : أيها القس أنا بلال مولى رسول الله ﷺ ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك ، فقال له القس : قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس إلى الملك ، وقال له : أيها الملك إنهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك ، وما ذاك إلا استصغارا لأمرنا عندهم ، وهو عبد أسود . قال : فأرسل له رجلا يقول له : أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك إنما يريد أميرا منكم حتى يخاطبه . فقال له بلال : أيها الرجل أنا بلال بن رباح مولى رسول الله ﷺ ولست بعاجز عن جواب صاحبكم . فقال فلسطين أرجع إليهم وقل لهم بعث اليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم ؟

فرجع الترجمان إلى بلال وقال له يا أسود : ان الملك يقول لك : لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمن عليكم ، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمرا بذلك . فقال لشرحبيل أنا أمضى إليه . فقال شرحبيل : يا عبد الله إذا مضيت أنت فلمن ندع المسلمين . فقال عمرو الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه ، ولكن خذ الراية واخلفنى فى قومى . فإن غدر الروم فالله الخليفة عليكم ، فوقف شرحبيل فى مقام عمرو وأخذ الرأية وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه

عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كورا وأرخى لها عذبة ، وفى وسطه منطقة ، وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه وسار عمرو حتى وقف بازاء الترجمان الذى أرسله فلسطين بن هرقل ، فلما رآه الترجمان ضحك ، فقال : م تضحك يا أخا النصرانية قال : من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح ، ما الذى تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حربا ؟ فقال عمرو : إن العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم ، وإنما حملت السلاح معى استظهارا ، ولعلى أن ألقى عدواً فيكون ذلك حصنا من عدوى وأحامى به عن نفسى . قال الترجمان : شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب . ثم عطف الترجمان إلى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص ، وقال أيها الملك إن أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس وقال : قل له يتقدم إلينا قال : فلما قدم أخذ الملك فى التأهب لقدوم عمرو عليه ، وزين ملكه وأوقف القسوس عن يمنيه وشماله والحجاب بين يديه ، وأقبل على الترجمان وقال : له يا أخا العرب قد أذن لك الملك ، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه إلى أن وقف على قبة الملك ، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش فى وجهه ، وقال : مرحبا بأمير قومه ، وأراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك ، وقال بساط الله أطهر من بساطك ، لأن الله تعالى جعل الأرض بساط وأباحنا اياها فنحن فيها سواء ، وما أريد أن أجلس إلا على ما أباحه الله . ثم جلس على الأرض باركا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر ، فقال له فلسطين ما اسمك .

قال اسمى عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين فى القوم قال فلسطين إنك لفتى كريم من عرب كرام ، يا عمرو إن كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة ، ونحن وأنتم فى النسب متصلون ومن يكونون متصلين فى النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض ، فقال عمرو : إن أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبنا الأعلى هو دين الإسلام ، وإذا كان أخوان قد اختلفا فى الدين كان حلالا أن يقتل أحدهما أخاه، وقد

انقطع النسب بيننا ، وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدا ونحن قريش الكرام وأنتم بنو الروم . قال يا عمرو : أليس أبونا آدم ثم نوحا ثم إبرهيم وعيصو ابن إسحق وإسحق أخو إسماعيل وكلاهما ولد إبراهيم ، ولا ينبغى للأخ أن يبغى على أخيه بل يجود عليه . فقال : انك لصادق فى قولك الذى قلت وان عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن إسمعيل صلوات الله عليه وان كان نوح عليه السلام قسم الأرض شطط حين غضب على ولده حام وعلم أن أولاد حام لن يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانا ، وهذه الأرض التى أنتم فيها ليست لكم وهى أرض العمالقة من قبلكم ، لأن نوحا عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافت وأعطى ولده ساما الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت وإلى غسان ، والعرب كلهم ولد سام ، وهو قحطان وطسم وجديث وعملاق وهو أبو العمالقة . حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة ، لأن لسانهم الذى جبلوا عليه العربية ، وأعطى حاما الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ونريد أن نرد هذه القسمة فنأخذ ما فى أيديكم من العمارة والأنهار عوضا عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر ، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر . فقال له : صدقت فى قولك إلا أن القسمة قد جرت ، فإن نقضتموها كنتم من الباغين علينا ، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم إلا الجهد العظيم ، فقال له عمرو : أيها الملك . أما زعمت أن الجهد أخرجنا من بلادنا ، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فإذا رأينا طعامكم واستحسناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدا ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار ، فإن منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش ، فما عندنا إلا رجالا أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة ، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة . قال : وأفحم فلسطين عن جوابه، فرفع رأسه إلى قومه وقال : إن هذا العربى صادق فى قوله وحق الكنائس والقربان والمسيح والصلبان ما لنا معهم ثبات . قال عمرو : فوجدت إلى وعظهم سبيلا ، وقلت :

معاشر الروم إن الله عز وجل قد قرب عليكم ما كنتم تطلبون . إن كنتم تريدون بلدكم فادخلوا فى ديننا وصدقوا قولنا ، فإن الدين عند الله الاسلام .

قال فلسطين : يا عمرو انا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا قال عمرو : فإن كرهت الإسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون. قال فلسطين : لا أجيبك إلى ذلك ، لأن الروم لا تطاوعنى إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبى ذلك من قبل فأرادوا قتله فقال : هذا ما عندى من الأعذار ، ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم إلا السيف ، والله يعلم أنى دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه كما عصى أبوكم عيصو عن أمه فخرج من الرحم قبل أخيه يعقوب ، وأنتم تزعمون أنكم أقرباؤنا فى النسب ، وانا لبراء الى الله عز وجل منكم ومن قرابتكم اذا أنتم تكفرون بالرحيم ، أنتم من والد عيصو بن اسحق ، ونحن من ولد إسمعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وأن الله تعالى اختار لنبينا خير الأنساب من لدن آدم إلى أن أخرج من صلب أبيه عبد الله ، فجعل خير الناس من ولد إسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم إسحق على لسان أبيه فولد إسمعيل العرب ، ثم جعل خير الناس كنانة ، ثم جعل خير العرب قريشا ، وخير قريش بنى هاشم ، ثم جعل خير بنى هاشم بنى عبد المطلب ، وخير بنى عبد المطلب نبينا محمد ﷺ فبعثه رسولا واتخذه نبيا وأهبط عليه جبريل بالوحى ، وقال له : نظرت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر أفضل منك .

قال : فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله ﷺ ووجلت قلوبهم ودخلت الهيبة فى قلب فلسطين حين سمع كلام عمرو . فقال : صدقت فى قولك ، كذلك الأنبياء تبعث من خير بيوت قومها على لسان ربها ، ثم قال له يا عمرو : وهل فى أصحابك رجل بين كلامه سريع الجواب إذا سئل ؟ فقال له : اعلم أنى والله أحب أن أمضى وآتيك بهم لتقف على صحة قولى ، ثم وثب وسار إلى عسكره وركب وأتى جيشه فحمد الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحادثون ، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب إلى قتال عدوهم. قال : فأسرعوا إلى ذلك واستووا على متون خيولهم ، واصطفوا للحرب والقتال .

المعركة

(قال الواقدى) حدثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدم المشاة وعدل الميمنة والميسرة ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش فنظر عمرو إلى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب ، فهيأ المسلمين ، وصفهم صفا واحدا وجعل فى الميمنة الأحياء من أصحاب رسول الله ﷺ ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحى وصابون بن جباية الليثى عن شماله وكان أحد فرسان المسلمين ، فبينما الناس كذلك إذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن ، وفى عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة إلى الميسرة ومن الميسرة إلى الميمنة ، ثم إلى القلب ثم وقف بازاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوق سهمها ورمى رجلا من الميمنة فأثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر إليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين ألا ترون هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه ؟ فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره ، فخرج إليه رجل من ثقيف وعليه بردة دسمة وبيده قوس عربية قد فوق سهمها ،وخرج إلى العلج يريده فنظر إليه العلج وليس عليه شىء من الحديد يستره إلا فروة دسمة ، وما معه من السلاح غير القوس فازدرى به وبلبسه وأطلق سهما من كبد قوسه فوقع سهمه فى صدره فاشتبك فى الفروة ووقع غير مصيب ، وكان اللعين أرمى أهل زمانه . ما رمى قط شيئا إلا نفذ فيه فغضب لذلك وهم أن يرميه بسهم ثان فامتعط الثقفى نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبله فى حلق العلج فخرجت من قفاه ، فما تمالك العلج إلا أن وقع صريعا فأسرع الثقفى إلى جواده فاخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه ، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع . ثم أقبل إلى عمرو فاعطاه إياه فنظرت الروم إلى فعل الثقفى فغاظهم ذلك وجعلوا يشيرون إلى السماء فعلمنا أنهم يقولون إن الملائكة تنصرنا قال : ونظر فلسطين إلى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة أخرج إلى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق

وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفى عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال ، فلما نظر المسلمون إليه أقبلوا إليه ينظرون ولا يخرج إليه أحد .

فقال عمرو : معاشر العرب من يخرج إليه ويهب نفسه لله عز وجل فخرج إليه رجل من العرب وهو يقول أنا أكون ذلك . فقال عمرو بارك الله فيما تريد وحمل صاحب المسلمين عند ما خرج مصمما واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف إلى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل إليه من الضربة شيء وضربه الرجل ضربة فى أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق إلى ورائه ولم يصل إليه أذى ، فلما رجعت إليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحا فاحشا فألوى إلى أصحابه فصاح به رجل من العرب من وهب نفسه لا يرجع من بين يدى عدوه . فقال الرجل : أما كفاك هذه الضربة حتى توبخنى إن الله ليلومنى بأن ألقى بيدى إلى التهلكة ثم شد جراحه وعظم عليه ما قال ابن عمه ، فلما خرج قال له ابن عمه : الذى خاطبه ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك فقال ثقتى بالله أعظم من حديدك ، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول :

يقول لى عـــند الخروج للقا   دونك هذا الترس فاجعله وقـــا

من علج سوء قد بغى وقد طغى   أقسمت بالله يمينا صـــادقا

لأتركن البيض فـــوق المرتقى   وأدخـــل الجنة دار الملتقى

قال فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا : اللهم أعطه ما تمنى وحمل على البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل فى جيش الروم فقتل رجلاً وجندل أبطالا ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى . فقال عمرو : هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه : اللهم أعطه ما تمنى .

البطريق قيدمون

(قال الواقدى) وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين إلى قيسارية بعث معه بطريقا من البطارقة وكان اسمه قيدمون وكان من أفرس الروم ويقال : إنه خال فلسطين ، وقد كان لقى عسكر الفرس الترك وعسكر الجرامقة قال : وكان اللعين يحفظ سائر اللغات . فقال فلسطين : لابد لى من قتال العرب . قال : وخرج وعليه لأمة وخرج مبارزا ، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهد من أعلاه إلى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضج المسلمون يقول لا إله إلا الله ، فلما وقف فى الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبل العرب يهرعون إليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه ، فقال عمرو ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك وإن قتل مات فى سبيل ما خرج إليه ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » صدق رسول الله ﷺ قال فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام، وأخته تقول له : يا ابن أمى جد بنا فى السير لنصل إلى الشام فنأكل من خيره ونعمه .

فقال لها أخوها : إنما أذهب لأقاتل لمرضاة الله عز وجل . وقد سمعت معاذ بن جبل يقول : إن الشهداء عند ربهم يرزقون . فقالت له أخته : كيف يرزقون وهم أموات . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى يجعل أرواحهم فى حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم فى حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذى جعله الله لهم » فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام إلى القتال بعد أن ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم : نجتمع على حوض رسول الله ﷺ ثم خرج وبيده قناة وهى موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين .

فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه . قال فاشتبك السنان فى درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قنا الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام ميتا رحمه الله وجال قيدمون على

مصرعه ، ثم طلب البزار ، فخرج إليه ابن قثم فقتله البطريق ، فلما نظر إلى ذلك شرحبيل ابن حسنة رضى الله عنه أقبل يعاتب نفسه ويقول : تتفرجين على قتل المسلمين ، ثم خرج والراية بيده التى عقدها له أبو بكر (رضى الله عنه) يوم خروجه إلى الشام فلما رآه عمرو قد عول على الخروج قال : يا عبد الله أركز الراية لئلا تشغلك . فركزها شرحبيل فوقعت كالنخلة وغاصت فى حجر كأنها منه فتفاءل بالنصر وخرج إلى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زيه وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق فى ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين ، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف فى لأمة البطريق شيئا وثبت السيف فى بيضته وحمل قيدمون على شرحبيل فشجه ثم تجاولا على الجوادين . قال سعيد بن روح : وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما فى المعركة إذ نزل المطر كأفواه القرب قال : فنزلا عن الجوادين وجالا يتصارعان فى وسط الطين وذلك أن قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده فى مراق بطنه فاقتلعه من الأرض ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهم أن ينحره فنادى شرحبيل يا غياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج إليه فارس من الروم وعليه لامة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظن قيدمون أنه انما خرج ليعطيه جواده ويعينه ، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل وقال يا عبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائما ينظر إليه متعجبا من قوله وفعله ، وكان الفارس متلثماً ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه، وقال يا عبد الله خذ سلبه . فقال شرحبيل والله ما رأيت أعجب من أمرك وإنى رأيتك جئت من عسكر الروم فقال أنا الشقى المبعد أنا طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة بعد رسول الله ﷺ وكذب على الله وزعم أن الوحى كان ينزل عليه من السماء، فقلت له يا أخى إن رحمة الله قريب من المحسنين وقد وسعت رحمته كل شيء ـ ومن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه والنبى ﷺ يقول « التوبة تمحو ما قبلها » صدق

رسول الله ﷺ أما علمت يا ابن خويلد أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل على نبيه ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ طمع فيها كل شيءحتى إبليس فلما نزل قوله تعالى ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة** ﴾ قالت اليهود : نحن نؤتى الزكاة ونتصدق ، فلما نزل قوله تعالى ـ ﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ [1] قالت اليهود نحن مؤمنون بما أنزل الله فى الصحف والتوراة فأراد الله أن يعلمهم انها خاصة بأمة محمد ﷺ بقوله ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ . فقال طلحة بن خويلد : مالى وجه أرجع الى الاسلام وهم أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له : يا طلحة لست أدعك تمضى ، بل ترجع معى إلى العسكر قال : ما يمنعنى من المسير معك إلا الفظ الغليظ خالد بن الوليد ، وإنى أخاف أن يقتلنى ، فقلت يا أخى إنه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص قال فرجع معى ، فلما قربنا من المسلمين تبادروا إلينا وقالوا يا شرحبيل من هذا الرجل معك ؟ فلقد صنع معك جميلا قال : ولم يعرفوه ، لأنه كان متلثما بفضل عمامته . فقلت هذا طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة فقالوا أو تاب ورجع إلى الله ؟ فقال : أنا تائب إلى الله سبحانه وتعالى . قال شرحبيل فاتيت به الى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش فى وجهه ورحب به .

قال حدثنا حسان بن عمر الربعى عن جده أن طلحة بن خويلد لما ادعى النبوة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضى الله عنه وسمع أن خالداً قتل مسيلمة الكذاب وقتل الأسود العنسى أيضا لأنه قال إنه نبى فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبى وأنزله فى داره ، وكان الكلبى مؤمنا وبقى عنده مدة أيام إلى أن استخبره عن حاله فحدثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوة فغضب الكلبى لكلامه وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام ، وقد تاب من أمره ، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قد قُبِضَ قال : ذهب من جردت السيف فى وجهه فمن ولى بعده قالوا عمر

(١) سورة الأعراف : الآية : ١٥٦ .

ابن الخطاب ، قال : الفظ الغليظ ... وهاب أن يمضى إليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله ، فقصد قيسارية ليركب فى المراكب ويطرح نفسه فى بعض جزائر البحر، فلما نظر إلى جيش فلسطين قد خرج إلى قتال العرب قال أسير مع هذا الجيش فلعلى انكب نكبة وأغسل بها شيئا من أوزارى وتكون لى قربة إلى الله تعالى وإلى المسلمين ، فلما نظر شرحبيل فى عين الهلكة قال : لا صبر لى عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه ، فلما وقف بين يدى عمرو بن العاص شكره وبشره بقبول التوبة . فقال يا عمرو إنى أخاف من خالد بن الوليد أن يرانى بالشام فيقتلنى . فقال عمرو فانى أشير إليك بشيء تصنعه وتأمن به على نفسك فى الدنيا والآخرة . قال وما هو ؟

قال : أكتب معك كتابا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به إلى عمر بن الخطاب وتدفعه إليه وأظهر التوبة فإنه يقبلها وسيندبك إلى الفتوح وقتال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك فأجابه طلحة إلى ذلك فكتب له عمرو كتابا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما صنع وأخذه طلحة ومشى به إلى مدينة رسول الله ﷺ فلم يجد عمر فى المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال يا أمير المؤمنين إنى تائب إلى الله عز وجل وحق رب هذا البيت مما كان منى . قال عمر من أنت ؟ قال أنا طلحة بن خويلد . قال فنفر عمر عنه وقال :

ـ يا ويلك إن أنا عفوت عنك فكيف الأمر غدا بين يدى الله عز وجل بدم ابن محصن الأسدى . قال طلحة : يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدى وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لى بما عملته . قال عمر : وما عملت فأخرج له كتاب عمرو ابن العاص ، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال أبشر فإن الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع إلى المدينة فأقام معه أياما ، فلما رجع الى المدينة وجه به إلى قتال أهل فارس .

قال الواقدى رجعنا إلى الحديث . قال لما قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع إلى عمرو وكان المطر شديدا فقطع الناس القتال ولحق

الناس الأذى لأن أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجئوا إلى الجابية وتستروا بدورها وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع فى قلب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشاور أصحابه فى الرجوع إلى قيسارية وقال : يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما ثبتت لهؤلاء العرب ، وان أبى قد ولى إلى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقى غير هذا الساحل ، وإنى أخاف أن ندهى من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام ههنا فأجابوه إلى ذلك ، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل . قال سعيد بن جابر الأوسى : وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عز وجل . قال فلما كان فى اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثرا فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك إلى أبى عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمى إلى أمير جيوش المسلمين أبى عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فيا صاحب رسول الله ﷺ فإن فلسطين بن هرقل قد أخرج إلى لقائنا ثمانين ألفا من الروم وكان لقاؤنا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل بن حسنة وكان الذى ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم خلصه الله على يد طلحة بن خويلد الأسدى وقتل قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم وجهته بكتاب إلى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته .

وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمى ، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال : إذا قرأت كتابى فانزل على قيسارية وأنا فى أثر الكتاب معول على السير إلى صور وعكاء وطرابلس والسلام . ثم سلم الكتاب إلى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع .

ذكر فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

قال وعول أبو عبيدة على النهوض إلى الساحل ، فقام إليه عبد الله يوقنا وقال : أيها الأمير اعلم إن الله عز وجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وانى أريد أن أسير قبلك إلى الساحل لعلى أفوز من القوم بغزوة . فقال يا عبد الله إن أنت عملت شيئا يقربك إلى الله تجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائما وأخذ أصحابه وكان قد انضاف إليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا إلى الإسلام وكانوا أربعة آلاف ، وفى عسكر العرب أيضا ممن أسلم من البطارقة ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له جرفاس .

ولما انهزم فلسطين إلى قيسارية وتحصن بها بعث إلى أهل طرابلس أن يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس قال : وساروا يطلبون قيسارية ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا فى مرج ليعلقوا على خيولهم ، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنا وأصحابه وكان قد صحبهم فلنطانوس صاحب رومية وأصحابه وكانوا معولين على زيارة بيت المقدس والمقام بها، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيئا ورآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم ، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال من أنتم قالوا : نحن الذين لجأنا إلى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا أنهم على شيء فإذا هم طغاة لادين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وانطاكية ونحن قاصدون إلى الملك هرقل ، لنكون فى جنابه ، فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقال : انزلوا عندنا كى تستريحوا ساعة من التعب ، فلا شك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب قال يوقنا أين أنتم سائرون ؟ قال بعث إلينا فلسطين لنكون فى طرابلس فقال يوقنا تيقظوا لأنفسكم فإن أمير العرب أبا عبيدة تركناه على نية القدوم إلى الساحل . فقال جرفاس : وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغنى عن أهله شيئا .

قال الواقدى : فنزلوا عندهم ساعة وقدموا لهم من أزوادهم فأكلوا ثم ركبوا وهم جرفاس أن يركب لركوبهم . فقال يوقنا : اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم ، فإن ذلك

مما يظهر الرعب فى قلوب أعدائكم .

قال الواقدى : حدثنى سليم بن عامر عن نوفل بن عبد الله عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال : ما دخل يوقنا إلى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم من بنى عمه يرعون إبلهم وكانوا فى مائتى بيت من العرب فأغار عليهم يوقنا وأخذهم وشدهم كتافا ودخل بهم إلى بلاد الساحل ، فلما جن الليل جمعهم إليه وقال : لا تظنوا انى رجعت عن الإسلام وإنما فعلت بكم هذا كى تسمع الروم بسواحلها انى غدرت بالعرب وأخذتهم ؟ قال فاطمأنت العرب إلى كلامه وقالوا له : ان كنت تريد إقامة دين الله فالله ينصرك وبالأعداء يظفرك . قال ووكل يوقنا رجالا تسوق الأموال وإنما اطمأن جرفاس وأصحابه إلى يوقنا لما رأى الأسرى من العرب والجمال والأنعام ، فلما ركب يوقنا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن فى الليل على طريق القوم . قال :وإن جرفاس فرق خزائنه التى كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جن الليل وأكلت الخيل عليقها ، ثم ركبوا واستقاموا على الطريق، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذا بالكف وانتشرت الخيل فى تلك الأرض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد، فلما حصلوا فى قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه ، فقال الحرث إنى أرى من الرأى أن تتركونا على حالنا فإن ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فإنكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل إلا فتحه الله لكم . قال يوقنا : هذا رأى صحيح ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى وكمن ألفين من أصحابه وأصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال إذا جاءتكم رسلى فأقدموا ، ثم ألبس أصحابه زى الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من فى البلد إلى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل إليهم أنى قد بعثت إليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع أصحابه حتى استقر قراره فى دار الإمارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم ، فلما حصلوا عنده أمره بهم وقبض عليهم

وقال : يا أهل طرابلس إن الله سبحانه قد نصر الإسلام وأهله وقد كنا فى عيش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصبى والقربان ونجعل لله زوجة وولدا حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم ﷺ وهو النبى المبعوث الذى ذكره الله فى التوراة وبشر به عيسى المسيح وإن الإسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون بالحق ويتبعون الصدق ويوحدون الله وينزهونه عن الصحابة والولد ويجاهدون فى سبيله وهو الذى أمر به أنبياءه ورسله فإما أن ترجعوا إلى دين الإسلام أو تؤدوا الجزية وإلا بعثتكم عبيدا للعرب ، وهذا ما عندى والسلام .

قال : فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنا ، اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك فى الطريق . فقالوا : أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به ، فمنهم من أسلم ومنهم رضى بالجزية وعدل يوقنا فيهم وبعث إلى أصحاب الكمين فحلوا الأسرى فعرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث إلى أبى عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادى بنى الأحمر وقال : يا عبد الله كن للأمير مبشرا بهذا الفتح. قال : سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل إلى أبى عبيدة وسلم عليه وناوله الكتاب ، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم : ألم تستأذنى أن تسير أنت وبنو عمك إلى وادى بنى الأحمر فمن أوصلك إلى طرابلس ؟ قال أوصلنى القضاء والقدر ، وذلك أن يوقنا أغار علينا وأخذنا أسرى ... وحدثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة وقال : اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك .

قال : حدثنى عامر بن أوس قال اخبرنى ابن سالم قال حدثنى موسى بن مالك . قال إن عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية ، وأما ما كان من أمر يوقنا فانه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الأبواب وقال لا تدعوا أحدا يخرج من الأبواب وكان فى المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع . قال وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركبا ، فتركهم يوقنا حتى نزل أكثرهم إلى

المدينة فأمر بهم إليه فاستخبرهم عن حالهم وقال من أين جئتم ؟ قالوا جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة اقريش وقالوا معنا العدد والسلاح مضروبة لملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال إنى أريد أن أسير معكم ، ثم أمر بهم إلى دار الضيافة وبعث إلى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط ، فلما أكلوا قال إنى أريد أن أسير إليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح إلى خدمة الملك ولكن تقيمون عندى ثلاثة أيام . فقالوا : أيها البطريق إنا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى أذعنوا له .

فقال : أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا فى المدينة ليطمئن قلبى بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من فى المراكب وما بقى فى المراكب إلا ثلاثة رجال ، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان الليل سلم طرابلس لبنى عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمر المراكب برجاله وهم بالصعود إليها وإذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى ألف فارس من أصحابه ، فلما رآهم يوقنا سجد لله شكرا وسلم على خالد بن الوليد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد عزم عليه فقال : نصرك الله وأيدك ، ثم إن يوقنا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهو أرمويل بن نشطة ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنا إلا وهو فى مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحر إليه . فقال هؤلاء أهل قبرص وجزيرة إقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية فى خدمة الملك ، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنا وأصحابه وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم الدمستق طعاما ومد لهم سماطا عظيما وأحضر لقوادهم الخلع ويوقنا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه ، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل كما ذكرنا وترك الباقين فى المراكب ، وقال : إن لم يتم لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبهم وأنفذ إلى خالد وأخبره بالقصة .

قال الواقدى : ما سمع بأعجب من هذه القصة ، ولقد حدثنى ابن مزاحم عن

الأرقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربعى . قال : لما حصل « يوقنا » والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم ... أقبل عليهم فى السر رجل من بنى عم يوقنا ممن استحكمت الضلالة فى قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل إلى الدمستق وحدثه بأمر يوقنا وما قد عزم عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق جرمانس صاحب الملك ، فلما سمع الدمستق ذلك لم يكذب خبرا دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وأنه قبض عليهم فاغتنموا لذلك غما شديدا وأخذوا على أنفسهم من عدو يقبل عليهم ، قال : فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال سيروا بهم إلى الملك يفعل فيهم ما يريد وأقبلوا يعنفون يوقنا وأصحابه ويقولون لهم : ما الذى رأيتم فى دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه ، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الأبواب ونفر أهل القرى ، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم . فقالوا : قدمت العرب عليكم .

قال الواقدى : وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد بن أبى سفيان فى ألفى فارس إلى صور ، فلما سمع الدمستق أمر بالأبواب فأغلقت وصعدت الرجالة على الأسوار وعمروا الأبراج ونصبوا المجانيق وأدخل الدمستق يوقنا إلى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتمّ عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الأسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم ، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبى سفيان نظر إليهم الدمستق ، فلما رآهم قليلا استحقرهم وطمع فيهم وقال : وحق المسيح لا بدّ لى من الخروج إليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة . ثم لبس الدمستق اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل . قال : وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وكان قد رأى النبى ﷺ فى دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى إلى زيارة بحيرا ، فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله ﷺ نظر بحيرا إلى القافلة

ورسول الله ﷺ في وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس ، فلما تبينه قال والله هذه صفة النبى الذى يبعث من تهامة ثم انتظروا وإذا بالركب قد نزل ورسول الله ﷺ نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى إليها فأورقت الشجرة بين يدى رسول الله ﷺ فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاما لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقى هو مع الإبل ليرعاها ، فلما نظر بحيرا إليهم ولم يره فى جملتهم قال : يا معشر قريش هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : نعم بقى فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعى الإبل . قال : ما اسم من يرعى الإبل قالوا محمد بن عبد الله ؟ قال هل مات أبوه وأمه قالوا نعم قال هل كفله جده وعمه قالوا نعم ، قال يا قريش هو الله سيدكم وبه يعظم فى الدنيا مجدكم ، قالوا : من أين علمت ذلك ؟ قال لما أشرفتم على من البرية لم يبق صخر ولا مدر إلا خرَّ له ساجدا ...

قال الواقدى : فبقى باسيل فى حيرة من أمرهم وكتم سره وعلم أن بحيرا لا يتكلم إلا بالحق ، فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال إن الإسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب ، ولعل الله يغفر لى إذا حللت هؤلاء القوم .

قال الواقدى : من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق إلى لقاء يزيد ابن أبى سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير إلا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الأسوار ما يكون بينهم وبين العرب ، فلما نظر باسيل إلى المدينة وخلوّها واشتغل أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنا ومن معه فأقبل إليهم بالليل والتفت إلى يوقنا وأصحابه وقال : أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعولت على دين هؤلاء العرب وما الذى رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدا لها وعونا قال له يوقنا : يا باسيل ظهر لى من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بى هاتف يقول لى إن الذى هداك إلى دينه يخلصك وبشرنى بالخلاص على يديك . قال : فلما سمع زاد ايقانه وتحقق إيمانه وقال ليوقنا : لقد أنطق الله لسانك بالحق وأن الله تعالى كشف حجاب الغفلة عن قلبى منذ رأيت نبى هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو فى قافلة لأهل مكة ورأيت من دلائله أنه لا يسير على الأرض إلا والشجر تسير إليه والسحابة على

رأسه تظلله ولقد استند إلى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في العلم أن جماعة من الأنبياء استندوا إليها وجلسوا حولها فلم تورق ، فلما استند بظهره إليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك ، وسمعت بحيرا قول هذا والله الذى بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه ، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت إلى القسطنطينية بتجارة وطفت فى بلاد الروم وأقمت ما شاء الله ، ثم عدت إلى قيسارية فرأيت الروم فى هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبى فى الحجاز اسمه محمد بن عبد الله وقد أخرجه قومه من مكة وقد أتى إلى المدينة التى بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهى فى كل يوم تنمو وتزيد حتى مات ، ثم ولى صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وأنفذ جيوشه إلى الشام فلم يلبث إلا يسيرا ثم مات وولى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم إلى هذا الساحل حتى أتى الله بهم . فقال له يوقنا وما الذى عزمت عليه ؟ قال : عزمت والله أن أفارق قومى وأتبعكم فإن الحق بين ثم حل يوقنا وأصحابه وسلم إليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا : اعلم أن مفاتيح أبواب المدينة عندى والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب وليس فى المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله فقال يوقنا جزاك الله خيرا فلقد هداك الله إلى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير . ويجب الآن علينا أن نظهر أنفسنا ونبعث فى المراكب حتى ينزلوا إلينا ونكون نحن يدا واحدة .

فقال باسيل : سأفعل ذلك ثم إنه خرج فى حال الخفاء وفتح باب البحر ومعه رجل من بنى عم يوقنا وركبا زورقا حتى وصلا إلى البحر والمراكب وحدثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله إليهما وساروا إلى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة أعنى مدينة صور وأعمى الله أبصار الكفار ، فلما هموا أن يثوروا قال يوقنا : ليس هذا من الرأى وأين من يهب نفسه لله عز وجل ويخفى أمره ويخرج من الباب ويدور إلى عسكر المسلمين ويتوصل إلى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على أهبة وإذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو فقال رجل من القوم أنا أكون ذلك الرجل ، ثم خرج متنكرا وأغلق باسيل خلفه

ووصل إلى يزيد بن أبى سفيان وحدثه بالأمر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرا وبعث من ساعته إلى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم فى الكبة على القوم ففعلوا ذلك .

وأما يوقنا رحمه الله ، فلما علم أن الخبر وصل إلى المسلمين قال لاصحابه ليصعد منكم خمسمائة رجل إلى السور ويقتلوا من عليه ، قال باسيل ليس هذا رأيا فان العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم إلى الاسلام ولكن مُرْ أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل أحد منهم ويزعقوا بالأمان قال فاستصوب رأيه ووكل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله فسمع كل من فى المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسر ووثبوا فى المدينة وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم فبقوا فى حيرة فسمع يزيد بن أبى سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا فى المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب فى قلوبهم ونظروا إلى النيران قد اشتعلت فى عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين فى داخل المدينة وقيسارية محاصرة وليس لهم مدد من ولد الملك فولوا الأدبار واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها ، فلما أصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن أبى سفيان من ومعه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور الغوث الغوث فأمنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم ، فقال لهم يزيد : إن الله عز وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد ، فما شئنا حكمنا فيكم ، ولكن نحن إذا عاهدنا وفينا ، وإذا قلنا صدقنا ، وقد أعطيناكم الأمان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل فى ديننا ومن أسلم منكم فله مالنا وعليه ما علينا ، فأجاب القوم إلى ذلك وأسلم أكثر القوم وبلغ الخبر إلى فلسطين بأن صور قد فتحت ، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم فى المراكب بالليل وقلع يريد اللحوق إلى قسطنطينية

فلما نظر أهل القيسارية إلى ذلك خرجوا إلى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص إلى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير وبذلك أمرهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وبعث عمرو جيشا إلى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخا كبيرا قد شهد مع رسول الله ﷺ حنينا والنضير وقتل أخوه يوم حنين قتله مالك ابن عون النضيرى فبعثه عمرو إلى صور ومعه رجل من أصحابه ، وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه فلسطين من بقية ذخائره ، قال ودخلها يوم الأربعاء فى العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر إلى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وخبلة واللاذقية ، وملك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين ﷺ .

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبى . قال زياد بن عامر ، قال شام بن عبد الله العنبرى : حدثنا سالم مولى عروة بن نعيم اليشكرى ، قال : لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحا كان لعمر فى الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر إلى أهل الرملة وعكاء وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتى كبراؤهم إلى أبى عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمرو ابن العاص أن يسير إلى مصر بأمر عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وملك المسلمون أقاصى البلاد ببركة نبينا محمد ﷺ وعظم وكرم . قال : وسكنها العرب وتفرقوا فى البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبق فى الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم إلا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد ﷺ .

قال محمد بن اسحق الأموى رحمه الله تعالى . قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة عليه بالخضراء بمدينة عسقلان . قال أخبرنا الليث بن سعد . قال حدثنا نوفل بن عامر

قال أخبرنى يحيى بن ساكن المدنى قراءة عليه يوم الجمعة ، ونحن عند منبر يونس ابن متى . قال : لما فتح الله ساحل الشام على المسلمين فى سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله ﷺ كتبوا بذلك إلى أمير جيوش المسلمين أبى عبيدة عامر بن الجراح : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة . أما بعد : فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وأن الله جل وعلا قد فتح ما كان قد بقى من الساحل وأخذنا قيسارية صلحا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام . وكتب أيضا يزيد بن أبى سفيان بما تم ليوقنا فى صور وأن الله قد عضد الدين ووصل الكتابان إلى أبى عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل إليه الخبر وهو نازل على الزراعة ، فلما قرأ الكتابين تهلل وجهه فرحا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبشره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله يوقنا ووجه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة . قال عرفجة بن مازن : وعلى من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسى مطرف خز مُذهب . قال : فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أول ليلة من شهر رمضان قبل مَغيب الشمس ، وعمر رضى الله عنه قد أتى يريد المسجد ، فلما أبركت ناقتى وعقلتها وجئته لأُسلم عليه نظر إلى شزرا وقال من الرجل ؟ قلت عرفجة بن مازن ، فقال يا ابن مازن أما كان لك برسول الله أسوة حسنة وأن هذه ثياب الجبارين ، ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا ولا يصلح إلا للنساء وهذا الذى عليك تصدق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمل بشريط، وليس بين جلده وبين الشريط شىء وقد أثر الشريط فى نعومة جلد رسول الله ﷺ ، فلما رأيت ذلك بكيت .

فقال لى : يا عمر ما الذى أبكاك ، فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقيصر يعيشان فى ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة .

فقال : يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة . قال عرفجة فسلمت إليه الكتاب ، فلما قرأه تهللت أسارير وجهه . قال عرفجة : ثم نزلت على خالتى عفراء بنت

أبى أيوب الأنصارى وبت عندها ليلتى ، فما أصبحت لم أقدر أن أقابل عمر بذلك الزى فأعطيت الثوب والعمامة لخالتى فباعتها وتصدقت بثمنها على فقراء المدينة ، قال : وسرت إلى عمر وعلى ثوب من كرابيس الشام كان تحت ثيابى فلما رآنى تبسم فى وجهى ، وقال يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك ؟ قلت يا أمير المؤمنين باعتها خالتى وتصدقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ ثم إنه كتب إلى أبى عبيدة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح أما بعد ، فأنى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى ، والحمد لله على ذلك كثيرا وقد بلغنى أن بادية الأعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها ، وقد نصبت لهم شباك محبتها ، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا فى ثياب الديباج والخز وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ولهاهم ذلك عن الآخرة ، وقد بلغنى يا ابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرد عليهم عتاق الخيل ذوات الهمم وأغلظ عليهم ولا تكن لهم حاملا فيطمعوا فيك ،ومن أخل منهم بشىء مما فرض عليهم فاقم فيهم حدود الله ، واعلم بأنك راع مسئول عن رعيته . قال الله عز وجل ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر** ﴾ (١) وقد قال فيك رسول الله ﷺ : أبو عبيدة أمين هذه الأمة فأعط الأمانة حقها ومن ترك صلاته فاضربه عليها ، ولقد كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه . فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا بالصلاة وبعظمه الله ، وعنه ﷺ أنه قال « إن الله عز وجل يقول : إن بيوتى فى الأرض المساجد وأن زوارى فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فحق على المزور أن يكرم زائره » وقال ﷺ « جميع المفترضات افترضها الله علىَّ فى الأرض الا الصلاة فإن الله افترضها علىَّ فى السماء » وإذ قرأت كتابى هذا فأمر عمرو بن

---

(١) سورة الحج : الآية : ٤١ .

العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ويقدمهم عامر بن ربيعة العامرى ومشايخ من أصحاب رسول الله ﷺ يفضى بهم عند مشورته وأنفذ من قدرت عليه إلى أرض ربيعة وديار الجد بن صالح والله أسأل أن يكون لكم عونا ومعينا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وسلم الكتاب إلى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال .

قال عرفجة فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبا من أهل وادى القرى ، فسألتهم عن أبى عبيدة فأخبرونى أنه على غباغب وهو طالب طبرية. قال عرفجة : أطلب الغور والجولان وأقصد طبرية قال : فالتقيت بأبى عبيدة على الأردن ، فسلمت عليه وناولته كتاب عمر (رضى الله عنه) فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم ، فلما فرغ قال : ما من رجل ترك الصلاة أو أخل بشىء مما افترضه الله عليه إلا جلدته ، ومن الغد أتى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه إلى عمرو بن العاص أرسل يحثه على المسير إلى أرض مصر ، فلما وصل الكتاب إلى عمرو وأخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبى سفيان وعامر بن ربيعة العامرى وجماعة من الصحابة وسار معه يوقنا فى أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ورسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال : وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجاج فى مملكة القبط ، وكان ملكهم يومئذ المقوقس بن راعيل ، وكان هذا الملك من أهل الرأى والتدبير والفضل والحكمة ، وكان تلميذ الحكيم أعاشادمون وهو الذى لما غلبت الحيات على أرض مصر وأخربتها صنع لها جلجلا ، وكان إن حركه سمع صوته من مقدار ميل . قال : فتخرج الحيات من حجرتها فمن هربت نجت ومن وقعت هلكت ، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانت القبط معه فى عيشة مرضية ، وكان يتوقع ظهور رسول الله ﷺ .

وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له عطماوس ، وهو الذى صنع دواليب الريح ورحى الهواء ،وكان عمرٌ فى الأجيال واطلع على مكنون الحكم والأسرار ، وعرف عمل صنعة الإكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية فى أجسامها وكان يجد فى عمله أن الله يبعث نبيا من أرض تهامة يظهر

دينه وتعلو كلمته وتملك أصحابه البلاد ، فعمل فى أيام راعيل أبى المقوقس هيكلا عظيما على أعمدة من نحاس بمكان يعرف بعين شمس ، وجعل عليه أشخاصا مجوفة وجعل وجهها إلى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية اذا دارت الأشخاص إلى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب قال : فبينما المقوقس راكب فى بعض الأيام للصيد وقت هجرة رسول الله ﷺ ، وقد انتهى سيره إلى عين شمس إذ هو سمع أصواتا من الأشخاص قد علت ثم انها حولت وجهها نحو الحجاز فأيقن بتلف ملكه وزواله ، فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر الشمع وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط ، وقال لهم : يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبى المبعوث لا شك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبى بعده وقد بعث بالرعب ولا بد لرجل من أصحابه أن يملك ما تحت سريرى هذا فانظروا إلى ملككم وأصلحوا ذات بينكم وأرفقوا برعيتكم ولا تجوروا فى حكمكم وأمّنوا ضعفاءكم وإياكم واتباع الظلم فإن الظلم وبيل ومرتعه وخيم وأعطوه الحق من أنفسكم ولا يستظل قويكم على ضعيفكم وما دامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم وكما ملكتموها ممن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم فأصلحوا نياتكم فيما بينكم وبين خالقكم فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومن يريدكم ، وإن اتبعتم أهواءكم تبين هلاككم .

قال حدثنا ابن اسحق عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد ابن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن أبن اسحق راوى المغازى مع رسول الله ﷺ قال : لما جاء النبى ﷺ من مكة إلى المدينة وبايعه الأوس والخزرج كتب إلى ملوك الأرض ، وفى الجملة كتابا إلى المقوقس ملك مصر وكان الذى كتب الكتاب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ونسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله ﷺ إلى صاحب مصر . أما بعد : فان الله أرسلنى رسولاً وأنزل علىّ كتابا قرآنا مبينا وأمرنى بالإنذار والإعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بدينى ويدخل الناس فيه وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى فإن أنت فعلت سعدت وإن أنت أبيت شقيت والسلام ، ثم طوى الكتاب

وختمه بخاتمه . قال أنس بن مالك فاستخرجه رسول الله ﷺ من أصبعه وكان نصه عليه ثلاثة أسطر : السطر الأول محمد ، السطر الثانى رسول ، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه . قال سمرة بن عوف قلت لحميد الطويل أكان لخاتم رسول الله ﷺ فص أم لا ؟ قال : لا أدرى ، قال وسأل رجل جابر بن عبد الله الأنصارى . فقال له فى أى يد كان يتختم رسول الله ﷺ؛ فقال : فى يده اليمنى ويقول اليمنى أحق بالزينة من الشمال وفص الخاتم فى يمنيه ، وقال عبد الله بن عباس : رأيت رسول الله ﷺ يتختم فى يمنيه ثم حوله إلى يساره .

حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يساره وحدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا يتختمون فى اليسار .

(قال الراوى) فلما طبع الكتاب بخاتمه قال : أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله قال : فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة القرشى وقال أنا يا رسول الله . فقال له بارك الله فيك يا حاطب قال فأخذت الكتاب من يد رسول الله ﷺ وودعته وأصحابه وسرت إلى منزلى وشددت راحلتى وودعت أهلى واستقمت على الطريق إلى نحو مصر . فلما بعدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبنى بدر فأردت أن أورد ناقتى الماء وإذا على الماء رجلان ومعهما ناقتان ومعهما رجل آخر راكب على جواد أدهم ، فلما رأيتهم وقفت وإذا بالفارس أتى إلىّ ، وقال لى : من أين أقبلت وأين تريد ؟ فقلت يا هذا لاتسأل عما لا يعنيك فتقع فيما يحزنك ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق . فقال ما اياك أردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا ثأر عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فعلنا نجد منه غرة فنقتله . قال حاطب : والله لقد أمكننى الله منهم فلأجعلن جهادى فيهم ولو بالخديعة ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحرب خدعة » .

فبينما أنا أخاطب الفارس وإذا بالراكبين قد وصلا إلى وقالا لى بغلظه وفظاظة ويحك

لعلك من أصحاب محمد ؟ فقلت لهما لقد كاد أن يتبدل لكما الطريق عن سبيل التحقيق وأني رجل مثلكما أطلب ما تطلبون وأنا قاصد يثرب ، وقد عولت على صحبتكم لأكون معكم ، ولكن سمعت فى طريقى هذا ممن أثق به أن محمدا أنفذ رسولامن أصحابه إلى مصر بكتاب فلعله فى هذا الوادى فإن وقعنا به قتلناه . فقال صاحب الفرس أنا أسير معك ثم انه تقدم أمامى وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران ، قال حاطب : فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما ، قلت ما اسمك ؟ قال : اسمى سلاب بن عاصم الهمدانى ، قلت يا سلاب اعلم أنه لا يقدر أن يدخل على يثرب إلا من كان له جناب وقلب وغدر ومكر لان بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعليٌّ ولكن كيف سيفك قال سيفى ماض ، قلت : أرنى اياه فاستله من غمده وسلمه الىّ فأخذت السيف من يده وهززته وقلت سيف ماض ثم قلت :

سيوف حـــــداد يالؤى بن غالب   مواض ولكن أين للسيف ضارب

فقال : ما معنى هذا الكلام ؟ قلت يا ابن عاصم إن سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شداد ، وما ملكت العرب سيفا مثله ولا أمضى من هذا السيف ، ولكن وجب علىّ إكرامك وأريد التقرب إليك بحيلة أعلمك إياها تقتل بها عدوك . فقال بذمة العرب افعل ذلك . فقال حاطب اذا كنت فى مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوك بحرفه فانه أسرع للقتل والقطع ، وملت بالسيف على عنقه وإذا برأسه طائر عن بدنه ، فنزلت إليه وأمسكت الجواد لئلا ينقلب فينذر أصحابه ، وتركته مربوطا إلى شجرة وأسرعت إلى صاحبيه وإذا هما ينتظراننا ، فلما رأيانى أقبل أحدهما إلى فقال : ما وراءك وأين سلاب ؟ فقلت أبشر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان ، وقد وجهنى سلاب بأن يمضى أحدكما حتى نتمكن منهما ويقف أحدكما ههنا ، فإن هذا الوادى ما خلا ساعة من أصحاب محمد . فقال نعم الرأى الذى قد أشرت به وسار معى ، فلما غيبته عن صاحبه قلت : ما اسمك ؟ قال عبد اللات . قلت : كن رجلا وإياك والخوف

فإنك إذا رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ . فقال : لا بد أن أفعل ذلك ، فقلت له : إنى أرى غبرة ولا شك أن تحتها قوما ممن صبأ إلى دين محمد ﷺ ، فجعل يتأمل كأنه الواله الحيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه وعدت إلى الثالث ، فلما رآنى وحدى تيقن بالشر فقارعنى وقارعته وصدمنى وصدمته ، الا أن الله أعاننى عليه فقتلته ، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ، ووضعت الجميع عند رجل من أصحابى ، وكان رفيقا لى من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس ، ثم توجهت أريد مصر ولم أزل إلى أن أتيتها ، فلما وصلت إلى باب الملك ، قالوا من أين جئت ؟ قلت : أنا رسول إلى ملككم ، فقالوا من عند من ؟ قلت من عند رسول الله ﷺ ، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بى وأوصلونى إلى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لى وأوقفونى على باب الملك فأمرهم بإحضارى بين يديه ، فعلقت راحلتى وسرت معهم عند المقوقس وإذا هو فى قبة كثر الجوهر فى حافتها ولمع الياقوت من أركانها ، والحجاب بين يديه . فأومأت بتحية الإسلام ، فقال حاجبه: يا أخا العرب أين رسالتك ؟ قال فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدى بيده . قال فقبله ووضعه على عينيه ، وقال : مرحبا بكتاب النبى العربى ، ثم قرأه وزيره الباكلمين ، فقال له اقرأه جهرا فإنه من عند رجل كريم ، فقرأه الوزير إلى أن أتى إلى آخره . فقال الملك لخادمه الكبير : هات السفط الذى عندك فأتى به ، ففتحه واستخرج نمطا ففتح ذلك النمط وإذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفى آخره صفة محمد ﷺ فقال لى صف صاحبك حتى كأننى أراه . قال حاطب : ومن يقدر أن يصف عضوا من أعضاء رسول الله ﷺ فقال لا بد من ذلك . قال : فوقفت بعد ما كنت جالسا وقلت إن صاحبى وسيم قسيم معتدل القامة ، بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر إذا برز، صاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة صادق اللهجة واضح البهجة أشم العرنين ، واضح الجبين سهل الخدين رقيق الشفتين براق الثنايا بعينيه دعج وبحاجبيه زجج ، وصدره يترجرج وبطنه كطى الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح ، قال والملك ينظر فى النمط ، فلما فرغت قال : صدقت يا عربى هكذا صفته ، بينما هو يخاطبنى إذ نصبت

الموائد وأحضروا الطعام ، فأمرنى أن أتقدم فامتنعت فتبسم وقال : قد علمت ما أحل لكم وحرم عليكم، ولم أقدم لك إلا لحم الطير فقلت : إنى لا آكل فى هذه الصحاف الذهب والفضة فإن الله وعدنا بها فى الجنة ، قال فبذلوا طعامى فى صحاف فخار فأكلت ، فقال أى طعام أحب إلى صاحبك ؟ فقلت : الدّباء يعنى القرع فإذا كان عندنا شىء منه آثرناه على غيره فقال : ففى أى شىء يشرب الماء ؟ .

فقلت فى قعب خشب . قال أيحب الهدية قلت نعم فإنه قال ﷺ « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » . قال أيأكل الصدقة قلت لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة، وقد رأيته إذا أتى بهدية لا يأكل منها حتى يأذن صاحبها . فقال الملك أيكتحل ؟ قلت نعم ، فى عينه اليمنى ثلاثا وفى اليسرى اثنتين، وقال : من شاء اكتحل أكثر من ذلك أو أقل وكحله الأثمد وينظر فى المرآة ويرجل شعره ويستاك . فقال المقوقس : إذ ركب ما الذى يحمل على رأسه ؟ فقلت راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال أله كرسى يجلس عليه أو قبة ؟ قلت نعم له قبة حمراء تسع نحو الأربعين . قال : فما الذى يحب من الخيل ؟ قلت الأشقر الأرتم الأغر المحجل فى الساق ، وقد تركت عنده فرسا يقال لها المرعد . قال : فلما سمع كلامى انتخب من خيله فرسا من أفخر خيول مصر الموصوفة ، وأمر به فأسرج وألجم فأعده هدية لرسول الله ﷺ وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارا يقال له عفير ، وبغلة يقال لها دلدل وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء ، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسمها مارية ، وغلام اسمه محبوب وطيب وعود وند ومسك وعمائم وقباطى ، وأمر وزيره أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا ، يقول فيه : باسمك اللهم من المقوقس إلى محمد . أما بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك وفهمته ، وأنت تقول : إن الله أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبينا ، فكشفنا يا محمد خيرك ، فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق من تكلم بالصدق ، ولولا أننى ملكت ملكا عظيما لكنت أول من آمن بك لعلمى أنك خاتم النبيين وإمام المرسلين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته منى إلى يوم الدين . قال وسلم الكتاب

والهدية إلى وقبلنى بين عينى وقال : بالله عليك قبل بين عينى محمد عنى هكذا ، ثم بعث معى يوصلنى إلى بلاد العرب وإلى مأمنى . قال : فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهى تريد المدينة فصحبتها إلى أن وردت المدينة فأتيت المسجد وأنخت ناقتى ودخلت وسلمت على رسول الله ﷺ وأنشأت أقول :

أنعم صباحا يا وسيـــــلة أحـمد	**نرجو النجاة غـدا بيوم الموقف**
إنى مضيت إلى الذى أرســـلتنى	**أطوى المهامـــة كالمجد المعنف**
حتى رأيت بمصر حصاحب ملكهم	**فبدا إلىَّ بمثل قـــول المنصف**
فقرا كتابك حين فُـــك ختامه	**فأظل يرعـــد كاهتزاز المرهق**
قـــال البطارقة الذين تجمعوا	**ماذا يروعك من كتاب مشرف**
قال اســــكنوا يا ويلكم وتيقنوا	**هذا الكتاب من نبى المصحف**
قالوا وهـــمت فقال لست بواهم	**إنى قـــرأت بيان لفظ الأحرف**
وبكل سطر مـــن كتاب محـمد	**خط يلوح لناظر مـــــتوقف**
هـذا الكتاب كتابه لك جـــامعا	**يا خير مـــأمول بحبك نكتفى**

(قال الراوى) ورجعنا إلى الفتوح ، قال حدثنى أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمر السلمى عن محمد الزهرى عن عبد الله بن زيد الهذلى عن أبى إسحاق الأموى وهو المعتمد عليه فى فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس .

حدثنا عمر بن حفص ولم ينفرد بهذه الرواية سواه ، وكان أصحاب السير قد استغلوا بوقائع العراق وفتوحه ،وما تجدد من سعد بن أبى وقاص وبنى كسرى أنوشروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد ، وكان قد ارتحل عنهم فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه ، وإنما انفرد ابن إسحاق لأنه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم آل مخزوم اجتمع بهم فى الرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومى وكان عمه خالد بن الوليد وكان من المعمرين ، شهد تبوك مع النبى ﷺ ، وشهد بعدها الحديبية ، وشهد يوم اليمامة ومسيلمة

وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر فى جميع فتوحها ، والثانى فهد بن عاصم بن عمرو بن سهل بن عمرو المخزومى وغيرهما من الثقات ممن شهد فتوح أرض مصر والوقائع كلها قالوا جميعا ، ومنهم من قال : إن عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجها يريد أرض مصر ، فلما كان بمكان يقال له رفح قال له يوقنا : يا عمرو أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها ، وأنا ممن يمكننى ذلك لأن ثواب الله أجلُّ غنيمة ، فإن قلبى ملوث بحب الدنيا وإنى كنت ممن أشرك بالله سواه ، وأنا أجتهد فى الخلاص وأقاتل من كنت أنصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله ، وقد أخذت الإسلام بنية وقبول لأنه الحق وأريد أن أتقدم إلى أرض مصر فلعلى أجد لكم بالحيلة سبيلا . فقال عمرو : وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك . قال : فسار يوقنا ليلا من رفح ، يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة ، وكانوا يؤدون المال إلى الملك المقوقس بن راعيل ، وسيذكر فتوحها فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال وإن يوقنا أشرف على الفرماء ،وكان بها وال من قبل المقوقس اسمه الرندبان ، والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق ، فرأى يوقنا خياما منصوبة وقبابا مضروبة ، فلما رأوا يوقنا وقع الصائح، فركب من كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة ، فلما بلغهم أن قيسارية فتحت اغتموا لذلك ، لأنه كان فلسطين بن هرقل قد تزوج بابنة المقوقس إرمانوسة ، وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها إلى بلبيس ، ثم إنها وجهت حاجبها تميلاطوس إلى الفرماء فى ألفى فارس لحفظ ذلك المكان .

الاستعداد

حدثنا ابن إسحاق أخبرنا موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى عن أسامة ابن زيد بن أسلم . قال ابن إسحاق حدثنى رجل من القبط رأيته وقد دخل فى دين الإسلام فقربت إليه وسألته فأخبرنى أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له : كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل قال : لما بلغنا ذلك بعث

المقوقس رسله إلى جميع أطراف بلاده مما يلى الشام بأن لا يتركوا أحدا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر ، كل ذلك لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب فى قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحدا فلما ركبوا إلى لقائه ورأوا حشمه وعسكره وكانوا بزى الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر فى طريقه من حصن كيفا وأعلموه بابتعاد فلسطين عن زوجته أرمانوسة .. وأن أباها قد جهزها وهى على مدينة بلبيس فقال يوقنا : ومتى تزوجها ؟ قالوا : تزوجها والمسلمون على حصن حلب .

فقال لهم إنه قد ركب فى البحر وترك قيسارية وقد أرسلنى حتى أخذها فى المراكب من دمياط ، ومضى يوقنا يقول : أنا قد جئت رسولا من الملك فلسطين إلى الملك المقوقس حتى يرسل معى ابنته إلى زوجها ، فلما سمعوا كلامه قالوا إن الملكة فى بلبيس وقد أنفذها إليه وما منعها من المسير إلا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها إليها وعرفها بما قاله يوقنا فقالت علىّ به فأتى إليه الحاجب ، وأمره بالمسير فركب وركب أصحابه وهم بأحسن زى وأتوا إلى عسكر أرمانوسة واذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف .قال : فترجل يوقنا وترجل قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذنت لهم بالدخول ، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسى فوضعت لهم فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجاب والمماليك والخدم فقالت الملكة أرمانوسة له من غير ترجمان كم لكم عن الملك فقال شهر . فقالت أكان رحل من المراكب أم قبل رحيله فقال يوقنا بل قبل رحيله وحين ركب منهزما ، ولما وصلت إلى غزة بلغنى أنه سار وقد قال لى فى السرّ بينى وبينه لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب، فإن أبى هرقل ترك أنطاكية وذهب وقد قاتلهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية وأنفذ إليهم ماهان الأرمنى إلى اليرموك فى ألف ألف فهزموه وقتلوه وإنى أريد أن آخذ خزائنى وأطلب القسطنطينية ، ثم إنه وجهى إليك أيتها الملكة لتركبى فى المركب إليه .

قال : فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها إلى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت انى لا أقدر أن أصنع شيئا إلا بأمر الملك أبى وانى مرسلة إليه . قال فقام يوقنا وصقع لها ودعا ثم

خرج من عندها فوجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وارسلت إليه العلوفة والضيافة. قال ابن اسحق الأموى : ولقد بلغنى انه لما جن الليل أتت إليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن الساحل جميعها وبتوجه عمرو بن العاص إلى مصر وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذروها منه وعرفوها بجميع الأخبار مفصلة وإنه هو الذى فتح طرابلس وصور وجبلة . قال فلما سمعت ذلك دخل فى قلبها الرعب وعلمت إنه محتال فطلبت حاجبها وقالت له : مر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم إنها أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم إذا دخل هذا الرجل وخواصه فاقبضوا عليهم فإذا نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين ، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب حاجبها إليه وقال له أيها البطريق الكبير إن الملكة تطلبك لتوصيك بما تقوله لأبيها : فقال له السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابى فذهب القاصد . فقال يوقنا لأصحابه اعلموا أن الملكة شعرت بنا والقوم قد عولوا على قتلنا فإن حصلنا فى أيديهم قتلونا لا محالة وتضرب بنا الأمثال لمن يأتى بعدنا فموتوا كراما ولا تلقوا بأيديكم إلى القتل بأيدى الكفار وكونوا نصرة لدين الإسلام وما عسى نرجو من هذه الدنيا الغدارة التى ما صفت لأحد إلا غيرته بالكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده فلعلكم ترضونه بذلك . قال فأخذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله فى جميع أمورهم .

حدثنا ابن اسحق قال : لقد بلغنى أن الملكة أقامت تنتظر قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولا ثانيا تستحثهم . فقال له يوقنا ارجع إلى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل إلا لأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذى تريده نصف الليل منى ؟ فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت من وقتها وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم تحدث بشيء إلى الصباح فأقبل صاحب الملكة إليهم وقال : ما حملكم أن تركتم دين آبائكم وهجرتم دين المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا ، ألا وأن المسيح قد غضب عليكم . فقال يوقنا إن المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لأنه مأمور مكلف وقد أنطقه الله بذلك وهو فى المهد فقال ـ إنى عبد الله

وقال ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ ، ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس بإله انما هو عبد الله مكلف بالعبادة مثل واحد منا وأن الله لا يتشبه بأحد منا وأن الله لا يشبهه شيء ولا يتشبه بأحد ولقد أضلكم من صدكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريق الحق بقوله على الله والمسيح ، ولقد كنا مثلكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله الها آخر إلى أن تبين لنا دين محمد ﷺ فشفانا بعد العمى وشرح صدرونا للهدى ، ودين الإسلام هو الدين الواضح وكنا نقول مثل قولكم إن المسيح ابن الله ، وإن إبراهيم واسحق كانا نصرانيين فكذبنا الله بقوله فى كتابه ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ [(١)] وقال سبحانه ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دنيا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ [(٢)] وها نحن قد جئناكم لنجاهدكم : إما أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإما الجزية وإما القتال . قال فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه دونكم وهؤلاء فقد جاءوا يريدون قتلكم وأخذ أموالكم وأولادكم وحريمكم . قال فحملوا على يوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم ، فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال فبلى يوقنا ومن معه بما لا طاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقا كثيرا ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضا ربنا . قال ابن اسحق :

حدثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمر بن حفص عن عبد الله بن الحرث . قال لما أخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة يوقنا أنفذت كتابا إلى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وأن العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٦٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ٨٥ .

منتظرة جوابك . قال فلما وصل الكتاب إليه دعا أرباب دولته وقال لهم قد تم من الأمر عليَّ كذا وكذا فما تشيرون به عليَّ ؟ . قالوا أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشا إلى الملكة ينصرها على عدوها ،وتنفذ إلى جلباب ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ إلى مازع بن قيس ملك البجاوة ينفذ لك جيشا وتنفذ إلى من بالإسكندرية يأتون وإلى من بالصعيد يأتون فإذا اجتمعت إليك هذه الأمم فالق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك. فقال يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج إلى سياسة ، ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وإنما هي بحسن التدبير ، والله لقد كان قيصر أكثر مني جندا وأوسع بلادا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم إلى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد وبلاد الأندلس واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئا ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه ، واعلموا أن العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض، فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضيا ، ولن تنال الحكمة إلا بالعقل .

قال الحكيم ماسوسى : إن الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لإنها غذاء الأرواح وقوت القلوب ، واعلموا أني لست أتكلم إلا بالصدق وأنتم تعلمون أن محمدا في أيامه بعث إلينا يدعونا إلى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وما ظهر من معجزاته وقد سمعتم أنه لما بعث ما سمع أحد بذكره إلا وخاف منه ، وقد سمعتم أن القمر انشق له والذراع المسموم كلمه وقال : يا رسول الله إني مسموم فلا تأكلني وقد كلمه الضب والحجر والشجر والمدر وعرج به إلى السماء وركب أوج الماء وأول من تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه ، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئا فإنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التي أمر بها وما في كتابهم شيء إلا وفي الإنجيل مثله وقد أضلكم بولس وأغواكم حين غر بكم وبدل شرعكم وسماكم باسم لا يليق بكم، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحل لكم جميع ما حرم عليكم من قبل ،

وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قال نبيكم وكيف نبغى لروح الله عيسى بن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله إليكم . ثم إن بولس قال لكم إنه أحلَّ لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصى ما ظهر منها وما بطن فأطعتم أمره وصدَّقتم قوله وحاشا المسيح أن يفعل ذلك ، وما كان أحد من الأنبياء إلا على ما جاء به محمد ، وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم إلا من يتكلم بوحدانية الله تعالى ، وهذا الحكيم دمونا الذى صنع فى برارى اخيم أرصادا وجعلها مثلا للام الآتية ، وذكر فيها من يأتى من الأمم والأجيال إلى آخر الزمان وصور الحكماء منفردة به والنسر يعقد رأس الحمل والنسر يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيمى ، وكان قدر صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر . الأول من خاف الوعيد سلم مما يريد . الثانى : من خاف ما بين يديه صان دموعه بما فى يديه .الثالث : إن كنت تريد الجزيل فلا تنم ولا تقيل . الرابع بادر قبل نزول ما تحاذر، فمن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم ، وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين. قال فأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض غيظا على الملك . قال وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف ، لانه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله . أما المقوقس فإنه استوثق بمماليكه حتى لا يطمع فيه . قال فلما تكلم بذلك قال له وزيره : أيها الملك رأيك راجح وأنا أول من يؤمن بما تقول . فقال للوزير اكتب إلى ابنتى كتابا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الأمان وتنفذهم إلينا حتى نخلع عليهم وتطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا ، وما أراد بذلك إلا أن يسلم مثل يوقنا وأصحابه إذ هم على الحق . قال فكتب الوزير إلى الملكة كتابا بما قاله أبوها ، فلما وصل الكتاب إليها وقرىء عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل يوقنا ومن معه فرجعوا وأرسلت إلى يوقنا تعلمه بكتاب أبيها وأرسلت إليه الكتاب ، فلما قرأه قال لرسولها : امض إليها حتى استخير الله تعالى فى ذلك .

فقال « يوقنا » لأصحابه : إن الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذى ترون من الرأى ؟ قالوا نحن نسمع من رأيك . فقال

دعونى هذه الليلة . قال فلما جنَّ عليه الليل قام يصلى وأمر أصحابه أن لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلى وإذا بشخص قد دخل عليه فارتاع منه ثم تأمله فإذا هو عمر بن أمية الضمرى ساعى رسول الله ﷺ ، فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارا فقال له مرحبا يا عمرو من أين ؟ فقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثنى إلى عمرو بن العاص لأحثه على المسير إلى مصر فوجدته قد وصل وها هو منك قريب وقد أرسلنى إليك لأعرفه خبرك فأخبره بما وقع له وقال له امض يا عمرو ودعه يعجل بالمجىء يعيننا على هؤلاء القوم وحدثه بجميع ما جرى علينا . فرجع عمرو مسرعا إلى عمرو بن العاص وأعلمه بقصة يوقنا .. قال فترك عمرو بن العاص الأثقال ومعها من يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الأثقال عامر بن ربيعة العامرى ، فما كان قبل طلوع الفجر إلا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما أحس بهم يوقنا كبر هو ومن معه ورفع الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف فى القبط فما طلعت الشمس إلا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولى الباقى منهزمين ، وأخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الأموال والرجال والجوارى والغلمان .

فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله ﷺ مثل يزيد بن أبى سفيان وهاشم بن سعيد الطائى والقعقاع بن عمرو التميمى وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم : أن الله سبحانه وتعالى قد قال ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله ﷺ وبعث هدية ونحن أحق بمن كافأ عن نبيه ﷺ هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت أن ننفذ إلى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سنة رسول الله ﷺ وقد سمعته يقول « ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر » فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد (رضى الله عنه) .

ذكر فتح مدينة مصر

قال ابن اسحق الأموى : لما ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تمَّ عليهم وعلى ابنته ... ضاق صدره وبقى متفكرا فيما يصنع وليس له نية فى القتال مع الصحابة ، فبينما

هو متفكر إذ جاءه البشير بقدوم بنته وما معها فخف عنه بعض ما كان يجده ، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابنته ، فلما حضر قيس بن سعد سأله الملك عن أشياء لعل أصحابه أن تلين قلوبهم إلى الإسلام . فقال يا أخا العرب أخبرنى عن صاحبكم ما الذى كان يركب من الخيل . قال الأشقر الأرتم المحجل فى الساق وكان اسمه المترجل . فقال لقد بلغنا أنه كان لا يركب إلا الجمال . فقال قيس إن الله أكرم الإبل وشرفها قال لها كونى فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دون غيرهم من بنى آدم وكان يركبها لكونها قد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر عن الماء أياما وقد ذكرها ربنا فى قوله فى كتابه العزيز . فقال ﴿ **وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾ (١) وقال ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله** ﴾ (٢) .

ولما غزا رسول الله ﷺ من غزواته غزوة بدر كان معه ناضح من الإبل وكان معه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الأسود الكندى ويركب الآخر مصعب بن عمير وإنا لقينا قريشاً فى عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله ﷺ ، وكان أصحابه يتعاقبون فى الطريق ، وكان عليه الصلاة والسلام وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب وغيرهم يتعاقبون شامخا ، وكان أيها الملك يركب الحمار الذى الذى أهديته إليه ويردف وراءه معاذ بن جبل ، وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه ليف ، واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول « من رغب عن سنتى فليس منى » ، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمين ليس له أزرار ولقد أهدى إليه ذو يزن حُلة أشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرا فلبسها رسول الله ﷺ مرة واحدة وأهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت وخفين فلبسهما حتى تخرقا ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه

---

(١) سورة الحج : الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحج : الآية : ٣٦ .

ذراعان ونصف ، وكان له ثوب خز يلبسه للوفد إذا قدموا عليه ، وكان أفصح الناس إذا تكلم بكلمة يرددها ثلاثا ، وكلما رأى قوما سلم عليهم ورأيته كلما تحدث تبسم فى حديثه ، وكان إذا اجتمع إليه أصحابه وأراد أن ينهض . قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، قلنا يا رسول الله إن هذه الكلمات اتخذتهن عادة . قال أمرنى بهن جبريل وأخرجت لنا زوجته لما قبض كساء وإزارا غليظين ، وقالت قبض رسول الله ﷺ فوق هذين .

فقال المقوقس : هذه والله أخلاق الأنبياء فطوبى لمن اتبعه ، فإن أمته هى الأمة الموصوفة فى الإنجيل ، فقال بعض من حضر أيها الملك ما تكون أمة عند الله أفضل من هذه الأمة وهم نحن فغضب الملك من قوله ، وقال وبأى شىء أنتم أفضل عند الله أبأكلكم الحرام وارتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات وظلمكم فى الرعية وميلكم إلى الدنيا أين أنتم من قوم عبر عليهم الإسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليهم ولا فيهم من يختص بالغنى دون أخيه ، بل هم سواء فى كل ما هم فيه ، أكلهم وشرابهم واحد غير متناف ، ولا متضاد وملبسهم غير متناف ولا متباعد ، فتعجب الإسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عما رآه من أحوالهم . فقالوا أيها الملك إنا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب : يا ابن آدم ما خلقت إلا من التراب ، وقد خلوت بما قدمت إما صالحا فيسرك ، وإما طالحا فيضرك فتندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك إلى الدنيا مرجع ، فطوبى للكيس العاقل الذى ليس ببليد ولا غافل ، يتزود إلى ما إليه يصير ولا يلقى الاتكال على التقصير ، فبادر إلى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت ، وكأنك بالحى وقد هلك وترك كل ما ملك ، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة ، فقال ما بال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية ؟ . فقال أما مساجدنا فبعيدة ليكثر الأجر بكثرة الخطا وقبورنا قريبة لنذكر الموت فننتهى عن الخطأ ، فقال ما لى أرى أبوابكم بغير غلاق ؟ ، قالوا لأننا ما فينا خائن ولا سرق . فقال ما لى لا أرى فيكم أميرا ولا حاكما ؟ فقالوا لأننا ما فينا معتد ولا ظالم …

فقال : ما لى لا أرى فيكم معسراً ولا فقيرا ؟ قالوا لأن رزق الله فينا الكبير والصغير ، ثم إنهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا : أيها الملك هذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكلاهما صار إلى هذا المصير ولم يغن عنهما الجمع والتدبير . أما العادل فمسرور ريان ، وأما الظالم فنادم حيران فاز المتقى وخسر الشقى ، فاختر ما تراه قبل الحين أيها الملك لأنك قد ملكتَ النواصى ونفذ أمرك فى الدانى والقاصى واستخلفك الله فى الأرض وأمرك بالقيام بالنفل والفرض ، فتذكر مرجعك ورمسك واعمل لنفسك واعلم أنه لا ينفعك جدك إذا قُبضَت روحك واشتمل عليك لحدك ، فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمن ونواهيه ولا يغرنك النعيم فتبوء بالإثم العظيم، اذكر أيها الملك ما فعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وأدار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغره فيه بحبة البرّ . فقال قيس أيها الملك أتدرى من أولئك ؟ . قال لا . قال هم قوم مؤمنون قال الله عنهم فى كتابه ﴿ **ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ وقد رآهم نبينا ﷺ ليلة عرج به ، فلما عاد أخبر أصحابه بهم، قالوا يا رسول الله : هم قوم مؤمنون بما أُنزل عليك ؟ فأراد أن يعلمهم أن أمة محمد أفضل منهم فأنزل الله ـ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ـ فقال المقوقس لقيس بن سعد يا أخا العرب ارجع إلى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم . فقال قيس أيها الملك لا بد لنا منكم ولا ينجيكم منا إلا الاسلام أو أداء الجزية أو القتال . فقال المقوقس أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لا يجيبون لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عبد الله بن سهل عن عدى بن حاطب عن سليمان بن يحيى قال : إن الملك المقوقس كان من عادته أنه فى شهر رمضان لا يخرج إلى رعيته ، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته ، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع ، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد فى أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة ، فخرج قيس من عنده ومضى إلى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه . قال ابن اسحق : وكان ولى عهد الملك ولده اسطوليس وكان جبَّارا عنيدا وانه لما سمع ما تحدث به أبوه رأى ميله إلى الإسلام وعلم انه لا يقاتلهم

وربما أسلم وسلم إليهم ملكه صبر إلى أن دخل أبوه إلى خلوته التى اعتاد أن يدخلها ويختلى فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة فى الخفية لئلا يدرى به أحد فيعلم أباه وقال لهم : اعلموا أنكم قد ملكتم هذا الملك وأن أبى يريد أن يسلمه إلى العرب لأننى فهمت من كلامه ذلك . فقالوا أيها الملك أنت تعلم أن هذا الأمر مرجعه إليك ، وأنت ولى عهده فاعمل أمرا يعود صلاحه عليك وعلينا . قال فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سُما وقال له ضعه فى شرابه . قال ففعل الساقى ما أمر به وسقى الملك فمات فأتى الساقى إلى أرسطوليس وأعلمه أن أباه قد مات فذهب اليه ودفنه فى الخفية وقتل الساقى وجلس على سرير الملك كأنه نائب عن أبيه إذا غاب كعادته فى كل عام ولم يعلم أحد بموته ، هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فإنه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث إلى أهل البلاد والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم : لا يرحل أحد من بلده ، ونحن نقنع بما توصلونه الينا من الطعام والعلوفة فأجابوا إلى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصى فارتجت بنزولهم إليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم. قال وأما عمرو بن العاص فإنه أمر أهل اليمن ومن معه من العربان أن يحدقوا بالبلد، وأن أهل البلاد أقبلت إليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج .

ثم إن عمرا أراد أن يرسل إلى صاحب مصر رسولا ، وكان عنده غلام له من أهل الرملة ، وكان اسمه وردان ، وكان يعرف سائر الألسن ، فقال له عمرو يا وردان إنى أريد أن أرسلك إلى هؤلاء القبط تعرف بلسانهم ولا تظهر لهم أنك تعرفه ، فقال سمعا وطاعة ، فقال أريد أن أكتب معك كتابا وهم أن يكتب وإذا برسول أرسطوليس قد أقبل وقال : يا معاشر العرب إن ولى عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلا منكم ليخاطبه بما فى نفسه فلعل الله أن يصلح ذات بينكم . فقال عمرو ليزيد بن أبى سفيان ولهاشم الطائى ولعبد الله ابن جعفر الطيار وللنعمان بن المنذر ولسعيد بن وائل : اعلموا أنى قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلى وما يسير إلى هؤلاء إلا أنا فإنى أريد أن أرد القوم وأنظر

حالهم وما هم فيه من القوة وأن لا يخفى عليّ شيء من أمرهم ، فقالوا يا صاحب رسول الله ﷺ قوى الله عزمك وما عندنا إلا النصيحة للدين والنظر فى مصالح المسلمين فافعل ما أردت تعان . فقال لشرحبيل قد قلدتك أمور المسلمين فكن مكانى حتى أمضى إلى القوم وآتيكم بما فيه . فقال له شرحبيل الله يوفقك ويسددك .

قال فلبس عمرو ثوبا من كرابيس الشام وتحته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار ومعه غلامه وردان وسار الثلاثة إلى قصر الشمع ، وإذا هم بالمواكب مصطفة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد ، وقد أظهروا ما أمكنهم من القوة ، فلما وصلوا إلى قصر الملك أخبروا أرسطوليس أن رسولك أتى بواحد من العرب فأمرهم باحضاره فدخل عمرو راكبا وهو متقلد بسيفه ، فأراد الحجاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وأن يأخذوا سيفه فأبى ، وقال ما كنت بالذى أنزل عن حصانى ولا أسلم سيفى . فإن أذن صاحبكم أن أدخل على حالتى وإلا رجعت من حيث أتيت فاننا قوم قد أعزنا الله بالإيمان ونصرنا بالإسلام فما لنا أن ننزل لأهل الشرك والطغيان ، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبكم فأعلموا الملك بما قاله . فقال أرسطوليس دعوه يدخل كيف شاء ، فخرجوا إليه وقالوا له ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل إلى قبة الملك ورأى السريرية والحجاب وقوفا والبطارقة وهم فى زينة عظيمة ، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

قال وكان قصر الملك قد بناه الريان بن الوليد بن أرسلاووس وهو الذى استخلف يوسف على مصر بعد العزيز . ثم خرب وأقام خرابا خمسمائة سنة وما بقى إلا أثره ، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله إليه وافترقت أمته فرقا وادعوا فيه ما ادعوا من الإلهية وتقوّل الكذب ولى مصر رجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب ، وهو فى وسط الشمع ، وإنما سمى قصر الشمع لأنه لا يخلو من شمع الملوك ، فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا قد بنوا برية فى برية اخميم ، وكان المقدّم عليهم قربانس . فقال لهم إنى قد قرأت كثيرا من الكتب التى أنزلت على الأنبياء من الله وقرأت صحف موسى ، ورأيت أن الله

يبعث نبيا قوله حق ودينه صدق ، أخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة ،وقد بشر به المسيح **فما** تقولون فيه ؟ فقال قربانس الحكيم : إن الذى قرأته هو الصحيح . قال فثم من يخالف **ذلك ؟**

قالوا نعم: قال الحكيم أريد أن أصنع تمثالامن الحكمة ونجعله بيتا للعبادة ، **ونجعل** على هيكلها تماثيل يكون وجوهها مما يلى التمثال بأعلى قصرك . فإذا جاء وقت **مبعث** هذا النبى يحول كل تمثال وجهه عن صاحبه . وأما الذى يجعل على الكنيسة . فإنه **عند** مبعث النبى العربى يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم وإقامة شرعهم . قال **فأخذوا** فى عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ما ذكرنا ، فلما بعث النبى ﷺ حول كل **شخص** وجهه عن صاحبه وسقط الذى كان على سطح الكنيسة ، وهو الجامع اليوم. وأما **التمثال** العالى فبقى على حاله بأعلى القصر ، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال **صوتا** عظيما . ثم إنه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكوا وجوههم **ودخل** الرغب فى قلوبهم ، وقالوا بلسانهم ما وقع هذا التمثال إلا عند دخول هذا العربى **وما جرى** هذا إلا لأمر عظيم ، ولا شك أنه هو الذى يقلع دولتنا ويأخذ ملكنا فأمروا عمرا أن **ينزل** عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده **ويده** اليسرى على مقبض سيفه ونظر إلى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ [1] ثم قال اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء ، والآخرة هى **دار** البقاء . أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده **الحجر** وسراجه القمر ، وقد قال نبينا ﷺ « إن الله أوحى إلى عيسى أن نح على نفسك **فى** الفلوات، وعاتبها فى الفلوات، وسارع إلى الصلوات ، واستعمل الحسنات ، **وتجنب** السيئات، وأبك على نفسك بكاء من ودع الأهل والأولاد ، وأصبح وحيدا فى **البلاد** ،

---

(١) سورة الزخرف : الآيات : ٣٣ ـ٣٥ .

وكن يقظان إذا نامت العيون خوفا من الأمر الذى لا بد أن يكون » فإذاكان روح الله وكلمته خوف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف ، وأول من تكلم فى المهد . قال انى عبد الله فإذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون إليه الربوبية ، تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ولا أشرك فى حكمه أحدا ، جل عن الصاحبة والأولاد ، والشركاء والإضداد ، لا صاحبه له ولا ولد ، ولا شريك له ولا وزير ، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء ، ولا يحويه مكان ، ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس لا يوصف بالسكون والحركات ولا بالحلول والكيفيات ، ولا تحتوى عليه الكميات ولا المنافع ولا الضرات . ثم انه قرأ ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾[1] فقال له الوزير أصح عندكم معاشر العرب إن المسيح تكلم في المهد ؟ . قال نعم : قالوا له فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء ، فقال عمرو قد تكلم فى المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم، فقالوا يا عربى أتكلم نبيكم بغير العربية؟ قال لا قال الله فى كتابه ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ ــ قالوا : أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم ؟ . قال نعم : قالوا من ؟ . قال صالح وشعيب ولوط وهود . قال فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر ، قالوا بالقبطية للملك إن هذا العربى فصيح اللسان جرىء الجنان ، ولا شك أنه المقدم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنا . قال وغلام عمرو وردان يسمع ذلك، فقال الملك إنه لا يجوز لنا أن نغدر برسول ، لا سيما ونحن استدعيناه إلينا فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه .

ثم إن الملك قال يا أخا العرب ما الذى تريدون منا ؟ وما قصدنا أحد إلا ورجع بالخيبة وأنا قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا إلينا . فقال عمرو : إننا لا نخاف من

---

(١) سورة مريم : الآيات : ٩٣ ــ ٩٥ .

كثرة الجيوش والأمم ، وإن الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض ونحن ندعوكم الى خصلة من ثلاث . إما الإسلام . وإما الجزية . وإما القتال . فقالوا إنا لا نبرم أمرا إلا بمشورة الملك المقوقس ، وقد دخل خلوته ، ولكن يا أخا العرب مانظن أن فى أصحابك من هو أقوى منك جنابا ولا أفصح منك لسانا . فقال عمرو أنا ألكن لسانا ممن فى صحابى ومنهم من لو تكلم لعلمت أنى أقاس به . فقال الملك هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك ، فقال إن أحب أن آتيه بعشرة منهم من يسمع خطابهم . فقال الملك ارسل فاطلبهم ، فقال عمرو لا يأتون برسالة ، وإنما إن أراد الملك مضيت وأتيت بهم . فقال الملك لوزرائه إذا حضروا قبضنا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك ، ثم إن الملك قال لعمرو امض ولا تبطىء على فوثب عمرو قائما وركب جواده ، فقال الملك بالقبطية لاقتلنهم أجمعين ، فلما خرج من مصر ، قال له وردان ما قاله الملك ، فلما وصل إلى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون والله يا عمرو لقد ساءت بك الظنون ، فأقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أقبل الليل ، فلما أصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالتأهب للقتال وإذا برسول الملك قد أقبل وقال له إن الملك ينتظرك أنت والعشرة ، فقال عمرو : إن الغدر يهلك أصحابه وأهله وإن على الباغى تدور الدوائر ، يا ويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منا رسولا ، فلما أتيته أراد أن يقبض على ، وقال كذا وكذا فأنت ياويلك ما الذى يمنعنى عنك إذا أردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر ارجع إليه وقل له إنى فهمت ما قاله وما بقى بيننا وبينه إلا الحرب . قال ابن اسحق رحمه الله ورضى عنه هكذا وقع له مع القبط ، وكان عمرو إذا ذكر ذلك يقول لا والذى نجانى من القبط . قال وعاد الرسول وأخبر الملك بما قاله عمرو ، فعند ذلك قال : أريد أن أدبر حيلة أدهمهم بها ، فقال الوزير : اعلم أيها الملك إن القوم متيقظون لأنفسهم لا يكاد أحد أن يصل إليهم بحيلة ولكن بلغنى أن القوم لهم يوم فى الجمعة يعظمونه كتعظيمنا يوم الأحد ، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأى أن تكمن لهم كمينا مما يلى الجبل المقطم . فإذا دخلوا فى صلاتهم يأتى إليهم الكمين ويضع فيهم السيف . قال

فأجابه الملك إلى ذلك وأقاموا ينتظرون ليلة الجمعة . قال وأما عمرو فإنه أرسل يوقنا إلى القرى التى صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه ويعلفون به خيلهم قال فركب يوقنا إلى القرى التى صالحوها وسار فى عسكره وبنى عمه إلى ما يأتى به ومضى نحو الجرف ، وكان معهم جواسيس الملك فى عسكرهم فأتوا الى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين ، فعندها دعا بابن عمه ماسيوس وهو المقدم على جيوش مصر ، وقال له اختر من جيوشنا أربعة آلاف وامض بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل ، أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان . فإذا دخل القوم فى صلاتهم فاحملوا عليهم وضعوا فيهم السيف . قال ففعل ماسيوس ما أمره به الملك ومضى فى الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد ، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان وأعلمهم أنهم دخلوا فى الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالا ودواب وحملوها برا وشعيرا وكان قد قال لهم إذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدموا الحمول أمامكم فإنهم يأمنون ويحسبون أنها هى التى مضى صاحبكم يأتى بها قال ففعلوا ذلك .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمارة بن وهب عن سعيد بن عامر سليمان بن ناقد عن عروة عن جابر عن محمد بن اسحق قال : هكذا دبر عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل ، وليس عند المسلمين خبر ما صنع المشركون ، وكان سعيد بن نوفل العدوى يقول لعمرو أيها الأمير ما الذى يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط فيقول والله ما تأخرى جزع وانما قد علمتم قصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مقر بنبوة نبينا وقد دخل إلى خلوته التى سنها لنفسه فى هذا الشهر المعظم ، وقد بقى منه خمسة أيام ويظهر ونبعث إليه رسولا ونرى ما يكون جوابه ؟ فإما الصلح ، وإما القتال . قال فبينما هم يتحادثون فى ذلك إذ أتاهم رسول من عند أرسطوليس بن المقوقس ، وقال لهم معاشر العرب إن ولى عهد الملك يسلم عليكم ويقول لكم إنى لا أقدر أن أحدث أمرا حتى يخرج الملك من

خلوته ، وقد بقى له خمسة أيام وهو يدبر فى رعيته بما يشاء . فقال له عمرو : قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحب نبينا وأنه مؤمن به ما أمهلناكم طرفة عين ، فمضى الرسول . قال ابن اسحق وما بعث هذا اللعين هذا الرسول إلا ليطمئن المسلمون وليقضى الله أمرا كان مفعولا وإذا جاء القدر لا ينفع الحذر وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

(قال الراوى) فكان المسلمون قد اطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذر فيها وأنذر ، فلما فرغ أقيمت الصلاةوأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدو أن يكبسهم فى صلاتهم . قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدا من أهل مصر لا فارسا ولا راجلا قال فاصطففنا خلف عمرو للصلاة ، وليس بيننا لنا عدو نخافه ، فلما أحرمنا وقرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود إذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذى أكمنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع يوقنا فلما رآهم موالينا ظنوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا جاء يوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدو حتى أتونا ونحن فى الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدى الله تعالى قال وإذا بالسيوف تقرقع فى لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل فى آخر صف من المصلين والصف الذى يليه وهم من اليمن ومن بجيلة ومن وادى القرى ومن الطائف ومن وادى نخلة ، ثم قال ابن عتبة وكنت قد شهدت وقائع الشام وحضرموت واليرموك فوالله ما قتل منا فى وقعة من الوقائع مثل ما قتل منا يوم بحر الحصى فى أرض مصر بالحيلة التى دبرها عدو الله علينا ، وقال والله ما منا من انحرف عن صلاته ولا حول وجهه عن ربه وقد أيقنا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا يوقنا بأصحابه ، فلما نظروا ما حل بالمسلمين صاحوا ورموا ما على رؤوسهم من العمائم وقال يوقنا لبنى عمه والله من قصر منكم عن عدوه فالله يطالبه به يوم القيامة وما أرى إلا أن الأعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم أحد فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومن معه

وثاروا ثوران الأسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا فى العدو وطحنوهم طحنا . قال جابر بن أوسى وحلنا بينهم وبين الوصول إلى مصر فوالله ما نجا منهم أحد وبقوا كأنهم طيوز وقعت عليهم شبكة صياد ، فلما وضعت الحرب أوزارها هنأ المسلمون بعضهم بعضا بالسلامة وشكروا الله على ما أولاهم من نصره وأثنوا على يوقنا خيراً وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة . قال واتصل الخبر إلى أرسطوليس بقتل ابن عمه ومن معه وأنهم لم ينج منهم أحد فصعب عليه ذلك وأيقن بهلاكه ، فدعا ببطارقته وأرباب دولته وشاورهم فى أمره فقالوا أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا ما دامت لأحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك وما زالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممن انهزم من ملوك الأرض، وقد سمعنا أن داونوس بن أردين بن هرمز بن كنعان بن يزجور الفارسى هزمه الإسكندر الرومى سبعين مرة فأخرج إلى لقاء القوم واضرب معهم مصاف ولا تيأس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبترك يدعون لك بالنصر . قال فعوّل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاوة وأقام مدة ينتظر قدومهم .

قال حدثنا محمد بن اسحق القرشى عن عقبة بن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال : لما كان من أمر المسلمين ما ذكرنا مما قدره الله عليهم من كبسة عدوهم كتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سلام عليك وأنى أحمد الله اليك وأصلى على نبيه . أما بعد فقد وصلت إلى مصر سالما وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا إلى بحر الحصى وقدكنا صالحنا قوما من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا إلينا الطعام وأنى أرسلت عبد الله يوقنا ليشترى لنا منهم طعاما ومضى فى خيله وسرت بنفسى رسولا إلى مخاطبة القوم فهموا بالقبض على ونجانى الله منهم وأنهم أكمنوا لنا كمينا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل ، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا

ونحن فى الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منا أربعمائة وستة وثلاثين رجلا والأعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة ، ونحن الآن فى بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فانجدوا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدوّنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختم الكتاب وأعطاه عبد الله بن قرط فسار من ساعته وجد فى السير إلى أن وصل المدينة فقدمها فى العشر الأوسط من شوال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول الله ﷺ . قال ابن قرط فدفعت الكتاب إليه فنظر إليّ ، وقال عبد الله ؟ . قلت نعم : قال من أين أتيت ؟ . قلت من مصر من عند عمرو بن العاص . قال مرحبا بك يا ابن قرط ثم فك الكتاب وقرأه وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم قال من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسيحات الخطا ، ووالله ما علمت عميرا إلا حازم الرأى مليح التدبير ، ضابط الأمر ، حسن السياسة ولكن إذا نزل القضاء عمي البصر ، ثم إنه كتب كتابا إلى أبى عبيدة وذكر له ما جرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ إليه جيشا عرمرما ، وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبى عبيدة قال عبد الله بن قرط فأقمت فى المدينة يومين واستأذنته فى المسير فزودنى من بيت المال وكتب إلى عمرو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . أما بعد : فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ، وقد بلغنى ما جرى لكم بمصر من غدر عدوّكم كما سبق فى أم الكتاب ، وكان يجب عليك يا بن العاص أن لا تطمئن إلى عدوك ولا تسمع منه حيلة ، وما كنت أعرفك إلا حسن الرأى والتدبير ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، فاستعمل النشاط فى أمرك ولا تأمن لعدوّك واستعمل الحذر فإن الإمام ما يكون إلا على حذر والله يعيننا وإياك على طاعته وقد أنفذت إلى أبى عبيدة أن يرسل إليكم جيشا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وختمه وسلمه لعبد الله بن قرط . قال فأخذته وسرت وأنا أجد السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون إخوانهم .

كبسة الجيش

حدثنى ابن اسحق حدثنى سهل بن عبد ربه عن موسى عن عبد الرزاق . قال : لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه أنه لا بد له أن يأخذ بثأرهم ، ثم أنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المعلقة فى داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبا . فقال : يا أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممن احتوى على الأقاليم وملكها مثل الملك المعظم من آل حمير ومثل مستفان والبستق والملحان وهو بانى هذه الأهرام ونمروذ بن كنعان ولقمان بن عاد ، وذى القرنين الملك العظيم وانقضى منكهم منها ورجع إلى سبا وأرضها وحضرموت وقصر عمان ، ثم تولى هذه الأرض القبط من آبائكم وأجدادكم أطسليس وبلينوس والريان بن الوليد وهو الذى استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكنى بفرعون ، وبعدهم طبلهاوس ثم جدى راعيل ، ثم أبى المقوقس وجميع ملوك الأرض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة ، وليس فى العرب أطمع منهم فإنى أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم فطمعوا فيكم وفى ملككم كما طمعوا فى ملك الشام وانتزعوه من أيدى القياصرة فقاتلوا عن أموالكم وحريمكم وأولادكم ، وأما أنا فواجد منكم ، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرنى بلقاء هؤلاء العرب وقال إنه لايظهر إليهم حتى أرى ما يظهر من قومى وأرباب دولتى فما تقولون وما الذى اجتمع عليه رأيكم ؟ فقالوا أيها الملك إنما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها فإنها قد استعبدت رقابنا بنعمتها واحسانها ، ونحن نقاتل لمحبتها فأما أن نُرزَق النصر من المسيح واما أن نموت فنستريح . قال فشكر قولهم وخلع على أكابرهم وقال لهم اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوها بالمبادرة إلى أن يأتى الينا نجدة من ملك النوبة والبجاوة فأجابوا إلى ذلك وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلى النور والرصد .

قال ابن اسحق : وفى ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه وقع بين ملك النوبة وملك

البجاوة حرب وأنه ما يجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك أرسطوليس سرادقا معظما وسط جيش القبط . قال وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة ، فكان عمرو فى أول الليل يطوف حول العسكر ومعاذ إذا انتصف الليل ويزيد بن أبى سفيان فى آخر الليل والنور على عسكرهم والإيمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه ﷺ قال ابن اسحق ، فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بن الوليد يا أبا سليمان ما ترى من الرأى ؟ فقال اذا كان أمير المؤمنين أمرك أن تنجد عمرو بن العاص فانجده . فقال أبو عبيدة ان الطريق إلى مصر بعيد وإن أنا أرسلت جيشا كبيرا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالد كم جهدك أن ترسل ؟ قال أربعة آلاف فارس . فقال خالد إن الله كفاك ذلك قال وكيف ذلك يا أبا سليمان . ؟ قال إن عزمت على ما ذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس . فقال أبو عبيدة من الأربعة ؟ . قال خالد أنا أحد الأربعة والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلل وجهه وقال يا أبا سليمان افعل ما تراه فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه ، فقالوا سمعا وطاعة فقال خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة . قال فلما صلى أبو عبيدة بالناس صلاة المغرب قدم الثلاثة إلى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلا يدلهم على الطريق إلى وادى موسى والشوبك وأخذوا معهم ما يحتاجون إليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدون إلى أن قربوا من عقبة أيلة وإذا هم بخيل ومطايا تزيد على ألف فارس فأسرعوا إليهم فإذا هم من ثقيف وطى ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب إلى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون . قال فلما رأوهم سلموا عليهم ورحبوا بهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالدا وعمارا والمقداد ومالكا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم .

قال حدثنا يوسف بن يحيى عن دارم عن منصور بن ثابت قال كنت فى جملة الوفد الذى وجهه عمر (رضى الله عنه) مع رفاعة وبشار والتقينا بخالد بن الوليد وأصحابه عند

عقبة أيلة وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقى بيننا وبينها يومان ، فبينما نحن نسير فى بعض الليالى وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدة الظلام إذ سمعنا حسا بالبعد منا فوقفنا . فقال خالد أيكم يأتينا يا فتيان العرب بخبر هؤلاء الذين فى هذا الجيش قال نصر بن ثابت وكنت راكبا فقفزت من ظهر الراحلة وسعيت على قدمى وأُخفيت حسى إلى أن تبين لى جيش كثير فتحققت أمرهم فإذا هم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايا والخيل . فقلت والله لاعدت إلى أصحابى إلا بالخبر اليقين . قال فاتبعت أثرهم لأسمع ما يقولون وما يتحدثون فمشيت معهم قليلا فأسمعهم يقولون أذل الصليب أعداءنا فإنا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا وإذا بمقدمهم يقول : وحق المسيح ما بغيتنا إلا فى الخلع والأموال من ملك مصر ولكن إذ عولتم على الراحة فانزلوا قال فنزل القوم على ماء يعرف بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيح ويصنعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا إبلهم ترعى . قال نصر بن ثابت فعلمت أن القوم من متنصرة العرب فتركتهم وأتيت إلى أصحابى وحدثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرا وأثنوا عليه وقالوا لخالد ما الذى ترى ؟ . فقال أرى أن تركبوا خيلكم الآن وتستعدّوا للحرب ونسير إليهم ونكبسهم فإنهم قد أتوا لنصرة صاحب مصر وما أتوه إلا بمكاتبة لهم يستنجد بهم على أصحابنا ، قال فلبسوا سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلا ورجالا إلى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة فقال خالد : دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوّكم ، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله إلا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة فى القوم وهم فى أثر النوم فقتل بعضهم بعضا ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البعد منهم وبشار ورفقته وكل من انهزم أخذوه ، فلما أصبحنا رأينا القتلى منهم ألفا وأسرنا منهم ألفا فعرضوهم على خالد فقال حدثونى من أين جئتم وإلى

أين مقصدكم ؟ .

فقالوا : إنا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام ، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عونا عليكم ، فلما أجابنا إلى ذلك بعثنا الخيل العربية إلى وليّ عهده وصاحب الأمر من بعده ، فلما كان فى هذه الأيام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول إلى مصر فرحلنا إليهم فوقعتم بنا ، فلما سمع خالد منهم ذلك قال « من حفر لمسلم قليبا أوقعه فيه قريبا » ثم عرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رحالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التى وجهها إليهم ابن المقوقس ففرقها خالد على المسلمين وفيها خلعة سنية وكانت لمقدم القوم فأعطاها رفاعة وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش القبط فأرسل خالد رجلا من قبله وهو نصر ابن ثابت وقال له : امض إلى هذا الملك وقل له إن العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك قال فمضى الرجل الى أن وصل إلى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له من أنت ؟ قال أنا مبشر الملك بقدوم العرب المتنصرة إلى نصرته قال ابن اسحق فأخذوا نصر بن ثابت وأتوا به إلى سرادق الملك . قال فلما وقفت بين يديه نادانى الحجاب أن اسجد للملك ففعلت وأنا أسجد لله تعالى حتى لا ينكروا علىّ وكان قد صح عندهم أنه من امتنع من السجود فهو مسلم . قال فلما رفعت رأسى قال لى الوزير يا أخا العرب أوصل أصحابك إلى نصرة الملك فقلت نعم وها هم فى دير الجبل المقطم . قال : فلما سمع الملك ذلك أمر من حجابه أناسا أن يمضوا إلى لقائهم وسرت فى جملتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زى الفراعنة وخلع على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا إلى لقاء المتنصرة .

قال حدثنا عسكر بن حسان عن رفاعة بن وسوس عن موسى بن عون عن جده نعيم بن مرة . قال : كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبنى ويقرّبنى لأن أبى كان يسافر له ببضاعة إلى سوق بصرى . قال فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لى خالد : يا ابن مرة أريد أن أوصيك . فقلت بماذا قال : اعلم أن العدوّ

قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولا شك أن عمرو بن العاص ومن معه تجفل قلوبهم منا وأريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فإذا خلا لك الطريق فانسلّ نحو عسكر المسلمين وحدثهم بأمرنا وما قد عزمنا عليه من غدر القوم ، فإن عمر لا يطمئن لغيرك وأقرئه سلامى وقل له يكن على أهبة فإذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، فإن ذلك مما يزيد فى رعب أعدائنا فقال نعم . قال وفعلت كما أمرنى خالد ونزلت عن فرسى وأسلمتها لغلامى دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار .

(قال الراوى) وأن خالداً أمر أصحابه بلبس الخلع التى أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس وبشار بن عون أحسنها وغير خالد زيه والمقداد وعمار ومالك الأشتر . قال فلما وصل مقدم جيش القبط . قال خالد لرفاعة وبشار ترجلوا له واصقعوا بين يديه وصلبوا على وجوهكم فليس عليكم فى ذلك حرج وأحلفوا بالمسيح والسيدة مريم وإياكم والغلط بأن تذكروا محمداً ﷺ فيظن القوم بنا واجعلوا الجهاد نصب أعينكم وتوكلوا على الله فى جميع أموركم قال ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا .

قال حدثنا نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار قال : يا عم اعلم إن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ، وذلك أننا لما أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرا عامرا بالرهبان ، فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا من أنتم ؟ قلنا نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فإنه قد أرسل إلينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب . قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم فى دينهم شيخا كبيرا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت الضيحا قد أقطعها هرقل للملك جبلة بن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القس وكان اسمه نونلس ، وأن المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده إلى طرابلس وركب البحر فى مركب وتوصل إلى مصر وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن

حاله فحدثه بأمره فخلع عليه وجعله قيما فى الكنيسة المعلقة التى فى قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه فى دير مرقص ولا يدخل مصر إلا فى أمر مهم ، فلما نزل عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج إلى رأى البترك فأرسل إليه وأنزله فى الكنيسة وولى البترك مكان هذا القس نونلس بن لوقا فكان فى الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير . قال عامر بن المبارك الثعلبى فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد بن الوليد لأنه رآه فى مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص قد أرسله رسولا إلى أبى عبيدة ليصالحوه . قال فجعل يتفقدهم وينظر فى وجوههم ، ثم قال وحق المسيح ما أنتم من آل غسان وما أنتم إلا من عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا علينا فإنى رأيت إمامكم الذى فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم ، فقالوا : ما عندنا خبر من الذى تقوله وقد خيل لك ذلك : أما علمت أن المسلمين ما خلوا لنا حالا وقد نهبونا وأصبحنا بالذل بعد العز والفقر بعد الغنى وقد كتب إلينا ملك مصر بأن نجىء إليه فأرسل إلينا بالخلع وطيب قلوبنا . قال عامر فضحك اللعين من قولى وقال لى : إن آل غسان أكثرهم يعرف بكلام الروم وحق دينى ما أنتم منهم وقد صح قولى: إنكم مسلمون . فقلنا له يا ويلك لو كنا من الذين تقول عنهم ما كنا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير فى الليل حتى نصل إلى أصحابنا وإنك استحقرت المسيح إذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت فى ذنب عظيم ، ثم إننا بالقرب منهم . فقال أصحابه يا أبانا ليس هؤلاء القوم ممن ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا أن يدخلوا أرض مصر فى ضوء النهار ولا يقربوا العمران . فقال وحق دينى : أنا أعرف الناس بهم وإنهم مسلمون بلا شك فامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعاما ولا ماء وسأنفذ خبرا للملك بذلك فيكون منهم على حذر . قال ابن هبار وكان من لطف الله بنا أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من ديرنا هذا . فقال أكبرهم إن أنتم فعلتم ذلك فإننا لا نعلم من ينصر من الفريقين أصحابنا أم العرب ، فإن كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فانه يقتلنا ،

وان هذا اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو فى كل يوم يكفرنا لأنه نسطورى ونحن يعقوبية ، فإن أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القس فاقبضوا عليه وسموه لهم وخذوا منهم أمانا . قال ففعلوا ذلك وقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا لنا : بحق ما تعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد أم لا فإنا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه لكم وإنكم تعطوننا أمانا فإنا قوم لا نعرف حربا ولا قتالا . فقال لهم مالك الأشتر : ياهؤلاء أما ما زعمتم من صلحنا فإنا نصالحكم وما كان أمرنا بالذى يخفى ولا نرضى بالكذب فإنه أشنع شيء عندنا ، ولا سيما أن الاسلام يمنعنا من استعماله ، ولو أن السيف على رأس أحدنا إذا سئل عن دينه أجاب به وتكلم بوحدانية الله تعالى ، ونحن من أصحاب محمد ﷺ ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله .

قال فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس . فقال له خالد : يا عدو الله أردت أمرا وأراد الله خلافه ، ثم إنه عرض عليه الإسلام فأبى وقال أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعنى المسيح فى أيديكم وما أظن إلا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه . قال عامر بن هبار : وخرج إلينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا وأقمنا عندهم إلى الليل . فقال شيخهم الذى أشار عليهم بقبض القس الرومى لخالد : أيها السيد إنى قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد . فقال أنا خالد بن الوليد المخزومى . فقال أنت وحق دينى الذى فتحت بلاد الشام وأذللت ملوكها وبطارقها وأن صفتك عندى ثم إنه دخل الدير وأتى ومعه سفط ففتحه وإذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)وزيه وصورته وصورة أبى عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف فى يده مشهور . قال ما زلت أسمع أخبارك كلها فلم عزلك عمر بن الخطاب وولى غيرك . فقال خالد : اعلم أن عمر هو الإمام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلا نخالفه فإن الله أمرنا بذلك فى كتابه فقال تعالى ـ ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ [1] فطاعته فرض علينا لأنه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن

(١) سورة النساء : الآية : ٥٩ .

المنكر وإنا قد وجهنا إليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد فى الدنيا إلا زهدا ولا أثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشى فى سوق المدينة متواضعا راجلا ، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل فى الرعية دثاره وما زال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل ، فظ فى دين الله غليظ على أعداء الله قائم بشعائر الله لا يستحى من الحق ولا يداهن الخلق . فقال القس أكانت له الهيبة على عهد نبيكم ؟ . قال خالد نعم سمعت سعد بن أبى وقاص يقول « استأذن يوما عمر فأذن له فدخل ورسول الله ﷺ يضحك . فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله قال عجبت من هؤلاء اللواتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : أنت أحق أن يهبنك وقال لهن يا عدوات أنفسكن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ فقلن نعم أنت فظ غليظ دون رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غيره » قال فلما سمع القس ذلك قال بركة نبيكم عادت على إمامكم وعليكم فقال خالد وما يمنعك من الدخول فى ديننا . فقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء ، ثم قال لخالد أريد أن أعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم . قال وأخرج لهم صلبانا كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن قيس وبشار بن عون وتزيوا بزى الذين قتلوهم من آل غسان وارتحل خالد بعد ما وكل بالدير عشرة من أهل وادى القرى لئلا يخرج أحد بأخبارهم ويقربوا للملك بذلك . قال وعدنا إلى سياق الحديث، فلما أشرف أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدوا الزنانير ورفعوا صليبا من فضة كان قد أخرجه لهم القس فلما صقعوا للحجاب ركبوا وساروا حتى وصلوا إلى سرادق الملك فترجلوا وقد أخذوا لهم إذنا فأذن لهم فدخلوا ودخل أولهم رفاعة وبشار ومن معه وخدموا الملك وسجدوا له ولم يدخل هو ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق ،وان الملك لما رآهم قال لهم : يا معاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم وتقريبنا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عونا على هؤلاء العرب فإن نصحتم لنا فى دولتنا شاركناكم فى مملكتنا وقاسمناكم فى ملكنا ونعمتنا . فقال له رفاعة أبشر أيها

الملك سوف ترى ما نبذله فى محبتك يوم الحرب . قال : فخلع عليه وخرج من عنده وأمرلهم بخيام تضرب فى عسكرهم .

قال حدثنا عامر بن أوسع عن جرير بن صاعد عن نوفل بن غانم عن سهل بن مسروق . قال : لما قدم الجيش الذى وجة عمر بن الخطاب مع رفاعه وبشار وكان من أمرهم ما ذكرناه ، ونظر إليهم عمرو بن العاص ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ أقبلوا ينظرون إليهم وإلى زيهم . فقال معاذ لعمرو : ما هؤلاء من المتنصرة وإن نفسى تأبى ذلك . فقال عمرو والله يا أبا عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله وإننى نظرت فيهم واحدا واحدا ورأيتهم بزى وادى القرى وزى الطائف . فقال شرحبيل بن حسنة وأنا نظرت أعجب من ذلك أنى رأيت خالد بن الوليد فى جملتهم ولاحت لى عمامته وقلنسوته وثيابه التى كانت عليه يوم دخول طرابلس . فقال يزيد بن أبى سفيان أنا والله رأيت مالكا الأشتر النخعى وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه ، ثم قالوا لا بدّ أن ينكشف لنا خبرهم على جليته فهم فى الحديث إذ قد آتاهم نعيم بن مرة ، فلما رأوه تهللت وجوههم فرحا وسرورا ، فلما وصل إليهم وسلم عليهم وحدثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرا ، وقال بعضهم لبعض أيقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم ، فإذا سمعتم التكبير فى عسكر العدوّ فبادروا إليهم . قال ابن اسحق ولله فى خلقه تدبير ، وذلك أنه لما جن الليل جمع أرسطوليس بن المقوقس أرباب دولته ، وقال لهم قد ضاق صدرى من هؤلاء العرب ، وقال لهم : قد غلا السعر عندنا ، لأن أهل البلاد قد أجلت من خوفهم وأن خيلهم تضرب إلى الريف من هذا الجانب وإلى الصعيد من هذا الجانب والنوبة والبجاوة ما يأتينا منهما أحد للفتنة التى هى بينهم والرأى عندى أن نحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم . قالوا أيها الملك هذا هو الرأى . فقال: أخرجوا السلاح وفرقوه على من ليس معه سلاح .. هذا ما جرى عنده ، وليس عنده خبر بما جرى فى قصره بعد .

نتائج المعركة

(قال ابن اسحق) وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان

للمقوقس أخ شقيق واسمه أرجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لا يقطع أمرا دونه وكانا إذا ركبا لا يفترقان وإذا جلسا يجلسان معا على السرير وكان المقوقس قد دخل فى خلوته التى ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك من يعرفه لما يخرج من خلوته ، فلما كان فى هذه النوبة استبطأه فأتى إلى ابن أخيه فرآه على السرير . فقال له ما فعل الملك ؟ فقال إنه فى خلوته إلى الآن وقد رأى أن طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد أمرنى أن أكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم أو صلحهم قال فكتم أوجانوس الأمر فى نفسه وعلم أن أخاه قد قتل وكان أرجانوس ممن يعتقد نبوة محمد ﷺ ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب ، وأن الملوك تضمحل فى أيام أصحابه وسيزلون على البلاد فترك أرجانوس الأمر موقوفا ولم يبد ما فى نفسه لأحد ، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع أرجانوس الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد فى قصر الشمع ، وقال لهم : اعلموا أن العقل هو عمدة قوم ابن آدم ، لأن الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وإن أخى قد قتله ولده لا محالة وقد كان محبا لكم ومشفقا عليكم ، وعلموا أن هؤلاء العرب قد كان قدامهم من ملكه أعظم من ملككم وما ثبت بين أيديهم ، وليس بين دولتكم وبين أن تزول وتضمحل إلا أن يلتقى هذان الجيشان، وإن ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا فى مساكنكم وأيتموا أولادكم . فقالوا أيها الملك فما يكون عندك من الرأى وما تفعل ؟ قال إنى أرى من الرأى أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هذا القصر ولا تدعوا أحدا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه فإنهم لا يقدرون أن يقاتلوكم ، والعرب من ورائهم ، وإنه يعدى إلى الجانب الغربى ويمضى إسكندرية ونعقد لنا صلحا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك ، فمن أراد يتبعهم ومن أراد يعطيهم الجزية . قال فاستصوبوا رأيه وعلموا أنه نطق بالحق ، كان أرجانوس له فى سرايته ألف مملوك . قال : فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وغلق أبواب قصر الشمع وفعل ما فعل وليس عند ابن أخيه خبر إلى أن ذهب من الليل نصفه أو أكثر فجاء إليه بعض خدمه وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه . قال فبينما هو فى حيرة فى أمره إذ كبر خالد بن الوليد ومن معه

فى وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وحملت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف ، فلما نظر أرسطوليس إلى ما نزل به والكبسة التى وقعت بعسكره لم يكن له دأب إلا أن ركب وأحدقت به مماليك أبيه وأرباب دولته وطلبوا الهزيمة وقصدوا البحر وعدّوا الجانب الغربى وطلبوا إسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الموبذان الباقى ومعه ثلاثة آلاف من عسكره ، فلما أن صاح الصائح فى مصر بأن الملك انهزم وما ثبت أحد من عسكر القبط وولوا والسيف يعمل فيهم وغرق منهم فى البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين وانهزموا .

(قال ابن اسحق) حدثنى من أثق به أنه قتل فى تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون أثقالهم وماكان فيها من الأموال ، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها وأحاطوا بقصر الشمع فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس ، وقال لهم يا فتيان العرب : اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر وقد فعلت فى حقكم كذا وكذا ولولا حيلتى على ابن اخى لما انهزم منكم ، وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم إليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء ، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدى الجزية ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم . فقال له معاذ بن جبل : قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصلح أعمالنا واتباعنا للحق ، وإنا ما قلنا قولا إلا وفيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر ، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم ، ومن بقى منكم على دينه فلن نكرهه ومن اتبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا ، فلما سمع أرجانوس ذلك نزل إليهم بالمفاتيح فأمنوه وأمنوا من كان معه فى القصر ، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم : إن الله قد نصرنا عليكم ، وقد انهزم ملككم منا وأنتم الآن فى قبضتنا وقد صرتم مماليكنا ومن أسلم منكم قبلناه ومن أبى استعبدناه ، فقالوا أيها الملك ما هكذا بلغنا عنكم . قال وما الذى بلغكم عنا؟ قالوا سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة فى قلوبكم وأنتم تعفون عمن ظلمكم وتحسنون إلى من أساء إليكم وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولو كان الأمر إلينا لاتبعناكم فارفقوا بنا

وانظروا فى أحوالنا ، فقال عمرو لأصحابه وللأمراء : ما ترون من الرأى فى أمر هؤلاء القوم ؟

فقال شرحبيل بن حبنة اصنع ما أمر الله به من العدل فيهم وأحسن إليهم وطيب خواطرهم فإننا إذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى بما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولا حرب ، فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليد والمقداد وعمار ومالك وربيعة ويزيد : القول الذى قاله كاتب وحى رسول الله ﷺ هو المعمول به ، فقال عمرو لأهل مصر : قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منّة منا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة ، وفى السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم قبلناه ، قال فلما سمع أرجانوس بن راعيل كلام عمرو ، قال : لقد أنصفت وأن الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، واشهدوا على أن كل ما تركه أخى من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة منى إليكم بما فعلتم مع أهل بلدى . قال فلما نظر أهل مصر إلى أرجانوس وقد أسلم دخل أكثرهم فى الإسلام ، وعمد عمرو إلى الكنيسة وعملها جامعا وهو المعروف به إلى يومنا هذا ، وجمع الأموال التى أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان فى قصر الملك وأخرج الخمس وأعطى كل ذى حق حقه ، ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية ، وسلم المال والكتاب له وسير معه مائة فارس وأمره بالمسير إلى المدينة ، فاستلم الخمس وسار حتى قدم المدينة وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، فلما قرأه سجد لله شكرا وأمر بالمال إلى بيت المال . فقال علم بن سارية ، يا أمير المؤمنين إن عمرا يسلم عليك ويقول لك أن القبط كانوا استسنوا سنة فى نيلهم فى كل سنة وذلك أنهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء فى النيل يأخذون جارية من أحسن الجوارى ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها فى البحر فيأتى الماء ويفى النيل وقد قرب ميقات ذلك ، ولا يفعل عمرو شيئا إلا بإذنك . قال فكتب عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد فإن كنت مخلوقا لا تملك ضرا ولا نفعا وأنت تجرى من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك ،وإن كنت تجرى بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام . وأمره أن يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة إليه ثم إنه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالسلام عليك وانى أحمد الله إليك وأصلى على نبيه ،وإذا وصل إليك كتابى فاطلب أعداء الله حيث كانوا ، وإياك أن تلين جانبك لهم وانظر فى أحوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت ، واطلب العفو بالعفو عن الناس وأجر الناس على عوائدهم وقوانينهم وقرر لهم واجبا فى دواوينهم وأعل رسوم العافية بالعدل فإنما هى أيام تمضى ومدة تنقضى ، فإما ذكر جميل وإما خزى طويل ، ثم إنه سلم الكتاب إلى علم ابن سارية فسار هو ومن معه إلى أن قدموا مصر وسلم الكتاب إلى عمرو ، فأما كتابه فقرأه على المسلمين ، وأما كتاب النيل فإنهم قد كانوا عدوا ليالى الوفاء ، وقد يئس الناس من الوفاء فى تلك السنة ، فمضى عمرو إلى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحد ببركة عمَرين الخطاب، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر (رضى الله عنه) .

حدثنا محمد بن يحيى بن سالم عن عدى بن يحيى بن عوف قال : لما بلغنا أن عمرا فتح مصر وأتى إلى الكنيسة المعظمة عندهم وجد فى مذبحها بيتا مغلقا وإذا فيه صورة من الفضة وإمام الصورة شخص آخر وفى يده أعلام وهى على صفة الصورة التى وجدها النبى ﷺ فى الكعبة لما فتح مكة ، فدعا عمرو بالقسوس ، وقال لهم : ما هذه الصورة ؟ قالوا له هذه صورة إبراهيم وأبيه آزر ، فتبسم عمرو وقال ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ [1] فقال معاذ بن جبل لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى فيقول آزر : اليوم لا

(١) سورة آل عمران : الآية : ٦٧

أعصيك ، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من هذا ؟ فيقول الله حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول له إبراهيم انظر إلى ما تحت قدميك ، فينظر إلى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه فى النار » قال ثم أمر عمرو بالصورتين فكسرتا، وعبر عسكر المسلمون إلى الجانب الغربى، وقد تقدم خالد فترجل إلى نحو الإسكندرية وتقدّم على مقدّمته عبد الله بن يوقنا وسار يوما وليلة هو وبنو عمه وهم بزى الروم .

ذكر فتوح مدينة مريوط

قال ابن اسحق وكان قد بلغ الموبذان الذى مع الثلاثة آلاف وهم فى مدينة مريوط ، وقد حصنها ما حصل ، فلما قدم عليه يوقنا ، وقال له الموبذان : ما الذى أقدمك علينا ؟ فقال يوقنا إن المسلمين وجهونى إليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك ويأمرونك بتسليم هذه المدينة إليهم ولك الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومن أردت ، ولك الخيار فى المقام تحت يد الإسلام أو الانفصال فإن اخترت المقام فلا مانع وإن أردت المسير أوصلناك إلى أى موضع أردت ، فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكا . وقال : وحق دينى أن الغدر شعاركم والمكر دثاركم ، فلا فلح من آمن لكم ، وأما أنا فلا أخون الملك فى بلده وأنا وهو فى أرض واحدة وسوف أبعث إليه بأن أقدم إليه وأساعده عليكم جزاء بما عملتموه من الخديعة وستعلمون على من تدور الدائرة ومن يكون المغبون فى الآخرة وأنت يا معشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أمّ النورِ وخرجتم من ملة الحواريين وأردتم هؤلاء العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد ولن يغنوا عنكم شيئا وحق المسيح لأبعثن بكم إلى الملك فيقتلكم على كفركم ، وكان يوقنا قد ترك جماعته ومضى فى عشرين رجلا منهم لعله يعمل عليه حيلة ، فلما دخل عليه أنزله فى دار الضيافة فوضعوا سلاحهم ، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهم وأمر غلمانه أن يكونوا على حذر وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك أن يرسلهم إلى الملك إلى الإسكندرية ورماهم فى بيت مظلم فى دار إمارته وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكل بهم جارية اسمها رينا وهى أخت مارية التى أرسلها المقوقس إلى رسول الله ﷺ .

وكانت أختها شقيقتها وسلم إليها المفاتيح لمعزتها عنده وقال لها احفظى عليهم لأرى ما أنظر فيهم قال فلما جن الليل واشتغل عدو الله المويذان بالشراب قال فصبرت رينا إلى أن غرق فى سكره هو ومن معه وناموا وأمنت على نفسها فأتت إلى الباب وفتحت على يوقنا وأصحابه وقالت لهم أبشروا لا خوف عليكم فإن الله قد جعل رحمتكم فى قلبى وأنا أخت مارية التى أهداها المقوقس لنبيكم وإنى أريد منكم أن توصلونى عند أختى مارية . فقال لها يوقنا أبشرى بما يسرك ، ولكن أخاف عليك من عدو الله فما ترين ؟ فقالت والله ما جئتكم حتى سكر ونام . فقال يوقنا فعرفينا الطريق التى نسلكها إلى قومنا قالت إن هذا المكان فيه سرب يخرج إلى ظاهر البلد وهو مبنى من قديم الزمان وبابه الخارج مبنى عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن إنه قبر ، وإن الذى بنى هذه المدينة امرأة يقال لها فمعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التى وراء التل وهى كأنها قصور مشيدة ، وكان فيها أناس سكنوها . فقال يوقنا : افعلى بنا ما يقربك إلى الله تعالى ورسوله ولعلك أن تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب إلى أصحابنا ونأتى بهم من هذا ما دام المويذان سكران وهو نائم ، فقالت : سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى غير أنى أريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوقوا .

(قال الراوى) وقد مضت رينا أخت مارية وأشرفت على المويذان . فإذا هو ومن معه صرعى من الخمر فتركتهم وعادت إلى باب السرب لتفتحه ، وإذا هى تسمع وراءه حسا ففزعت ووقفت تسمع.

(قال) حدثنى عبد الرزاق بن يحيى عن سليمان بن عبد الحميد عن سفيان الأعمش عن أوس بن ماجد ، وكان ممن شهد فتوح مصر والإسكندرية . قال لما نزل خالد ابن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنا وقال لأصحابه إنه من وقت أن بعثته برسالتى إلى مريوط للمويذان ما عاد قالوا أيها الأمير إنه من وقت ما دخل إليه ما خرج ونحن فى انتظاره ، فعلم خالد أن يوقنا مقبوض عليه فبات مهموما من أجله ، وكان خالد صاحب همة وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من كل أقليم

وقد اصطفاهم لنفسه وهو يحسن إليهم وأينما ذهب يكونوا معه ليأتوه بالأخبار فبينما هو فى غم بسبب يوقنا ، وإذا هو بواحد منهم قد دخل عليه وأعلمه أن ولد الموبذان قد أتى من إسكندرية من عند أرسطوليس ومعه خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس ، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك العسكر ومامعه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد . قال فلما سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه هماما وأربعة ممن يعتدُّ بهم وأبعد وقعد على سفح التل من نحو إسكندرية ونظروا إلى التل وإذا بولد الموبذان ومعه الخادمان قصدوا إلى وراء التل عند تلك المقابر التى وصفتها ريتا ليوقنا وقصدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرق جماعته من أربع جهات القبة وكبسهم وإذا هم قد فتحوا طبقا فى وسط القبة فأخذهم خالد فلما رآه الموبذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد إن صدقتمونى أمنتكم وإن لم تصدقونى رميت رقابكم . فقال الغلام أنا أصدقك أنا ولد الموبذان وكنت عند الملك فى إسكندرية وقد أنفذ معى خمسمائة فارس عونا لأبى وحفظا لهذه المدينة فنحن فى الطريق ، وإذ قد جاءتنى الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوقفت العسكر وأتيت إلى هذه القبة ، فقال له خالد : وما الذى تريد من هذه القبة ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال ؟ قال لا قال فما تريد منها . قال الغلام إن أمنتنى قلت لك الحق .

فقال له خالد قد أمنتك على نفسك فقبل يده وقال يا مولاى أريد أمانا لأبى ، ومن يلوذ به فأعطاه ، فقال : اعلم أن هذه القبة على سرب والسرب ينتهى إلى دار الإمارة ودار الإمارة فى وسط هذه المدينة ، قال فلما سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحا وسرورا وقبض على الغلام وعلى الخادمين وأمرهما مع واحد آخر ممن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل هماما إلى العسكر وأمره بأن يأتى بهم فى السرب وأن يأتوا معهم بالنار والزيت والقناديل وأن يسرع بذلك وكان ذلك التل عاليا والذين فى المدينة لا ينظرون ما وراءه ، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا فى السرب وابن الموبذان أمامهم فوصلوا إلى الباب وإذا بريتا عند الباب تريد فتحه ليوقنا ومن معه ، فلما سمعت حسهم قالت من أنتم فقال خالد لابن الموبذان كلمها فقال أنا فلان ابن الموبذان افتحى ولا تعلمى أبى قال فلم

يبق لها بد أن تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على رينا . فقالت لهم يا قوم دعونى فإنى أردت أن أخلص أصحابكم وجئت لأفتح لهم هذا الباب وأنزلهم إليكم وتملكوا هذه المدينة من ههنا ، وقد أتى بكم رب العالمين وأنا رينا أخت مارية زوجة نبيكم ، فلما سمع خالد فرح وقال لها وأين أصحابنا ؟ فأتت بهم عندهم فحلوا وثاقهم وأتوا إلى دار الإمارة فوجدوا الموبذان لا يشعر بنفسه من الخمر فوكل به جماعة وأمر الباقى أن يملكوا السور وقبضوا على الحرس ونزلوا إلى الأبواب وكان لها بابان فكسروا أقفالهما وفتحوهما وأرسل إلى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكل فى حالك الليل ، فلما أصبح الصباح استيقظ الموبذان ومن معه وإذا بالمسلمين حولهم ، وكل من فى المدينة قد أسر . فقال له خالد يا عبد الله لولا أنى أعطيت ولدك الأمان كنت قتلتك شر قتلة ، ولكن خذ أهلك وانصرف فإننا قوم إذا قلنا قولا نعمل به ، وفهم الموبذان أن ولده قد دلهم على السرب ، فلما خرج الموبذان بأهله قال ولده لخالد يا مولاى إن أنا مضيت معه قتلنى ولست أريد بغيركم بدلا ، وأنا أقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقال له خالد إن قصر أبيك وما فيه لك ، وعرض خالد الإسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم ثم إن خالدا قال ليوقنا رحمه الله : أبشر من الله بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة ، فقال والله ما فتحها إلا بفضله وببركة نبيه ﷺ ، فكتب إلى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معولون على الدخول إلى إسكندرية وأرسل الكتاب إليه .

قال ابن اسحق : وأقام خالد بمريوط لأجل ذى الكلاع الحميرى لأنه مرض معه ، وكان مرضه شديدا فجلسوا عنده شهرا ولم يفارقه خالد فقدّر الله له بالوفاة فحزنوا عليه حزنا شديدا عظيما ، فكان ذو الكلاع ملك حمير ، وكان قبل دخوله فى الإسلام يركب لها اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم . قال أبو هريرة الدوسى (رضى الله عنه) : ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشى فى سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم من اليمن إلى الجهاد فى أيام أبى بكر الصدّيق (رضى الله عنه) ، فلما مات رثاه ولده تنوخ بما رثى به حمير أباه سبأ بن يشجب فى الزمن المتقدم وهو :

عجبت ليومك مـــاذا فعل وسلطان عـــزك كيف انتقل
وسلمت ملكك ذا طائعـــا وسلمت للأمـــــر لما نزل
فيومـــك يوم رفيع النزال ودورك في الدهر دور رحـــل
فلا يبعدنك فكل امـــرىء سيدركه بالسنين الأجـــل
لئن صحبت نائبات الزمـــان وشت مع الدهر وجـــه الأمل
لقد كنت بالملك ذا قـــوة لك الدهر بالعز عـــان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى نقلت وعـــــزك لم ينتقل
فطحطحت آفـــاقه والمدى وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهـــر إطلاقه ونلت مـــن الملك ما لم ينل
وحملت عـزمك ثقل الأمور فقام بها حـــــازم واستقل
صحبت الدهـــور فهنأتها وما مـــــر عيشك فيما فعل
بنيت القصـور كمثل الجبال ذهبت فلم يبق إلا الطـــلل
نعمنا بأيامـــك الصالحات ومشربنا بك وبل وطـــل
تؤمل في الدهر أقصى المنى ولم تدر بالأمر حـــين نزل
فزالت لعزمك شـــم الجبال ولم يك حــــزمك فيها هبل

ذكر فتوح إسكندرية

قال : وعوّل خالد على المسير إلى إسكندرية .

حدثنا زياد بن أوس الطائي عن معمر بن الرشيد ، قال لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط ، قال له عيونه إنه لما انهزم ابن المقوقس وأتى إلى إسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه ، قال وكانت اسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثيرا والمراكب فأرسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين ، فقالوا سمعا وطاعة ومضوا إلى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانا كثيرة فسألوا من كان خبيرا بالبلاد ، فقالوا هذه نيران المسلمين النازلين ههنا ، فقالوا : هذه حاجتنا التي جئنا في طلبها ، فنزلوا وقصدوها وإذا بها

حلل من حلل دوس بنى عم أبى هريرة ، وكان معهم طائفة من بجيلة وفى جملتهم ضرار بن الأزور وهو مريض وأخته خولة معه تمرضه وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لأجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم ، لأن دولة الروم قد انصرمت وأيامهم قد ولت ، فما فطن القوم إلا وقد كبسهم القبط فى حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم رجالا وأخذوا منهم أسارى ومن جملتهم ضرار وأخته وأخذوا ما قدروا على حمله وأتوا بهم المراكب ، وكان جملة من أسروه من الرجال والنساء والأولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم فى المراكب وأقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين إسكندرية .

(قال ابن اسحق) : وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها فى وسط البلاد وهى قريبة من الأردن والشام والسواحل ، وإن أبا هريرة قد أتى ليزور قومه فى تلك الأيام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبونه لشجاعته فأتى أبو هريرة ومعه حليف له من بنى بجيلة فأصبحنا تلك الليلة فى الحى وإذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا أُناسا مجروحين فسألوهم فقالوا ما عندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى وما نعلم من أىّ الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم فى مراكبهم . فقال أبو هريرة : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، وساروا إلى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرا ، فلما عولوا على الرجوع إذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الأمواج ، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل واذا به أمير دوس وحيان ابن عم أبى هريرة ، فلما رآه ترجل له وعانقه وهنأه بالسلامة وقال له يا ابن عم ما وراءك . فقال هجم العدو علينا ليلا وأسرونا وساروا ، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا ، وقد نجانى الله على هذا اللوح . فقال له : ومن أعداؤكم قال من قبط مصر ، وإنى سمعتهم يذكرون إسكندرية كثيرا . قال فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه إلى مكان الحلة حتى يلمّ شعث الناس ويداوى المجروحين فجمع ما تركوه وأتى بهم إلى الرملة . وأما أبوهريرة فأتى أبا عبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى ، وقال أعوذ بالله من الساعات الرديئة ، ثم قال والله لئن وصلوا إلى إسكندرية ما يبقيهم صاحبها طرفه عين

ويموت ضرار ويمضى دمه هدرا وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب الإسكندرية وأنه أسر ألفا ومائة من جملتهم ضرار وأخته ، وكانت تداويه وهى عنده فإذا وصل إليك كتابى هذا فاجتهد فى خلاصهم وان وقع فى أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير إلى مصر ، فلما قدم زيد الخيل إلى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص ، فلما قرأه صعب عليه ، وكان يحب ضرارا فأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد ، وكتب إليه يحثه بالمسير إلى إسكندرية وأنه يفتقد حال الأسرى ، فلما وصل الكتاب إلى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة .

حدثنا ابن اسحق قال حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزى عن سلمة عن عبد الله بن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه ، قال لما أخذت النصارى حلل دوس وضرارا وأخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقى إلى إسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته أيها الملك لا تعجل عليهم ، واعلم أن العرب متوجهة إليك ولا بد لنا من قتالهم فإن أسر أحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادى به ولعل أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال ادفعوا هؤلاء الأسرى إلى دير الزجاج وأرسل معهم ألفى فارس يوصلونهم إلى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد الى الدير قبل وصول الأسارى ومن معهم ، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مباحا وكان تلميذا لبحيرا راهب بصرى ، وكان مؤمنا بالله وبأنبيائه . فقال له خالد يا راهب كيف ترى الدنيا . قال تنحف البدن ، وتجدد الأمل ، وتقرب المنية ، وتقطع الأمنية قال فما حال أهلها قال من نال منها شيئا نفضته ومن فاته منها شيء حسرته ، قال فما خير الأصحاب فيها قال العمل الصالح والتقى ، قال فما شر الأصحاب فيها ؟ قال اتباع النفس والهوى . قال خالد صدق رسول الله ﷺ إذ قال الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ، ثم قال كيف طابت لك الوحدة ؟ قال ألفتها قال فهل نلت منها فائدة . قال نعم : الراحة من مداراة الناس . قال فما أحسن هذا الاعتقاد لو كان فى دين الإسلام والتوحيد ، قال فما أعرف غيره ، قال فما

تقول فى محمد بن عبد الله ﷺ ؟

قال : سيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفى الأصفياء وحجة الجبار على الورى ، قال فلم لا تكون فى بلاد الإسلام فهى أصلح لك من ههنا ، قال قلبى ملوث بحب الدنيا . قال خالد أعندك خبر بالعرب الأسرى الذين أرسلهم الملك هنا ، قال لا والله ، ولكن مر بى البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتما ؟ فقالا من الإسكندرية وإننا رسل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وإنه أرسلنا إلى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة وإنا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك . فقال لخالد لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام قال خالد نحن هم . فقال الراهب إن أخباركم عندى فى كل وقت وأعلمك أنى رأيت نبيكم ﷺ وهو فى قافلة قريش وأنا عند بحيرا ، فلما مات بحيرا انتقلنا إلى هذا الدير ، واعلموا أنه ما بقى من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولا بأرض الرمادة أحد ولا ديار من راهب ولا قس إلا وقدم لزيارتى ويسألنى عنكم وعن نبيكم ، ويقولون لى أنت كنت على طريقهم ورأيت نبيهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم إلى ما ظهر من معجزات نبيكم ﷺ ، ولقد جرى بينى وبين راهب منهم بالقرب مناظرة ، وقال لى أن النبى الذى بشر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا ، فقلت له بلى هو والله النبى العربى . فقال لى إننا سمعنا فى العلم أن الرسول الذى يظهر من أرض الحجاز يعرج به إلى السماء ، وما سمعنا أن هذا عرج به ، فقلت بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به إلى السماء وخاطب العلىّ الأعلى ، وأصبح فأعلم بذلك قريشا ، ثم قال لخالد : اعلم أن فى وسط هذا الجبل ديرا يقال له دير المسيح ، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب ، وأنه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم ، فأخذ القافلة وعرى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله ، ووضعه عنده فى العذاب الشديد ، والرجل يستجير فلا يجار ، ويقول له ما أطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للصلبان ، ثم إنه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء ، ويقول له هذه صفة

نبيكم وينصبه قباله ويصب فضلة كأسه على رأس هذه الصورة ، وذلك الرجل يستجير من فعاله . قال فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبى سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة ، وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا إلى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا إليه ، وإذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح ، وقد قصد الى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين ، فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا إليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر ، وقال لهم هاتوا المحمدى ، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر ، فلما رآه قال له : أنت قد غلبتنى بتجلدك على العذاب، وحق دينى لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك إلى دينى ، فقال له اصنع ما بدا لك فإنى أعلم أن الكل بمشيئة الله وبارادته ، وإنى صابر على مر البلاء وما أرجع عن دين محمد المصطفى . قال فهمَّ أن يقوم إليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ، ولم يكن لأهل الدير شرب إلا من تلك العين ، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير ، وقالوا : ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم ، وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان ، فقال خالد : سلموا لنا مال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم فى ديركم ، ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته، وأخذوا الأسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت ؟ فقال أنا أمية بن حاتم أخو عدى ، وقد أخذنى هذا فى أواخر أيام أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فانى كنت طالب برقة مع قافلة ومعى بضاعة فأخذها وأخذنى ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . قال فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم إلا والراهب صاح ، وقال لهم استعدوا للقاء عدوكم فإنهم قربوا منكم ، فتجهزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا ، وضجيج الأطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات ، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم ، وزئير الفرسان ، وهفيف الصلبان والعربيات ، تنادى بالويل والهوان ، وخولة بنت الأزور على مقدمة الأسارى وهى تقول :

جل المصاب وزاد الويل والحرب   وكل دمـــع من الإجفان ينسكب

ومادت الأرض مما قـــــد بليت به حـــتى توهمت أن الأرض تنقلب
جالت يد القبط فينا عـــــند غفلتنا واستحكم القبط لما زالت العــرب
لهفي على بطل قد كان عـــــدتنا فيه العفاف وفـــيه الدين والأدب
قد كان ناصرنا فى وقت شـــــدتنا أعنى ضرار الذى للحرب ينتدب
فيه الحمية والإحســـــــان عادته فيه التعصب والإنصاف والحسب
لو كان يقــــــــدر أن يرقى مراكبه كان العــدو فنى والحرب تلتهب
أو كان خالد فينا حـــــاضرا وطنا لزال عــنا الذى نشكو وننتحب
لو كان يسمع صوتى صاح بى عجلا مهلا فقد زال عنك البؤس والعطب

قال : فلما سمع خالد نداءها ، قال : لبيك يا بنت الأزور ، وقد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط ، فما كان يبعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلمائة ، وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار ، وهنئوه بالسلامة وودعوا الراهب ، بعدما كتب له خالد كتابا بأن له طعام الإسكندرية صاعا ، ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ، ثم إنهم ساروا طالبين الإسكندرية وهم سائقو الأسرى من القبط بين أيديهم . قال وكان الملك أرسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره ، وضرب خيامه خارج باب السدرة . قال فلما قدم المسلمون وقع الصياح بقدومهم ووقع الخوف فى قلب الملك وعسكره وقالوا له : أيها الملك ما الذى تدبر فى أمر هؤلاء العرب ؟ قال وما عسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم ، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولا تخافون العار ، وإذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالكم ولم يرهبوا قتالكم ولا مانع يمنعهم ، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم إلى دير الزجاج عندى لكنت صالحتهم باطلاقهم ودفعناهم عنا ، وقد فرطنا أيضا فى الألفين الذين أرسلتهم معهم ، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا . فقال له وزيره : أيها الملك هل لك أن ترسل إليهم وتتحدث معهم فى أمر الصلح ، ونحن نسلم إليهم أصحابهم . فقال انهم لن يقبلوا منكم رسولا منذ صبأنا عليهم ببحر الحصى ، فبينما هم فى ذلك وإذا بصاحب البحر ، قد أتى إليه وهو الموكل بالنار ،

وأخبره أنه رأى مركبا قد ظهر من قبل الغرب ، ولا أعلم من أين أتى . فقال لا شك أنه من صاحب برقة الملك كيماويل ، وقد أنجدنا ، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيب مليح الشيبة ظاهر الهيبة ، وعليه ثياب من الصوف الأسود ونزل معه عشرون شخصا من القسوس والرهبان ، فلما نزلوا إلى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والحجاب وعظموا شأنهم وأركبوهم وساوا بين أيديهم إلى أن أوصلوهم إلى الملك وأدخلوهم عليه فقام لهم وعظم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير .

(قال الراوى) : وكان أرسطوليس قد أرسل هدية إلى الملك صاحب برقة ، وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قيصر وإنهم قد أتونا ، ومن جملة ما أرسل له يقول : أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال ، فما وهبت إلا واستردت ، ولا فرحت إلا وأحزنت ، فالمغرور من تشبث بذيلها واطمأن إليها ، والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقر أما ترى أيها الملك إلى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه ؟ وذلك عند ما رمته الدنيا بمصائبها ، وشتتته بسهام نكائبها بعدما كانت فى وجهه مشرقة ولا يخطر له هم الأعداء على بال ، وما ضربت لك هذا المثال إلا لعلمى أن الدنيا لا تبقى على حال ، وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد ، وأذلوا بسيوفهم العباد ، وقد أقاموا لهم شرعا بالسيوف الحداد ، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة إلينا ، وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك ، والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم ، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام .

(قال الواقدى) : فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والإسكندرية ؟ . فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى أشار إليه هو الحق وأن العرب ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور إلى بلادنا ، فابعث إليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة ، فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس أن يمضى فى أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب إسكندرية ، ثم إنه أرسل خادمه إلى عالم أرضهم والمشار إليه فى علم

النصرانية وهو البترك واسمه سطيس ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وكان تلميذ زيروسا وزيرسا تلميذ مرقس ومرقس تلميذ يوحنا ويوحنا أحد حوارى عيسى المسيح وكان هذا البترك سطيس مؤمنا بالله وموحدا وسمع بأخبار رسول الله ﷺ ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته أخباره ﷺ وإنه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لأحد مدة من الزمان ، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فما مرت به قافلة إلا واستخبرها عنه ويسأل عمن جلس بعده للمسلمين خليفة ؟ . فقالوا أبو بكر الصديق وبلغه موته وولاية عمر ، ثم بلغه فتوح الشام وقدوم الصحابة إلى مصر وفتحها ، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة وأرسل أخاه أرسل هذا البترك فى مركب يبشره بقدوم إسطفانوس إلى نصرته ، فلما وصل إليه وبشره فرح بذلك وقال يا أبانا أريد من انعامك أن تسير إلى هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبيهم وتدعوهم إلى الصلح وتعلمهم أن فى أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم إلى دير الزجاج ، فإن أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئا من مالنا واعقد لنا ولهم الصلح بأنهم لا يرجعون إلينا ولا يتعرضون لنا . فقال البترك سأفعل ذلك وأنى قد قرأت فى الكتب السالفة فوجدت فيها أن الله يبعث نبيا من أرض تهامة تعرض عليه مفاتيح الأرض وكنوزها فلا يلتفت إليها ولا يعيرها نظره ولا يختار إلا الفقر على الغنى وأن أصحابه يتبعون سنته وأنا أستخبر حالهم قبل سيرى إليهم . فقال الملك وكيف تستخبر حالهم يا أبانا ؟ . قال أيها الملك أرسل بغلة من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمانك أن يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين ، فإن أخذوها فنعلم أنهم يحبون الدنيا ولا يريدون الآخرة وإن ردوها فنعلم إنهم يطلبون ما عند الله . قال ففعلوا ذلك وأرسلوها وكانوا فى حندس الليل وكان فى الحرس شرحبيل بن حسنة ، فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال : إن أعداء الله يريدون اختبار ومعرفة أحوالنا إن كنا نطلب الدنيا أو الآخرة ، فوالله ما منا من يميل إلى ما يفنى وإنما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج**

فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [1] ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط . قال فلما رأوها صلبوا على وجوهم وقال الملك والله بهذا نصروا وخذلنا والله ان أبى كان على بصيرة من أمرهم ، ثم أمر البترك سطيس أن يتوجه إليهم فمضى ، فلما قرب منهم رأى أقواما قد هجروا الدنيا ، فمنهم القارىء ، ومنهم الذاكر ، لباسهم الصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لايعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم ، فلما دخل على عسكرهم سأل عن أميرهم وصاحبهم فدلوه على موضع خالد فقصده ، فلما وصل إليه وجده فى ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأوما إليه بالسجود فمنعه خالد . فقال له أنت أمير هؤلاء القوم قال كذا يزعمون أنى أميرهم ما دمت على الحق واتباع العدل والإنصاف والخوف من الله محسنا للمحسنين منهم مشددا على المسيئين منهم فمتى حدت عن هذه الأشياء فلا إمارة لى عليهم . فقال البترك أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى ابن البتول ؛ وإن الحق معكم لا يفاركم ، قال فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال : يا معاشر العرب أخبرونى عن نبيكم ؟ . فقال خالد إن الله أختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشا واختار من قريش بنى هاشم واختار من بنى هاشم عبد المطلب واختار من عبد المطلب عبد الله محمدا ﷺ الذى قال « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وقال : لما خلق الله العرش كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلما وقع آدم فى الزلة رأى على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال يارب من هذا؟ . قال ولدك يا آدم الذى لولاه ما خلقتك قال يارب فبرحمة هذا الولد ارحم هذا الوالد . فقال يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد فى أهل السموات والأرضين لشفعناك ، ثم إن الله جعل اسمه مقرونا باسمه وذكره مع ذكره ورسمه بما وسم به نفسه فقال ـ إن الله بالناس

---

(١) سورة الحديد : الآية : ٢٠

لرءوف رحيم ـ ، وقال في حقه ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ وقال ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ وقال﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ وقال ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وأن الله عز وجل رفع ذكره وعظم فخره وأعز قدره فقال تعالى ﴿**ورفعنا لك ذكرك** ﴾ وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال : يا محمد لا أذكر حتى تذكر فمن أحبك فقد أحبني ، ومن سبك فقد سبني ، ومن جحدك فقد جحدني ، ومن أنكر نبوّتك فما عرفني وها أنا أشهد على نبوتك . فقال عز من قائل ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم** ﴾[١] ، وقال في موضع آخر ﴿ **وكفى بالله شهيدا * محمد رسول الله** ﴾[٢] قال فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد إسلامه على يد خالد وحدثهم بأمره من أوله إلى آخره، ثم حذرهم من أخي صاحب برقة وأنه واصل ومعه أربعة آلاف فارس وأني قد سبقته في البحر، وهذا الملك القبطي يريد صلحكم ويقرر لكم على أنكم تصالحونه أن يعطيكم شيئا من المال ويسلم إليكم قوما من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة . فقال خالد ان أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع بنا شملهم وقد نصرنا الله على القبط الألفين الذين كانوا مع الأسارى فإننا أخذنا ألفا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ، ثم إنه عرضهم عليه وعرض الإسلام عليهم فأبى أكثرهم وأسلم بعضهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين ثم إن البترك عاد إلى صاحب إسكندرية وقال له هؤلاء لا نملك غرتهم لانهم حذرون من أعدائهم وعرفه بقصة أصحابه وانهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له يا أبانا ومن أين هؤلاء قال قد وقعوا بهم وخلصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة . قال فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط في يده وأيقن بإتلاف ملكه ، وقال لأرباب دولته وعسكره خذوا أهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك كيماويل صاحب برقة ، وقد أقبل عليكم ونقاتل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار

(١) سورة الرعد : الآية : ٤٣ .

(٢) سورة الفتح : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

نقية ويعطى الله النصر لمن يشاء وباتوا وهم معولون على القتال .

(قال ابن اسحق) ولقد بلغنى أن الملك نام بقية ليلته فرأى فى منامه كأن شخصا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم فى عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمر . فقال ابن المقوقس للأشقر من أنت ؟ قال ابن العذراء البتول أنا المسيح بن مريم ، وهذا الذى بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربى الأمى من آمن به فقد اهتدى ، ومن جحد نبوته فقد اعتدى ، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة .

(قال ابن اسحق) ولقد بلغنى أن برج القبة مما يلى باب البحر وذلك إن الإسكندر لما بنى الإسكندرية وسماها باسمه كان الخضر وزيره ، وهو الذى بنى الباب الأخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوى إليها فصار ذلك الباب مشتهرا به إلى يومنا هذا . قال ثم ان عيسى عليه السلام قال للملك فى نومه إن كنت من أمتى فاتبع شريعة هذا النبى وذهب عنه ، فلما أصبح حدث أرباب دولته بما رأى فى نومه فقالوا أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يماشى العربى وهو عدوه ، وإنما الشيطان قد خيل لك ذلك فلا تلتفت إليه قال فأصغى الملك إلى كلامهم ثم إنه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين . وأما الملك فإنه نظر إلى برج القبة وإذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم فى قلبه مما رأى فى منامه ، وقال والله ما هذا النور إلا نور المسيح ومحمد وأن هذا هو الحق لا شك فيه .

(حدثنا) ابن اسحق (حدثنا) عامر بن بشر عن الأحوص قال : كنت فى خيل خالد ابن الوليد يوم قتالنا على إسكندرية قال لما وقفنا فى ميدان الحرب وقف يقاتلنا فارسٌ وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لباس يلمع وتحته جواد عربى فنادانا بالعربية بلسان فصيح ، وقال يا عرب انصرفوا عنا فإنا لا نريد حربكم وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقى فى أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعونكم فيما أخذتموه منا ، ونحن لا نقلدكم فى البغى ونصالحكم صلحا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل فى رعيتنا وإن أبيتم صلحنا لقيناكم

بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية فنردكم على أعقابكم منهزمين ، وفى أذيال الذل متعثرين ، لأنه ما عدا أحد على أهل هذا الدين إلا ذل وانهزم لأننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والإنجيل والصلبان ثم سكت عن كلامه .

(قال الراوى) وكان هو الملك ابن المقوقس فكان أول من بادر إلى رد جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ فقال له : لقد افتخرت بما يؤدى صاحبه إلى البوار ، ويعقبه سوء الدار ، يا ويلكم أتفتخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمن ، ونحن أولو التقى والإيمان والفوز والرضوان ، والقبلة والقرآن ، والحج والإحرام، والصلاة والصيام ، والاجتهاد والإحرام ، ديننا أفضل الأديان ، ونبينا المبعوث بالمعجزات والبيان ، وبالآيات والبرهان والمنزل عليه القرآن ، ومن اتبعه نال من ربه الغفران ، ومن جحد صحبته باء بغضب الملك الديان الذى كان ولا مكان ، ولا دهر ولا زمان ، ولا وقت ولا أوان ، شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالأزلية ولذاته بالأحدية ، ولملكه بالأبدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتدبيره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع ، وليس بوالد ولا مولود ولا لذاته حد محدود ولا لبقائه أجل معدود خضعت الأعناق لعظمته وخشعت الأصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزته وذلت الأقوياء لقوته لا يحصى نواله ولا يفنى كماله ولا تبيد نعمه وأفضاله يا ويلكم كيف طاب لكم الكفر بألهيته والإشراك بربوبيته وأن تجعلوا له ولدا من خلقه وبريته وتسجدون للصلبان فى دار مملكته ولاتفزعون من عظمته ثم إنه قرأ ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ماءوجاها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾ (1) ثم قال شرحبيل إن لله عبادا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل ، وكانت إشارته إلى سور المدنية فغار السور فى الأرض وبانت المنازل والدور . قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك

---

(1) سورة فصلت : الآيات : ١٨ ـ ٢١

من عظيم القدرة فلوى عنان جواده إلى عسكره وأفئدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت، فلما جن الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله وحريمه وعياله وركب فى المراكب وسار يريد جزيرة أقريطش ، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأن الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا : إن الملك قد انهزم وما لنا من يدفع هؤلاء العرب . قال فخرجوا بأجمعهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ ووقفوا بين يدى خالد ، وقالوا إن الله قد نصركم بحق وأيدكم بصدق ، وإنا نريد منكم أن تعاملونا بالنصفة وتنظروا إلينا بعين الرحمة ، والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم ، فقال خالد ما فعل ملككم ؟ . قالوا انهزم بأهله وماله فى البحر فقال قوم قد أسكن الله الرحمة فى قلوبنا وبصرنا بمعالم ديننا ، وأظهرنا على أعدائنا ، وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الأجناس . فقال تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [(1)] ونحن نجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر من فتحنا بلادهم ، وقد أمسكنا عنكم ولو أردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا ، ولكن خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك إلى الإسلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ونشرط عليكم شروطا أن لا تركبوا دابة ولا تعلوا دوركم على دور المسلمين ولا ترفعوا أصواتكم عليهم ولا تبنوا كنيسة ولا صومعة ولا ديرا ولا تجددوا ما دثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا فى قضاء حوائجهم وما يريدون فى إصلاح شأنهم لا تعدلوا عن تعظيم أهله ، ومن أذنب منكم ذنبا حددناه ومن ارتد عن قولنا قتلناه ، وأن تشدوا الزنانير على خصوركم إظهارا لدينكم ، وأن لا تظهروا ناقوسا ولا صليبا ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرا لكم . فقالوا أيها الأمير ما نترك ديننا فقرأ ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لوكان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير * ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد**

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٠٨ .

استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور * ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[1] فقال أيها الأمير نريد أن تولى علينا رجلا منا حتى يجمع المال الذى تقرر علينا فيلمه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم ، فقال خالد إنى لا أعرف أحدا من أجاويدكم فاختاروا لأنفسكم برضاكم من أوليه عليكم فأشاروا إلى رجل منهم اسمه شيعا بن شامس ، وكان مقدما فى القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم ، وقال خذوا من كل واحد ما يحتمل حاله ومن كان معسرا ضعيفا فدعوه ، وأحسنوا أن الله يحب المحسنين . ولا تظلموا يتيما ولا فقيرا ولا أرملة، فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا فى دار الإمارة وبعث شيعا غلمانه يجمعون الناس .

قال حدثنا جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الدارانى عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد . قال وقع القسط على أهل إسكندرية فكان أكبرهم فى الحشمة وأغزرهم فى المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالا يزن قيراطين ولقد أتى برجل من أغنيائهم اسمه برأس لا يدرى ما يملك من المال والدبش والغنم وكان أبخل أهل زمانه ، فقال له شيعا قد وجب عليك فى هذا المال دينار ، قال وحق المسيح ما أنا بالذى يؤديه ولو مت وإن تصدقت به كان أفضل من عطيتى للعرب . فقال له قيس بن سعد : إن فى الذى نأخذه منكم صونا لأنفسكم وحفظا لدمائكم ونحن ما نأخذه على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالا لا حراما ياويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف ألست كنت أنت أول من قتل ومالك أول ما نهب ، وقال له شيعا خذلك الله ولعنك كل من فى إسكندرية يعلم أنك كنت أولا فقيرا لا تقدرعلى شىء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه . فقال ألست ورثته عن آباء كرام وأجداد عظام وما لله علىّ من فضل . قال فغضب قيس

---

(١) سورة لقمان : الآيات : ٢١ ــ ٢٤ .

وقام إليه وقمعه بمقرعة كانت معه ، وقال له كذبت يا عدو الله فلله ورسوله الفضل والحمد والمنة لله لأنه رزقنا من فضله وأسبغ علينا من نعمه ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ (١) ثم قال قيس : اللهم إنه جحد نعمتك فأزلها عنه . قال فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بان أغنامه قد هلكت جميعا وبساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت . قال قيس : الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله ﷺ وأبو هريرة بجانبي . قال « إن ثلاثة من بنى إسرائيل كان أحدهم أبرص ، والآخر أقرع والآخر أعمى . فبعث الله إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له أى شيء أحب إليك ؟ . فقال : الجلد الحسن والإبل ، فأتى الأقرع فقال له أى شيء أحب إليك ؟ قال الشعر الحسن والغنم ، وأتى الثالث فقال له أى شيء أحب إليك ؟ . فقال النظر والبقر . قال ثم إن الملك مسح بيده على جلد الأبرص فعاد أحسن جلدا وأعطاه ناقة عشراء فبارك الله له فيها حتى ضاقت بإبله الديار ، وأما الأقرع فأتاه ومسح بيده على رأسه فأنبت الله له شعرا حسنا وأعطاه نعجة عشراء فتوالدت إلى أن ضاقت بها تلك الديار . ثم أتى الأعمى ومسح بيده على عينيه فعادتا أحسن عينين وأعطاه بقرة عشراء فتوالدت إلى أن ضاقت بها الديار . قال ثم أتاهم ليمتحنهم ، فأتى الأبرص . فقال له كنت أبرص فقيرا لا تملك شيئا فأعطنى مما آتاك الله من هذه الإبل ناقة أتسبب عليها ، فقال له ما كنت فقيرا ولا أبرص وإنما ورثت هذا المال من آبائى . قال فذهب إلى الأقرع ، وقال له مثل ما قال للأبرص ، فقال مثل ما قال الأبرص ، فذهب الى الثالث ، وقال له مثل ما قال لصاحبيه . فأجاب وقال : بسم الله والله لقد صدقت .. فاذهب إلى هذا البقر فاقسمها بينى وبينك ، فقال له بارك الله لك فى مالك وقد رد الله صاحبيك كما كانا فإنهما كفرا نعمة الله » .

(قال الراوى) وجمعوا المال ومضوا به إلى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم أربع كنائس ، وكتب إلى عمرو بن العاص يعلمه بفتح

---

(١) سورة إبراهيم : الآية : ٣٤ .

إسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أباذر الغفارى وذهب إلى الإسكندرية وبنى فيها جامعا فى الربض ، وهو معروف بجامع عمرو الى يومنا هذا .

ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها

(قال الراوى) وأتت إليه أهل رشيد وفوّة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وإبيار والبحيرة وصالحوه على بلادهم . ثم إنه بعث المقداد ومعه أربعون فارسا وهم ضرار وشاكر ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير إلى دمياط وأمر عليهم المقداد بن الأسود الكندى فساروا إلى البرلس، ودمياط كان بها خال المقوقس ، وكان عسكره اثنى عشر ألفا ، وكان قد حصن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره ، قال فلما أشرف عليه الصحابة ونظر إلى قلتهم ضحك وقال : إن قوما ينفذون إلينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا لفى عجز وقلة عقل ، قال وكان ولده الأكبر فارسا مشهورا فى جميع بلاد النيل وكان اسمه هريرا وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس فى عينيه الفرسان شيئا ، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز إليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج إليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فالجأهم إلى حيطان البلد وهو كأنه النار فى الحطب فاستعاذ منه الجيش . ثم إن خال الملك وكان اسمه البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه ، وقالوا له أيها الحكيم العالم ما الذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء العرب ؟ .

فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد إلا هداه إلى سبيل نجاته وقاده إلى معالم مصالحه ، وهؤلاء القوم لا تذل لهم رايه ولا تلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد واشتهر أمرهم ، وعلا ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، وطافت الأرض دعوتهم ، فما أحد يقدر عليهم ، ولا يصل إليهم ، وما نحن بأشد من جيوش الشام ولا أمنع بلدا وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وإن الرحمة فى قلوبهم فعاهدهم فما عاهدوا عهدا وخانوا وما حلفوا يمنيا فكذبوا وقد بلغك ما هم عليه

من الدين والصيانة ، والصدق والأمانة ، والرأى عندى أن تصالحهم لتنال بذلك الأمن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشىء من مالنا . قال فلما سمع البامرك وذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم أن المنية قد غشيته قال : اللهم إنى برىء مما يشركون بك لا شريك لك ولا ولد ولا صاحبة لك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . قال فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بأن يأخذوا على أنفسهم للحرب ، فلما كان الغد خرجوا إلى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم . قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه ، وكان فيه فطنة وعقل وتدبير . فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك البامرك ، وقال لقد أراحنى الملك منه ومن شره فبلغ البامرك ما قاله ابن الحكيم فأرسل إليه وخلع عليه وطيب قلبه ، فما كان الليل قال والله لآخذن بثأر أبى من هذا اللعين ومن أولاده ، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبا واسعا وخرج منه وقصد الصحابة ، فلما رأوه قالوا له من أنت ؟. قال إن أبى قد قتل من أجلكم وقد نقبت نقبا وخرجت منه فقوموا على بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه . فقال له ضرار يا ويلك ، وأن الذى بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أما علمت أن الحذر شعارنا واليقظة دثارنا ، وهم بقتله . فقال له المقداد : أمهل يا ضرار وفقك الله إلى الخير ووقاك الألم والضير . ثم قال المقداد إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يشير إلى شخص بين يديه وكأنما يقول على زى هذا الغلام ، وكأنما أتأمل إلى هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الأديم وفيها جلق فضة وهى تحت أثوابه. ثم إن المقداد . قال يا غلام اكشف عن أثوابك فكشف عن أثوابه وإذا المنطقة بعينها ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم إلى أن دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم . ثم ردوا الحجارة والطين والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم ، فلما كان الغد نظر أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرا ولا خبرا فضجوا بكلمة كفرهم وماجوا وقالوا هربت العرب ووقع الصائح فى العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر ولم يبق فى البلد سوى النساء

والأطفال . قال ابن اسحق وكان للحكيم بنو عم ثمانون رجلا وأن ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم ، فلما كان الغد وخرج كل من فى البلد بادر بنو عم الحكيم واخوته إلى الأبواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فوقعت الخمدة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلا فأمسكوهم الأبواب وخرج الصحابة (رضى الله عنهم) ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله عز وجل ، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذى فعل ذلك بنو عم الدير جان الحكيم وقد أغلقوا الأبواب وقفلوها وملكوا السور ، فوقف الملك ينظر إلى ما فعله الصحابة وعلم أن المدينة أُخذت منهم وكان فى أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ما أكل لحم خنزير ولا كشف ذيله على محرم ولا سجد لصورة ولا لصليب ، وكان همَّ أن يبنى صومعة وينفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه شطا وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله ﷺ ويبحث عنها ؛ فلما نظر إلى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه نظر شطا إلى الصحابة وإلى زيهم وإلى نور الإيمان وهو ساطع منهم .

قال فشخص شطا نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه . قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما أفاق قال له أبوه يا بنى ما وراءك ؟ . قال ظهر الله والحق وبان وقد تبينت لى حقيقة الإيمان ، وقد نظرت إلى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبتان معلقتان فى الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت أحسن من وجوههم ، ولا شك أنهم الشهداء ورأيت فى إحدى القبتين حورا لو برزن لأهل الدنيا لماتوا شوقا إليهن ، وأن الله تعالى ما كشف عن بصرى وأرانى ذلك إلا وقد أراد لى الخير ، وما كنت بالذى بعد هذه الرؤيا أبقى على الضلال ولا أتبع المحال ،وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ، وحرك جواده وقال : من أحبنى من رجالى وغلمانى فليتبعنى.

قال فتبعه القوم ألف رجل ولحقوا ما فعل ولده شطا . قال والله ما فعل ولدى شطا ذلك إلا وقد رأى الحق ولست أشك في عقله ودينه . ثم إنه أسلم ولحق بولده ، فلما نظر أرباب دولته ذلك ، قالوا إذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن فأسلموا جميعا على يد أصحاب رسول الله ﷺ ودخلوا المدينة ، فمن أسلم تركوه ومن أبى أخرجوه إلى بلاد الارياف . قال وفتح المقداد النقب الذى دخلوا منه ببنائه بابا فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد رجلا من الصحابة يعلمهم شرائع الإسلام وهو يزيد بن عامر (رضى الله عنه) ورجع المقداد وأصحابه إلى إسكندرية وحدثوا عمرا بما فتح الله عليه من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابا إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بفتح مريوط والإسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وإبيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لؤى .

ذكر فتح جزيرة تنيس

قال حدثنى زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق . قال : لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان . قال البامرك لولده : يا بنى إن الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا إلى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا فى القدم ، وهذه تنيس بالقرب منا وهى جزيرة ولا يمكن التوصل إليها إلا فى المراكب ، والصواب إننا نكاتب صاحبها أبا ثوب وندعوه إلى الله وإلى دين نبيه . فإن أجاب وإلا قصدناه والله ينصرنا . فقال شطا هذا هو الرأى وأنا الرسول إليه بنفسى فقال يا بنى اعزم على بركة الله وعونه . قال فركب شطا فى مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص ، فلما نظر يزيد بن عامر إلى ذلك . قال وأنا أسير معك إلى صاحب تنيس . فإنه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا من يتجبر وما طلبتنا إلا الآخرة والعمل بما يقربنا الى الله . ثم سار معه يزيد بن عامر صاحب رسول الله ﷺ حتى وصلوا إلى جزيرة تنيس وفيها رجال يحفظونها ، فلما نظروا إلى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوى . قالوا من أنتم . قال لهم شطا أنا ابن الملك البامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من

أصحاب رسول الله ﷺ وقد جئناكم رسلا . قال فأرسلوا منهم واحدا يستأذن لهم أبو ثوب . قال فنزلوا فى الزورق وإذا به قد أرسل لهم دواباً ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالا إلى أبى ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فلما دخلوا قصر أبى ثوب وإذا به فى حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو مرتبه امارته ، وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله ﷺ على مصر ومنع المال والخراج أن يؤديه للمقوقس وولده ، وقد اجتمع عنده مال عظيم ، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله ﷺ وشطا وغلمانه ونظروا إلى أبى ثوب وغلمانه وتجبره بدأ يزيد بالسلام ، فقال السلام على من اتبع الهدى ﴿ **إنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ [(١)] .

(قال الواقدى) حدثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن أبيه عبينة عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب . قال : كان أبو ثوب هذا من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان ، وهو قريب جبلة وكان صاحب مال ، ورجال ، وأنه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله واخوته إلى أرض الجفار ونزل فى البرية ما بين العريش ورفح ، وأن المقوقس خرج فى بعض الأيام يريد الصيد فى عسكره فانتهى فى سرحته إلى أرض العريش ، فانطرد قدامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده إلى أن رماه فى حلل العرب فى حلة أبى ثوب ، فقام إليه وعظمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله فى بيته وذبح له الأغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش . قال فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع ، ركب فى خدمة الملك وشيعه وعاد فلما دخل المقوقس إلى مصر أمر وزيره بأن يكتب إلى أبى ثوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والأموال والمماليك والغلمان ، فلما وصل إليه منشور الملك وخلعه فرح أبو ثوب وركب وسار إلى الفرمة وركب منها فى المراكب الى تنيس ، فلما مكث فى ولايته بعث الى أهله واخوته فأتوا إليه ، فولى أخاه أبا سيف على جزيرة الصدف وولى أخاه الثانى أبا شق

---

(١) سورة طه : الآية : ٤٨ .

على جزيرة الطير ، وولى ولده على دنيوز فلما طال عليه الأمر طغى وتجبر ومرت الأيام والليالى حتى قدم أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرضه فمنع دفع الخراج إلى مصر وإلى المقوقس وولده ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصن بها وقال ما أحد يقدر أن يصل إليَّ ، فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر إليهم أبو ثوب أظهر الإعجاب والتكبر ولم يلتفت إليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس ، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر قرأ ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾[1] وجلس إلى جانبه شطا، ونظر يزيد إلى سرير أبى ثوب فإذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح فى حجرها فقرأ ﴿ **فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ الى قوله ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾[2] . قال فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد ، التفت إليه بغضب وحنق وقال : ما هذا الكلام الذى نطقت به ؟ قال يزيد هذا كلام الله جل جلاله الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ الذى لا تفنى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه ، ولا تبدل كلماته ، ولا تمل آياته . فقال ما معنى الذى ذكرت ونطقت به ، وما تفسيره ؟ فقال يزيد : أما قول الله إخبارا عن عيسى حين قال : إنى عبد الله فإنه يعلم الخلق أنه عبد الله وليس بولد ، جل الواحد الأحد الفرد الصمد . وأما قوله آتانى الكتاب فمعناه أعلمكم الأحكام وأعرفكم الحلال والحرام ،، وأما قوله وأوصانى بالصلاة والزكاة فمعناه أنى مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فإن فى مالى حقا لله ، وأما قوله : والسلام عليَّ يوم

---

(١) سورة الأعراف : الآية : ١٢٨ .

(٢) سورة مريم : الآيات : ٢٤ : ٣٣ .

ولدتُ ويوم أموت فيعلمهم أنه يموت ، ومن يموت لا يكون له العزة والجبروت ، وأما قوله ويوم أبعث حيا ، فيعلمهم أنه وإياهم مبعوثون فى يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة ، ولو كانا إلهين لكان لهما إرادتان ووقع الخلف بينهما ، وأن الحكمة غير ذلك ، وهى على وحدانيته شاهدة . قال فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال ، قال : لقد مثلتم بالأباطيل وغرقتم فى بحر الأضاليل . فقال يزيد الله أعلم من هو تائه فى تيه المحال مشرك بالملك المتعال ، الذى لا سماء تظله ولا أرض تقله ، ولا ليل يؤويه ولا نهار يأتيه ، ولا ضياء يظهره ولا ظلام يستره ، ولا يقهره سلطان ، ولا يغيره زمان ، كل يوم هو فى شأن ، أما لكم بصائر أما منكم من ينظر ويعتبر فى قدرة الله القادر ؟ اما منكم من يعظ نفسه بذهاب النهار وإقبال الليل ؟ اما آن لكم أن تنزهوه ؟ أما آن لكم أن توحدوه ، أما سمعتم ممن تعبدونه ، وتبرءون إليه وتعظمونه ؟ فإن المسيح قد أقر له بالعبودية وتبرأ من دعوى الربوبية ، وقال إنى عبد الله ، ولقد بشر بنبينا قبل مبعثه وعرف بنى إسرائيل بقربه من الحق وكرامته ، أما سمعتم بمعجزاته ، وما ظهر من دلالاته أما انشق له القمر ؟ أما كلمه الضب والحجر ؟ أما خاطبه البعير والشجر ؟ أما هو من أطيب بيت من مصر ؟ قال فعجز أبو ثوب عن رد الجواب ولم يكن له ما يزيل حجته إلا أن قال ليزيد بن عامر : لقد علمنا ما فعل ، ولكنه كان ساحرا ، وإن كان قولك هذا حقا ، فادع الله وتوسل اليه بمحمد أن يسقينا الغيث ، فإن جاء الغيث علمنا أن قولك ليس فيه شك ، ونؤمن بالله ونصدق برسالة محمد ﷺ . قال يزيد بن عامر : ان الله يقدر على ما ذكرت ، فإن الله على كل شىء قدير ، إن العبد المخلص إذا دعاه أجاب دعوته ، ولكنه يفعل ما يشاء ، وأنا أتوسل الى الله بخير خلقه وصفيه وهو الفعال لما يريد ، ثم ان يزيد قام وخرج من مجلس أبى ثوب . فقال له إلى أين ؟ . قال: أدعو الذى لو شاء أنزل عليكم رجزا من السماء ، ثم قرأ ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين** ﴾ .

قال حدثنا عاصم عن رويم عن ابن جبير قال : إنما طلب أبو ثوب الغيث واقتصر عليه لأنه كانت له مزرعة بالبعد من النيل ، ولا يقدر أن يسقيها ولا يصل إليها ماء وكانت

قد أشرفت على الهلاك واليبس ، وكانت منه ببال وكان قد غرس فيها من جميع الثمار والأشجار وصنع لها مصانع تمتلىء بماء المطر فيسقيها وقت الحاجة اليها ، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت ، فلما خرج يزيد إلى البحر توضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال : اللهم انك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالإجابة ، فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان** ﴾ [1] وقد دعوت كما أمرت ، فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدا ولا يحصيه غيرك . قال ابن جبير : لقد بلغنى ممن أثق به أن يزيد بن عامر ما برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاضع ، ورفع جناح السائل المتواضع وارتفعت سحابة وتألقت ، والرعد يصول حولها صولة الغاضب ، وهو لها بصوت البرق يزجر بصلصلة وقعقعة وهرير وهو على ذلك سيره ومسيره ، وقد أحاطت بالسحابة ملائكة الرحمة متمنطقة بنطاق الخدمة يسوقونها من خزائن رحمته ، ويجذبونها بأزمة القهر إلى ملك أبديته وهو واضع أجنحة عبوديته ، موسوم بوسم ﴿ **يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** ﴾ ، والركام يسرى ويسرع اسراع الوجل يسبح من يسجد لجلاله ﴿ **فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾ فإذا هى أشرفت وتكاملت بالماء ووسقت ، والبروق من أركانها قد انشقت ، وهبت عليها رياح قدرته من مواضع خزائن رحمته ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ فعندها تفتح مغاليق أبوابها وترفع ستر حجابها فهمت بدموع أشجانها على أيدى خزانها ، فتستبشر الأرض عند ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها فى جيد وجودها ، وتخرج كنوز ذخائرها ﴿ **فانظر إلى رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ . قال ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم ، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر مجلس أبى ثوب وقال له : كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد . قال فضحك أبو ثوب ، وقال إن سحركم لعظيم وإن مكركم لجسيم وإن سحركم يفعل أكثر

---

(1) سورة البقرة : الآية : ١٨٦ .

من هذا . فقال إنما ذلك رحمة من الله ، قد أبر من أقسم باسمه عليه ، فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول الله ﷺ قال على سبيل المكر : الآن تحققت أن دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله ، ومصدّق برسالة رسول الله ﷺ وسوف أعرض دين الإسلام على أهل جزيرتى وأصحابى وأهلى ، وأبنى المساجد وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . فقال يزيد إن أنت فعلت ذلك رشدت ، وإن نافقت فإن ربك لبالمرصاد ، ثم خرج من عنده هو ومن كان معه شطا وغلمانه ومضوا إلى دمياط إلى البامرك وحدثوه بما كان من أبى ثوب . فقال والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته . فقال يزيد بن عامر ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ فما لبثوا أياما قلائل حتى وصل الخبر أن أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم ، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر: ما الذى ترى من الرأى فى أمر هذا العدو ؟ . فقال يزيد نستعين بالله ونتوكل على الله، ومن قاتلنا قاتلناه .

(قال ابن اسحق) وإن البامرك أرسل ولده شطا إلى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاءوا من كل جهة ، وكتب يزيد إلى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع ، فلما وصل إليه الكتاب أرسل إليهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بنى لؤى ومعه ألف فارس وأمره بالمسير إلى دمياط ، وذلك فى العشر الأول من شعبان سنة عشرين من الهجرة ، وكان لعمر بن الخطاب فى الخلافة أربع سنين ونصف . أما ما كان من أبى ثوب ، فانه لما نفر إليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس ، فكانوا عشرين ألفا من الرجال ، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعداهم فى المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج شطا بن البامرك فقتل رجالا وجندل أبطالا ، وانه اشترى الجنة من الله بنفسه ، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه ، ثم إنه عاد من قتال اللئام إلى الصلاة والصيام ، ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكس الرأس من الخجل من الله تعالى عز وجل ، فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع ، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكى العين . فقال له أبوه : يا بنىّ ما الذى أبكاك ؟ فقال رأيت شيئا فى

منامى أبصرته وسمعت منه كلاما وعاينته وحفظته وحررته ، والدنيا هى طالق وإنى بعون ربى واثق ، ولا شك أنى لك مفارق . فقال أبوه أعوذ بالله يا بنى ما هذا الكلام ؟ ولعل ذلك أضغاث أحلام .

فقال : لا والله ما هى أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام الذى أجرى الأقلام وخلق الضياء والظلام وبعث سيد الأنام بشرائع الإسلام ، وإنى رأيت فى منامى كأن أبواب السماء قد فتحت ، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت ، ثم تفتحت أبواب السماء الثانية ، ثم رأيت ملائكتها سجودا على جباهم لا يقومون وركعا لا ينتصبون وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون وباكين لا تجف لهم دموع ثم كذلك رأيت سماء بعد السماء إلى السماء السابعة، ثم رأيت قبة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهى تسرج من الأنوار وتوقد من غير نار وفيها اربعون حوراء عليهن ما رأيت قط مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن الإنس وفى أرجلهن نعال الياقوت الأحمر يطأن بها على النمارق والزرابى ، فصاحت بى إحداهن وهى كبيرتهن ، وقالت : يا مفتونا بدار الدنيا أما آن لك أن تذكرنا فقد خلقنا الله منذ خلقك ، وجعل مهرنا منك الجهاد فى مرضاة رب العباد ، وقد ألفت الجفاء ، وما هكذا أهل الوفاء ، انظر إلى ما أعدَّ لك وللشهداء ، قال فنظرت وإذا بقباب معلقة حيث لا يدرك لها نهاية بعدد النجوم وقطرت الغيوم ، وقد نفذ الميقات ، وانقضت الساعات والأوقات ، فتيقظ فى المنام وارحل إلى دار السلام ، وقالت : فى كل قبة مثل ما رأيت ، فقلت : ما هذه القباب ؟ .

فقالت : هذه قباب قوام الليل والشهداء يأوون إليها فى جنة المأوى ، ثم جعلت تقول :

أنت يا مفتون دوما فـــى الدنا ثم المنام ... فـــدع النوم وبادر مثل فعل المستهام
وابك بالوجد دواما بدمـــوع وانسجام ... ثم نح ياذا كثيرا فى نهار وظـــــلام
أيها اللائم دعنى لست أصغى للملام ... فى عروس قد تبدت فاقت البدر التمام
طرفها يرشـق باللحظ مصيبا كالسهام ... ولها صـــدغ منير مثل نون تحت لام
احسن الأتراب قـدا فى اعتدال وقوام ... مهرها إن قـام ليلا وهو باك فى الظلام
يا عمادى ورجــــائى ومنائى والمرام ... فاستمع منى قـــولى ثم فكر فى النظام

وغدا بادر لحرب وإلى ضرب السهام　　مسرعا تأتى إلينا بعـــد ترحال الظلام

فقال أبوه : اعلم يا ولدى أن من المنام ما يصدق وما يكذب فلا تشغل نفسك بما رأيت . فقال لا والله يا أباه ما بقى لى فى الدنيا طمع ولم يزل باقى ليلته يبكى ويتضرع ويقوم على أقدام الخشوع ويخضع وأجفانه بالدوام تدمع الى أن أصبح الصباح وأشرق بحيائه ولاح فودع شطا أباه وأهله وخرج الى الحرب فتعلق به أبوه وقال له : يا بنى بحقى عليك لا تبلنى بفراقك . فقال شطا دع عنك العتاب ، فقد قرب لقاء الأحباب ، فعندها قامت على أبيه المواسم وانهل الدمع الساجم ودنا الفراق وقامت الأشواق وجرى دمع كل عين وأقبل البامرك يودع ولده ويقول يا بنى إن صح منامك وضربت فى دار السلام خيامك فاذكرنا بحسن طريقة الوفا وأقرىء سلامى على النبى المصطفى ، فبرز شطا الى الحرب ودعا للبراز فخرج إليه واحد فقتله وثان وثالث حتى قتل اثنى عشر فارسا .

(قال ابن اسحق) فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون أن خرج اليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة ، فلما سار شطا فى الميدان قال له يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصغيت الى هؤلاء اللئام واتبعت دين الإسلام ، لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يا فتى عد إلى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأى شىء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم ، فلما سمع شطا كلام أبى ثوب أقبل عليه مغضبا وقال له يا لئيم أتأمرنى أن أدع الدين المستقيم الذى كان عليه الخليل والكليم ، وأنى لى بذلك وقد رأيت الليلة مالى من الكرامة عند الله ، وقد طلقت الدنيا ثلاثا ، فلما سمع أبو ثوب كلامه حمل عليه ومدّ سنانه إليه فتلقاه بقلب قوى وجنان جرى وعزم مضى وحسام سرى وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التى رآها فى المنام والحوراء التى أنشدته الأبيات وفى يدها كأس من شربها لا يفنى ولا يسقم وفيه من الرحيق المختوم ، وهى تقول يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفيق والساعة تصل إلينا وتقدم علينا . قال فلما نظر شطا إلى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله أكبر ــ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ــ وأخذه

الدمع والبكاء خوفا من الله . فقال له أبو ثوب مم بكاؤك ؟ . قال : رأيت كذا وكذا فضحك أبو ثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا شديدا أعظم من الأول الا أبا ثوب سبق شطا بطعنة فى صدره فأطلع السنان من ظهره فخرّ صريعا ، فلما نظر البامرك إلى ولده مطروحا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه . قال وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القتار فوقعت الهزيمة على البامرك وأصحابه فالجأهم إلى أبواب دمياط وطمع فيهم عدو الله أبو ثوب وإذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم فى أبى ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامى أصحاب البامرك وحملوا من قبلهم . قال : وأما أبو ثوب وأصحابه فإنهم أيسوا من أنفسهم قال فهم فى ذلك إذ التقى يزيد بن عامر بأبى ثوب . فقال له يا عدوّ الله أما اتعظت بآيات الله أما ظهر لك الحق من أصحاب رسول الله ﷺ وأطبق عليه فأخذه أسيرا وصاح الصائح أن أبا ثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ما قتل منهم خلق كثير ، ثم إنهم عزوا البامرك فى ولده شطا . فقال احتسبته عند الله . فقال لـه يزيد بن عامـر إن الجنة درجـات لا ينالها إلا الصـابرون قـال الله تعالى ﴿ **وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [(١)] .

(قال ابن اسحق) ودفنوا شطا فى ثيابه بعد ما صلوا عليه ودفنوه فى موضع قتله . قال فلما كان الغد أقبل البامرك إلى يزيد بن عامر ، وقال رأيت الليلة ولدى فى النوم وهو فى القبة والحور بين يديه . فقلت : ما فعل الله بك قال قبلنى بأحسن قبول وجاد علىّ وأنزلنى بجوار الرسول .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمر بن الأسقع عن جده عامر بن خويلد قال قتل شطا فى ليلة نصف شعبان فجعل له تلك الليلة موسما فى كل سنة ، وذلك إنه لما يبق أحد الا زار قبره تلك الليلة ، وإن هلال بن أوس نزل وأحضر أبا ثوب وعرض عليه الاسلام فأسلم

---

(١) سورة البقرة : الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

وأسلم من الاسرى أناس وأبى منهم أناس وبقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية ودخل المسلمون فى المراكب الى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعا وبنوا فى جميع الجزائر جوامع ، وأخرج أبو ثوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه إلى عمرو بن العاص مع أموال من قتل وإن هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقر أهل الجزائر فى أماكنهم . فقالوا أيها الأمير قد أمنتنا من جانبك وبقى علينا الخوف من جانب آخر . قال هلال من أين قالوا من أصحاب القلعة المسماة الفرماء . قال : وأين هى : قالوا : على جانب بحيرة تنيس مما يلى شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت بن مرة من آل مرداس ، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى إليها بجميع من معه ، فلما وصلوا اليها أشرف عليهم الصامت بن مرة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرماء فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يوما فلم يقدر عليها فبعث إلى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل إليه المقداد بن الأسود الكندى فى خمسمائة من عسكر الإسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط .

ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد

قال فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرة ما نزل به فعلم أنه بيد القوم ، لأنه ليس له ناصر ولا معين فصالح المقداد على أن يؤدى لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يمهلوه إلى تمام السنة فان شاء دان إلى الإسلام وإلا ارتحل بأمانة ، فأجابه المقداد إلى ذلك وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها ابن الأشرف فأسلم هو ومن معه ومضوا الى القصر المشيد ففتحوه صلحا ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردة وكان اسمها الواردة فسلمها أهلها وارتحلوا الى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح وبيدا ومياس ونخلة وعسقلان .

(قال ابن اسحق) حدثنى يوسف بن عبد الأعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة . قال حدثنى موسى بن عامر عن رفاعة عن جده عبد العزيز بن سالم عن أبى يعلى العبدى عن طاهر المطوعى عن أبى طالب الفشارى عن وهبان بن بشر

ابن هزان قال سمعت الشرح كله من محمد بن عمر الواقدى وهو قاضى بغداد فى الجانب الغربى .

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدثنا عدنان بن يحيى الحرثى ومن طريق آخر عن ابن عمير التميمى والابتداء عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعا أو من قال منهم أنه لما فتح الله الشام على يد أبى عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمى كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة يقول له : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عامر بن الجراح سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ . أما بعد : فقد أجهدت نفسك فى قتل الكفار وسارعت إلى رضا الجبار ، وقدمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نر منك يوما معرضا عن أداء فرضك وقمت بسنة نبيك وجاهدت فى الله حق جهاده تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك ، فإذا قرأت كتابى هذا فاعقد عقدا لعياض بن غنم الأشعرى وجهز معه جيشا إلى أرض ربيعة وديار بكر وإنى أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يفتحها على يديه وأوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد فى طاعته ولا يلحقه التوانى فى الجهاد ويتبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل عليه رب العالمين ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم كتب كتابا آخر إلى عياض بن غنم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة الفرس وديار بكر . قال وبعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادى وزوّده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار إلى أن ورد على أبى عبيدة فى طبرية فسلم إليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثانى الى عياض بن غنْم الأشعرى ، فلما قرأه أبو عبيدة قال السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيأ عياضا بمسيره إلى الجهاد وعقد له عقدا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابى من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وصرار بن الأزور بن سابق وضمرة وعمرو بن ربيعة وذو الأداغير ابن قيس والحكم بن هشام واليسع بن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الأسود

وعمار بن ياسر وعبد الله بن يوقنا وكانوا قد قدموا على أبى عبيدة بعد فتوح مصر وكان قدومهم فى شهر شوال سنة ست وعشرين من الهجرة وسار عياض بن غنم من طبرية فى ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل سهل بن عدى فلم يزل سائرا حتى نزل على بالس وكان خالد قد فتحها صلحا فأقام عليها وسرح سهيل بن عدى الى الرقة فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب رأس العين ، وكان قد استعد للحرب وعبى آلة الحصار ، فلما رأى أهل الرقة أن صاحبهم معول على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا : أى شيء أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدى هؤلاء القوم قال فمشوا إلى عياض بن غنم بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث إلى سهيل بن عدى أن يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم بالسن ونزل على الرقة البيضاء ، وفى ذلك قال سهيل بن عدى :

وصادفنا الغزاة غـــداة سرنا — بجود الخيل والأسل الطوال
أخذنا الرقـــــة البيضاء لما — رأتنا الشهب نلعب بالتـــلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض — وقد كانت تخـــوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد عين — أجد بحملتى جيش الضلال
قصدك يا سهيل تبيد جيشا — وتقتل فـــى البطارق لا تبالى
فنحن أولو التقية والمـــعالى — ونحن الصابرون لكل حـــال
صحابة أحمد خـــير الموالى — رقى العلياء والرتب العـــوالى
إلى رب السماء دنا عـــلوّاً — وخاطبه شفـــــاها بالمقال

ذكر فتح القلعتين : زبا وزلوبيا

(قال الواقدى) لما فتحت الرقة صلحا عول عياض بن غنم على المسير إلى رأس العين وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال شهرياض بن فرون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفى عماله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية التغلبى وهبيرة وهم ثلاثون ألفا من الأبطال إنهم لما اتصلت بهم الأخبار بفتح الرقة وإن المسلمين قاصدون إليهم

مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتو الى الملك شهرياض برأس العين وقالوا له اعلم أيها الملك إن أصحاب محمد ﷺ قد أتو ديارنا وقصدوا نحونا ، ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم أننا ندخل فى دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى نلقاهم فإما لنا ، وإما علينا فأجابهم إلى ذلك وقال غير أنى أخاف أن تنهزموا عنى فأعطوا رهائن واستوثق منهم ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار، وزاد فى عمق الخندق وعرضه وأرسل الى جملين وكفر توتا ودارا وماردين وحران والرها وتل مرزة والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم .

قال حدثنا عبد الله بن أسلم عن عاصم بن عبد الله عن ابن إسحاق الأموى عن يزيد بن أبى حبيب عن راشد مولاه قال لما عوّل عياض بن غنم الأشعرى على المسير إلى رأس العين إلى قتال الملك شهرياض بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان إلى القلعتين المعروفتين بزبا وزلوبيا . فقال عبد الله يوقنا لعياض بن غنم : اعلم أيها الأمير : إن هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان إحداهما من الجانب الشرقى والأخرى من الجانب الغربى وهما كانتا تحت ولايتى وإن صاحبهما كان من قبلى وهو أحد بنى عمى واسمه اشفكياص ابن مارية كنى باسم أمه وكنت قد زوجته ابنتى فأخذت فى صداقها الحصن الشرقى من الفرات وقد رأيت أنك تأمرنى بالتقدم على هذين الحصنين حتى أحلّ فى القلعة الغربية فإن فتحتها كانت الأخرى فى قبضتنا . فقال له لله درك يا عبد الله لقد نصحت الإسلام وأهله فجزاك الله خيرا أحسن ما جازى به أولياءه ، سر على بركة الله وعونه فإذا استقر بك المكان ثلاثة أيام أنفذت اليك شعيبا وعبد الله ومن معهما من المسلمين وبعد الفتح إن شاء الله تنزلون إلينا . فقال يوقنا استعنا بالله وتوكلنا عليه ، ثم إنه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم على الباسل فجدوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخانوقة فوجدوا فيها ألفا من الأرمن وهم بالعدة الكاملة ، فلما أشرف عليهم يوقنا ومن معه وهم يتحدّثون بلغة الروم أنسوا بهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا

هذا البطريق المعظم يوقنا صاحب جلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة ، فلما سمعوا بذلك فرحوا وصقعوا بين يدى يوقنا وأرسل المقدم عليهم خيالا وأمره بالسرعة ليبشر أشفكياص بقدوم يوقنا إليه وهروبه من العرب وإنه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر أشفكياص فأطرق إلى الأرض ، ثم قال لوزيره وحق المسيح والإنجيل ما جاء الا لينصب علينا ويملك هاتين القلعتين منا كما فعل بطرابلس وصور وما أنا بالذى يأمن ، فما ترى أيها الوزير ؟.

(قال ابن إسحاق) ولقد بلغنى أن هذا الوزير كان من أهل القراءة ، وكان أديبا عاقلا لبيبا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال ، وكان منذ بعث النبى ﷺ يسكن فى دير مترهبا وهو ما بين السر وحلب فتعبد فيه زمانا طويلا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية ، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسما ذكره فسمى ذلك الدير بدير حافر وأنه فى بعض الأيام خرج من ديره إلى مزرعة له هناك ، وإذا برجل من البدو قد عبر وهو راكب على ناقة وكان الحر قد اشتد فأوى الى ظل حائط الدير وأناخ ناقته وعقلها ونام والراهب ينظر إليه ، فلما غرق فى نومه أتت حية من مزرعة الراهب وفى فمها باقة نرجس فجعلت تروّح عليه حتى استفاق وذلك الراهب ينظر إليه ، فلما أفاق أتى إليه وسلم عليه ، وقال له من أى الناس أنت ؟ قال من العرب ، قال الراهب قد علمت ذلك ، وإنما أسالك عن دينك قال دينى الاسلام الذى كان عليه أنبياء الله كلهم عليهم أفضل الصلاة والسلام . فقال لعلك على دين هذا الرجل الذى فى أرض الحجاز ، قال نعم .

(قال ابن إسحاق) وكان البدوى ورقة بن الصامت الهذلى ابن أخت رواحة الانصارى صاحب رسول الله ﷺ وكان حضر غزوة تبوك وحضر يوم السلاسل ، وكان أديبا لبيبا شاعرا لا يتكلم إلا بسجع وكان أبو عبيدة قد وجهه لما كانوا فى حصار قلعة حلب إلى صاحب الرقة يدعوه إلى الإسلام . فقال الراهب وكان اسمه شوجوان بن كربان قد بلغنى أنكم تقولون ما خلق الله خلقا أعظم ولا أكرم ولا أرحم من محمد وتركتم آدم ونوحا وإبراهيم واسحق ويعقوب والأسباط وموسى ودواد وسليمان وعيسى فأريد أن تبين لى

حقيقة ذلك ، فقال ورقة بن الصامت : اسمع ما أقوال ولا تتبع الفضول : أما علمت أن عالم الملائكة اجتمعوا بالبيت المعمور ووقع بينهم الجدل فى تصاريف الامور وافتخر الكروبيون على الروحانيين والمسبحون على المقربين فزاحمهم إبليس بدقة عبادته ، ومشيد مبانى زهادته . فقال أنا المخلوق من ضرام النار البارع فى خدمة العزيز الجبار أين أنتم من وقوفى على أقدام الاهتمام مائة ألف عام وتعبدى فى السموات وأكنافها وبروجها واعرافها وأوساطها وأطرافها وجبال الأرض وأكنافها ، فعارضه جبريل بالامتحان والابتداء ، وصرفه عن حجة الافتخار والادعاء ، وقال له : ما أنت فى الافتخار إلا فى الحضيض المخضوض إن لله نبيا فى عالم الملكوت محجوبا قد طال اشتياقنا إليه ووردنا الخبر فيما يريد وجعل نهاية عبادتنا الصلاة عليه فأيقن من المفاخر بالنزول ومن إطلاق شمس ادعاء بالأفول ، وقال رب فهل الى لقائه من سبيل والى الوصول اليه من دليل ، فقال جبريل اقطع مسافة الأمنية وخض بحر الاعتراف بعز الربوبية وثق بحبال العز المكين فانك لخدمة من كونٌ من نور التكوين عليه منقوش بقلم التمكين ـ إنك لمن المرسلين ـ فخلع إبليس لباس العمل واستعمل أجنحة الامل وألقى قلادة الادعاء ونكس تاج الكبرياء واستعد لقوادم الطلب وداخله من قول جبريل غاية العجب ، وجعل همة عزمه تحصيل السبب وحذر من سوء المنقلب .

وقال يا للعجب أنا مع صدق طويتى فى المعاملة والإنابة ، وخلوص سريرتى فى طلب الزيادة هل يكون أحد مثلى أو يبلغ درجة فعلى وكيف ذلك واذا رفعت رأسى بالتسبيح أعاين ما حول العرش ، واذا سجدت لعظمة الله أنظر ما تحت الفرش فنودى أتفتخر علينا بجواهر طاعتك وتوفر أسباب بضاعتك ونحن وفقناك لطاعتنا ومعاملتنا وأريناك أطراف أرضنا وسمواتنا من قواك على خدمتى من جعلك معلما لملائكتى ؟ وعزتى وجلالى لولا أحمد ما خلقت ملكا . ولا أجريت فلكا ، ولا أنرت قمرا ، ولا أمضيت قدرا ، ولا أسرجت شمسا ، ولا أقررت عرشا ، ولا بسطت فرشا ، ولا خلقت جنة ولا نارا ، ولا فجرت أنهارا ولا بحارا ، ولا جعلت النجوم طوالع ولا غوارب ، ولا الدنيا مشارق ولا مغارب ، ولكن طر

بأجنحة عجل فى طلب الإيثار حتى يميتك الله بين الجنة والنار ، قال فسار بفلك طلب النجوم على قدم مطايا التفريد حتى اخترق ما بين العرش والكرسى واختبر كل جنى وإنسى، وكلما مر بمغنى من المغانى رأى معنى من المعانى ، وذلك أنه لما رأى أصنافا من الملائكة على اختلاف الأحوال من الاجتهاد والطاعة والأعمال وجميع عباد الله الشاكرة موقوفة على خدمة سيد الدنيا والآخرة ، وعلم معنى عبادتهم ، وتحقق آثار إرادتهم زاد به الإعجاب فاستعظم وجود ذلك فى عالم التراب ، وقال أى رب : أين أجده وأناديه ، أم كيف التوصل إلى سبيل ناديه ؟ . فقال اطلب نهر السلسبيل فهناك تجد إلى نظره سبيل ، فسار تحت مشيئة القدر إلى أن وصل إلى النهر فرأى ضوءا يلوح وأسراره بصفات ما فيه تبوح ، ودار به المقربون والروحانيون والمسبحون والصافون والراكعون والساجدون وقطب عبادتهم دائرة على الاستغفار لأنه صاحب الافتخار وكلما سبحوا وسجدوا يستغفرون للذين آمنوا به . قال فانتظم فى سلكهم واسلك سبيل مسلكهم لتفوز بالنظر فى جملة من حضر وإذا بنور أحمد قد تعلى ومن سرادقات قصره تجلى فسجدت الملائكة له بمعنى عظيم ، وقالوا ﴿ **إنك لعلى خلق عظيم** ﴾ فرد لما غشيه الوارد ونطق لسان حسده بما فى جسده من ذا الذى ملأ الأكوان بعبادته وافتخر على الملائكة بخالص مجاهدته ، وإذا بالنداء : معاشر الملائكة دعوا النظر إلى المغانى، وحققوا النظر إلى الفضائل والمعانى فأحدقت الملائكة نحو القصر بالأعين، وإذا فى جوانبه أربعة أعين ، فقالوا يا رب العزة قد تركنا المغنى فما حقيقة هذا المعنى ؟ . قال هذه العيون عيون أنهاره ، وسيوف أنصاره ومعالم سنته بحساب نسبته ، وأبواب علمه ومقر حكمه وزينة دينه وأعلام يقينه وأول عين هى عين التصديق والعين الثانية هى عين العدل والتحقيق ، والعين الثالثة هى عين النور والحياء والتوفيق ، والعين الرابعة عين العلم والتشريق. فعين التصديق لصدّيقه وعين العدل لفاروقه ، وعين الحياء لصهره ورفيقه ، وعين العلم لأخيه وشقيقه فانظروهم بعين التبجيل والوقار وأكثروا لهم الدعاء والاستغفار . فأنا الذى قلت فيهم ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ ...

فلما علم شوجوان كلام ورقة بن الصامت لم يرد عليه جوابا ولا أبدى له خطابا غير

أنه عرف الحق فكتمه ، ولم يزل شوجوان فى الدير حتى أخذ المسلمون حلب فانتقل الى إشفكياص فاستوزره . قال فلما استشاره فى أمر يوقنا . قال له اعلم أيها الملك أن يوقنا من الملوك وأبناء الملوك ، وقد قرأ الكتب وأخوه كان أفضل منه فى الدين وقد صحب هؤلاء العرب واطلع على سرائرهم ونظر إلى دينهم ، وربما أنه علم عند النظر أن دين المسيح أفضل من دين هؤلاء العرب وقد هرب من أيديهم إليك . فان كان الرجل قد أتى بغير حمل ولا ثقل فاعلم أنه هارب من القوم إليك فيجب عليك أن تخرج إلى لقائه وتعظم شأنه وترفع مكانه ، فلما سمع أشفكياص ذلك خرج بعسكره للقائه وبقى الوزير فى القلعة . قال فسمعت ابنة يوقنا أن أباها قد أتى فنزلت تسبح فى سرب لها تحت الأرض مع جواريها وخدمها وقصدت القلعة الثانية فوجدت اشفكياص قد خرج للقاء أبيها والوزير شوجوان فى مرتبة وزارته فقام اليها وصقع بين يديها وخدمها فجلست تتحدث معه . فقال لها خذى على نفسك الحذر . فإن الملك قد خرج وأخاف أن يبطش هذا اللعين بأبيك واعلمى أنه ما تبع هؤلاء العرب إلا وقد تحقق عنده أن دينهم الحق وقولهم الصدق ، فقالت له الجارية فما تقول أنت فى دين القوم ؟ . قال هو والله الحق ، والدين الصدق ، وانى كنت كاتم هذا السر ، فلما سمعت ذلك تبسمت وقالت والله لقد رضيت لنفسى ما رضيه أبى ، ولكن أنت أكتم هذا عنى .

(قال الواقدى) وان أشفكياص لقى عبد الله يوقنا وسلم بعضهما على بعض وترجل كل منهما لصاحبه وشكا كل واحد منهما ما يجده من الشوق . ثم ركبا وسارا الى القلعة فنزل يوقنا فيها ومن معه وأتت ابنته وسلمت عليه وبكت وبكى ، وأما اشفكياص ، فانه معوّل على القبض على يوقنا ، وقال له : أيها الملك كيف رأيت هؤلاء العرب فى دينهم وعدلهم وسياستهم فى ملكهم . فقال يوقنا ان القوم يزعمون أنهم لا يريدون ملك الدنيا وانما يريدون ملك الآخرة ومع هذا قد ملكوا الشام وأرض مصر وما تغيروا عن طباعهم وأنفسهم الدنيئة وأول الأمر وآخره أنهم أظهروا الناموس حتى ملكوا البلاد ، ولما كشفت أسرارهم وتحقق أخبارهم ورأيت بيان ما هم عليه هربت منهم وبعدت عنهم بعد أن ظننت

أنهم على الحق ونصحت لهم وملكتهم طرابلس وصور وغيرهما وانطاكية ، وقد علمت أن المسيح قد غضب عليَّ إذا تركت دينه وما أمر به من القربان وما أوصى به يوحنا المعمدان ، ولست اظن أن لى تطهيرا من درون الذنوب ومساوى العيون . ثم انه أظهر البكاء والتوجع والشكوى . فلما عاين اشفكياص ما فعله وسمع كلامه انطلى عليه ، وقال له أيها الملك إذا كنت قد ندمت على قبيح فعالك ورجعت إلى الدين الصحيح بقلبك فأبشر بقبول التوبة وزوال الحوبة ، واعلم أن باب التوبة مفتوح وعلم القبول لأهل الندامة يلوح ، وقد قرب عيد الصليب وبقى له عشرون يوما وهذا مرقس الزاهد بدير السكرة ، وهو من أعظم دين النصرانية فسر اليه ليغمسك فى ماء المعمودية فتخرج نقيا من الذنوب . فقال يوقنا أفعل ذلك، ولكن من يمضى أن يعيش فعندها قامت ابنته وصقعت ، وقالت والله يا أبت ما أدعك تمضى حتى أتملى منك بالنظر وقبلت يد أشفيكاص ، وقالت يا سيدى أريد أن تأذن لأبى أن يسير معى الى حصنى ، فقال هو الليلة عندى وليلة غد يكون عندك فعلم يوقنا أنه لا بد من الأكل معه ولا بد فى سماطه من لحم خنزير ولا بد من الخمر ، فقال أيها السيد أينما كنت فأنا فى نعمتك وخيرك . فقال شوجوان لأشفيكاص اعلم أيها الملك أن الملك يوقنا كثير الشوق الى ابنته ولهما زمان ما رأيا بعضهما وما يخفى عليك ذلك ، والصواب أن يكون الليلة عندها وليلة غد يكون عندك ، فقال افعلوا ذلك . قال فأخذت أباها ونزلت فى السرب إلى القلعة الشرقية وعبر أصحابه إليه فى المركب ، فلما جن الليل قالت الجارية لأبيها يا أبت كيف تركت العرب بعد صحبتك لهم ونصحك لدينهم أرأيت أن القوم على باطل وأن دينك الاول أفضل منه فأجعت إليه .

فقال يوقنا : أى بنية والله ما أتيت إليك إلا من شفقتى عليك وقد افترقنا فى الدنيا وأخاف أن يكون الفراق فى الآخرة أيضا ، وقد علمت وتيقنت أن هذين الحصنين نصب أعين المسلمين ، وأنت تعلمين أن قلعتى كانت أمنع من كل قلعة بالشام ، وقد ملكتها العرب ونزعت ملوكها عن أرضهم وبلادهم فاتقى الله يا بنية فى نفسك واعلمى لخلاص نفسك من الزبانية والجحيم الحامية والخلود فى الهاوية وارجعى إلى الله من قريب واكفرى

بدين الصليب ، فوالله ما ثَم دين أفضل من دين الإسلام ، وعليه كان المسيح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما غرر بالنصارى وحيدهم عن طريق الحق رجل يقال له بولص كان من اليهود أضلهم عن الطريق المستقيم وشرع لهم الضلال القديم حتى كفروا بما جاء به الخليل إبراهيم وهؤلاء العرب قد اتبعوا ما أمر الله به وأمر نبيه محمد ﷺ ولديهم القول الراجح والفضل الصالح وإنهم طلقوا الدنيا ثلاثا وطلبوا بعد لاجتماع شتاتا. فأرضى لنفسك ما رضى أبوك لنفسه . فقالت والله ما قلت شيئا الا وأنا به عارفة وقد رضيت لنفسى ما رضيت لنفسك ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله . قال ففرح بإسلامها . ثم قال أى بنية ما الذى نصنع فى أمر هذا الكافر اللعين الفاجر ؟ . قالت والله لقد قال لى الوزير شرجوان أنه مصر على قبّضك . وقال إنك ما أردت إلا لتنصب عليه. فقال يوقنا : إذا كان الأمر كذلك فاصنعى لنا سماطا وسيرى اليه واستدعيه هو وخواصه فأنا آمر أصحابى أن يقبضوا عليهم وعليه إذا اشتغلوا بالطعام والشراب ، فإذا فعلنا ذلك كانت القلعتان فى قبضتنا ونسلمهم إلى أصحاب نبينا . ثم إنى أريهم أننا هربنا منهم إلى أن نحصل فى قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على أيدينا وهذا هو الرأى .

(قال الواقدى) فلما ذهب الليل وأتى النهار أمرت جماعتها بصنع الطعام والحلويات وغيرها ، فلما صنعوا ذلك وصفوا الموائد وعليها من كل حار وبارد نزلت فى السرب وقصدت أشفكياص فى قلعته بين يديه وصعقت له فقام لها إعظاما وقال لها كيف الملك يوقنا وأحواله . فقالت أيها الملك إنه ما نام الليل ، وهو متفكر فى القيامة وأحوالها والجحيم ومآلها ، ولقد أراد اليوم المسير الى مدينة قرقيسيا ، وأن يقصد الراهب المعظم قرياقوس وقد أخرته الى أن تحضروا معه على السماط وتمضى أنت وهو الى جرجيس حتى يرجع الى دينه وقد جئت اليك لتحضر سماطى وضيافتى أنت وأصحابك وخواصك وتأكلوا من طعامى وتشربوا من شرابى ومدامى والكل من فضلك وإنعامك وإحسانك وتجبر خاطرى . قال فأبى أشفيكاص مما دخل على قلبه من يوقنا اذ لم يبت عنده وخاف أن يقبضه ، فقال له الوزير شرجوان أيها الملك ليس هذا برأى ، وإذا امتنعت نفر قلبه منك وما يدرك أيها الملك أنه ندم

على ما سلف منه وقد أقر بالذنب واعترف وإنك إذا أكلت على سماط ابنته ودعوتهم أنت الى سماطك فافعل بعد ذلك فيهم ما شئت .

قال وكان هذا الكلام من شرجون لأشفكياص سرا من ابنة يوقنا فقام عند ذلك وقال لوزيره : احفظ مكانى حتى أعود اليك ، ولم يكن له ولد يرثه فى الملك . قال فأخذ معه خواصه من قومه وحجابه وبنى عمه ، ونزل فى السرب والجارية أمامهم وجواريها بين يديه بالشمع ، وقد علم الوزير أنه ما بقى يعود إليه بعدها ، فلما حصل أشفكياص فى قلعة زلوبيا وثب للقائه يوقنا وأصحابه ، وكان قد أوصاهم بما يفعلونه ، فلما وقعت العين على العين ، أقبل يوقنا اليه ليعانقه وضمه الى صدره وقبض عليه قبضة الأسد على فريسته ، وفعل أصحابه كما فعل ، وضربوا فى الحال رقابهم ، ولم ينتطح فيها شاتان ، ولم يعلم بما فعلوه أحد ، ثم نزلوا من فورهم من السرب ومضوا إلى زبا ، فوجدوا شرجوان ينتظرهم ، فلما رآهم تبسم وأعلن بكلمة التوحيد وقال : لله درك يا عبد الله فقد شرح الله صدرك للإيمان، وأرضيت الملك الديان ، فجزاه يوقنا خيرا ، وملك قلعة أشفكياص وجعل يدعو بالرجال ويعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم تركه وضمن بعضهم بعضا حتى لا ينهزم أحد منهم ويروح إلى صاحب قرقيسيا ويخبره بما صنع يوقنا وبعد أيام أشرف عليهم عبد الله بن غسان وسهيل بن عدى فى ألفى فارس ، فأراهم يوقنا التمنع والإعراض وناشبهم القتال خمسة أيام وقد عرفوا أن ذلك منه حيلة وأرسل يعلمهم فى السر أن القلعتين فى يده ، والليلة أسلمهما إليكم وأظهرت الهرب إلى قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على يدى ، فلما كان من الليل أمر شرجون أن يسلمهما إليهم ، ثم إن المسلمين أعلنوا بالتهليل والتكبير ووقع الصائح من كل جانب وشهروا القواضب ، وكان فى يومه هذا قد وصل الرسول من صاحب قرقيسيا بالهدايا والتحف إلى يوقنا يهنئه بالسلامة والخلاص من العرب والرجوع إلى دينه ، فقبل يوقنا الهدية وأنزل الرسول فى خيام أصحابه وكانوا قد ضربوا لهم وطاقا فى الجانب الشرقى ، فلما صار أصحابه المسلمين فى قلعة زبا أظهر يوقنا الفزع والهلع ، وقال : وحق دينى ما هؤلاء العرب إلا شياطين ، ثم إنه أخذ بعض ثقل ابنته فى الليل وساروا يطلبون قرقيسيا ففى ذلك

قال طريف أحد بنى ربيعة بن مالك وهو سائر صحبة المسلمين الصحابة (رضى الله عنه) هذه الأبيات :

أتينا الى أرض الفرات مـع الزبا ونحن نروم الروم من كل فاجر
وقد أمنا ليث الحروب وسهمها همام شجاع قاتل كل كـافر
وأعـــــنى بيوقنا عليه تحية يناصب للأعداء حيلة غـــادر
وقاتل أبناء الصليب وحـزبهم بحد حسام مـاضى الصفح باتر
وصاح على الملعون قـوم زلوبيا فأورده فى الحال سكنى المقابر
وملكنا فى القلعتين كلاهـما بسعد وإقبال ونصرة قــــادر
سيحظى غداة البحث يوم معاده بروح وريحان وحـــور قواصر

حدثنا سيف بن عمرو التميمى ، قال : حدثنا الأنصارى عن المهلب عن طلحة عن محمد بن أبى الدقيلى بن ميسور قال : لما كان من أمر يوقنا وأشفكياص ماذكرناه وأرى من نفسه الهرب ، سار مع ابنته وأصحابه والرسول معهم ، يرومون قرقيسيا وهم منهزمون فوصلوها مساء ودخلوا معه على شهرياض وأعلموه بأخذ القلعتين ، وكيف فعل معهم العرب ، فأيقن بهلاكه وأخذ بلاده . فقال له يوقنا : أيها السيد لا تخف فنحن نقاتل بين يديك حتى نموت ، وإن نزلت العرب علينا يريدون حصارنا ، لأرينك العجب بقتالهم ، ولن يصلوا إليك بسوء ، فوثق بقوله وخلع عليه وطيب قلبه ، وأنزله بدار جواره وبعث شهرياض من ليلته إلى خاله وهو يومئذ ملك أرض ربيعة برأس العين فأرسل يستنصر به على العرب ويعلمه أن العرب قد أخذوا قلعتى زبا وزلوبيا ، وإن الرجل المعظم يوقنا ملك حلب قد هرب منهم بعد خدمته لهم وهو عندى ، فسار الرجل الرسول إلى دير مريع ومنه إلى المجدل إلى رأس العين ، فوجد رسول شهرياض الملك بأعظم تحصين قد أعد آلة الحصار وزاد فى عرض خندقها ، ونصب خيامه ومضاربه على مغاربها وعلى طريق النقب ، وهو معول على لقاء عياض بن غنم ومن معه . وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بنى تغلب وغيرهم، وقد صنع لهم سماطا واستدعى بأمرائهم وهم نوفل بن مازن والفريد بن تغلب بن عاصم

والأشجع بن وائل وميسرة بن وائل وميسرة بن عاصم وخزام بن عبد الله وقارب بن الأصم وقال لهم :

« يا فتيان العرب لم نزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم ، وقد أبحناكم أرضنا ترعون فى حزنها وسهلها ونرضى منكم بما تؤدون إلينا من أوباركم ، فأنتم آمنون ، وهؤلاء بنو عمكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ولم يكفهم ذلك ، حتى أقبلوا إلينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا ، وقد علمتم أن القوم إن ظفروا بكم لا يبقون عليكم ولا يرضون منكم ، إلا أن تدخلوا فى دينهم أو تقاتلوا عن دينكم وأهلكم وأموالكم فكونوا يدا واحدة لا ينفصل منكم شيء كما كان جبلة بن الأيهم وآل غسان مع الملك هرقل ، فإن نحن نصرنا على القوم فالأرض لنا ولكم على السواء ، وإن كانت الأخرى فنموت على دين واحد ويبقى ذكرنا إلى الأبد . قال فأجابوه إلى ذلك وتحالفوا وتعاقدوا أن يموتوا على سيف واحد ، فأعطاهم الأموال والعدد والسلاح ، وساروا معه . قال ثم إن رسول صاحب قرقيسيا قدم عليه ، وأعطاه كتاب ابن أخته شهرياض ، فلما قرأه وفهم ما فيه ، وأنه يطلب منه النجدة أرسل إليه يوريك الأرمنى وهو الذى بنى المؤزر والسن وتل عرب وعابدين والسوائد فأرسله ومعه أربعة آلاف ، فلما قدم الأرمنى ومعه أربعة آلاف فارس إلى قرقيسيا ، وكانوا قد قطعوا جسرهم الذى كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة من حديد وعليها سلاسل وعلى السلاسل أرماح ، وكذلك أيضا من ناحية الفرات وحفروا حول مدائنهم خندقا عميقا عريضا وحصنوا مدائنهم غاية التحصين وأقاموا ينتظرون عسكر الصحابة (رضى الله عنهم) .

ذكر فتح قرقيسيا

ولما ملك عبد الله بن غسان القلعة الغربية حين سلمها إليه شرجون بأمر يوقنا وترك يوقنا العرب وهرب إلى قرقيسيا دلهم الراهب شرجون على الطريق نحو السرب إلى القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لأشفكياص فيها ، وبعثوا إلى عياض بن غنم وأرسلوا يعلمونه فى السر بما صنع يوقنا ، فدعا له المسلمون وشكروه ، وأرسل يقول لعبد الله بن

غسان ولسهل بن عدى : احتفظا على ما فى القلعة الثانية ولا تأخذا منها قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه يوقنا لبنته واتركا فى القلعة من يحفظها واطلبا قرقيسيا وانزلا عليها والسلام : قال فلما وصل الكتاب إليهما ، فعلا ما أمرهما به عياض ووليا على القلعة الغربية الأحوص بن عامر ومعه مائة فارس ، وعلى الشرقية زياد بن الأسود فى مائة فارس ومضى عبد الله بن سهل إلى قرقيسيا ، فحال بينهم وبينها الفرات ، فدلهم بعض سكان تلك الأرض على المخاضة ، فعبروا فى الليل ، وأصبحوا على أرض واحدة مع أعداء الله ، وأرسلوا إلى ماجن والمحولة والبديل والصور وبعثوا اليهم الأمان وأقروهم فى منازلهم وقالوا : إن كانت لنا فقد أحسنا فيكم الصنيع ، وإن كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم . قال فأجاب القوم إلى ذلك وباعوا عليهم الميرة .

قال : حدثنا هلال بن عاصم عن يحيى بن جبير عن سوار بن زيد قال : لما بعث عبد الله بن غسان إلى أهل تلك القرى وطيب قلوبهم ، بعث بعد أيام سهل بن إساف التميمى وكان من الصحابة الأُولِ ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفة من ناحية ماسكين فسار سهل ومن معه ، فلما وصلوا إلى السمسانية شن عليها الغارة واستاق أموالها ، فخرج عليه نوفل بن مازن فى خمسمائة فارس ، واستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال ، فحملوا بأسرار صافية ، ونيات سامية ، وأفعال نامية ، وقلوب تنزهت بالإيمان ، وألسنة تنطق بذكر الرحمن ، ولم يزالوا فى قتال إلى أن قتل من المسلمين ثلاثون ، وانهزم سبعة وأربعون ، وأسر سبعة وعشرون من جملتهم سهل بن أساف بن عدى وحدثوا أصحابهم بما كان من المتنصرة ومنهم ، فعظم ذلك عليهم .

(قال الراوى) حدثنى نوفل بن عامر ، عن سالف بن عاصم ، عن سالم عن الدوسى قال : كنت مع سهل بن أساف حين قدمنا على السمسانية وخرج علينا نوفل بن مازن ، فقال والله لقد قاتلنا قتالا شديدا ما شهدنا مثله حتى كان من أمر الهزيمة ما كان . قال سالم بن عبد الله : لما أسرهم نوفل بن مازن شدهم فى الحبال وقرن بعضهم الى بعض ورجلهم عن خيولهم وسار بهم يطلب رأس العين ، فأخبروه أن الملك شهرياض على مرج

الطير من جانب النقب فقصد إليه ومعه من بنى عمه أربعون رجلا وساقوا أصحاب رسول الله إلى أن أوقفوهم بين يديه وحدثوه بأمرهم ، فأمر بضرب رقابهم وكان آخر من بقى أميرهم سهل بن أساف وكان أحسن الرجال وجها ، قال فشفع فيه بعض البطارقة ، فوهبه له وكان ذلك البطريق اسمه توتا بن لورك وهو صاحب كفر توتا فأخذه وأتى به إلى قصره فى كفر توتا . قال فنظرت إليه ابنته ، فسألت أباها عنه .

فقال : أى بنية إن المسيح قد طرح رحمة هذا الشاب فى قلبى فسألت الملك فيه ، فوهبه لى فخذيه إليك ، فأخذته وأدخلته فى بستان . قال فلما كان بعض الأيام دخلت البستان ، فنظرت إلى سهل بن أساف وهو يقرأ ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ ، فلما سمعت قراءته أخذت بمجامع قلبها . فقالت ما أفصح هذا الكلام وأطيبه وألينه للافهام . فقال لها هذا كلام الملك العلام الذى أنزله على سيد الأنام . فقالت الجارية : أما محمد فهو نبيكم لا محالة فيه فمن هؤلاء الذين قال فيهم ﴿ **والذين معه** ﴾ [1] قال هو صاحبه ووزيره أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) ــ أشداء على الكفار ــ هو وصاحب هذه الفتوح ومجهز هذه الجيوش عمر بن الخطاب ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ [1] هو كاتبه وصهره عثمان بن عفان ــ تراهم ركعا سجدا ــ هو أخوه وابن عمه وصاحب سيفه على بن أبى طالب .

فقالت له الجارية ، وكان اسمها ابريتا ، وكانت تكتب بقلم التوراة والانجيل وتتكلم بكلام العرب ، وكثيرا ما كانت تسأل علماء دينهم عن رسول الله ﷺ فلا يعطيها أحد منهم خبرا حتى وقع بيدها سهل بن أساف . فقالت من هؤلاء الذين ذكرت ؟ قال هم الذين قالوا وصدقوا وقاتلوا فحققوا وركبوا نجب السوابق ، فوفقوا وساروا فى بادية الطلب فلم يرفقوا ، وكلما لاح لهم علم الأفاضل تشوقوا ونودوا فى سرائرهم رجال صدقوا ، ثم أنشد يقول :

(١ـ١) سورة الفتح : الآية : ٢٩ .

رجال من الأحباب تاهت نفوسهم   ينادونه خوفا ويدعـــــونه قصدا
وقاموا بليل والظـــــلام مغلس   إلى منزل الأحـباب فاستعملوا الكدا
يحثون حث الشوق نحـو مليكهم   وقصدهم الفردوس كى يرزقوا الخلدا
أولئك قـــوم فى العبادة أخلصوا   فتاهوا به شـــوقا وماتوا به وجدا

فقالت له الجارية : لقد سمعت من نيسا راهب دير قنا أن الله ينشر دعوة نبيكم فى المشرق والمغرب ويملك المشرق والمغرب ، وأنهم يفضلونه على الآباء والأمهات والإخوة والأخوات وأنهم بعد موته يسيرون إليه ، واذ ذكر يكثرون الصلاة عليه . فقال لها سهل بن أساف أما علمت أنه كان فى حياته يدعو لهم ويستغفر لهم ولمن دخل فى دينه وأقر به ، ولقد كانت زوجته عائشة (رضى الله عنه) تقول : كانت ليلتى من رسول الله ﷺ ، فلما مضى الثلث الأول منها والفلك يدور بالنجوم ، والسماء تزهو بالكواكب ، والمردة تحرق بالشهب الثواقب ، وسرادق الله قد مد جناحه وأحال الظلام بادلهامه ، فبينما أنا فى وادى الوتين ساكنة وبجانبى أفضل مرسل وأكرم من ابتهل وتوسل ، وإذا به قد قبضنى وبكلامه الشريف أيقظنى وهو يقول : أيتها العين المتكحلة بعين السبات الغافلة عن موارد الهبات ، هبى من منامك ، واعملى ليوم حمامك ، فقدم قام أولو الألباب ، ومرغوا خدودهم على الأعتاب وفى التراب .

قالت : فقمت معه للخدمة ، ووقفنا نشفع للأمة إلى أن برق بارق الصباح ، وانفلق فلق الإصباح . فقال هلمى للصلاة والاستغفار ، وطلب العفو من العزيز الغفار . قالت فوافقته على ما أراد ، وبلغنا القصد والمراد ، فلما سكت من تسبيحه ، وفاح طيب ريحه رأيته وهو يتنفس ويقرع بسبابته جوهر سنه . فقلت : يا سيد الوجود وطيب الآباء والجدود إن العرب لا تقرع سنها إلا لأمر مهم أو لشأن ملم . قال : تذكرت حال العصاة من أمتى ، والمخلصين فى محبتى ، وذكرت قوله تعالى ـ ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ [1] فقلت يا رسول الله أما أنزل عليك قوله تعالى ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من**

---

(١) سورة هود : الآية : ١١٩ .

ذنبك وما تأخر ﴾ فوالله ليغفرن لك ولأمتك ، لقوله ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ [1] أنت الذى خلقت السموات والأرضين والعرش والكرسى من أنوارك ، وأنت الذى ربط براق القرب ببابك ، أنت الذى اخترقت معالم الملكوت وحملت إلى حضرة القرب والجبروت وأنت الذى أوتيت ليلة القدر ، وأنت صاحب البطحاء والحرم ، ولانت لك الأحجار ، وسلمت عليك الأشجار وانشق لك القمر ليلة الإبدار ، وأنزل عليك ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار** ﴾ [2] أنت صاحب عرفات ومنى ، والمخصوص بالشكر والثنا ، وسوف يبلغك الله من أمتك المنى ، وأما وعدك الله المقام المحمود واللواء المعقود ، والحوض المورود ، والكرم والجود، وسرادق السعود على أمتك ممدود وسحاب التوفيق عليهم يجود ، ولواء أصحابك بجواهر قبولك منضود ، وعليه مرقوم ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ ، فكيف تخاف على أمتك نزول البأس ، وقد فضلوا على سائر الناس بقوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [3] يا سيدى أنت تعلم أن أباك آدم تشفع بك فتاب الله عليه ، ونوح سأل بك فنجاه الله من الغرق ، وإبراهيم مع علو قدره بك أنجاه الله من النار والحرق ، وموسى مع تقربه ومكانته بك سأل ربه أن يشرح صدره وييسر أمره .

(**قال الراوى**) وما ذكر سهل للجارية هذه المناقب إلا لأن ترجع إلى دين الإسلام . قال فلما سمعت كلامه قالت فما جزاء من يدخل فى دينه ويقول بقوله . ؟ فقال يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وتمحى عنه سيئاته ويكون جزاؤه الرضوان فى الجنان ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ [4] فلما سمعت الجارية ما تكلم به سهل وقع فى قلبها وصغت إليه بلبها وقالت أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ففرح سهل بإسلامها .

---

(١) سورة الضحى : الآية : ٥ .

(٢) سورة التحريم : الآية : ٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية : ١٠٨ .

(٤) سورة النساء : الآية : ١١٠ .

فقالت له اكتم أمرك إلى الليل حتى أخلصك وأسير معك إلى عسكر الإسلام .

(**قال الراوى**) حدثنا صاعد بن عدى النميرى عن أبيه أنه سمعه وهو يحدث الناس بالمدينة وقد أتى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بأموال رأس العين وخزائن الملك شهرياض . قال وإن الجارية مضت واستدعت بجواريها ، وأخذت من مال أبيها ألف دينار ، فلما جن الليل فتحت باب السر بعدما تجسست فرأت كل من فى قصر أبيها نياما فأتت إلى سهل وحلته من وثاقه وقالت له قم على اسم الله وبركة نبيه فقام سهل بن أساف إلى الباب وأعطته لأمة حرب ولبست هى مثلها وخرجا من الباب وإذا هما بجوادين فركبا وخرجا وسارا مقدار فرسخين عن كفر توتا وإذا هم بحس الخيل وراءهم ، فقالت : إن كانوا من الروم فعلىّ مخاطبتهم وإن كانوا من العرب المتنصرة فعليك مخاطبتهم قال فوقفوا غير كثير وإذا بالقوم عدتهم ثلاثة وعشرون فارسا وعليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب قال فتأملهم سهل وذا هم أصحابه الذين قتلوا بحضرة الملك قال فدنا منهم سهل وسلم عليهم وقال سبحان الله ألم أشاهد قتلكم ؟

قالوا نعم . أما علمت أن الشهداء أحياء لا يموتون ، وإنما هى نقلة من دار الى دار وأن الله قد بعث بأرواح الشهداء فى هذه الليلة لتزور قبر النبى ﷺ وكانت تلك الليلة ليلة النصف من شعبان . فقال لهم إنى أريد المسير معكم وفى صحبتكم ، قالوا إنك لا تقدر على ذلك وقد بقى من عمرك إحدى وأربعون ليلة وتلحق بنا . وأما هذه الجارية فقد أعد الله لها فى الجنة ما أعد لأوليائه ، وقد بنى لها قصرا من الجوهر والياقوت الأحمر على شاطىء نهر الكوثر ، ستوره معلقة وبالأنوار مرونقة ، وقبابه مزوقة وأسرّته موصولة وفرشه مرفوعة ، وأباريقه مصفوفة ، وزواياه محفوفة ، وجلله منسوجة ، وحواشيه بحسن الوفاء مسروجة ، على أبوابه مكتوب بقلم السر المكنون **﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾** سورة النساء الآية (١١٠) فلما سمعت الجارية قولهم قالت فيم استوجبت هذا النعيم ؟ قالوا بتوحيدك الرب العظيم ، وتصديقك النبى الكريم . قال فصاحت صيحة فإذا هى ميتة قال سهل فنزلت فدفنتها وغاب الشهداء عنى وسرت إلى المسلمين فحدثت عبد الله بن غسان وسهل بن

عدى بذلك فازداد المسلمون يقينا بذلك وعاش سهل بعدها أحدا وأربعين يوما ومات .

حدثنا صفوان بن عامر عن خويلد بن ماجد عن عبد الرحمن بن النعمان عمن حدثه عن فتوح الشام وأرض ربيعة الفرس . قال لما نزل عسكر المسلمين على قرقيسيا مع عبد الله وسهل قال خندق المسلمون على أنفسهم خندقا وتركوا لهم موضعا يدخلون منه ويخرجون . قال واتصلت الأخبار بعياض بن غنم وهو بجانب الرقة ، وهو يتروى فيمن يبدأ بحربه بشهرياض وجنوده أو بحران والرها . فقال له خالد بن الوليد (رضى الله عنه) أتترك جيشا قد تهيأ واحتفل لقتالك وتمضى لسواه ، والرأى أن تلقى هذا العدو .

فإذا أنت هزمته وأوقعت الهيبة هناك فاقصد ما شئت من البلاد فإنها تفتح إن شاء الله تعالى . قال فعوّل عياض على ذلك وإذا قد أتته جواسيسه وأخبروه أنه قد تهيأ لحربكم الملك شهرياض ونوفل وطرباطس صاحب دارا والمؤزر وصاحب جملين وأرمانوس صاحب تل سماوى وأرجو وصاحب البارعة وشهرياض صاحب ماردين وورودس صاحب حران والرها وقد صارت جريدتهم مائتى ألف وقد ضمنوا للملك لقاءكم وقالوا لا تلقى العدو إلا بأهالينا وأولادنا وأموالنا وحريمنا حتى لا ينهزم منا أحد وقد تقدم إليكم الأرمن وبعدهم الروم وهم دون الفرات ، فلما سمع عياض ذلك بعث إليهم الوليد بن عقبة ووصاه بما أراد قال فقدم على بنى تغلب وجمع أمراءهم وهم نوفل بن مازن وعاصم والأشجع وميسرة وحزام وقارب وقال : يا فتيان العرب اعلموا أن من نظر فى العواقب أمن من المعاطب ، وليس أنتم أحد سنانا ولا أقوى جنانا ولا أجرأ فى الجولان ولا أوسع ميدانا من بنى غسان ، وليس فيكم من يشبه جبلة بن الأيهم وكان فى ستين ألفا ، وقد نصرنا الله عليهم وقتلنا ساداتها ، والصواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا من حزبنا .

قال فأجابوه بأجمعهم إلا طائفة إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم ووصل عرب بنى تغلب إلى جيش عياض بن غنم مسلمهم وكافرهم فرحب بهم وطيب قلوبهم وقال لهم : يا معاشر العرب إن الله سبحانه وتعالى قد أراد بكم خيرا بوصولكم إلينا ونزوعكم عن عبدة الصليب ، وقد أراكم الله إعزاز دينه وشرف نبيه وقد وعدنا ووعده الحق بملك

كسرى وقيصر وأخذ كنوزهما وما كان ينطق عن الهوى وقال الله فى حقنا ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ (١) قال فأسلم كافرهم وبقوا جميعهم مسلمين . .

(**قال الراوى**) أخبرنا سيف عن خالد بن سعيد قال لما علم عياض بهروب اياد الشمطاء إلى بلاد الروم كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك فأرسل عمر (رضى الله عنه) إلى هرقل وولده قسطنطين يقول لهم إن لم تصرفوهم عن أرضكم لأفنين كل نصرانى عندنا .

(**قال الراوى**) فلما وصلت رسالة عمر إلى هرقل وولده أنفذ بهم إليه . قال وعزم عياض على لقاء الملك شهرياض ، وأما ما كان من شهرياض صاحب قرقيسيا فإنه جمع بطارقته وقال لهم : اعلموا أنه قد بلغنى عمن تقدم من الملوك إنهم كانوا يجيشون الجيوش ولا يستغنون عن الحيل وأنا أريد فى غداة غد أن أخرج إلى لقاء العرب . فإذا اصطفت الصفوف فرجلونى عن جوادى وأشهروا على سلاحكم كأنكم تريدون قتلى فأقول لكم : أنا معتذر إنما أردت أن أجرب حبكم لدينكم وظننت أنه قد أخذكم الخوف من هؤلاء فإذا سمعتم منى ذلك فأرجعونى إلى إجلالى وإعظامى ، ثم ناوشوهم الحرب فأهرب أنا إليهم وأقول لهم إنى أردت أن أسلمكم البلد فهاش القوم على كما رأيتم وهموا بقتلى وقد جئت إليكم راغبا فى صحبتكم فإذا أمنونى وغفلوا عنى قتلت أميرهم فى الليل وأنا أعلم أن القوم بعده يهون على أمرهم ثم أعول على انهزامهم فقال له وزيره الأرمنى وكيف تسمح بنفسك وتلقيها فى أضيق المسالك وإن أنت فعلت ذلك لا نأمن عليك من العرب ويعتبنا خالك ويقول لنا كيف تركتموه يمضى إلى العرب ؟ فقال عبد الله يوقنا : لقد صدق السيد فى قوله وكيف نتركك تمضى إليهم وأنا أدبر لك مع هؤلاء القوم تدبيرا يكون أقرب من هذا وأهون ...

فقال شهرياض والوزير الأرمنى وما هذا التدبير أيها الملك قال أن نخرج غدا بأجمعنا

(١) سورة الأنبياء : الآية : ١٠٥ .

ونلقاهم ونريهم الجد من أنفسنا ونقاتل بحسب الطاقة ثم ننهزم إلى المدينة ونستبق إلى أبوابها ونصعد على السور فربما قربوا منا فلا نقاتل .

فإذا فعلنا ذلك طمعت العرب فينا ودنوا منا واعلموا أن فى عسكرهم جماعة من الروم ممن صبا إلى دينهم فربما قربوا منا فإذا أرادوا ذلك كتبنا إليهم نطيب قلوبهم ونرسل رسولا فى طلب الصلح ونقول أرسلوا إلينا عشرة من عقلائكم حتى نرى ما تريدون منا ولعلنا نعقد معكم صلحا فإذا فعلوا ذلك وحصلوا عندنا قبضنا عليهم ونشهر سيوفنا عليهم ونقول لهم إما أن ترحلوا عنا وإلا ضربنا رقابهم فإن القوم اذا رأوا الجد منا طلبوا صلحنا بأصحابهم ورحلوا عنا ، والعرب إذا قالوا قولا وفوا به فإن هزموا الملك شهرياض واحتووا على بلاده دخلنا بعدها تحت طاعتهم وارتحلنا عنهم إلى بلاد الروم . قال وإنما أراد يوقنا بهذا الكلام أمرين : أحدهما أن يبرأ عندهم من التهمة حتى يطمئنوا إليه . والثانى أن يحصل من أصحاب رسول الله ﷺ عشرة فى المدينة فيحتال أن يكونوا تحت يده ليثور بهم فيملك بهم المدينة . فقال له وزيره الأرمنى وإن كان العرب يبعثون إلينا صعاليكهم أو مواليهم فنقبض عليهم ونعدهم بالقتل فلا يلتفتون إلى ذلك ويقع الجد منهم فى قتالنا ولا يرحلون فكيف تصنع . قال فأراهم يوقنا أنه غضب وحول وجهه ، وقال :

وحق المسيح لقد دخل رعب القوم فى قلوبكم ولن تفلحوا بعدها أبدا وحق ما أعتقده لقد قاتلتهم فى قلعتى بحلب قتالا سارت به الركبان إلى سائر البلدان مدة سنة كاملة ولولا أن عبدا أسود من عبيدهم اسمه دامس أبو الهول وعشرين معه نصبوا حيلة على ملكوا قلعتى لما قدروا عليها أبدا وكانوا قد نزلوا على بجميع عسكرهم وأبطالهم فكيف بكم وما نزل عليكم إلا شرذمة يسيرة وبلدكم حصين ليس عليه قتال إلا من موضعين من صوب الجبل ومن الغرب وما لكم عذر ومن أراد رضا المسيح والأجر قاتل عن دينه وصان أهله وحريمه من هؤلاء العرب ، وإن خفتم أن القوم يرسلون إلينا مواليهم أو من لا له عندهم قدر ولا شأن فأنا أعرف الناس بهم وبفرسانهم وأبطالهم ومواليهم وخاصة أصحابهم فانفذوا مع رسولكم كتابا بأسماء القوم الذين أريد منهم المقداد والنعمان وشرحبيل بن كعب ونوفل

وعبد الرحمن بن مالك والأسود بن قيس وخالد بن جعفر وابن قيس وهمام الحرث ومالك بن نوبة وسلامة بن عامر .

قال فضحك الوزير الأرمني وقال : وحق ديني إن العرب لا يسمحون بهؤلاء قط إلا أن يطلبوا رهائن منكم . فقال يوقنا ما أفشل رأيكم وأضعف قلوبكم أنفذوا إلى القوم فإن أجابوا كان ببركة السيد المسيح وإن طلبوا رهائن أرسلنا أضعفنا من أهل المدينة ومن أولادهم وألبسناهم أفخر الثياب وقلنا هؤلاء أكابرنا من أهل المدينة . قال شهرياض : وحق القربان ما نفعل إلا ما أمرتنا ..

ثم إنه أمر بطارقته وأرباب دولته أن يأمروا الناس بالتأهب للحرب ففعلوا ولبسوا سلاحهم واستعدوا للقتال ، وأمر سهل بن عدى أصحابه بالركوب فركبت العرب وخرجت من باب الخندق واستقبلوا العدو بهمم عالية وقالوا : اللهم انصرنا عليهم كنصر نبيك يوم الأحزاب وعبوا صفوفهم ثم وعظهم وقال فى آخر وعظه ها أنا حامل نحو طاغية الروم وصليبه فاتبعونى ، فإن فتح الله بقتله أو أخذ صليبه فالقوم لا ثبات لهم فقالوا : أيها الأمير لقد دعوتنا الى شيء هو أحب الينا فاحمل حتى نحمل . قال محمد بن عبد الله فحمل هو ومن معه غلى عسكر قرقيسيا وكان أمير المسلمين عبد الله بن غسان وسهل بن عدى فلقد قاتلوا قتالا شديدا وجاهدوا فى الله حق جهاده وبذلوا رماحهم وسيوفهم فى أعداء الله والتقى عبد الله بن مالك الأشتر بيورنيك الأرمنى فلما عاين زيه علم أنه من ملوكهم فطعنه فى صدره فأخرج السنان من ظهره والتقى النعمان بن المنذر بشهرياض وقد طحطح الجموع ولم يعلم النعمان بأنه صاحب البلد بل عرف أنه من الملوك فحمل عليه النعمان وهو يقول هذه الأبيات:

وانا لقوم فى الحروب ليوثها   وتنفر منا ذاك أسودها
نحامى عن الدين القويم نصونه   ونرغم آناف العدا ونذودها
لنا الفخر فى كل المواطن دائما   بأحمدنا الهادى فذاك سعيدها
ملكنا بلاد الشام ثم ملوكها   الى أن تبدى بالنكال عديدها

وسوف نقود الخيل جردا سوابقا إلى شهرياض الكلب ذاك شديدها
ونملك دارا ثم جمليين بعـــدها كذا رأس عين الجـــيوش نقودها
ونمضى إلى حران ثم سروجهم كذا الرها للمسلمين نعيـــــدها
وانى أنا النعمان ذاك ابن مـــنذر أبيد ليوث الحرب ثم أســـودها

ثم أطبق عليه وفاجأة بطعنة فألقاه صريعا ، فلما نظر جيش قرقيسيا إلى هلال ملكهم انحرفوا إلى مدينتهم وتحصنوا فى بلدتهم وخافت أرمانوسة ودخل الرعب فى قلبها .

ثم إنها قالت للعبد الصالح يوقنا يا عبد المسيح ما بقى لى أحد سواك يسوس ملكنا ويدبر حالنا . فقال أيتها الملكة أنا لك وبين يديك . ثم إنها خلعت عليه وعلى أصحابه وقالت اعلموا أن هذه المدينة والمملكة لكم .

فقال يوقنا : يجب علينا أن نقوم بحقها ونقاتل بين يديها ، ثم إنه رتبهم على الأسوار فدنا المسلمون ورجالهم وهم يرمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لا تخطىء أبدا وكان المقدم على الرجال والموالى المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولا باليمن قاطبة أرمى منه بالمقاليع وكان من قوة ساعده إذا خرج حجره يجاوز البرج الأعظم فلم يزل يرمى فيه كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمته العرب برج المنذر ، وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسيا مضايقة شديدة . فقالت أرمانوسة أين ما وعدت به الملك شهرياض من تدبيرك فى هؤلاء العرب ، فقال أنا فى هذا الأمر متفكر .

ثم إنه صعد على السور مما يلى المسلمين ونادى يا معاشر العرب قد طال الأمر بيننا وبينكم ولا نسلم لكم إلا أن تهزموا الملك وتملكوا رأس العين ونحن لكم بعد ذلك واطلبوا منا من المال ما تريدون فقد علمنا أنكم إذا قلتم فعلتم ووفيتم . قال فلما رآه عبد الله بن غسان وسهل بن عدى والصحابة ونظروا إليه علموا أنه يريد أن ينصب حيلة على أهل قرقيسيا .

فقال سهل بن عدى : يا عدو نفسه مكرت بنا وتممت منصوبك علينا بدخولك فى ديننا حتى اطمأننا إليك . ثم غدرت ورجعت إلى دينك الأول فأين تهرب منا أو تولى

عنا ونحن ذلك فى الطلب وسوف نملك هذه المدينة بالسيوف ونضرب عنقك وهذا أيضا من تمام الحيلة .

فقال : يا معاشر العرب لقد نصحتكم وخدمتكم وما رأيت منكم إلا خيرا ، ولكن طالبتنى نفسى بدينى فرجعت إليه والآن فقد مضى ماضى وهذه المدينة ما لكم إليها وصول ولا تقدرون عليها لأنها حصينة وفيها رجال الحرب والقوت عندنا كثير ، ولكن أنفذوا إلينا منكم عشرة من أعز أصحابكم ممن نثق بهم يحلفون لنا ونحلف لهم إذا فتحتم رأس العين سلمنا هذه المدينة إليكم ويكون الصلح بيننا بقية هذه السنة فقد بقى منها أربعة أشهر أولها شهر رمضان .

فقال له عبد الله بن غسان : قد أجبناك إلى ذلك فمن هم العشرة الذين تريدهم حتى نرسلهم إليك . فقال أريد المقداد بن الأسود والأسود مولى قيس وخالد بن جعفر ورواحة بن قيس وهمام بن الحرب وسلامة بن عامر وابن نعيم فهؤلاء نريدهم فإنه لا يقع الصلح إلا بهم . قال فوجه عبد الله هؤلاء الذين ذكرهم له يوقنا . قال وفتح لهم الباب ، فقال له عبد الله نحن ما نسمح بأصحابنا بلا رهائن فمضى يوقنا إلى الملكة أرمانوسة وأخبرها أن القوم يريدون رهائن ، فقالت أرسل لهم من أولاد السوقة . قال يوقنا أيتها الملكة ان الحيل فى الحرب من عند العرب خرجت والملوك من شأنها إذا قالت قولا وفت به واعلمى أنه قد قال حكيم الفرس : إذا كان الغدر طباع قوم فالثقة بكل أحد عجز ، واعلمى أن أهل بلدك فيهم رؤساء وملوك وهم يعظمون شأنك بعد الملك ، ولكن ينظرون إليك بعين التأنيث وينظرون إلى بعين الغربة ولا هيبة لى عندهم وربما سمعوا بصلحنا مع العرب فلا يملكونا من ذلك ولا يتم لنا ما نريده وربما يرسلون يستنجدون علينا بمثل ملك الموصل وصاحب الهنكارية ويعظم الأمر . قالت فما الذى تراه من الرأى ؟ . قال الرأى نبعث الرؤساء رهائن عند العرب ، وإنما فعل ذلك يوقنا حتى لا يتعرض له متعرض فى المدينة وإذا سلمهم لا يكون فيها رئيس من رؤسائهم فأجابته الى ذلك وأنفذت الرؤساء منهم رهائن إلى عبد الله ابن غسان ، فلما وصلوا إليه دخل العشرة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما حصلوا فى

المدينة أمر بهم إلى البرج الكبير وهو المعروف ببرج المنذر ، وإنما فعل ذلك حتى لا يعصى من فى البرج ، لأن فيه مال أهل البلد ، فلما حصلوا هناك رجع إلى الملكة أرمانوسة وقال قد حصلتهم فى البرج وغدا نوقفهم بأعلى البرج ونقول لهم إما أن ترحلوا عنا أو نقتلهم . قالت وكيف نصنع برهائننا وإن نحن فعلنا بأصحابهم ما ذكرت يفعلوا بأصحابنا كذلك ؟ . قال لها يوقنا إذا كنت تفزعين على أهل البلد فصالحى القوم قالت دبرنا بحسن رأيك .

فقال : السمع والطاعة وأنا أمضى إلى هؤلاء العشرة مع ما وصاهم به أميرهم وننظر ما الذى يطلبونه منا ، ثم إنه مضى إلى الصحابة وحدثهم بما عزم عليه من تسليم البلد وقال لهم : إذا سمعتم الضجة فدونكم ومن فى البرج ، ثم رجع إلى أصحابه ورتبهم على السور ولم يترك معهم أحدا من أهل البلدة ، فلما أظلم الليل سار عبد الله يوقنا مع أصحابة المائتين وأعلنوا بالتهاليل والتكبير وبادروا إلى الباب ففتحوه وأرسل إلى عبد الله بأن يأتى إليهم بعسكره فأتوا ووضعوا السيف فى أهل البلد ، فما أفاق أهل قرقيسيا إلا والمسلمون قد مكنوا منهم القواضب فقصدوا البرج الأعظم فثار عليهم العشرة الصحابة فعلمت الملكة أرمانوسة أن الحيلة قد تمت عليها من قبل يوقنا وسمعت أهل البلد ينادون الغوث الغوث فأمنهم عبد الله ابن غسان وسهل بن عدى واحتووا على ما فى المدينة وأخذوا جميع ما كان فيها من الأموال وما فى البرج الأعظم من الذخائر فأخرجوا منه الخمس وقسموا الباقى على المسلمين وعرضوا عليهم الإسلام ، فمن أسلم منهم وهبوا له أهله وماله ومن أبى ضربت عليه الجزية ، ثم اجتمع الذين أسلموا وأتوا إلى الأمراء وقالوا : نحن قد دخلنا فى دينكم فسلموا لنا كرومنا وبساتيننا . فقال لهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدى هى بحكم الإمام : يعنى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وهو الذى يسكن فيها من أراد ويأخذ خراجها من هى فى يده ، فإن حكم الخراج والخمس والجزية بأمر الإمام يأخذ حاجته منه ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين .

(قال الواقدى) وأسلمت أرمانوسة ومن كان يلوذ بها فأقرهم عبد الله فى أماكنهم وأحسن إليهم غاية الإحسان وجدد لهم الأمان كل ذلك ليتصل الخبر بأهل البلاد فيدخلوا

في الإسلام .

قال (عطية بن الحرث) : وقال ممن أدرك ذلك : كان فتح قرقيسيا أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، وبنوا الكنيسة العظمى وهى بيعة جرجيس جامعا ولم يبرحوا حتى صلوا فيه وأطلقوا الرهائن وتسلم ولايتها شرحبيل بن كعب فى مائة وخمسين رجلا وعولوا على المسير إلى ماكسين والتفت الأمير إلى عبد الله يوقنا وقال مر ابنتك أن ترجع الى قلعتها فقد جاءت الوصية الينا من قبل الأمير عياض . قال فرجعت والحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده .

ذكر فتح ماكسين والشمسانية

قال : حدثني زهمان بن رقيم عن الصلت بن مجالد عن القيل بن ميسور قال لما ارتحل عبد الله عن قرقيسيا ونزل على ماكسين فتحها صلحا على أربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير فقلقوا من ذلك فترك لهم النصف وكذلك أهل الشمسانية ، ثم نزل على عربان فجاءوا إليه وصالحوه بما صالح به أهل ماكسين ، ثم ارتحل إلى المجدل فملكها وأقام ينتظر ما يرد عليه من أخبار أميره عياض بن غنم وهو نازل على نهر البليخ فكتب إليه يعلمه بما فتح الله على يديه ، فلما وصل الكتاب إليه كتب اليه أن الزم مكانك حتى يأتيك أمرى والسلام .

قال سهل بن مجاهد بن سعيد : لما فتح الله على يد عبد الله بن غسان أرض الخابور صلحا وأقام بالمجدل أنشد قيس بن أبى حازم البجلى هذه الأبيات :

أقمنا منار الدين فى كل جانب ... وصلنا على أعدائنا بالقواضب

ودان لنا الخابور مع كل أهله ... بفتيان صدق من كرام العرائب

هزمناهم لما التقينا بماسح ... وثار عجاج النقع مثل السحائب

وكل همام فى الحروب نخاله ... يكره بحمل فى صدور الكتائب

وجندل وفد الروم فى كل جانب ... تركناهمو فى القاع نهبا لناهب

وما زال نصر الله يكنف جمعنا ويحفظنا من طـارقات النوائب
فلله حمد فـي المساء وبكره وما لاح نجم فى سدوك الغياهب

ذكر فتوح قلعة ماردين

قال : حدثنى سوار بن كثير عن يوسف بن عبد الرزاق عن الكامل عن المثنى بن عامر عن جده : قال لما فتحت مدائن الخابور صلحا بلغ قتل الملك شهرياض صاحب أرض ربيعة وعين وردة ورأس العين فعظم عليه وكبر لديه فجمع أرباب دولته وهو نازل على أرض الطير وقال لهم : هذه ثلاث مدائن من بلادنا قد ملكت وقلعتان والعرب المتنصرة قد مضت عنا . فقال له البطريق توتا : أيها الملك انه لا بد للعرب منا ولا بد لنا منهم ويعطى الله النصر لمن يشاء غير أنه كان من الرأى أنك لو زوجت ابنك عمودا الملكة مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين ومرين لأعانتنا قلعة المرأة .

(قال الراوى) وكان السبب فى بناء القلعتين المذكورتين أن هذا الرجل أرسوس بن جارس كان من أهل طبرزند ، وكان بطلا مناعا ، وكان أول من بنى المملكة بأرمينية وكان منفردا بطبرزيد ، وكان يغير فى بلاد الروم حيث شاء حتى كتب أهل تلك البلاد الأعظم يستغيثون به من يده فأرسله الملك هرقل من إنطاكية إلى ديار ربيعة وقال له ابن لك حصنا تسكن فيه ، فلما توسط أرض جبل ماردين نزل تحته ونظر واذا على قلة الجبل موضع نار وكان فيه عابد من عباد الفرس وكان مشهورا عندهم بالعبادة وكانت الهدايا تقبل إليه من أقصى بلاد خراسان والعراق وكان اسمه دين ، فلم يمر به أرسوس حتى صادقه وكان يحمل اليه الهدايا والتحف وكان العابد لا يحتجب عنه ولم يزل معه حتى انه وقع به منفردا فقتله وغيبه ، فلما عدمه أهل تلك الأرض قالوا مات دين ، ثم ان أرسوس بنى بيت النار وجعله حصنا وكانت له ابنة يقال لها مارية ، فلما رأت أباها بنى له مكانا وتحصن فيه بنت أيضا قلعة بازائه وحصنتها وجعلت فيها أموالها وذخائرها ورجالها وكانت كلما خطبها أحد تراه دونها لأنها من بيت المملكة ...

وكان بالقرب من قلعتها دير بسفح الجبل وفى الدير راهب قد انقطع فيه وكان من

أجمل الناس وجها وكان اسمه فرما ، قال فأتت إليه زائرة . فلما رأته وقعت محبته فى قلبها فلم تتردد اليه وتتجاسر عليه إلى أن صارت بينهما صحبة فسلمت نفسها إليه فحملت منه ، فلما تكامل حملها ولدت فى خفية ولدا ذكرا فسلمته الى دايتها وقالت لها انظرى كيف تفعلين بهذا الغلام فإنى أحبه ولا أريد قتله ، لأنه إن علم أبى بقصتى قتلنى ، ثم أخرجت له ذخائر نفيسة وجعلتها فى قماطه وخيطت عليها وقالت من وقع به ينفقها على تربيته ، ثم إنها افتقدت بدنه وإذا على خده الأيمن شامة سوداء بقدر الظفر ورأت أذنه اليمنى وفيها زيادة قال فأخذته الداية ونزلت به ليلا ومعها خادم وكان مطلعا على أسرار الملكة فأتت به إلى أسفل القلعة فى الطريق الأعظم وهناك عمود من رخام وغالبه غائص فى الأرض وهو قائم على رأس ذلك العمود قاعدة من الرخام فوضعت ذلك المولود على القاعدة خوفا عليه من الوحش أن يقربه فيأكله ثم رجعت هى والخادم إلى القلعة .

(قال الراوى) وكان من قضاء الله وقدره : أن صاحب الموصل الملك الانطاق قد بعث رسولا لشهرياض ثم أرسوس بن جارس صاحب ماردين فجاز سحرا فى الطريق الذى فيه العمود فسمع بكاء الطفل فدنا منه وهو على جواده فنظر عصابة الذهب فأخذه وسلمه الى جارية كانت معه فى السفر وقال لها احتفظى على هذا المولود فلا شك أن له شأنا ، ثم أوصل الرسالة الى صاحب ماردين وارتحل الى رأس العين وأعاد الجواب على الملك شهرياض وأجرى الله على لسانه بأن حدث الملك شهرياض بقصة الطفل الذى وجده على العمود .

فقال : أعطنى اياه فانه ليس لى ولد يرثنى ويخلفنى فى ملكى فدفعه اليه فأخذه الملك ودفعه للحواضن والدايات فربوه الى أن ركب الخيل ونشأ وترعرع فسماه الملك عمودا وسماه الناس ولد الملك وتربى فى النعمة وتعلم طريقة الملوك من ركوب الخيل والرماية والقتال والمعالجة والصراع الى أن سما ذكره وانتشر فى الناس فخره وكان لا يأوى الى عين وردة بل أكثر زمانه فى الصيد والقنص وبنى له قصرا على رأس المغارة يأوى اليه وسمى القصر باسمه عموديا وليس عند أمه مارية خبر بما فعل الزمان به وانقضت الأيام واندرجت الأعوام حتى قدم عسكر المسلمين يريد فتح أرض الجزيرة فلما شاور الملك أرباب دولته فى

أمر العرب أشار عليه توتا أن يزوج ولده عموديا من الملكة فانها لا تصلح الا له ... وهى بكر ولها من العمر ثلاثون سنة وقد خطبها الملوك وأبناؤهم فلم ترض بهم لأنها تراهم دونها وأنت اذا طلبتها لولدك لم يمتنع من ذلك أبوها ويفرح بمصاهرتك ، فأجابه الى ذلك وبعث الى أرسوس بن جارس هدية عظيمة وقال لتوتا كن أنت الواسطة فى ذلك ، فسار توتا الى أرسوس وسلم عليه ودفع إليه الهدية فقبلها وتحدث معه فيما ذكرناه فاجابه الى ذلك وطلب منه الصداق مائة ألف دينار والبارعية وجملين وعشرين أميرا من العرب ليقتلهم قربانا للمسيح ليلة زفافها فأجابه توتا الى ذلك ، فركب أرسوس الى قلعة ابنته ودخل عليها وأعلمها بالخبر فرضيت فخرج من عندها وجمع القسوس والشمامسة وزوج ابنته لعمودا وليس عندهم خبر من أحكام القدر .

(قال الراوى) ورجع توتا الى الملك شهرياض وأعلمه ان الأمر قد انبرم وأعلمه بما اشترط عليه أرسوس من القلعتين البارعية وجملين ومائة ألف دينار وعشرين أميرا من العرب ليقربهم ليلة زفافها ففرح بذلك وأنفذ الأموال وقال : اذا زفت اليه سلمت الى أبيها القلعتين ثم انه طلب عمودا وأخبره أنه قد زوجه ابنة أرسوس بن جارس وقال له : اعلم يا بنى ان من جملة الصداق عشرين من فرسان العرب فتجهز وخذ العسكر واقصد العرب وأمر أن يخرج معه توتا الوزير وردس صاحب حران وقال لهم ان قدرتم أن تكبسوا العرب فافعلوا ومضوا فى عشرين ألفا .

(قال الراوى) وأتت عياضا عيونه وأخبرته بما جرى وانهم قد أقبلوا اليك وهم ردس صاحب حران وصاحب كفر توتا وعمودا ابن الملك فى عشرين ألفا وهم يريدون كبسكم فى الليل فاستيقظوا لأنفسكم . قال فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم .

فقال خالد بن الوليد : اكتب من وقتك الى عبد الله بن غسان وسهل بن عدى أن يسيروا الينا من وقتهم ويعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر . فإذا قربوا منهم يكمنون لهم حتى يعبروهم ويصير أصحابنا من ورائهم ونكمن نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم . فقالوا كلهم هذا هو الرأى المصيب وخرج خالد فى ألفين وكتب فى

الحال الى عبد الله وسهل يأمرهما باللحوق بعسكر خالد ويوصيهما بما يفعلان وبعث الكتاب مع سراقة بن دارم فوصل إليهما في يومه على ناقة له ، فلما وصل وقرأ الكتاب ارتحلوا من ساعتهم وأطلع الصحابة على الخبر فركبوا وأنفذ عبد الله عيونه يتجسسون له خبر العدو .

(قال الراوى) وأما خالد فانه انفصل من عياض فى ألفين ولم يأخذ بهم على الجادة ، بل أرسل ألفا عن يمين الطريق وأمر عليهم ابن سعدا ، وألفا عن يسار الطريق مع خالد وأمر ابن سعدا ان لا يبعد عن الطريق ، وأرسل عيونه .

(قال الواقدى) انه لما سار عمودا وتوتا ورودس فى العشرين الف فارس لم يزالوا سائرين الى ان بقى بينهم وبين عسكر عياض بن غنم عشرة فراسخ .. فنزلوا فى مكان يستريحون ويعلقون على خيلهم ويلبسون لامة الحرب ..

(قال الواقدى) وسار جيش عبد الله بن غسان من ورائهم وسار خالد بن الوليد عن يمينهم ونجيبة بن سعد عن يسارهم وليس عند الروم خبر من ذلك ، فلما علم خالد أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أحدقوا بالقوم أرسل يعلم المسلمين أن يتأهبوا الى وقوع الصوت . قال فتأهبوا ، ثم ان خالدا أخذ خمسمائة من أبطال المسلمين وترك خمسمائة مع عدى ابن سالم الهلالى وقال له : اذا رأيت الحرب قد اشتعل نارها وتطاير شرارها فاخرج من كمينك ، ثم ان خالدا لما قصد جيش العدو بمن معه وتظاهر لهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قال فسمعت الروم أصواتهم فلبسوا سلاحهم ولم يركب منهم سوى رودس وأصحابه وهم خمسة آلاف ولم يكن فيهم مستيقظ سواه وتوتا مشغول مع عمودا .

قال : وإن صاحب حران استقبل خالدا واستصغر شأنه لما رآه فى شرذمة قليلة فطمع فيه واشتغلت الروم بالنظر اليهم وقالوا : رودس يكفينا أمرهم . قال فبينما هم ينظرون اذ صاح خالد بعدو الله رودس وانحط عليه انحطاط السحاب وهو يقول هذه الأبيات :

وإنا لقـــــوم لا تكل سيوفنا ... من الضرب فى أعناق سوق الكتائب

سيوف دخـــرناها لقتل عدونا ... واعـــزاز دين الله من كل خـائب

قتلنا بها كل البطاريق عـــــنوة جلاء لأهل الكفر مـــن كل جانب
الى أن ملكنا الشام قهرا وغـــلظة وصلنا على أعــــدائنا بالقواضب
أنا خالد المقدام ليث عـــــشيرتى اذا همهمت أسد الوغى فى المغالب

وفأجأ رودس بطعنة فألقاه على وجه الأرض فأوثقه غلامه همام وحمل فى أصحابه هو ومن معه . قال فهم فى ذلك اذ خرج عليهم نجيبة بن سعد وعدى بن سالم وأشرف من بعدهم عبد الله بن غسان فامتلأت الارض بالزعقات وارتجت سائر الجهات وصدموهم على الخيل العربيات ونادوا باسم جبار الأرض والسموات وأطبقوا عليهم من كل جانب ، وكان التوفيق للصحابة مصاحبا فما لحقت الروم أن تركب على خيلها الا والسيف يعمل فيهم فطحطوهم وفرقوا مواكبهم واستوثقوا منهم أسرى وأخذوا عموديا وتوتا فكانت الأسارى أربعة آلاف والقتلى ألفا وسبعمائة وستة وستين وولى الباقى الأدبار فوصلوا الى الملك شهرياض فأعلموه بما وقع فضاقت عليه الأرض بما رحبت وعلم أن دولته قد انقرضت وأن أيامه قد اضمحلت ومضت فأحضر من بقى من أرباب دولته فاستشارهم فيما يفعل .

فقالوا : أيها الملك ان مقامنا على رأس العين سفه فان بينه وبين حران والرها وسروج بعيد ، يطمع العرب فى بلادنا ، بل الرأى ان نرحل ونتوسط البلاد وتكون قلاعنا أقرب منا والميرة تصل الينا من كل جانب ، فان كانت لنا وانهزمت العرب أخذنا عليهم سائر الطرقات وإن كانت علينا انهزمنا الى ماردين وقلعة مازن وكفر توتا وقصدنا جملين وتل توتا والبارعية وتل سماوى وتل القرع والصور ودجلة الجبل ونأمن على أنفسنا . قال فأجابهم الى ذلك وارتحل من برج الطير وقصد رأس العين ورتب آلة الحصار وترك فى المدينة عشرة آلاف فارس مع مرتودس وكان من الفرسان المشهورة وهو متزوج بابنة الملك شهرياض ، فلما رتب أمره رحل إلى مرج رغبان .

حدثنا أبو يعلى عن طاهر المطوعى عن أبى طالب بن مليحة عن وهبان بن بشر بن هزارد . قال قرأت الفتوح من أوله الى آخرة بجامع الرصافة على أحمد بن عامر الحوفى وأحمد قرأ على سعدان بن صاحب وابن صاحب قرأ على يحيى بن سعيد المروزى ويحيى

قرأ على أبى عبد الله بن محمد الواقدى وهو يومئذ قاضى الجانب الغربى . قال لما نزل الملك شهرياض على مرج رغبان بجيوشه ارتحل عياض فى أثره بعدما كتب بخبر الوقعة وفتح زبا وزلوبيا والخابور الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وسأله الدعاء وبعث الكتاب والخمس وما أخذه من القلاع وأرسله مع حبيب بن صهيان وضم اليه مائة فارس فسار الى المدينة ، وأما عياض بن غنم ومن معه من عساكر المسلمين فانهم تبعوا شهرياض الى أن نزلوا مع العدو بمرج رغبان .

قال : فنزلوا فى مقابلتهم قال واتصلت الاخبار بأرسوس بن جارس صاحب ماردين بأسر عمودا فأحضر ابنته اليه وقال أى بنية : اعلمى أن بعلك قد أسر وهو ابن الملك ونحن نخاف العار بأن يقال مارية بنت أرسوس ماكانت موافقة على ابن الملك وانه لما تزوج بها أسر وقد حرت فى أمرى . فقالت له مارية يا أبت وحق المسيح لقد قلت الحق وتكلمت بالصدق فما عندك من الرأى ؟ قال لها وما عندك أنت ؟. قالت أريد أن أتنكر وأدخل الى عسكر المسلمين وآتى اميرهم وأقول له انى قد أتيت أسلم على يديك لرؤيا رأيتها وهو أنى رأيت المسيح فى النوم ومعه الحواريون وكأنى أشكو للمسيح ما نزل بنا منكم ، وكأنه يقول لى اسلمى فان القوم على الحق وقد جئتكم لأسلم وأملككم قلعة أبى وتتركونى أنا فى قلعتى فاذا قال أميرهم فكيف تملكيننا قلعة أبيك وهى أمنع الحصون وأحصن القلاع ، فأقول له يرسل معى من فرسانهم مائة فارس من صناديدهم وأدخلهم فى قلعتى وأجعلهم فى صناديق وأرسلهم الى قلعة أبى وأسير معهم الى قلعة أبى وأقول هذه الصناديق فيها أموالى وأريد أن أجعلها فى خزانة أبى فاذا حصل القوم عندى رميتهم فى المطامير وأقول لهم لست أدعكم حتى ترسلوا الى أميركم يرسل الى بعلى .

فقال لها أبوها : إنك تريدين أن تلقى نفسك فى الهلاك ،وان العرب لا تتم عليهم الحيل لانهم هم أربابها . قالت وان طلبوا منى رهائن ، فاذا وقع الفداء بأصحابهم طلبت الرهائن مع بعلى . فقال لها دبرى ما تريدين فلعل أن يكون فيه المصلحة . قال فنزلت فى الليل وقصدت مرج رغبان ومعها خادم وأربعة مماليك يسوقون بغلتها وعليها من الهدايا

والتحف والطرف . قال فلما وصلت الى تنيس التقت بغلمان أبيها وحاجبه ومعهم أربعون أسيرا من العرب : منهم عبد الله بن غسان وأمثاله . قال وكان السبب فى ذلك : أن عياض ابن غنم لما ارتحل يطلب رأس العين مع هؤلاء السادة الذين مع عبد الله بن غسان بحسب العادة فى سيرهم الى حران وسروج والرها ليأتوا بالطعام والميرة للعسكر فساروا ، فلما توسطوا البلاد لقيهم السائس ابن نقولا وجرجيس بن شمعون وقد أقبل بميرة عظيمة لعسكر الملك شهرياض ومعهم ثلاثة آلاف غائصون فى الحديد ، فلما رأوا قلة المسلمين طمعوا فيهم فأقبلوا وأطبقوا عليهم من كل جانب فأخذوهم قبضا بالكف وأحضروهم بين يدى الملك شهرياض فهم بقتلهم .

فقال له وزيره : أيها الملك ليس هذا برأى لان ولدك عمودا فى يد العدو وورودس صاحب حران وتوتا صاحب الحجاب ، فان أنت قتلتهم قتلوا أصحابك وولدك والصواب أنك ترسلهم الى قلعة ماردين : يعنى قلعة المرأة وتسلمهم الى الملكة مارية ويكونون عندها فاذا طلبتهم العرب تقول لهم أنهم بقلعة ماردين وليس هم فى أسرنا ونحن لا نبالى بمن هم عندهم فيكون أعظم لحرمتك وهيبتك ، فاستصوب رأيه وأرسلهم الى مارية مع صاحب أبيها فالتقت بهم على تنيس كما ذكرنا ، فأمرت الحاجب أن يوصلهم الى قلعتها ففعل ، ثم انها سارت حتى أتت الى عسكر المسلمين فى حندس الليل فكان يطوف فى العسكر سهل ابن عدى ونجيبة بن سعد فى جماعة ، فلما رأوها أتوا اليها وسألوها عن حالها . فقالت أريد أميركم فأتوا بها الى عياض بن غنم .

فلما وقفت بين يديه قدمت له الهدايا وهمت أن تسجد له فنهاها ، وقال : ان الله قد أعزنا بالاسلام وانقذنا من الضلال بمحمد ﷺ ، فأزال عن قلوبنا الغل والحسد واتباع الهوى وشرفنا بالتحية ونزهنا أن يسجد بعضنا لبعض وما يرغب فى ذلك الا الجبابرة من ملوك الارض ، وان الله يقول : العظمة ردائى والكبرياء ازارى ، فمن نازعنى فيهما قصمته ولا أبالى ، ومارية تفهم ما يقوله ، فلما انتهى قالت أيها الملك ان الله بهذا نصركم علينا . قال لها فمن أنت ؟ قالت أنا مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين ، وان الذى

بايديكم أسيرا هو بعلى ولا صبر عليه وهو عمودا ، فلما كثرت فكرتى فيه واشتد شوقى اليه رأيت المسيح فى نومى والحواريين ، وقد أمرنى باتباعكم وقد أتيت اليكم بهذه النية بأن أتبع دينكم وأسلم لكم القلعتين قلعتى وقلعة أبى على شرط أن تبقونى فى قلعتى ولا تغيروا من أمرى شيئا وأقيم أنا وبعلى فيها وأكون الحاكمة على أهل بلدى .

قال : فتبسم عياض من قولها وقال يا مارية أما انك ما أتيت الينا الا لتنصببين علينا بسبب بعلك وكيف يكون هذا بعلك وهو ولدك وحديثه كذا وكذا . قال فلما سمعت الجارية الحديث من عياض بن غنم امتقع لونها وتغير كونها وقالت له : يا سيدى ومن أين لك هذا وان عمودا ولدى وهو ولد شهرياض . قال لها رأيت رسول الله ﷺ الليلة وحدثنى بذلك كله .

فقالت : إنى أريد أن أراه . فان كان ولدى فان لى فيه علامة ، فأمر عياض بن غنم بحضوره فأتى به سعيد بن زيد ، فلما نظرت اليه ووقعت عينها ورأت الشامة التى على خده وزيادة اذنه ورأت عصابتها وما فيها من الجواهر صاحت صيحة عظيمة أذهلت من حضر وترامت عليه والتزمته وقالت ولدى لاشك فيه ، وقد صدق محمد ﷺ فى قوله . قال ونظر الغلام الى أمه فتحرك الدم فى بدنه فغشى عليه من البكاء ، فلما أفاق بكى بكاء شديدا هو وأمه ، فلما سكتا قال عياض قد وجب عليكما أن توحدا الله شكرا على ما أنعم عليكما فانه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ليس له حد ولا قبل ولا بعد ، هو الاول وعليه المعول ، وهو الآخر وله المفاخر.

قال : فلما سمع عمودا ما قاله عياض قال والله ما فى قولك زور ولا محال ،وأنا أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . قال فلما نظرت مارية أمه اليه وقد أسلم وافقته فى الحال وعرجت عن طريق المحال وشهدت لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة . فقال عياض بن غنم ومن حضر من المسلمين : تقبل الله منكما اسلامكما ووفقكما واعلما أن الله قد طهر قلوبكم وغفر ذنوبكم فاستأنفا العمل ولكن كيف السبيل الى هذه القلعة المنيعة .

فقالت : أبشر فان أصحابكم اسروا عند حران وقد وجههم شهرياض الى لأفدى بهم منكم هذا الغلام عمودا وقد سيرتهم الى قلعتى ، وها أنا أسير اليهم وأحصلهم فى قلعة أبى وأفك أسرهم وأملك بهم القلعة ان شاء الله تعالى . فقال لها عياض لقد وفقك الله فى كل حال ، وصرف وجهك عن المحال ، ولقد صعب على أسر أصحابى ، ولكن قد طاب قلبى بما قلت من الصواب ، فدعى ولدك عندنا وارجعى الى أبيك ، فاذا رأيتيه فقولى له قد تمت حيلتك علينا ، فاذا حصلت عند أصحابنا فافعلى ما فيه الصلاح .

فقالت : السمع والطاعة ، ثم ودعت زوجها أى ولدها والمسلمين ، وسارت من ليلتها الى ماردين ، فوجدت أباها قد نزل الى خدمة الملك الى مرج رغبان ، ووجدت الحاجب الذى كانت معه الاسرى ، قد أوصلهم الى قلعة أبيها وتركهم تحت قبضته ، وكان هذا الحاجب من عقلاء الناس ، ممن قرأ التوراة والانجيل والزبور ، وكان راهبا فى مبدأ أمره ، وكانت له صومعة على عمود رخام قائم طويل ، وصنع على رأس العمود قائمة عظيمة ، وعقد عليها قبة وكان يصعد اليها بسلم ابريسم معلق بأعلى القبة ، وله سكتان فى الارض ، فاذا حصل فى القبة ، انتزع السكتين وأخذ السلم اليه .

فشاع خبره ونما ذكره بالعبادة والرهبانية ، فلما توجه الى بلادهم وفتحت الخابور صلحا ، اجتمع حول ذلك العمود أمم ، وقالوا يا أبانا ما الذى تشير به علينا ، فان العرب قد توجهت الينا وقد فتحوا الشام وأكثر العراق وحصلوا فى أرضنا فما الذى نصنع ؟ قال فاطلع عليهم من القبة وقال :

يا معاشر النصرانية ، ما زالت النعم ظاهرة وباطنة ، مطمئنين فى البلاد ، وقد ذلت لكم رقاب العباد ونصركم المسيح على سائر الأمم ، ورد عنكم سائر الغمم ، ومهد لكم الارض فى الطول والعرض اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتردون المظالم الى أهلها وتحكمون بالحق وتتبعون شريعتكم ، وتزجرون أنفسكم عن أكل الحرام واتباع الزنا ، فلما غيرتم غير بكم ، وفى انجيل يحيى وانجيل مرقص مكتوب من اتبع سنن الحق وعود لسانه طريق الصدق وفعل بأوامر ربه وألزم نفسه بما يعنيه ولم يبخس الناس أشياءهم ، وداوم

على صلاته ، وعمل بأوامر شريعته ، ولم يتبع هواه بلغه زهده ما تمناه ، ومن جار وبغى وظلم وتجبر وحاد عن طريق الحق ، كان فناؤه عاجلا ولنفسه بيده قاتلا وخربت داره ، ونفد ادخاره ، وكان الخوف شعاره ، والجحيم دثاره ، وفى التوراة مكتوب لا تظلموا انه لا يحب الظالمين .

وقد بلغنى أن فى القرآن مكتوبا ﴿ **ان الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ (١) فأصلحوا ذات بينكم ، واجعلوا تقوى الله نصب عيونكم ، وقاتلوا عن أهلكم وحريمكم واتبعوا شريعة نبيكم ، واخرجوا الى جهاد عدوكم ، فان الجهاد اليوم أفضل من جميع العبادات المأمور بها فانه من جاهد أعداه ، كانت الجنة مأواه ، ألا وإنى نازل من صومعتى هذه فلا يتخلف أحد منكم ثم انه أرسل سلمه ونزل ، فلما رأوه وقد نزل أقبلوا عليه بالسلام وقبلوا يديه ورجليه ، فأتى بهم الى كنيسة دمائر وكنيسة باذا فصلى بهم ودعا ، ثم أمرهم بالجهاد وقصد دير ملوخ هو قبلة من دار عبديدان الروم ، وكان فيه راهب فناداه باسمه وقال له : ليس هذا وقت العبادة فأنزله من صومعته وسار الى نصيبين ، فخرج الى لقائه الملك قرقياقس ، فترجل اليه وصافحه وسار بين يديه الى البيعة وزار دير يعقوب ، وهرع اليه أهل نصيبين فوعظهم وأمرهم بالجهاد، وقصد رأس العين وبلغ خبره لأرسوس بن جارس فلما أسر عبد الله بن غسان ومن معه بعثهم مع الراهب ميتا بن عبد المسيح ولقيته مارية فى الطريق كما ذكرنا وأمرته بأن يسير بهم الى قلعتها ، فلما أبعد عنها لقى أباها فى عسكره فسأله عما هو فيه فأخبروه أن الملك شهرياض أرسله بهؤلاء الاسرى .

فقال له : من أنت ؟ قال : ميتا بن عبد المسيح ، فلما سمع أرسوس قوله فرح به وقال وحق دينى لى زمان ارقبك ولست أستغنى عن رأيك ، ولكن انطلق بهؤلاء الى قلعتى وتول أنت حفظهم حتى يأتيك أمرى وخذ خاتمى هذا فانطلق وأوصلهم الى القلعة ووضعهم فى الاعتقال وتولى حفظهم بنفسه وجعل ينظر الى حسن عبادتهم وجودة

---

(١) سورة يونس : الآية : ٨١ .

تلاوتهم فأقبل عليهم ، وقال لهم أخبروني كم فرض عليكم في اليوم والليلة . فقال عبد الله ابن غسان خمس صلوات فمن أتى بها بركوعها وسجودها على الكمال لا يرد على النار قال الله تعالى في كتابه ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾ [1] وقال نبينا ﷺ « الصلاة صلة ما بين العبد وربه فيها اجابة الدعاء وقبول الاعمال وبركة الرزق وراحة الابدان وستر بينه وبين النار وثقل في الميزان وجواز على الصراط ومفتاح الجنة » وهذه الصلاة فرضت على جميع الأمم فلم يؤدوها وقصروا فيها حتى فرضها الله علينا فأديناها والصلاة جامعة لجميع الطاعات فمن جملتها الجهاد وان المصلي مجاهد عدوين نفسه والشيطان وفي الصلاة الصوم فان المصلي لا يأكل ولا يشرب وزادت على الصيام التمسك بمناجاة ربه وفي الصلاة الحج وهو القصد الى بيت الله الحرام والمصلي قصد رب البيت وزاد على الحج بقربه من ملكوت ربه والله تعالى فرض الفرائض في الارض الا الصلاة فان الله افترضها في السماء وأنا بين يديه وقال يا محمد هذه الصلاة افترضها على جميع الانبياء ، وأما أمتك فقد سلمتها اليهم وجعلت جميع الطاعات كلها فيها .

وقال ﷺ : أتاني جبريل وقال لي : يا محمد قم فاصنع مثل ما أصنع ، فتقدم وصلى ركعتين وقال لي يا محمد هذه صلاة الصبح وهي أول صلاة صلاها ولذلك سماها الأولى ثم صلى به مرة أخرى اذ صار ظل كل شيء مثله ، وقال له هذه صلاة الظهر ، ثم صلى العصر أول وقتها وقال هذه صلاة العصر ، ثم صلى به مرة أخرى اذ صارت الشمس مصفرة ، ثم صلى والشمس قد غربت وقال هذه المغرب ، ثم صلى به عند مغيب الشفق، وقال هذه عشاء الآخرة ، ثم صلى المرة الخامسة والفجر قد طلع ، وقال هذه صلاة الصبح وقال نبينا فرضت الصلاة مثنى مثنى في الحضر وتركت صلاة السفر على حالها . فقال ميتا لعبد الله بن غسان يا أخا العرب فما معنى رفع أيديكم في الصلاة للتكبير .

فقال : ألا ترى الغريق لما يجد شيئا يتعلق به لينجو من الغرق : وكذلك العبد في

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٣٩ .

الصلاة فهو غريق فى بحار الخطايا والمعصية يرفع يديه ويقول يا رباه خذ بيدى فإنى غريق فى بحار الخطايا والمعصية هارب منك اليك ، وأما معنى القراءة فى الصلاة فهو عتاب بين العبد وربه ، وأما الركوع فمعناه أنا عبدك وقد مددت يمينى إليك .

وأما الرفع من الركوع وقول العبد ربنا لك الحمد يعنى على عتق رقبتى من الذنوب يقول الله تعالى بقول العبد أنا عبدك قد أعتقتك من الذنوب ، وأما معنى السجدة الاولى ووضع الجبهة على الارض كأنه يقول منها خلقتنى والرفع منها أخرجتنى والسجدة الثانية وفيها تعيدنى والرفعة الاخرى ومنها تخرجنى تارة أخرى ، وأما معنى السلام على اليمين : اللّهم أعطنى كتابى بيمنيى ولا تعطنى كتابى بشمالى ، ولما حضرت عند رسول الله ﷺ سمعته قال « من حافظ على الصلوات الخمس كانت كمثل نهر عذب يغتسل فيه أحدكم كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء فكذلك الصلوات الخمس لا تبقى على العبد خطيئة .. »

فلما سمع الراهب ميتا كلام عبد الله قال أشهد أنكم على الحق وان دينكم حق وقولكم صدق ، ثم أسلم ، وبعده بقليل وصلت مارية لما علمت أن الصحابة فى قلعة أبيها فلما صارت فى أعلى القلعة ونزلت فى دار أبيها باتت على قلق بسبب الصحابة فلما كان قد دخل عليها ميتا وسلم عليها . فقالت له يا ميتا ما الذى صنعت بالعرب قال استوثقت منهم حتى يرى الملك فيهم رأيه فقالت والله ما قصرت ، ولكن اجعلهم معنا فى البيعة حتى يروا حسن عبادتنا وقراءتنا الانجيل فلعلهم أن يدخلوا فى ديننا .

فقال : السمع والطاعة ثم انه نقلهم الى البيعة فلما كان الليل أتت البيعة فرأت أصحاب رسول الله ﷺ وهم فى القيود ولم يكن هناك سوى ميتا فقالت له ميتا أنت من علماء ديننا وما يخفى عليك الحق اطلعت على دين هؤلاء القوم فالحق معنا أو معهم . فقال أيتها الملكة ليس على الحق من غطاء ، الحق مع هؤلاء العرب والذى قد جئتنى به فانجزيه من قبل أن تطلبيه فلا تقدرى عليه وقد رأيت بيان صدق القوم وصدق دينهم حتى جمع الله بينك وبين ولدك عمودا . قال فلما سمعت كلام ميتا بقيت باهتة فيه فقالت له

ومن أين لك هذا ؟

قال : رأيته فى نومى ، وحدثها بما كان كأنه كان حاضرا فسجدت شكرا لله ، فلما رفعت رأسها وثبت قائمة وحلتهم من وثاقهم ودفعت اليهم السلاح وأمرت ميتا أن يكرمهم ، وقالت له : أنا أدبر كيف نقبض على الوالى ونملك القلعة ، ثم إنها سارت الى قلعتها وولت عليها من هى به مطمئنة الفكرة وأخرجت منها من تخشى جانبه واستوثقت منها ، وأما ميتا فانه جعل الصحابة فى البيعة فى بيت المذبح ، وقال لهم اذا كانت غداة غد وأتى الوالى وأصحابه الى الصلاة فاخرجوا عليهم فان الله ينصركم عليهم .

(قال الراوى) : فلما كان الصبح أقبل الوالى وخواصه ليصلوا وضربت النواقيس وأتى القس ليفتح باب المذبح ويقرب القربان ، فلما فتح الباب خرج عبد الله بن غسان وأصحابه الاربعون وكبروا تكبيرة واحدة ارتعدت لها القلعة وما فيها وبذلوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم واحتووا على القلعة وما فيها وسمع أهل الربض التكبير فعلموا أنهم قد ملكوا القلعة فولوا على وجوههم هاربين ، قال فلما سمعت مارية التكبير والصياح علمت أن قلعة أبيها قد ملكت فغلقت أبواب قلعتها وأرسلت من تثق به إلى عياض بن غنم وأخبرته بما جرى فشكر الله على ذلك ووصل أكثر المنهزمين الى الملك شهرياض وأعلموه أن قلعة ماردين ملكها العرب فصعب عليه وأيقن بتلف ملكه ووقع الرعب فى قلبه وقلوب عسكره وبلغ أرسوس الخبر أن قلعته ملكت وخزائنه أخذت فكتم أمره الى الليل وأخذ من يثق به ، وصار يطلب حران فوصل إليها فى الليلة الثانية ، فلما قرب من الباب قام اليهم الحرس فصاح بهم أصحابه وقالوا افتحوا ، هذا بطريق رودس يعنون بطريقهم الاول وقد تخلص من العرب ففتحوا لهم فدخل أرسوس وملك المدينة وفشا الخبر فى تلك البلاد أن أرسوس صاحب ماردين قد ملك حران بالحيلة فقصد اليه جميع من يطلب الديوان فصار عنده جيش عظيم .

ذكر فتوح الرها وحران

(قال الراوى) وكان لرودس هذا صاحب حران المقبوض عليه ولد وكان قد قبض

أبوه عليه لانه خاف منه وكان شجاعا اسمه ارعوك فقبض عليه وحبسه فى العمق وكان له أم اسمها ست العسكر وهى صاحبة سميساط ، وكانت قد مضت الى زيارة أهلها وهى غضبانة للقبض على ولدها ، فلما بلغها أن أرسوس ملك حران صعب عليها وركبت من سميساط وجاءت العمق وخلت بولدها وأخبرته أن حران ملكها أرسوس فأخرجته وسلمت إليه الأموال وقالت انفق على الفرسان واجمع لك جيشا وامض الى هذا الرجل الذى فعل ما فعل قال فأنفق المال وأتت اليه الرجال وبقى فى جيش عظيم وعبر الفرات وقصد حران وبلغ أرسوس الخبر فخرج الى لقائه والتقى الجمعان وكان قد قدم أمام جيشه بطلا من الارمن اسمه أرجوك فى ثلاثة آلاف فوقعت الهزيمة على الارمنى .

(حدثنا عبد الله بن أسيد) . قال حدثنا سالم بن ربيعة عن عدلان التميمى عن محمد بن عمر الواقدى . قال لما بلغت الاخبار الى عياض بن غنم بمسير أرجوك الارمنى الى أرسوس أحضر عياض رودس صاحب حران وأخبره بما انتهى اليه من خبر أرسوس وكيف ملك حران وان ولده يريد أن يلقى أرسوس وانى قد عولت على قتلك الا أن تدخل فى ديننا فقال ان أنت أطلقتنى سلمت اليك ما تحت يدى من القلاع ولعلى أخلص حران لأن أهلها يحبوننى لأنى كنت محسنا فى حقهم ، وأنا أقول انهم اذا رأونى سلموا الى البلد ، وأنا أسلمها اليكم على انك تعطينى السويداء ونصيبين الصغرى ، وأنا أعطيكم الجزية كل عام .

قال : فأجابه الى ذلك وأمر عبد الله يوقنا أن يستحلفه فحلف وأجاب الى ذلك فاطلقه وبعث معه يوقنا فى جماعته ورد على رودس خيامه وثقله وجماعته وانسلوا من الليل من مرج رغبان طالبين حران ، فلما قربوا منها أرسلوا عيونهم فوجدوا العسكر نازلا خارجا منها عسكر ولده بازائه غير أنه قد أسر أرجوك وأخذه أرسوس ، وان عسكره باق على حاله وقد بعث اليهم أرسوس رسولا يدعوهم أن يكونوا من حزبه وينعم عليهم وأن ينزل بهم وبعسكره على الرها ليأخذها وتصير من تحت يده ، قالوا حتى نرى لانفسنا فى ذلك .

(قال الراوى) فلما قدم رودس ويوقنا ونظرا إلى العسكرين والنيران تتقد ، قال رودس

ليوقنا : هذه النار القريبة لا شك أنها لعسكر ولدى فأرسل اليهم من يختبرهم فسار الرجل وعلم من هم وعاد فأخبره أن القوم معولون على أن يحلف لهم أرسوس ، وان يكونوا جنده وقد تقرر الحال على أنه فى غداة غد يخرج فى مائة فارس من أصحابه إلى دير فرها بين الرها وحران ومن عسكر ولدك خمسون من أكابرهم ويتعاهدون هناك ، قال فلما سمع يوقنا ذلك تهلل وجهه فرحا ، وقال لرودس أبشر فقد صار القوم فى قبضتنا .

ثم مضوا يطلبون الدير وكمنوا بالقرب منه ثم ان يوقنا أرسل غلاما له ، وكان نجيبا قد رباه وكان اسمه شامس وكان لبيبا ، فقال يا شامس انطلق الى صاحب الرها وهو كيلوك وقل له : إن مقدمى صاحب أرجوك قد بعثنى اليك لكى يكونوا من رجالك فإنك منهم وإليهم وأرسوس من الروم ، وان رجالا منا يأتون الى دير فرها وارسوس معهم حتى يحلف لهم ويحلفوا له ويريد منك أن تخرج فى مائة وتكمن لنا بالقرب من الدير . فاذا قدمنا فاخرج علينا ، قال فانطلق شامس الى أن قدم على صاحب الرها وحدثه بما ألقى اليه صاحبه يوقنا وكان من قضاء الله وقدره أن الحيلة التى دبرها يوقنا وبعث بها الى صاحب الرها قد بعث بها أكابر جيش أرجوك ، فلما قدم شامس عليه من قبل يوقنا وحدثه بالحديث الذى ذكرنا تأكد عنده ذلك وخرج فى أربعمائة من قومه فى أكمل سلاح وساروا طالبين دير فرها . قال وكان يوقنا قد كمن بالقرب منهم واختلس شامس وأتى الى يوقنا وأخبره بأنهم كامنون فى المكان الفلانى وهم منكم قريب .

قال : وأما ما كان من أمر أرسوس فانه لما أرسل رسوله الى الأرمن من عسكر أرجوك أتى رودس ، وقال لهم انه يحلف لهم ويحلفون انهم لا يخامرون عليه ووقع الاتفاق على أن يكون الحلف فى دير فرها ، فلما كان آخر الليل مضوا وهم متباعدون من بعضهم خوفا من الغدر وكان خاطرهم طيبا بصاحب الرها بما قرروا عنده . ثم انه قبل خروجهم أعلموا ألفا من شجعانهم بأن ينسلوا من العسكر فى خفية وأن يلحقوهم ليكونوا عونا لصاحب الرها ، وقالوا لهم لا تتكلموا دون أن تروا صاحب الرها قد خرج عليه بكمينه . فاذا خرجتم

فازعقوا بشارة كأنكم من أصحابه حتى يطمئن اليكم فلعل أن تقبضوا عليه حتى يخلص أميرنا أرجوك ، قال فانسلوا من أول الليل ولم يعلم بهم أحد .

(قال الراوى) ولما أشرف أرسوس على الدير اذا به قد خرج عليه مائتا فارس من أصحاب رسول الله ﷺ وكان المقدم عليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان السبب فى ذلك أن عياض بن غنم لما بعث رودس ويوقنا معه وأصحابه ساء ظنه من جانب رودس ، وقال لقد فرطت وأذهبنا ولى الله مع عدو الله . قال خالد أيها الأمير لا تشغل سرك من قبل رودس فان ملوك الروم اذا قالت وفت ويرون العار فى أن يقول أحدهم قولا ولا يفى به ، فقال : يا أبا سليمان انه لا يبغى لنا أن نغفل عن صاحبنا ومن معه . ثم انه أرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى مائتى فارس وساروا طالبين حران فلقوا فى طريقهم ارسوس وهو خارج الى الدير فقبضوا عليه وعلى من كان معه ، وأما يوقنا فانه قبض على كيلوك صاحب الرها وكمن الى الليل وتوجه إلى الرها .

فلما قربوا منها وقد لبسوا الثياب التى كانت لصاحب الرها وألبس جماعته ثياب جماعة صاحب الرها ، فلما قربوا منها وكانوا قد أوقدوا لهم مشاعل فتحوا لهم الباب فدخلوا ، فلما حصلوا داخلها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء على رب العالمين فما جسر أحد من العوام أن يتكلم واحتوى يوقنا على ما كان فيها من ذخائر وتحف وخزائن كيلوك وأمواله وترك عليها من يثق به بعد ما قبض على من يخافه من رؤسائها وأكابرها وكان قد استأمنه ابن عم كيلوك فأمنه فدله على جميع ماكان لكيلوك . ثم أخذه أمامه وساروا طالبين حران فوجدوا رودس قد فتحها وذلك أنه لما قبض عمرو بن معد يكرب على أرسوس رودس ومعه بقية عسكر المسلمين حتى وصل الى حران ونادى الناس الذين على السور ، فلما عرفوه فتحوا له الباب وصقعوا وساروا معه الى دار امارته فملكها وأتى له عظماء البلد وهنئوه بالسلامة فقام فيهم خطيبا .

وقال لهم : اعلموا أن الله تعالى أنقذنى وأنجانى وقد جرى من حديثى كذا وكذا وانى عاهدت أمير القوم أن أسلم اليهم هذه المدينة ويولينى على نصيبين الصغرى والسويداء

وحلفت له على ذلك ، وانى سوف أوفى بعهدى وأشهدكم ان كل دين يخالف دين الاسلام فهو باطل ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله : وأشهد أن محمد رسول الله . قال فلما سمع أهل حران ذلك ، قالوا لقد أراد الله بك خيرا ونحن نوافقك على اسلامك فأسلموا الا قليلا منهم .

ذكر فتوح قلعة رأس العين

(قال الراوى) حدثنا ربيعة بن هيثم عن عبد الله التنوخى عن عبدان بن عطية : قال ما أسلم من أهل الجزيرة الا حران ، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ قد دخلوا فى الاسلام . قالوا اللهم ثبتهم على دينك ولا تمكن من بلدهم عدوا وأقاموا الكنائس مساجد وجوامع وسلموا الصحابة ما حول حران والرهان تسليما وأتى يوقنا من الرها الى حران واجتمع بأصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم فى أمر الرها وكيف يكون حكمها ، فقال سعيد ابن زيد انك قد أخذت هذا البلد بحيلتك ، وقد قال رسول ﷺ الحرب خدعة وقد صار كل من فيها عبيدا للمسلمين هم وأموالهم .

فقال يوقنا : أنتم تعلمون ان أكثر الجزيرة ما ملكتموه ، وثم الى الآن حصون وموانع والصواب أن تصنعوا جميلا وخيرا يعلو به ذكركم ويرتفع به فخركم ، فقال له سعيد اذا كان الأمر على ما ذكرته فاتركوهم على حالهم حتى نرى ما يرى فيهم الأمير عياض بن غنم . قال ففعلوا ذلك ثم ان الأخبار اتصلت بالملك شهرياض ان حران والرها وسروج والسخن وأكساس والعمق قد صارت كلها للعرب فأيقن بزوال ملكه فدخل الى رأس العين هو ومن يثق به وصلوا فى بيعة نسطوريا وهى الجامع اليوم ، فلما فرغوا من صلاتهم قال : يا معاشر الروم اعلموا أن العرب قد شاركونا فى بلادنا وقد صار لهم معاقل يجتمعون فيها وتقوم بأودهم ويصل اليهم منها الميرة والعلوفة وتجيئهم منها الأموال والخابور وفيها كلها حكمهم وما بقى بيننا وبينهم الا هذا المصف .

فإن كان لنا فلا مقام للعرب بيننا وان كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا وقد رأيت رأيا فيه السداد . فقالوا وما هو ؟ قال أرى أن أماطلهم بالمصف ونكتب للملكين المعظمين

شقر وزعفرة فلعلهما ينجدوننا بعسكرهما ونكاتب الملك حرفتاس بن فارس ونكاتب الملك الانطاق صاحب نينوى وبلادها والى الحبر ابن صاحب الهكارية . فاذا أرسلوا الينا عسكرهم نستعين بالمسيح ونلقى المسلمين والله يعطى نصره لمن يشاء ؛ فقالوا هذا رأى جيد فكتب الكتب وأرسل الرسل الى الملوك المذكورة الى عسكره .

(قال الواقدى) وما منع عياض بن غنم عن حرب القوم الا أنه رأى أن البلاد تفتح لأصحابه بدون قتال فلم يستعجل لأنه قوى ظهره بالبلاد التى فتحت ، وأيضا أنه كتب الى عبيدة بن الجراح يطلب منه خبرا يأتيه ، قال ووصلت كتب الملك شهرياض الى أصحاب الأقاليم فما منهم الا من عين عسكرا لنصرته .

قال : ووصل مكتوبه الى صاحب أخلاط وكان له بنت ذات جمال فائق وكانت من الشجاعة على جانب عظيم ، وكان اسمها طاريون وكان مستقرها بجبل سموه باسمها ، وكان كل من خطبها لا ترضى به الا أن تلقاه فى الميدان فان قهرها كانت له زوجة . قال وانها غلبت جميع خطابها ، وكان من جملة من خطبها غلام اسمه سوسى ابن سلنطور صاحب جبل النساسنة وكان قد قدم الى أخلاط بهدية من أبيه الى أبيها ؛ فقالت هى على شرط معروف فبارزته فى الميدان فقهرته وجزت ناصيته ومرت الايام والليالى فلما بعث الملك شهرياض يستنجد الملوك وأرسل الى صاحب أخلاط أرسل اليه أربعة آلاف فارس وأمر عليهم ابنته طاريون ، وقال لها أى بنية قد قدمتك على الجيش وأريد منك أن تظهرى على العرب ما كنت تظهرين به على الفرسان حتى تشكرى عند أم المسيح . قال وأرسل معها ملك السناسنة نجدة وهم ألف رجل وكان المقدم عليهم ولده فسار فى صحبتها وكان الغلام قد كمل شأنه وحسن كماله وابتدر هلاله ولم يكن أحد فى زمانه يوصف بجماله ، فلما نظرت طاريون الى حسنه وجماله نظرته بعين المحبة فوقع قلبها فى شبكة عشقه فسيرت رجالها مع رجاله .

(قال الواقدى) : وأحسن ما رأيت فى هذه الفتوح أنه كان لهذه الجارية ابن عم اسمه برغون وكان يحبها ولا يستطيع أن يسمع بذكرها وكان من أهل الشجاعة والشدة

وكان تحت يده من المعاقل حيزان والمعدن وأبزون وقف وأنطر وايدليس وأرزن وانه سار ينجد شهرياض فى ثلاثة آلاف ، فلما عبر جيش ابنة عمه طاريون بيدليس اهتم لها وأكرمها وأهدى لها الهدايا والتحف وسار معها الى أن عبروا حصن كيفا وأخذوا طريقهم على الموزر ونزلوا على حصن يعرف بالهتاج على طريق النهر وكان لابن عمها عيون يطلعونه على أخبارها .

قال : فلما نزلت على النهر أرسلت الى الغلام سوسى الذى تحبه وهى تقول له اعلم أن المحبة الصادقة لا تكون الا بعد العداوة المفرطة وقد ندمت على ما فات وما كان منى اليك وقد رأيت أنك بعد رجوعنا من قتال العدو ترسل الى أبى وتطلبنى منه ، ولكن أريد منك أن تصل الى ليلا فى خفية من ابن عمى برغون حتى تحلف الى أنك ترسل الى أبى وتطلبنى منه وأحلف لك أنى لا أريد سواك وبعثت له بهدايا مع بعض خدمها وأرسلت معه شيئا من الحلوى وأرسلت مثل ذلك لابن عمها ولكل أمير صحبها حتى لا ينكر عليها . قال وان ذلك الخادم قد علم بما جرى وكان هذا الخادم قد ربى ابن عمها على كتفه وكان يحبه محبة شديدة فأعلمه بما وقع من حديثها مع الغلام سوسى بن سلنطور وهى تريد أن تجتمع به الليلة حتى تحلف له أنها ما تريد غيره .

قال : فكتم برغون أمره ، فلما جن الليل طلب عظماء جيشه ، وقال لهم اعلموا أنى ما وليت عليكم الا وقد علم المسيح أن عقلى أوفر من عقلكم . قالوا أيها الصاحب أعلمنا بما تريد حتى نقبل قولك ونطيع أمرك . قال يا قوم اعلموا أننا سائرون على غرة وعن قليل ترون الخيل تنوشنا والرماح تحوشنا قالوا وكيف ذلك ؟ قال لأن العرب لا تنام ولا ترام ، وقد عاد النصر اليهم ، واعلموا أن الملك شهرياض ليس بأعظم همة ولا أكثر جنودا من هرقل ولا من ملوك الأرض ، وقد ملكت العرب دولتهم وأخذوا معاقلهم وأذلوا ملوكهم ، وأنا أعلم أن شهرياض لا ثبات له مع العرب يوم المصف ، وقد ملكت بلاده وهى : حران والرها وسروج والبيروت والخابور ، وقد أخذوا ماردين وقلعة ماردين يعنى قلعة المرأة ، وأخذوا أرسوس وابنته مارية ، وكأنكم بالعرب قد ملكت ديار شهرياض وعادت الى دياركم ، وسبت

حريمكم ، واعلموا أن الحق مع العرب وأنهم إذا قالوا قولا وفوا به ، ومن أسلم إليهم أمن على نفسه وأهله وماله ، سواء رجع إلى دينهم أو أقام على دينه ، واعلموا أن بقلبى النار من هذه الجارية طاريون ، وقد أرسلت إليها لتكون لى أهلا وأكون لها بعلا ، فأبت ذلك وهى تحب ابن ملك السناسنة ، فإن تزوجت به وصاروا يدا واحدة أخذوا معاقلنا وملكوا حصوننا وإلا يكون لنا معهم مقام ، وقد رأيت أننى فى هذه الليلة أقبض عليها ، ثم أنه أخبرهم بما حدثه به الخادم . قالوا أيها الملك : اذا أخذتها فأى أرض تؤويك وأى حصن يحميك .

قال : نقصد إلى عسكر العرب ونأخذ لنا منهم أمانا . قالوا اذا كيف عولت على ذلك فاعزم . قال فخذوا على أنفسكم وتأهبوا للرحيل ففعلوا .

(قال الواقدى) فلما جن الليل ، تزيا يرغون ابن عمها بزى الغلام سوسى ، وسار إلى سرادق الجارية ، فلما رأته ظنت أنه سوسى فوثبت إليه قائمة وسلمت عليه وصقعت له وكانت قد أبعدت الحرس عنها والغلمان والحجاب حتى لا يطلع أحد على سرها . قال ثم أنها تحققت أنه ابن عمها فاستحيت منه ووجلت ، فلم يمكنها إلا أن تخدمه بأعظم خدمة فقال لها : يا طاريون أظننت أنى لا أقف على سرك ولا أبحث عن أمرك ؟ يا ويحك أى مناسبة بين الروم والأرمن ، حتى إنك ملت الى ابن ملك السناسنة وتركت مثلى ، ثم إنه مال عليها بشدته وقبض عليها وألقمها أكرة وكتفها وخرج بها إلى عسكره ، فوجد أصحابه قد لبسوا وركبوا ورموا المضارب ، وشالوا ثقلهم ، فلما وصل إليهم حملها على بغل وساروا ونظر أصحاب سوسى إلى رحيل يرغون .

فقال لهم : أمهلوا أنتم بالرحيل إلى أن يطلع الفجر ، فإن هذه طريق ضيق تزدحم فيه الخيل والبغال ، قال ففعلوا ذلك وجد يرغون فى المسير ، فما أصبح إلا وهو على مرج السبور ، فنزل هناك ، وأما الغلام سوسى فإنه لم يمض إلى الجارية ولا سأل عنها ولا سار إليها ، لأنه خاف أن يكون ذلك منها مكرا به ، فتقبض عليه ، فلما أصبح أمر غلمانه بالرحيل وركب وأتى إلى سرادق الجارية طاريون ، فوجد قومها ينتظرون خروجها من سرادقها فدخل عليها خادمها وخرج وقال لهم : إن الملكة ما كان من أمرها ولا سبب لغيبتها . قال

فماح أصحابه وأرادوا الرجوع .

فقال لهم صاحبها : إن عدنا إلى الملك فلا نأمن أن يرمى رقابنا ويقول كيف غفلتم حتى أخذت ابنتى من بينكم ، وما عندكم خبر وما أخذ الملكة إلا يرغون ابن عمها لأن فى قلبه شيئا ، ثم إنهم ركبوا وجدوا فى طلبه . قال وإن يرغون لما نزل فى مرج السور واستراح وهم بالمسير إذا بالقوم قد أشرفوا عليه ، وهم يزعقون يا ويلك اترك الملكة من يدك قبل حلول منيتك ، فاستقبلهم هو ومن معه من بنى عمه وأقاربه فعندها قال لبنى عمه : اعلموا أن العرب ما نصروا على أعدائهم إلا بالصدق فى دينهم وقتالهم عن دين الله ، واعلموا أن هؤلاء القوم الذين طلبناهم لا يبخلون لا سيما إذا اعلموا أننا قصدناهم وأردناهم من غير قهر ، لكن من طريق العقل أن دينهم أفضل من ديننا لأنهم يشيرون إلى الله بالوحدانية ، ونحن نسجد للصلبان والصور ونقول أن للخالق زوجة وولدا وهو واحد أحد فرد صمد .

وقد بلغنى أنهم يقولون أنه من قتل منهم صار إلى الجنة ، ومن قتل منا صار إلى النار لأننا عندهم من الكفار ، فإن كنتم تريدون النصر على أعدائكم فأقروا الله بالوحدانية وقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله . قال فأعلنوا بكلمة التوحيد فدوت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والشجر والحجر ، فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به علموا أنهم دخلوا فى دين الاسلام فتقدم سوسى وقد داروا بيرغون وأصحابه وقالوا له : يا ويلك يايرغون أما كفاك أن تكون غادرا حتى تكون بدين النصرانية كافرا ؟ أتظن أنك برجوعك إلى دينهم ينصرونك علينا ، وأين العرب وما يصل صائحك اليهم إلا ونحن فرغنا منك وقتلناكم أشر قتلة عن آخركم ؟ فقولوا لمحمد ينصركم ، ثم إنهم حملوا على يرغون ومن معه ، فاستقبلوهم بنية صادقة ، متوافقة ، وأعلنوا بكلمة الحق ، والصلاة على سيد الخلق ، وبذلوا صوارمهم فى العدا وأوردوهم شراب الردى ، وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة ، وطلقوا الدنيا ثلاثا وكانوا يمشون فى ظلمات ثلاث ، فانقدحت نار شوقهم بزناد صدقهم فأحرق

زرع الكفر ﴿ **فأصبح هشيما تذروه الرياح** ﴾[1] فلما أضاءت لهم الأفكار ولاحت لهم لوائح الأنوار لم يجدوا من يشار إليه بالوحدانية ويوصف بالإلهية وينعت بالأزلية إلا الواحد القهار ، فركضوا فى ميدان الاعتذار ، ونادوا بلسان الإقرار : آمنا بالله الواحد القهار ، فلما سرحوا خواطر الافتكار ، فى أسرار الاعتبار .

قالوا : كيف عبدنا سواه ؟ وما ثم لنا معبود إلا إياه ، فواخجلتنا إذا وقفنا بين يديه يوم العرض عليه ، فبأى عمل نلقاه ، وبأى بضاعة نقصد رضاه ، فأشار إليهم منادى الإيمان من القرآن ـ ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾[2] فلما رحلوا فى عسكر الطاعة ، وخافوا من هول يوم الساعة ، وجعلوا رواحل رجائهم ، فى ركب إقبالهم ، وساروا فى موكب عزهم وجلاهم ، أشرقت شموس إسلامهم فى فلك استسلامهم ، وانقضت بازات أفراحهم ، من جو أتراحهم ، ومنادى جهادهم يناديهم : يا أخيار ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[3] .

(قال الواقدى) ودارت بهم الأوغاد ، وشرعوا نحوهم الصعاد ، وأشرف يرغون وأصحابه على الهلاك ، إذ باب السور قد فتح وخرج منه مائة فارس كالليوث العوابس ، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ونادوا يا من تعلقوا بكلمة التوحيد أبشروا بالنصر والتأييد ، ها نحن قد لبينا دعوتكم ، وخرجنا لنصرتكم وسوف نخلصكم من الأمر المهول ، فنحن أصحاب الرسول .

(قال الواقدى) وكان هذا السور حصنا من الحصون وكان قد سلمه ميتا لأصحاب رسول الله ﷺ وكان قد أرسل عياض بن غنم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فى مائة ليأتوه بالميرة ، وكان فيهم المقداد بن الأسود وضرار بن الأزور ، وسعد بن غنيم الأسدى ، ومعمر بن ماجد السلمى ، وبارى بن مرة الغنوى ، وهلال بن عامر الأنصارى ، وعيينة بن

---

(١) سورة الكهف : الآية : ٤٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة الرعد : الآية : ٢٤ .

رافع الجهنى وخضر بن يعشور الفزارى ، ومثل هؤلاء السادات (رضى الله عنهم) أجمعين ، فلما وصلوا إلى السور تلقاهم طالوت صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم وأمر لهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى جاء يرغون ، وكان من أمره ما كان ، فلما سمعوهم يكبرون قالوا هؤلاء قد دخلوا فى ديننا ، وقد وجب علينا نصرتهم فخرجوا كما ذكرنا وحملوا على أعداء الله ونصروا يرغون ومن معه وانهزموا فى الليل إلى مرج رغبان إلى الملك شهرياض فأخبروه بما جرى عليهم . قال فأيقن بذهاب ملكه .

قال : فلما أصبح يرغون أتى إلى الصحابة وشكر الله إذ نجاه ومن معه على أيديهم ، وقد ازدادوا إيمانا وحدث الصحابة بما كان من أمرهم وسار معهم إلى عياض بن غنم ، فلما جازوا على ماردين نزل إليهم ميتا وكان قد بلغه ما جرى فسلم عليهم وهناهم بالسلامة وقال ليرغون وأصحابه : إن كنتم تريدون الثواب الجزيل من الملك الجليل فتمموا إسلامكم بما ألقيه عليكم . فقال يرغون وكيف العمل ؟ قال ميتا انزل ههنا أنت ومن معك فإذا غربت الشمس فسيروا على بركة الله وعونه واقصدوا كفر توتا . فإذا جئتم إليهم ليلا فقولوا لأهلها نحن قد وجهنا الملك إليكم لحفظ المدينة . فإذا صرتم داخلها فثوروا على اسم الله وبركة نبيه .

قال : ففعل ذلك يرغون وجلس إلى أن جن الليل وارتحل بجيشه وثقله وودعوا الصحابة وساروا بالميرة وسار يرغون إلى أن وصل إلى كفر توتا ، وكان آخر الليل والفجر بدر فلما وصل إليها أمر الصحابة أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لا ينكر عليهم القوم وجاءت الأثقال والبغال وسمع أهل كفر توتا ضجة العسكر فأشرفوا عليهم من أعلى السور وسألوهم من أنتم ؟ قالوا نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا لنكون عونا لكم .

(قال الواقدى) وأعجب ما فى هذه القصة أن الملك شهرياض قد بعث إليهم يعرفهم أنى مرسل اليكم جيشا مع الحاجب ، فإذا وصلوا إليكم فافتحوا لهم الباب فإن العرب فى آثارهم .

قال : فلما وصل يرغون ومن معه وقالوا لهم نحن من عسكر الملك فتحوا لهم

ودخلوا ولم يتكلم حتى أنه نزل فى دار الإمارة فلما استقر به الجلوس وثق من الأبواب وصعد إلى السور وقال لأهل البلد استريحوا ، لأن الملك قد وصانى بالحرس على البلد فقالوا أيها السيد إن كتاب الملك قد جاءنا بغير ما قلته بأن لا يتولى حفظ البلد إلا الحاجب . قال فلما سمع يرغون قولهم علم أن الملك يريد أن يرسل لهم جيشا فقال لهم انصرفوا إلى منازلكم وإياكم أن يظهر أحد فى الليل فإنى إن وقعت بأحد منكم قتلته ، قال فانصرفوا ولم يبق عنده سوى الوالى الذى كان من قبل توتا هو وغلمانه فقبض عليهم يرغون وضرب رقابهم وتركهم فى بعض الأبراج المهجورة وقال لأصحابه كونوا على حذر فإن شهرياض يريد أن يرسل جيشا إلى هذه المدنية فإذا رأيتموهم قد وصلوا فانزلوا وافتحوا لهم درفة الباب الواحدة ، وكلما دخل فارس فأبعدوا به عن الباب وأنزلوه عن فرسه وخذوا عدته وكتفوه وألقوه فى البرج . قال فبينما هو يوصيهم إذ وصل الجيش وهم ألف فارس والمقدم عليهم صاحب الملك الكبير فصاحوا عليهم افتحوا لجيش الملك فتبادرت أصحاب يرغون ففتحوا درفة الباب الواحدة وقالوا لا نمكن أحد يدخل إلا واحدا واحدا مخافة من يوقنا وأصحابه فإنا نخاف أن يدخلوا فى جملتكم ، فبقى كلما دخل فارس رجلوه بعد أن يبعدوا به عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتفوه إلى أن أدخلوا الألف والحاجب بعدهم ، فلما اجتمعوا نادوا بأعلى أصواتهم الله أكبر الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر .

قال : فارتج كفر توتا ووقع الرعب فى قلوب أهلها وعلموا أنهم ملكوا بلدهم فلم يجسر أحد منهم أن يظهر فى المدينة ومن ظهر قتل ، فلما أصبح طلب يرغون أكابر البلد ومشايخها وبطارقتها ، فلما حضروا قبض عليهم وأنفذ إلى عياض بن غنم يعلمه بما صنع ، فلما وصلت إليه الرسالة سجد لله شكرا ، وكان عبد الرحمن بن أبى بكر وأصحابه لما وصلوا بالميرة أخبروا المسلمين والأمير بما وقع وأن يرغون مضى إلى كفر توتا فكان منتظرا لما يأتى إليه من خبره ، فلما جاء الخبر بالفتح حمد الله تعالى وتفاءل بالنصر .

(قال الواقدى) قال عياض بن غنم للصحابة اركبوا ودونكم والقوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأمر خالد بن الوليد أن يكون بأصحابه فى الميمنة من القوم وأمر

عمر بن سالم أن يكون على يسار القوم وقال لهم لا تخرجوا حتى تشب نار الحرب وتشتعل بالطعن والضرب فاحملوا واعتمدوا على السيوف فإنها أقرب للحتوف وليكن شعاركم التهليل والتكبير واقطعوا أجل أمنيتكم من الحياة الفانية ، وارغبوا فى العيشة الراضية ، وإياكم والميل إلى دار الغرور ، فإنها محل النوائب والثبور ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ (١) وقفوا بهممكم وقوف قوم غذوا بحلاوة وصالة فصانوا أمرهم بالوقوف على طاعته فهاموا وتجردوا فى الليل لخدمته وقاموا فأثنى عليهم إذ بحبه هاموا ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ (٢) قال فسار أصحاب رسول الله ﷺ نحو الجهات التى ذكرنا وزحف الموحدون ونشرت الرايات والبنود وتواعدوا على اللقاء فى اليوم الموعود وقالوا إلهنا ما لنا سواك من نصير فأنت ﴿ **نعم المولى ونعم النصير** ﴾ (٣) قال ووقع الصائح فى عسكر الروم أن المسلمين قد زحفوا وأشرفوا .

قال فتبادروا إلى القتال وتمسكوا بقول المحال ولبسوا وتدرعوا ، وعن الآخرة نزعوا وإلى الصليب تضرعوا ، ورفعوا رايات الطغيان وتلت عليهم الإنجيل القساوسة والرهبان وفتحت لهم أبواب النيران عندما أشركوا بالرحمن وصار على جيشهم من الكفر شبه الدخان ، وصار أمامهم الشيطان ، وعلا منهم الضجيج ووقعوا فى أمر مريج ، فلما نظر المسلمون إلى كثرة من اجتمع من قومهم استسلموا لحكم القضاء وقالوا نرضى بما قدر وقضى فنودوا من سرائرهم قد اشترينا منكم النفوس فاصبروا لحكم الملك القدوس ولا تولوا الأدبار فقد سبق الحكم وانبرى وخط القلم فى اللوح وجرى وكتب بأمر الله أن الله اشترى قالوا : ما الذى اشتراه من له المنة ... قال ﴿ **أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ (٤) .

(١) سورة فاطر : الآية : ٥ .

(٢) سورة فصلت : الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الأنفال : الآية : ٤٠ .

(٤) سورة التوبة : الآية : ١١١ .

فقالوا : نحن نريد التسليم لنصل إلى جانب النعيم . فقيل لهم : انهضوا إلى سوق المبيع فقد هبت بشائر الربيع وتجلى لقبض أرواحكم البصير السميع فسبحوه وسجدوا ورفعوا أصواتهم بتوحيدة ومجدوا ، فلما أيقنوا بالوصال طلع لهم سهيل الحال وأزهرت شجرة الأحوال واستدار لهم رقيبه فى فلك التيسير وناداهم ﴿ **إنى بما تعملون خبير** ﴾ فلما سمعوا منادى الأفكار يناديهم بالعشى والأبكار بذلوا نفوسهم وأرضوا قدوسهم وجاهدوا واجتهدوا وحملوا واقتصدوا ونهلوا من نهر الشهادة ووردوا ولم يزالوا فى حرب الأعادى وموارد الاجتهاد فى مغابى ميادين الجهاد حتى خرجت الكمناء وهبت عواصف رياح الفناء فدمر ما كان شيده الكفار من البناء وانتشرت أستار ما أملوه من الأمانى والمنى فقتلت بينهم الصناديد، وأصبحوا صرعى على وجه الصعيد وناداهم منادى التهديد ﴿ **إن عذابى لشديد** ﴾ ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ ولم يزالوا فى قتال الكفار إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاستتار ، والمسلمون يقولون ياليتنا دام لنا النهار ، ولا غلبتنا جيوش الاعتكار ، وإذ قد ظهر لهم على أطنان سرادق القتار ، ولا الليل سابق النهار ، قال فلما مضى الليل بغياهبه ، وأقبل الصباح بجانبه بادروا إلى الحرب والطعن والضرب ولم يمهل بعضهم بعضا دون أن وقعت الحملة على المسلمين فانهزم الجناح الأيمن ، وكان فيه أخلاط العرب .

قال وانهزمت ميسرة العدو ووقع فيهم أصحاب رسول الله ﷺ ولم يزل القتال فيهم إلى أن غلبهم الليل فانفصلوا ، فلما كان اليوم الثالث تولى الحرب خالد بن الوليد ورتب الناس ترتيبا جيدا وجعل فى الميمنة باهلة وطيا ، وجعل فى الميسرة عديا ونميرا وفزارة ، وفى الجناحين كندة وعاملة ومرة ، وفى القلب أبطال الأنصارى من ذوى الشدة والانتصار ، وجعل راية الميمنة بيد عامر بن سراقة ، وراية الميسرة بيد ضرار بن الأزور وراية الجناح الأيمن بيد عبد الرحمن الأشتر ، وراية القلب بيد عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، فلما رتبهم قال لهم اتقوا الله الذى إليه مصيركم ، واعلموا أنه متكفل بتأييدكم ونصركم وإياكم أن تؤتى المسلمون من قبلكم واتبعوا سنن الذين فتحوا الشام من قبلكم ، فمن ولى الأدبار كان مأواه النار وغضب عليه الجبار ، واعلموا أن الله فرض عليكم الجهاد وقتل الأعداء واعلموا

أن الأحب إلى الله تعالى جل جلاله قطرتان .. قطرة دم جرت فى سبيل الله وقطرة دمع جرت من خشية الله ، وهذا اليوم له من الأجر ما لا يعد فاتقوا الله عباد الله واثبتوا فى هذه المواطن كما ثبتم فى المواطن الكبار وإياكم والفشل فتذهب ريحكم وقوموا شريعة نبيكم ، واعلموا أن الله مع الصابرين ولا يضيع أجر المحسنين ، وها أنا أنفرد بجماعة من إخوانكم إلى صليب القوم ولست براجع إلا بحطم من حوله من الكفرة والمشركين . قال جل ذكره ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ ، فاذا رأيتم صليب القوم قد هوى إلى الأرض فاحملوا ولا تمهلوا . قال فلما وعظهم خالد رتب كل صاحب راية فى موضعه وانتخب من انتخب من أبطال المسلمين وقال للناس : إذا رأيتم الصليب قد وقع فاحملوا والله ينصركم وحمل هو ومن معه وقصدوا لواء شهرياض وصليبه الأعظم فما ردهم عن حملتهم كثرة العساكر .

(قال الواقدى) ولقد بلغنى ممن أثق به أنهم لما حملوا طحطحوا العساكر وزعزعوا الدساكر وأزالوا الأبطال عن مراكزها والبطاركة عن مراتبها وما اعتمدوا إلا على السيوف واستقبلوا بها الصفوف ، فلما رأى شهرياض فعل أصحاب رسول الله ﷺ رمى التاج عن رأسه وزعق بالبطارقة والأراجية والقياصرة وقال : يا معشر الروم من بنى الأصفر اعلموا أنه ما بين ذهاب دولتكم إلا هذا اليوم فإما أن تقاتلوا عن دينكم وحريمكم وملككم وذراريكم وأولادكم وإلا أخذت منكم فإياكم أن تولوا الأدبار فمن تولى غضب عليه المسيح وأدخله النار .

(قال الراوى) وبلغنى أنه فى ذلك اليوم وصل اليهم بتركهم الكبير المشار إليه فى دينهم ومعه كل قس وشماس ورهبان بأرض الجزيرة جاء ليحرض الروم على القتال ، وكان هذا البترك اسمه دين الديروم ، وكان يسكن بدير يقال له دير قرقوت وأنهم وصلوا قبل أن يحمل المسلمون فوعظهم بين الصفوف وقال : من انهزم منكم حرمته فلا يقبله المسيح أبدا ثم انفصل من القوم هو ومن معه وعلوا على رابية تشرف على القوم ورفعوا الصلبان وفتحوا الأناجيل وأشركوا بالملك الجليل .

(قال الواقدى) حدثنا عبد الله بن مالك عن موسى بن أبى العام عن الأشعب عن يحيى قال وحدثنا بشر بن عامر وكان ممن حضر وقعة مرج رغبان وكانت الواقعة يوم الثلاثاء ثالث شهر صفر سنة سبع عشرة وكان شهرياض قد أرسل إلى رأس العين وسائر بلاده فأتوا بحريمه وحريم سائر الأجناد والبطارقة وأولادهم وأقامهن يوم المصف على أبواب الخيام وقال لهن ما من امرأة إلا ترفع ولدها وتصيح باسم بعلها وأخيها ، إنما فعل ذلك ليثبتوا فى القتال فأوقعوا الصياح من كل جانب وعملت القواضب وثبت الروم ثباتا عظيما لأجل حريمهم وأولادهم ولأجل البترك ووقف فى مقابلتهم رجال من اليمن يرمونهم بالنبل ، وأما خالد ابن الوليد ، فلما حمل بأصحابه وهو يريد صليب القوم سمع عياض بن غنم وهو يقول هذه الأبيات :

سنحمل فى جـمع اللئام الكواذب ونفرى رؤوسـا منهم بالقواضب

ونهزم جيش الكفر مـنا بهمة تطول على أعلى الجبال الرواسب

وننصر دين الله فى كل مشهـد بفتيان صدق من كـرام الأعارب

فيا معشر الأصحاب جدوا وجندلوا وكروا على خيل كـرام المناصب

فدونكم قصـد الصليب وبادروا لنرضى إله الخلق معطى المواهب

قال : ثم قصدوا الصليب وكان اللعين شهرياض لما صف الصفوف أقام حول الصليب الأعظم اثنى عشر ألف فارس كلهم لبس الزرد وترك أمامهم حسكا من حديد حتى لا يصل اليهم أحد ، فلما حمل خالد وأصحابه وقربوا من الصليب داست خيولهم على ذلك الحسك فانكبت على وجوهها فوقعوا عن ظهورها فانكبت عليهم الروم بغيظهم وحنقهم فأخذوهم بالأكف ، لأنهم وقعوا عن ظهور خيولهم من الحسك فأخذوهم عن آخرهم وارتفعت العطاعط من كل جانب وعملت المرهفات القواضب ، فلما نظر الأمير عياض بن غنم ما نزل بخالد ومن معه صعب عليه واشتد لديه ، وقال فى نفسه يا ابن غنم ما يكون عذرك بين يدى الله وقد مضت هذه السادة تحت رايتك فصاح بأعلى صوته يا معاشر المسلمين احملوا ولا تمهلوا أيقظوا هممكم وعجلوا واستخلصوا السادة من الأسر

واطلبوا من الله النصر .

قال : فلما صاح عياض أوقفوا خالدا ومن معه أمام الصفوف فتأسف ابن وضاح بن مجيد بن نافور بن عمر بن سالم بن النابغة الذبيانى وكان من أفصح الناس لسانا ، وأجرئهم جنانا وأحدهم لسانا ، وأعلمهم بيانا وكان حليفا لخالد بن الوليد (رضى الله عنه) فبرز يومه بمرج رغبان وقال : أيها الناس إن الصبر والثبات جندان فلا يغلبان ، وهذا يوم يا له من يوم وما ترون من نخواتكم ومروءتكم ودينكم أن تدعوا أصحاب رسول الله ﷺ فى يد العدا فاستنقذوهم من الردى واتقوا الله الذى إليه مصيركم ، واعلموا أن ترك الأشياء النفيسة لا يليق إلا بالنفوس الخسيسة ، أما تحققتم أن الدنيا تئول إلى الزوال والفناء ، والآخرة هى دار النعيم والبقاء . أما علمتم أن الهمم العلية الروحانية والأشباح الجسمانية عولت على الانتقال من الدنيا الساخرة إلى دار الآخرة ، وقالت لا بد من الرحيل ، لأن البقاء فى الدنيا قليل فتزودوا معاشر الأرواح فقد قرب الرواح والقصد منكم قد عرفناه ومرادكم قد فهمناه وأن سفركم سفر شاق يحتاج إلى زاد ورفاق قالوا فما الزاد الذى نكثر منه ولا نعدل عنه قيل لهم الزاد الاقوى فى وتزودوا فان خير الزاد التقوى قالوا أما هذا الزاد فمنا من يقدر عليه وما منا من لم يقدر عليه قيل إياكم والتعرض لهذا السفر بغير أعمال واعملوا ليوم لا بيع فيه ولا خلال ، فلما تزودوا أخلصوا ومن جيفة الدنيا تخلصوا خلع عليهم خلع الإنعام وتوجهم بتاج العز والإكرام وجعل لهم الفردوس منزلا وقال فى حقهم ﴿ **كانت لهم جنات الفردوس نزلا** ﴾ (١) واسمعوا ما قال فيهم الملك المقتدر ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾(٢) قال فعندها حملوا بأسرار صافية وهمم وافية وطعنوا فى صدور الرجال ورفرفت على رؤوسهم طيور الآجال ووضعوا السيف فى الروم وجعلوه عليهم يوما مشئوما .

قال : ولم يزل القتال بينهم بقية يومهم إلى الليل وانفصلوا عن القتال ورجع المسلمون وهم متأسفون على أسر خالد ومن معه ، فإنهم لما وقعوا فى الأسر وانفصل الناس

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٢٣ .

من القتال وجن الليل أرسلهم الملك شهرياض إلى رأس العين مع حاجبه نقيطا بن عبدوس ومعه ألف فارس وأمره أن يسير بهم فى الليل ويجد بهم فى السير وأن يسلمهم إلى رأس العين . قال فسار بهم ولم يطلع الفجر إلا وقد وصل بهم إلى رأس العين وأرسل من يعلم الوالى بالقصة ، فخرج فى موكبه للقائهم ووقع الصايح فى رأس العين بقدومهم فما تخلف أحد وكان لهم يوم مشهود فألقاهم الوالى فى الكنيسة العظمى التى هى جامع اليوم وأوثقوهم فى الحديد .

قال حدثنا فاهم اليشكرى عن بشار بن عدى عن سراقة بن زهير عن خزيمة بن عازم عن جده عبد الله بن عامر . قال : أنه لما فتح الرها وحران وسروج صلحا اجتمع يوقنا برودس ومعه أصحابه . فقال : اعلموا أن الله سبحانه وتعالى قد فتح علينا هذه البلاد ، وأن رأس العين مدينة عظيمة وأهلها قد استعدوا للقتال وآلة الحصار وربما صعب أمرها وعسر فتحها على المسلمين ، وأنى معول أن أهب نفسى لله وأسير مع أصحاب فلعلى أن أحصل فى داخل المدينة ، ولعل الله أن يفتحها على يدى . فقال له سعيد بن زيد قوى الله وسدد أمرك ؟ قال وعول على المسير فى تلك الليلة وإذا بعيون المسلمين قد أقبلت إلى حران يخبرون أنه قد أتى عاصم بن رواحة المتنصر فى خمسمائة فارس من قومه من أياد الشمطاء .

وكان قد وصل مع قومه إلى قسطنطينية وقد ورد على الملك هرقل كتاب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بأن يبعدهم عن دياره فأبعدهم عن أرضه فتفرقوا فى كل موضع وأتى منهم عاصم بن رواحة إلى هذا الملك شهرياض فى خمسمائة فارس وكان الملك يحبه، ولما وصل إلى البرية كتب إلى الملك يعرفه أنه خرج من بلاد القسطنطينية وأتى إلى بلاده وخدمته .

وبعث الكتاب مع رجل من بنى عمه اسمه رفاعة بن ماجد فوصل إلى الملك وأعطاه الكتاب ففرح الملك بقدومه وأمره أن يعجل فى الحضور وأرسل إلى والى رأس العين بأن يخلى له دارا ينزل فيها إذا قدم مع أصحابه ، فلما سمع يوقنا ذلك الخبر من عيونه فرح وقال من أى طريق يأتون . قال من طريق سروج وبقى بينكم وبينهم ليلة واحدة ، فخرج يوقنا

ومن معه وصحبهم عمرو بن معد يكرب وسعيد بنَ زيد ومن معهم وكمنوا لهم فى موضع قد علموا أنهم لا بد لهم من العبور فيه ، فلما ضرب الليل سرادقات ظلامه ونصب على الخافقين أعلامه إذ أقبلت خيول القوم وسمعوا حسهم فصبروا حتى توسطوهم من كل جانب وقصد كل واحد واحدا فأخذوهم عن بكرة أبيهم ولم ينفلت منهم أحد واحتووا على أثقالهم ورحالهم ورجعوا إلى مكمنهم ونزلوا عن خيولهم .

فقال لهم سعيد بن زيد : من أميركم حتى أخاطبه ... فأشاروا إلى عاصم بن رواحة فقال له سعيد بن زيد يا ابن رواحة أى مناسبة بينكم وبين الروم حتى لذت بهم وملت إلى جانبهم وتركت العرب العرباء فأنت منا وإلينا وحسبك حسبنا ونسبك نسبنا ، لأن أنمارا وإيادا وربيعة ومضر كلها ترجع إلى نزار بن معد بن عدنان ، وأن الله تعالى قد اختارهم لسكنى حرمه وجوار بيته وقد كنا نعبد الأصنام ونستقسم بالأزلام ونتبع طرق الحرام حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ وأنزل عليه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [1] وأمره بالمقام فى دار الخيزران ، ثم دعاهم إلى عبادة الملك الديان وقال لهم أنتم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وقد فضلكم بارىء النسم بسكناكم البلد الحرام والبيت المعظم وزمزم والمقام فمالى أراكم على الأصنام عاكفين وبالأزلام حالفين وفى ثياب الكفر رافلين : أما لكم عقول تردكم : أما لكم بصائر تصدكم : أما أنتم من ذوى الأحلام الراجحة : أما أنتم من ذوى الآراء الشامخة ، ألهذا خلقتم أم به أمرتم ؟ نحتم الأصنام من الأحجار وسلكتم طريق الفجار وكفرتم بالواحد الجبار الذى سير البحار وأجرى الفلك الدوار وخلق الليل والنهار : أما تشكرون الصانع الذى جعل النجوم طوالع وكل إليه راجع .

قالوا : يا محمد من أمرك أن تسب آلهتنا وتسفه أحلامنا ؟ قال يا قوم العلم أمرنى والعقل بصرنى : أما علمتم أنه من نظر فى المصنوعات وتدبر علم أن لها صانعا لا يتغير ، فالنظر فى المخلوقات حكمة ، والتفكر فى صنعه والإقرار بوحدانيته نعمة والإيمان به رحمة .

---

(١) سورة الشعراء : الآية : ٢١٤ .

قالوا : فمن تعبد ؟ قال أعبد الذى فطرنى وصورنى وشرح خاطرى ونور بصائرى وخلق المخلوقات وقدر وصنع المصنوعات وأنزل الأرزاق بقضاء وقدر ليس فى مشيئته كيف ولا فى أقضيته حيف : يقول ولايتلفظ ويريد ولا يظهر ويسمع ويبصر تعالى عن المكان والأين والشبيه والبين ، وقال ـ لا تتخذوا إلهين اثنين ـ : أما علمت يا ابن رواحة أن ديننا هو الحق وقولنا هو الصدق وما بعث الله نبيا إلا وأمر أمته باتباع دين الإسلام . قال الله تعالىٰ فى القرآن ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ [2] وقال ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ [3] وأنت تعلم الآن أنكم فى قبضتنا وأسرنا ، فإن آمنتم بالله وصدقتم برسالة نبيه ﷺ كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن أبيتم ضربنا أعناقكم. قال فلما سمع عاصم بن رواحة ذلك من كلام سعيد بن زيد . قال وإن نحن رجعنا إلى قولكم واتبعنا دينكم يغفر لنا ربنا ما سلف من الإشراك فى ربوبيته والسجود لغيره ؟ قال سعيد نعم ، لأن الاسلام يهدم ما كان قبله وجميع ما كنتم فيه لا يطالبكم الله به وتخرجون من الذنوب كما خرجتم من بطون أمهاتكم إلى الدنيا ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [4] فلما سمع عاصم كلام سعيد قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فلما نظر أصحاب عاصم إليه وقد أسلم أسلموا عن آخرهم ، ففرح المسلمون بذلك وقالوا قد وجب علينا أن نطيب قلوب هؤلاء القوم ثم ساروا إلى حران وأنزلوهم وخلعوا عليهم .

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٦٧ .

(٢) سورة المائدة : الآية : ٣ .

(٣) سورة الحج : الآية : ٧٨ .

(٤) سورة الزمر : الآية : ٥٣ .

فقال يوقنا : الآن فتحنا رأس العين ورب الكعبة . فقال سعيد : فكيف ذلك يا عبد الله قال سوف أريك بيان ذلك ، ثم إنه قال لعاصم بن رواحة فى السر بينه وبينه أريد منك أن تشدنى كتافا أنا وأربعين من أصحابى وتجعلنا على ظهور الجمال التى تحمل أثقالكم وتركب مع هؤلاء السادة يعنى الأربعين الذين هم من أصحاب رسول الله ﷺ وتسيروا من ليلتكم هذه الى رأس العين وتقولوا لواليها لما عبرنا الفرات خرج هؤلاء علينا فنصرنا المسيح عليهم فقتلنا من قتلنا وأسرنا هؤلاء وأتينا بهم إليكم وإياك أن تمكنه أن يقتل واحدا منا ، وإذا أراد ذلك تقول له إن المصف بين يدى الملك وبين العرب ولا ندرى من يؤخذ من أصحابنا فيكون عندنا الفداء وتترك أصحابك بحران . قال عاصم : ولم لا نسير بأجمعنا وبأصحابى كلهم .

فقال يوقنا : إن الإسلام لم يتمكن بعد من قلوب القوم ونخاف أن أحدا منهم يغمز علينا فيفسد حالنا والثقة بكل أحد عجز . فقال والله لقد صدقت فى قولك فنزل ببنى عمه الخمسمائة فى حران ، وإنما قال يوقنا ذلك ودبره ليكونوا على سبيل الرهائن .

قال : فكتفوا يوقنا والأربعين من بنى عمه وتزيا الصحابة بزى إياد الشمطاء وخرجوا من حران فى الليل وطلبوا رأس العين ، فلما وصلوا إلى مكان يعرف بعلوا إذا بقرع حوافر الخيل فأخفوا أمرهم حتى وصلوا اليهم ، وإذا هم بأربعمائة عبد أسود وخمسين وهم يقرءون القرآن وبعضهم يسبح فاستقبلهم سعيد بن زيد ومن معه وكبروا مثل تكبيرهم وقربوا منهم فإذا هم موالى أصحاب رسول الله ﷺ والمقدم دامس أبو الهول رحمه الله تعالى ، وكان السبب فى قدومهم أنه لما بعث عياض بن غنم كتابا إلى أبى عبيدة . يستنجده على القوم ويعلمه بمن قد اجتمع من الكفار بمرج رغبان . فلما قرأ الكتاب أرسل دامسا ومن معه لنصرة الإسلام ، وكانوا بسميساط وبلادها ، ومنذ فتحوها استمروا بها حتى جاءهم كتاب أبى عبيدة : فترك دامس على سميساط وبلادها من يثق به ، وجاء فى العدة التى ذكرناها. فلما لقيهم سعيد بن زيد سلم بعضهم على بعض وفرحوا باجتماع الشمل ، ونظر دامس إلى الجمال وعليها يوقنا وأصحابه . فقال أظفرتم بهؤلاء فى طريقكم . فقال سعيد : هذا

يوقنا عبد الله وأصحابه قد باعوا نفوسهم لله .

قال : فلما سمع أبو الهول كلام سعيد سجد لله على قربوس فرسه وأتى إلى عبد الله يوقنا وسلم عليه . فقال له : مرحبا بقوم طلقوا الدنيا بتاتا وزهدا ، وطلبوا مرضاة الله . ثم إنه قال لسعيد بن زيد : يا صاحب رسول الله أشركونا معكم فى هذه الحيلة . قال نعم ، ولكن اسحبوا هذه الجمال وأخفوا الدروع والعدد واحتزموا فوقها وسوقوا الجمال أمامكم كأنكم عبيدنا فإنه لا ينكر عليكم من رآكم .

قال : ففعلوا كما أمرهم سعيد وأخفوا سلاحهم فى وسط الجمال وأقبلوا على سوقها .

فلما وصلوا إلى الزليخة نزلوا هناك ولبسوا وتدرعوا ونشرت الأعلام والصلبان التى كانت مع إياد الشمطاء ، وداروا بيوقنا وأصحابه وجعلوهم بينهم وساروا حتى قربوا من رأس العين فبعث سعيد رجلا من حلفائهم إلى رأس العين يبشره بقدوم عاصم بن رواحة وإياد الشمطاء .

فلما وصل إليه الرسول خرج بالمواكب إلى لقائهم ، وقد أعلمه الرسول بقدوم يوقنا أسير ومعه أربعون من أصحابه ، فصاح الصائح بذلك ، فما بقى أحد إلا وخرج أمام الوالى والتقوا بالصحابة ، وهم بزى أصحاب إياد الشمطاء ، وقد داروا بعاصم بن رواحة وكان الوالى يحبه ويعرفه فترجل إليه وترجل عاصم وتعانقوا ، وأقبلت المواكب يسلم بعضها على بعض .

فقال الوالى : كيف أخذت هؤلاء وهذا المارق يعنى يوقنا . فقال له إنا لما وصلنا إلى الفرات وعدينا خرج علينا برجاله فقاتلنا وقاتلنا فنصرنا المسيح عليهم بعد ما قتلنا منهم خمسين رجلا وأخذنا هؤلاء وانهزم الباقى . قال ففرح الوالى وأقبل على يوقنا يوبخه بكلام وهو لا يرد عليه والروم تشتمه وتسبه وهو لا ينظر إليهم ولا يكلمهم إلى أن دخلوا رأس العين وأمرهم أن يجعلوهم عند الأسارى فى بيعة نسطوريا ، وقال لهم احتفظوا بهم حتى نكاتب الملك ويرى فيهم رأيه ، قال فجعلوهم عند خالد وأصحابه . ثم إن عاصما قال للوالى

أنت تعلم ما بيننا وبين هؤلاء القوم من العداوة وإن كانوا عربا مثلنا ، ونخاف أنك تجعل على حفظهم أحدا من الروم أو من الأرمن ، وأن يتحدثوا معهم بإطلاقهم وتدخل المضرة علينا وعليكم ، والصواب أن تجعل بعضنا فى البيعة وبعضنا خارجا فإنه من أتى إلى الجهاد لا يركن إلى الراحة ، فإنه من تعب فى الدنيا قليلا استراح فى الآخرة طويلا .

قال : فاستصوب الوالى رأيه وأنزله فى البيعة هو وأصحاب رسول الله ﷺ وأضاف يوقنا إلى خالد .

(قال الواقدى) فحصل ستمائة فارس من المسلمين .

(قال الراوى) فلما استقروا فى البيعة وجن الليل قام سعيد بن زيد إلى خالد وسلم عليه وبشره بالفرج . فقال يا ابن زيد لقد علمت بذلك منذ قيل أن يوقنا قد أتى به ومعه أربعون فنظرت بنور الإيمان فعلمت صحة ذلك . قال وإن الوالى بعث إلى الملك يبشره بأخذ يوقنا ومعه أربعون من أصحابه وقدوم عاصم بن رواحة ومعه خمسمائة من أصحابه ، فلما بلغه الخبر أمر بالبوقات فضربت فسمعت المسلمون بذلك . فقالوا ما ضربت البوقات إلا لأمر مهم إذ أقبل عباد بن بشير وهو متنكر وأتى إلى عياض بن غنم ، فلما رآه قام إليه وسلم عليه وقال يا ابن بشير بم تبشرنى أقر الله عينيك فلم يرد عليه شيئا حتى خلا به وحدثه بجميع ما جرى ، فلما سمع عياض بشارة عباد بن بشير سجد شكرا لله .

فقال عباد : أيها الأمير إن سعيد بن زيد ومن معه يسلمون عليك وعلى من معك ويقول لك أنجز المصف فلعل أن يفتح على يديك فما بينك وبين فتح رأس العين إلا أن تهزم القوم وقد فتحت . فقال عياض توكلنا على الله ..

فلما جن الليل جمع أصحاب الرايات وحدثهم ، وقال لهم لا تعلموا أحد مخافة من جواسيس الروم ولا يصبح الصباح إلا وأنتم على أهبة الحرب ، قال فما أصبح الصباح إلا والمسلمون قد أخذوا أهبة الحرب ، فلما طلعت الشمس وانبسطت على الارض علت على الخيل ركابها وحملت بأصحابها وشبت من الحرب نارها وطار شرارها ، وقطعت الجماجم واستعرت الملاحم ، وصالت أسودها ، وتعفرت خدودها وصبرت على شدة حالها ،

وحانت منها أحوالها وتدانت آجالها ، فهم فى الحرب متوافرون وفى العدد والعديد متقاربون وفى الزحف إلى الفزع مختلفون ، والعجاج ثائر ، والدم فائر ، والأسلاب مطروحة للضياع ولحوم القتلى رزق للطير والسباع ، ولقوة العمائم تشتكى منها الأسماع ، والشمس تضجر منها الجسوم والنفوس ، والحرب قد أخذت أمرا يقطع الآجال ، وقد شمرت عن سباق وسروال ، والوطيس قد حميت جوانبها ، واستحيت عين مجانبها ، والصفوف تدانت إلى الهياج ، وقد غيبهم غيم العجاج ، وكل مقدم قد شذ منه جيشه وتكدر بعد الصفو عيشه ، والخيل تكر كرات ، وتجتمع مرات ، والسيوف تقطع البيض ، والنفوس تكاد تميز من الغيظ والغبار قد سحب ذيلا زنجيا ، وانسبل وأسبل على الوهاد رداء سجيا ، والطيور قد حامت ، وكأن القيامة قد قامت واستقبل المسلمون هذا الحرب الخطير ، والضرام المستطير فحل بالروم العقاب وسمحوا بنفوسهم ولقوا أليم العذاب ، ونال المسلمون ما رغبوا فيه من حسن المآب .

(قال الواقدى) والتقى عبد الله بن عياض بن وائل وعبد الله بن قرط بالملك شهرياض وقد عول على الهرب وكل من فى جيشه قد اشتغل بنفسه عن نصرته وليس عنده سوى عشرة من غلمانه فأطبق عليه عبد الله بن قرط وعبد الله بن عياض .

(قال الواقدى) ولم أدر أيهما كان أسبق بالطعنة فى صدره فاخرج السنان من ظهره فلما نظر غلمانه إلى ملكهم مجندلا ولوا على أدبارهم ونزل عبد الله فاحتز رأسه وجعله على رمحه وركب وصاح : ألا وأن الملك قد قتلته فمن كان منكم يثبت للحرب فليثبت وصالت المسلمون على أعداء الله ووضعوا فيهم السيوف فقتل من قتل وانهزم الباقون بعدما أسروا منهم من أسروه وقد تركوا الأثقال على حالها والأموال والسرادقات فاحتوى عليها المسلمون .

(قال جديد بن ناشب الضيمرى) كنت مولعا إذ سكنت بعد من قتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقى ، وملأت حجرى حصى ، فكنت لا أمر بمقتول إلا وطرحت عليه حصاة ، ثم عددت الحصى ، فاذا هى ثمانون ألفا وسبعمائة وخمسون ، وأما الأسرى فلا يحصيهم عدد ، فلما وضعت الحرب أوزارها أمر عياض بالأثقال والأسرى إلى كفر توتا

وبعثها مع الصلت بن مازن ومعه ألف فارس ، وأمره أن لا يبرح منها ، حتى تفتح رأس العين .

قال : ثم ارتحل عياض في أثر الوقعة إلى رأس عين وردة وبات ليلته يتلو القرآن . وقال ووصل المنهزمون إلى رأس العين ، وهم بأسوأ حال ، ووقع الصائح بجوانب المدينة بهزيمة الجيش ، وقتل الملك شهرياض فعظم عليهم ، وكبر لديهم ، واستوثق الوالي مرسيوس من المدينة والأسوار وعول على أنه في غداة غد يضرب رقاب المأسورين ، وكان من عادة الروم إذا قتل منهم ملك يقتلون عليه مائة أسير من أعدائهم ، فلما كان الغد ركب عدو الله مرسيوس الوالي وسط المدينة وأمر أن يؤتى بالأسرى وهم خالد ومن معه ليضرب رقابهم فأرادوا أن يأتوا بهم وإذا بعياض قد صبحهم صباحا فأشغلهم عن ذلك ، ونزل على باب أسطاحهم وهو الباب الشرقي ، وكان قد ضرب على الباب المذكور قبة من الديباج برسم عدو الله مرسيوس ، وإلى جانب القبة منجنيق عظيم يتعلق في حباله مائة رجل ، وكان صاحبه ابن عم الملك ، وكان اسمه مترقيس بن إشفكياص ، وكان أبوه هو الملك شهرياض وهو صاحب الدنانير الأشفكياصية .

قال : وإنما تقدم عياض بالمسلمين للقتال ، حتى يشغل أعداء الله عن خالد ومن معه بالمدينة ، فصاروا يرمون بمجانيقهم وسهامهم ، وكان قد وصل مع عياض غلام من أهل المدينة اسمه جميل بن سعد الدارى ، وكان أرمى خلق الله بالنبل ، وكان قد وصلت له أم عجوز ، فلما كان ذلك قال : يا أماه أريد أن أجاهد هذا اليوم في الله حق جهاده ، فلعلى أن ألحق بإخوانى وجدى الذين قتلوا بين يدى رسول الله ﷺ فودعها وسار . فقالت يا بنى سر والله ينصرك ويؤيدك ، قال ثم إنه تقدم ووقف يتستر ، وكان قد شاع ذكره بين العرب ، وأنه كان ينظر إلى الطائر في الجو .

فيقول : إننى قد عولت أن أضرب هذا الطائر في موضع كذا ، فيضربه فيقع الطائر والضربة في المكان الذى ذكره ، فلما كان يوم قتال عين وردة تقدم وجعل يضرب البطارقة من أعلى السور ، فلا يقع سهمه إلا في فؤاد أو في حدقة ، حتى قتل ثلاثين بطريقا ، منهم

من وقع إلى المدينة ومنهم من وقع إلى الخندق .

قال : وكشف برج الباب . قال وكان عدو الله مترقيس المتقدم ذكره صاحب المنجنيق أرمى خلق الله ، فجعل يعبر ويرمى . فقال الناس لجميل بن سعد : أيها الغلام أبعد لئلا يصل إليك حجر المنجنيق فإنا نخاف عليك منه . فقال يا قوم سمعت رسول الله ﷺ يقول فى كتاب الله العزيز ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ (١) ولا بد أن أثبت لهم ، ثم إنه رمى رجلا من الذين يجرون الحبال فقتله ، وثانيا وثالثا فقتلهما قال فهربت البطارقة عن الحبال ، وقالوا لا طاقة لنا بالوقوف فى هذا المكان من هذا الغلام .

فقال مرسيوس : البسوا الدروع واستتروا ، ففعلوا وقعدوا فى الحبال ، ورمى بحجر فوقع فى رجل من بجيلة فقتله ، ولم يزل حتى قتل ستة رجال .

قال : وإن جميل بن سعد يرمى فلا تخطىء نباله وهو يقول : واشوقاه الى الشهادة وأن أصل إلى دار العلم والشهادة ، فنودى من سره إن أردت ذلك فبادر إلى ذلك ولا تخف ولا تحاذر ، وأطلق عنان كليتك فى ميدان طلتك وإياك والتخلف عن بابنا فمن أرادنا أردناه ومن أحبنا أحببناه .

فقال : ها أنا أتقدم وجنابى فى الحقيقة لا يتألم ، قد بعث منك نفسى فأقبل شراها فعسى أن آتى الجنة وأراها .

فقيل له : قد قبلناك فامرح وأطلق لسانك بشكرنا وافرح ، فمن باع نفسه منا لم يكن بمغبون ، واسمع ما سطرناه فى الكتاب المكنون ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ (٢) .

قال فبينما هو كذلك إذ عبر عليه عدو الله ورماه ، وكذلك جميل قصده بنبلة

---

(١) سورة النساء : الآية : ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ١٦٩ .

فوقعت فى صدره ومرت من ظهره ونظر جميل إلى الحجر وقد قصده فعلم أنه ميت ، فالتفت إلى ابن عم له اسمه رافع بن خالد وقال له بلغ العجوز سلامى ، وأنشدها هذه الأبيات ، وجعل يقول :

أيا رافعا ألا حـــــملت رسالتى تخـــــبر أنى قد لقيت حمامى
وإن جئت أمى رافعا وعـشيرتى فخصهم مـــــــنى بكل سلام
وإن سألت عنى العجوز فقل لها قتيل حـــــــجاز لا قتيل سهام
طريحا بباب الحصن لما تطايرت من الحجر الصلد الأصم عظامى
ولست أبالى أن قـــــتلت لأننى أرجى بقتلى فـــى الجنان مقامى

قال : وعلم عياض بقصته فبكى رحمة لأمه ، وأمر به فدفن بعد ما صلى عليه وبلغ خبره إلى أمه فصبرت صبر الكرام وقالت يا بنى عشت سعيدا ومت شهيدا وسلكت سبيل آبائك فرحمك الله وآنس غربتك ونفعنى بك يوم القيامة ، ثم قرأت ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون** ﴾ .

قال : حدثنا معمر بن الجون النهائى ، وكان ممن حضر مع جده سراقة فتح رأس العين . قال : لما قتل بن سعد فرحت الروم ، وأن عدو الله مرسيوس صاحب الأمر بعد شهرياض لما رأى أن المسلمين معولون على حصاره مضى فى الليل إلى بيعة نسطوريا وصلى بها وقرب القربان ، وكان من بغضه للمسلمين قد صور على باب البيعة صورة رجل من العرب وكتب عليه هذا نبى العرب ، فكل من دخل البيعة يبصق عليه ، وكان فى داخل البيعة صورة القيامة والميزان والصراط والجنة والنار وصور عيسى وبيده الصليب وأمه تحت لوائه على باب الجنة .

قال : فلما صلى قال لعاصم بن رواحة : لقد أردت الليلة أن أقرب عشرة من هؤلاء العرب الأسرى فى بيت المذبح . فقال له عاصم : ليس هذا برأى أيها الملك حتى ترى ما يكون من أمر العرب وهذا بين يديك .

قال : فسكت وخرج : وأن عاصما لم يترك فى البيعة أحدا من الروم ، واستوثق من أبواب البيعة ، ودخلت الصحابة إلى بيت المذبح ، فوجدوا فيه سلاحا كثيرا مما كان يجتمع من النذور ، فأخذوه وعولوا على أنهم فى صبيحة غد إذا اشتغل أهل المدينة بالقتال ليثورون فى المدينة . قال ولما دخل الليل قاموا يذكرون الله وينظرون إلى تلك الصور المصورة وصفة القيامة والصراط والجنة والنار . فقال عاصم بن رواحة لسعيد بن زيد الهرب إلى دين رسول الله ﷺ يزيد فى الإيمان .

قال : نعم ، ويقرب إلى مقام إبراهيم إذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ، وعصفت رياح الطامة ، وحشرت الخلق للردى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، وصفت صفوف العالمين ، وحييت جوانب المتقين الموقنين ، ونشرت رايات الصادقين ، ورفعت أعلام المحققين ، ونصبت منابر الأنبياء والمرسلين ، وتصدرت مراتب الصديقين ، وفرحت أرواح الموحدين ، وضاقت أرواح الكافرين ، وزهقت نفوس المشركين ، وقيل بعدا للقوم الظالمين وذلت الملك والجبابرة ، وطأطأت رؤوس الأكاسرة والقياصرة ، واستبشرت الأبرار ، ويئست الفجار ، وناد مناد الملك الجبار ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ [1] لله الواحد القهار ، ألم نحذركم دار البوار ؟ ألم يأتكم الإنذار ؟ ألم تسمعوا ما أنزل على السيد المختار ؟ قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، هذا يوم العرض ، هذا يوم الجزاء ، هذا يوم الراجعة ، هذا يوم الآرفة ، هذا يوم الفصل ، هذا يوم العدل ، فإذا غص الموقف بأهله ، وقدم كل ذى جهل بجهله ، وعضت الأنامل أسفا ، وطارت القلوب لهفا ، ونادى المنادى يا معاشر المجرمين : امتازوا فإن المتقين قد فازوا ، أما سمعتم فى الكتاب المكنون ، وامتازوا اليوم أيها المجرمون .

فبينما هم قد كظمهم العطش ، ولحقهم الدهش ، وعظم الأرق ، واشتد القلق ، وسال العرق ، ونادى المنادى ، وهم يسمعون .. قفوهم إنهم مسئولون قفوهم حتى يروا

---

(١) سورة غافر : الآية : ١٦ .

هيبتى ومملكتى ، قفوهم حتى يشاهدوا سلطانى وعظمتى ، قفوهم حتى يعرضوا على قفوهم حتى أناقشهم الحساب ، أين من عصى وأجرم ، أين من طغى وظلم ، أنا الجبار الأعظم ، لا أرحم من لا يرحم ، أين أمة نوح ، أين من كان يغدو فى البطالة ويروح ، أين أمة هود ، أين آل ثمود ، أين أمة التظليل ، أين أمة شعيب ، أين أهل الشرك والشك والريب أين أمة التوحيد ، أين أهل الصلاة والتمجيد ، أين أهل القرآن ، أين أمة راكب البراق ، أين أمة طاهر الأخلاق ، هلموا للعرض والحساب ، فقد تجلى رب الارباب ﴿ **لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ [(١)] والمصطفى ﷺ فى كبكبة حشمته ، وموكب زينته ، على رأسه تاج الرضا مكتوب عليه بقلم الإمضا ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ [(٢)] وبيده لواء الحمد ، وبين يديه جنائب السعد ، وعن يمنيه الأنبياء ، وعن يساره الأولياء والملائكة وقوف بين يديه ، وأهل الموقف ينظرون اليه، وأمته يصلون عليه وقد تهللت وجوههم فرحا ، وقد أسبل عليه الاسلام سرباله ، وأوصل بهم حباله ، قد نادوا بهم بالتمجيد وأزعجوا الموقف بالتوحيد ، وقد أضاء نور إيمانهم ، وعرضوا على ديانهم ، واستشهدهم على الأمم فشهدوا ، فقبلت شهادتهم وغيبت عنهم نجوم الإفلاس وأمنوا من الهول والباس ، ونادى مناديهم ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [(٣)] وأهل الموقف ينظرون إلى جمالهم ، ويتعجبون من هيبة جلالهم ، ويقولون : لقد فاز من اتبع ملتهم وصدق شريعتهم . قال مالك يوم الدين ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين ، فاذا ورد مقامه ، أطال فيه هناك قيامه ، وبسط كف ابتهاله ، وبالغ فى طلبه وسؤاله ويقول : أسألك قبول شفاعتى فى العصاة من أمتى .

وإذا بالنداء : وعزتى وجلالى لا أخلف لك وعدا ولا أنقض لك عهدا ، ولأرين أهل الموقف علو شأنك ورفيع مكانك ، ولأعطينك حتى ترضى ﴿ **ولسوف يعطيك ربك**

---

(١) سورة غافر : الآية : ١٦ .

(٢) سورة الضحى : الآية : ٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية : ١٠٨ .

فترضى ﴾[1] . قال فازداد عاصم إيمانا ، فلما كان وقت السحر ، وثبت الصحابة على أقدام الحزم والعزم ، وخرجوا على أهل المدنية ، فاستعانوا بالله وقالوا : اللهم انصرنا كنصر نبيك يوم الأحزاب ، وقال خالد : إياكم أن تفترقوا فتذهب ريحكم واتقوا الله الذى اليه مصيركم ، واعلموا أن الأعداء يجتمعون عليكم والنساء يرجمنكم والشباب يقاتلونكم وإياكم أن تطمعوا أحدا فى بحار الحرب ، بل اصبروا على مر الكرب والضرب ، وإنما يتبين صبر الرجال عند ملاقاة الأهوال ، وما نحن ممن يفزع بهجوم الآجال لأنا قد تحققنا أن لكل منا أجلا لا يتعداه ، ومن خاطر بعظيم نال عظيما ، وهذه اسمها عظيم والجمع فيها أعظم ، وهى قصور ديار بكر وربيعة ، وقد حصلنا فى وسط مدينة القوم ، فإن كنتم طالبين الظفر فاصبروا ولا تعجلوا فالصبر مقرون بالظفر ، والعجلة مقرونة بالزلل ، والصبر عاقبته النصر ، واعلموا أن هذه البيعة هى بيعتهم المعظمة ، ولا بد لهم من القدوم إلى الصلاة ، فإذا حصل واليهم ههنا ومقدم عساكرهم أطبقنا عليهم من كل جانب ، وقصمناهم بالقواضب ، فإنه إذا قتلت الملوك وعظماء البطارقة فما يجسر بعدهم أحد أن يرفع يده ، وأما العوام فلا اعتبار بهم . فقال عاصم بن رواحة : لله درك أيها الأمير ما أخبرك بالأمور والحرب ولقد تكلمت بالصواب وأحسنت فى الخطاب ، فليقر كل واحد منكم فى مكانه وأخفوا سلاحكم فى أعيابكم ، فإذا اشتغل القوم فى صلاتهم ثرنا عليهم ومددنا أيدينا إليهم ، فاستصوبوا رأيه .

قال : وكانت الصحابة فى بيت كبير فى البيعة كان برسم النذور وفيه شىء من الأمتعة لا يثمن لكثرته .

(قال الراوى) حدثنا عبد الله بن يانس ، عن جده فياض بن زيد ، وكان من جملة من ذكرناهم من الصحابة وحضر فتوح رأس العين . قال هكذا كانت قصتنا وكنا قد دبرنا هذا التدبير ، ثم رجعنا عنه ، وكان من الأمر المقدر أن ذلك اليوم الذى رجعنا لم يقاتل فيه أحد من جند رأس العين وكان له سبب نذكره .

---

(١) سورة الضحى : الآية : ٥ .

(قال الراوى) كان من قضاء الله السابق فى خلقه ، أنه كان للوالى أخ عاقل لبيب له رأى وتدبير ، وكان يعرف من الحكمة التى وصاه بها فهرايس أحد حكماء اليونانيين ، وقد عرف من علم الملاحم ، وكان صاحب سر شهرياض ، فما كان يفعل شيئا إلا بمشورته وكان قد نهاه عن قتال العرب وقال له : ما أرى لك فى قتالهم خيرا والأمر عليك لا لك ، فلما كان من الملك ما كان ، وقتل جيشه ورجع الأمر الى مرسيوس . قال له أخوه الحكيم ، وكان اسمه إسالوس ، معناه حكيم زمانه .

اعلم يا أخى أنه ليس ينبغى للعاقل اللبيب الفاضل الأديب أن يرمى نفسه فى غير مراميها ولا ينقاد بزمام شهوة النفس ، فإنه من أطاع نفسه هوى فى مهاوى الذل ونسب إلى الجهل ، فإن الشهوة عرض واتباع الهوى مرض والاستمتاع بالملذات سبب الهلكات ولا خير فى لذة تؤدى إلى الفناء وتورث صاحبها العناء ، الشهوة حين ، والأمل شين ، والاستمتاع بين ، والتمتع دين ، وحب الدنيا مين ، وما ندم عاقل ، ولا ساد جاهل ، ولا عجول ، ولا أرى لملول ولا سعد خائن ، ولا صدق مائن ، ولا عظم بخيل ، ولا قدم ذليل ، ولا فحم نبيل ، ولا حقر جليل ولا نال العبادة من زهد فى الإفادة ، ولا أمن فى الآخرة من سر بالدنيا الساحرة ، ولا سدد من ظلم ، ولا حرم من حلم ، ولا حزم من ندم، ولا خاف من تاب ، ولا رد من أناب ، ولا هجر من لزم الباب ، ولا ذل من اتبع الصواب واعلم أن بالسياسة تدوم الرياسة ، وبالعدل تدوم الدول ، وبالجور هلك الاول ، وبقلة التدبير يحصل التبذير ، ومن بذل جهده كملت أوصافه ، ومن أفشى السلام فضله الأنام ، وإصلاح السريرة نعم السيرة ، وجمال الإنسان فصاحة اللسان ، وزينة الرجال كرم الخلال ، وخير الأصحاب التقوى ، وشر الإخوان اتباع الهوى ، ولا خاب من قصد طوره . ولا ارتفع من جهل قدره ، والتعلق بالآمال ضياع الأعمال ، ومعالى الأخلاق نعمت الرفاق وممارسة الحلال نجاة من الأهوال ، وحب العاجل يبيد الآجل ، وارتكاب العصيان علامة الخذلان ، وعلامة التوفيق تيسير الطريق ، والنظر فى العواقب أمن من المعاطب ، ومن نظر إلى الدنيا بعين الفنا أدرك فى الآخرة ما تمنى ، واعلم يا أخى أنك قد أصبحت مقيدا بحب الدنيا

سابحا فى بحار أهوالها متعلقا بأذيال محال آمالها ، وقد تزينت لك برياشها ، ووقفت لك على قدم احتياشها ، وزرت عنك جل مصائبها ، ونصبت لك شبكة مصايدها ، ووضعت لك تاج شهواتها ، وعلى مفرق رأس آفاقها ، حتى إذا أشرت إليها بالوصال ، منحتك لذيذ الاتصال ، وأحسنت لك صحبتها شهرا ، ورمتك بسهام الهجر دهرا ، وطالبتك بما كتبت عليك مهرا ، حتى إذا علمت أنك غريم الإنغاص غير منقاد للقصاص ، ألقتك فى بحر الآفات ، وحجبتك فى سجن الغفلات ، وصغرت أمرك عند الناس ، ووكلت بك سحائب الوسواس ، فلا تبرح تذكر الانسان بما كان فيه حتى تخرج روحه من فيه ، واعلم أن من جملة ما ذكر لنا عن عيسى ابن مريم عليه السلام : أنه رأى طائرا مليح الشكل ، حسن الريش ، كامل الزينة .

فقال : من أنت ؟ قال أنا الدنيا ، ظاهرى مليح ، وباطنى قبيح . قال عيسى : عجبت لغافل ليس بمغفول عنه ، ومؤمل إتمام شيء والموت يطلبه ، وإنما ضربت لك هذه الامثال لتتعظ بها وبما نزل بالملك شهرياض ، كان بالأمس على السماط واليوم نزل على الصراط بالأمس كان فى سلطانه وملكه يباهى ، واليوم صار فى الحفر واهى ، ما أفاده ، الغنى أذهبه الفنا ، وذهب الفرح بالترح ، والنوم على السرير بالنوم على العفير ، ومعانقة الأتراب ، بالتعفر فى التراب ، وبدل عن خل ودود بمجاورة الدود ، جار وما أجار ، واشتغل بالدار عن الجار ، وبالرماد عن المهاد ، وانظر بأى سنان بتر ، وبأى آلة كيف هجر ، وصار قصره مهجورا ، وعمارته خرابا بورا ، وتبدل السرور بالثبور ، ما نفعه الجيش وكثرته ، ولا الخزائن وعدته أمسى والله ذليلا ، وبعد الكثرة قليلا ، فلا عمل صالح ، ولا عز راجح ، ولا ثواب ينفع ، ولا جميل يدفع ، وقد بقى مرتهنا بأعماله موثقا بأفعاله ، وأنت تريد أن تسلك مسلكه ، وتتبع سبيل ما أهلكه ، فما أحد ينفعك ولا عمل يتبعك ، اتق الله فى نفسك وفى أهل ملتك وبلدتك واعقد لك مع هؤلاء العرب صلحا ، واقبل ما قلت لك نصحا ، واحقن الدماء وارحم النساء والإماء وأسلم تسلم ، وهؤلاء القوم ما قالوا قولا إلا وفوا به ، لأن الصدق دليلهم والإيمان يقينهم ، ما هم ممن يطلبون الملك فينازعون عليه ولا يميلون

إليه ، بل طلبهم الآخرة وما عند الله ، وبالأمس وفوا لرودس صاحب حران ، ورجع عن دينه ودخل فى دينهم وكذلك الملكة مارية بنت أرسوس ، وقد دخل فى دينهم جبابرة ملوك الروم مثل يوقنا ويرغون وعمودا وميتا الذى هو أعلم منا بديننا وقد ملكوا الأرض فى الطول والعرض ، وإنما يحاصر عن نفسه من له ميرة وعدد وجيش وسلاح وعدد يقدر على محاصرة البلد ، وهذا بلد عظيم وما فيه ما يقوم بأهله سنة أو أقل فإن لم تسلم أنت سلم أهله وسلموك إليهم برقبتك ، وهذه حران لهم وكفر توثا والرها وسروج وسجستان وماردين والصور والخابور وما عدا الفرات إلى الشام الى أرض مصر ، وجيوشهم قد طبقت العراق وملأت الآفاق ، وقد بلغنى أن الملك كسرى قد عاد إلى المحاق فابعث إلى أمير هؤلاء العرب واطلب منه الصلح فإنه يعطيك وتربح نفسك ومالك وأهلك وولدك وعش فى ظل القوم إن شئت على دينهم وإن شئت على دينك فإنهم لا يغصبونك . قال : فلما سمع مرسيوس كلام أخيه الحكيم أرسالوس غضب عليه وضربه بمقرعة كانت فى يده . وقال أنت ما خلقك المسيح إلا ذليلا ، وكيف تأمرنى أن أسلم ملكى للعرب ، وتعرضنى للعطب ، اخرج يا ويلك عنى ، فان وقعت عينى عليك بعدها قتلتك .

قال : فخرج من عنده وهو غضبان ، وأما اللعين مرسيوس فإنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا فى كنيسة بيعة نسطوريا حتى يحلفهم فمضى شاويشه فجمعهم وجمع مشايخ البلد وكبراءها وأحضر القسوس والرهبان والشمامسة وبترك دير مقرب حتى يستحلف أهل المدينة . فلما حصلوا فى البيعة أغلقوا أبوابها حتى لا يدخل إليهم أحد من العوام وحصلوا كلهم فجلس الملك والبترك وشرعوا يحلفونهم وهم آمنون مطمئنون إذ خرج عليهم أصحاب رسول الله ﷺ بكل سيف مسلول وعزم غير محلول وصاحوا بالتهليل والتكبير ونادوا : نحن أمة التنزيل وأصحاب النبى الجليل ، نحن حملة القرآن ، وصوام رمضان قد أخذ الله منكم بذنوبكم ، وهتك ستوركم ، وعصفت عليكم المحن ، أين الصلبان وعبادتها ، أين الصور وحشمتها ، أين تقريب القربان ، أين تدبير الرهبان ، ادعوا أربابكم ينصرونكم هيهات والله ذهب باطلكم ، وهلك بالشرك جاهلكم ، واضمحلت أيامكم ، وذهبت

دولتكم ، ووضعوا فيهم السيوف ، وعجلوا بهم الحتوف ، وقتلوا البطارقة بالنية الصادقة فماتوا عن آخرهم ، فلما رأت الروم ما نزل بهم ضجوا وبأصواتهم عجوا .

فقال خالد : أولياء الله جودوا الضرب فى أعداء الله وأهريقوا دماء من أشرك بالله ، قال فقتلت الطرامخة وذوو الحشمة الشامخة ، فلما بلغ الخبر العوام انهزموا عن الأسوار لما حل بقومهم البوار ودهمتهم الأقدار فذهب دامس إلى الأبواب ففتحها فدخل المسلمون بالتهليل والتكبير ولم يزل القتل يعمل فى رأس العين وقد وردوا موارد الحين وناح عليهم غراب البين وأيدت شريعة سيد الكونين .

(قال الواقدى) ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين . قال وأخرج الخمس من المال وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكتب له كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الأشعرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيه . أما بعد فإن الله قد فتح علينا يسير ما كان عسيرا وكان لعدة الفتيان شعاع يخطف العيان ، فلما تضايقوا أمامى وازدحموا قدامى عاينت جيشا كثيفا وسدا منيفا قد أقبلوا من الأفواج وتتابعوا كالأمواج وتناصروا من كل صوب واشتهروا فى كل ثوب ، والحديد يتألق كالحريق وقد تطايرت السيوف فللا والأرماح كعوبا وانقضت المدة وقد وضعت الحرب أوزارها وانطفأت نارها بعد ما قتل المسلمون أهل الطغيان الفاسقين ونصر الله الكفاءة وخذلت العتاة وولت الأعداء الأدبار وأراحنا الله من مضرتهم وطهرت البلاد من كفرهم وكان زعيمهم الخائن ، وملكهم أول مخذول ، وأهون مقتول ، وبعد ذلك فتحنا رأس العين ونحن بعد ذلك معولون على ديار بكر والله المعين وبه نستعين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين واقرأ سلامنا على قبر سيد المرسلين ﷺ .

ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه مع الخمس لعبد الله بن جعفر الطيار وضم إليه مائة فارس من المهاجرين والأنصار فسار عبد الله ومن معه ، وأقام المسلمون على رأس العين شهرا وعمل بيعة نسطوريا جامعا وصلوا فيه وبنوا الكنائس مساجد وترك عرفجة بن مازن العامرى

عليها واليا ومعه مائة فارس وأخذ مال الرها وكفر توتا فأخرج منه الخمس وأرسله بعد عبد الله بن جعفر مع سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارسا .

ذكر فتح دارا وبيرحا وباعماء

قال : ورحل عياض بن غنم من رأس العين ونزل على كفر توتا وأقبل إليه الغلام يرغون فرحب به وولاه على المدينة وعرض الإسلام على الجارية طاريون فأسلمت وزوجها بابن عمها وبنى البيعة جامعا ، وارتحل منها إلى دارا فنزل عليها وخرج إليه أهلها واعتقبوا لهم منه صلحا وكان جملة ما صالح عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهبا وثلاثين ألف مثقال فضة وأن لا يبقوا سلاحا فأجابوا إلى ذلك وبنى كنيستهم جامعا وما أسلم منهم إلا القليل وأقرهم على أداء الجزية وارتحل عن دارا وقصد بيرحا فصالح أهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا ورحل عنها وكانت بنو اسرائيل تعظمها وتقصد إليها بالنذور ، وكان بانيها حزقيا بن تورخ بن بازيا أحد أنبياء بني اسرائيل فخرجوا إلى عياض وصالحهم على قدر ما صالح به أهل دارا غير أن مقدمهم قال إنني لم أزل أملك البلد حتى يأتيني الموت ومن أراد أن يدخل في دينكم من أهل بلدنا فلا مانع يمنعه . فقال له عياض ما اسمك ؟ قال اسمي طرياطس فقال يا طرياطس إنا نحكمكم على العدل فما فتح الله علينا إلا باتباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل في الرعية ، وأنا نتجنب البغي والظلم وما قصدنا قاصد إلا وجدنا وأنتم منذ خرجتم إلينا ووردتم علينا فنحن نجيبكم إلى سؤالكم ونصالحكم على ما صالحنا عليه أهل دارا .

فقال طرياطس : وتصالحون أهل معرين على ما صالحتم عليه أهل بيرحا فأجابهم عياض إلى ذلك ونزل على باعما ودير . قال وإنما أجابه عياض إلى ذلك وألان له العريكة حتى يبلغ الخبر أهل ديار بكر فيجيبون طائعين ويسلمون له من غير منازعة .

وكان قد بلغه تحصن بلادهم وامتناع قلاعهم .

قال : فدخل طرياطس وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيئا ودفعه لعياض فقبله منه وكتب له كتاب الصلح وشرط عليهم الجزية كما فعل أهل دارا من العام

القابل ، فلما تم ذلك دخل المسلمون إليه وبنوا جامعا ، فلما بلغ أهل نصيبين حسن سيرتهم وعدلهم وجودة أحكامهم أسلم أكثرهم ، وكان فى جملة من أسلم أصحاب النذور وجاءوا إليى الدير وأخربوه وبنوه جامعا وأقام عياض على نصيبين شهرا ، فلما أراد الرحيل جاءه طرياطس وقال قد زدتم فى أعيننا بما رأينا من صلاتكم وعبادتكم فأسلم وحسن إسلامه ولم يزل ملكا حتى مات فى خلافة عثمان ونزل فى مسجد كندة أسامة بن عامر الكندى وعشيرة من بنىٰ عمه وارتحل عياض ونزل تحت قلعة المرأة وفيها مارية وولدها عمودا فأنزلوا له الإقامة والضيافة وسار الى أن نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الاولى .

ذكر فتوح ميافارقين وآمد

وكان بآمد أخوان شديدا البأس اسم أحدهما بطرس والآخر يوحنا .. وكان بطرس فى شرقى البلد ويوحنا فى غربيها ، وكان ليوحنا بنت اسمها رغوة ، ولبطرس بنت اسمها صفورا ، وكل واحد مشغول بما هو فيه ، ويوحنا أراد أن يتزوج فأرسل إلى صاحب دارا وهو مرطاوس فزوجه لبنته مريم وحملت من بلد أبيها إليه ، وكانت صاحبة حيلة ومكر ، فلما حصلت بآمد نظرت إلى المدينة وكثرة مالها ونعمها وتحصن أهلها وسورها وغزارة بساتينها .

فقالت لدايتها فى السر : يا دايتى : ما رأيت أحسن من هذه المدينة ولا أحصن منها ولا أمنع ألا ترين إلى الأعين المخترقة فى وسطها وإلى الجبال التى قد دارت بها ، تعنى سورها الأسود ، فمن بناها على الحقيقة ؟ قالت لها : اعلمى أنه قد ملك بلاد الروم أجمع من أول بلاد اليونان إلى بلاد عمورية ملك يقال له (طيماوس بن أرسالوس بن ميهاط بن مكلاوكن بن الأصفر بن العيص بن إسحق) وكان أول من بنى بيت الحكمة فى بلده رومية الكبرى وكان قد فتحت له المطالب ونشر فى الأرض العجائب وأنه حدثته نفسه بملك الأرض لكثرة المال فانتهى إلى سويقة ، وكان له ولد اسمه إسطنبول فقال لأبيه طيماوس أريد أن أبنى لى ههنا مدينة أذكر بها قال يا بنى افعل وأمده بالمال والرجال فأدار سورا على ستة فراسخ وسماها باسمه وعاش أربع سنين ومات وخلف ولدا اسمه قسطنطين فأتم بناءها

فسميت باسمين اصطنبول باسم أبيه والقسطنطينية باسم ابنه وأما أبوه فإنه صار يفتح البلاد حتى وصل إلى ههنا فرأى هذه الأعين والدجلة فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين ملكا وقال قد اخترت آن أبنى ههنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها ولا أحسن منها ولا أمنع وأريد أن كل واحد منكم يبنى لنفسه مدينة وبرجا فقالوا جميعا نفعل أيها الملك فركبوا واختطوا المدينة وشرعوا فى بنائها وأتوا بالصناع من أقصى البلاد واختص كل ملك بمدينة وبرج وحمام وكنيسة ، فلما أتموا بناءها مات الملك فسميت آمد لانقضاء أمده بها وما زال الملوك يتوارثونها إلى أن انتهت إلى هذين الأخوين بطرس ويوحنا .

قال : فتعجبت مريم من قول دايتها وكتمت الأمر ، وكان لبطرس ولد اسمه لاون فطلب من أخيه ابنته صفورا لولده وقال له : زوج ابنتك لولدى ... فامتنع ووقع الشر بينهما حتى كان فى وسط البلد سور وأبواب فأغلقت وصار كل واحد منهما مشغولا بناحيته ، فلما رأت مريم ذلك دخلت بينهم بالصلح وقالت : هذا لا يجوز وأنتما أخوان ويطمع فيكما ملوك ديار بكر ... وركبت بنفسها وأصلحت بينهما وفتحت الأبواب التى داخل المدينة وصنعت وليمة عظيمة ودعت إليها بطرس وولده لاون وابنته صفورا ، فأكلوا وليمتها وقدمت لهم الخمر ممزوجا بالسم ، فلما تمكن منهم قتلوا عن آخرهم وكذلك فعلت بزوجها وولده وصارت ملكة وبنت بيعة لم ير ببلاد الروم مثلها وفرشت أرضها بالقصوص والرخام الملون وزخرفت الحيطان بالذهب والفضة وعلقت فيها ستور الديباج المذهب وطلبت كل عالم مشهور وأزالت عن أهل البلد جميع ما كان عليهم من الحيف وعدلت فيهم ، فأحبها أهل البلد وشكروا سيرتها واستخدمت الرجال وزادت فى إكرامها وقصدها الناس من كل مكان لأجل عدلها وأقامت فى ملك آمد اثنتى عشرة سنة وبعدها نزل عليها عياض بن غنم ، ومن معه وأحاط بالمدينة .

(قال الواقدى) بلغنى أن عياضا نزل على التل ونزل سعيد بن زيد على باب الروم ونزل معاذ على باب الجبل ونزل خالد على باب الماء ، فلما نظرت الملكة مريم إلى ذلك ورأت أن الصحابة قد عولوا على حصارها ركبت إلى كنيستها وجمعت أرباب دولتها وقالت

اعلموا أن هؤلاء العرب قد حلوا بساحتكم ونزلوا على مدينتكم ، وقد طمعت أنفسهم فى أخذها وأنتم تعلمون أن هذه قفل ديار بكر ومتى فتحوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولا يبقى له ذكر فى هذه البلاد وأنا أعلم أن الملوك ومن يشار اليهم من أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية كلهم ينتظرون ما يكون منا ... ويعلمون أن مدينتكم لو أقاموا عليها مائة سنة ما قدروا عليها فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم واصعدوا فوق الأسوار وقاتلوا هؤلاء العرب ... وطلبت القسوس والشمامسة والرهبان وأمرتهم أن يحلفوهم على أن يكونوا يدا واحدة ولا يخامروا عليها ففعلوا ذلك وصعدوا على الأسور وشهروا السلاح وآلة الحرب وأقاموا الصلبان والرايات والأعلام وتولت كل طائفة بحفظ برج من الأبراج .

قال : فلما نظر عياض إلى ذلك وأنهم قد عولوا على القتال من أعلى الأسوار جمع أمراء جيشه إليه وقال لهم إن هذه المدينة حصينة وهى عين ديار بكر ومتى فتحها الله علينا ملكنا ديار بكر فما الذى ترون من الرأى ؟ وكيف يكون قتالها ؟ وأعداء الله قد تحصنوا بهذا الحصن المنيع .

فقال خالد : أيها الامير أعلم أننا ما ملكنا الله البلاد بقوة ولا بكثرة مدد ولا بعدد بل بتيسير الله لنا نرجو الله أن يفتحها ببركة نبينا ﷺ وبذلك وعد الله نبيه وأن هؤلاء القوم إن باطشونا على ظاهر مدينتهم بالقتال رجونا تسهيل الأمر وإن أقاموا على ما هم عليه فالصبر ، فان عاقبة الصبر النصر ، ولعل أن يأتى فى العرضيات ما لم يكن فى الحساب واكتب إلى هذه المرأة كتابا وخوفها ، ثم منّها بكل جميل فلعل الله تعالى أن يلين قلبها للإيمان أو تسلم لنا صلحا فدعا عياض بدواة بياض وكتب إليها يقول .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وآله ، من عياض بن غنم أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وديار بكر إلى مريم الدارية : أما بعد فان الله سبحانه وتعالى قد نصرنا وبجميع الكفار قد ظفرنا ، وعلى قبض ملوكها أيدنا وما نزلنا على بلد إلا ملكناه ولا قابلنا جيشا إلا هزمناه والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين وليس حصنك بأمنع من تدمر ولا

الحصن المنيع الذى بناه سليمان بن داود وما هو إلا أن نزل عليه المسلمون حتى ملكوه وكذلك بعلبك وحلب وأنطاكية دار الملك هرقل ، ولم يبق بين أيدينا صعب إلا سهله الله علينا وبذلك وعدنا الله فى كتابه العزيز فقال ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ (١) فإذا وصل اليك كتابى هذا فسلمى تسلمى وإياك أن تخالفى تندمى ومهما أردت بلغناك ولسنا نكرهك على فراق دينك ولا أحدا من أهل بلدتك قال الله تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ (٢) وإن تمسكت بالهوى فستعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه إلى رجل من المعاهدين وقال له ادن من الحصن وناولهم الكتاب وقف حتى يردوا عليك الجواب . قال فذهب ودنا من السور وناداهم بلغتهم وأشار اليهم بالكتاب فأدلوا له حبلا فربطه لهم ووقف ينتظر الجواب . قال فأوصلوا الكتاب إلى الملكة مريم فقرىء عليها ، فلما فهمت ما فيه قالت لأرباب دولتها ما تقولون فيما كتب إلينا أمير العرب ؟ قالوا أيتها الملكة الرأى لك فمهما أمرتينا به امتثلناه .

فقالت : يا قوم أنتم تعلمون أن النار ولا العار ومتى سلمنا لهؤلاء العرب عيرتنا الروم ويقولون كيف سلمتم مدينتكم وما حاصرتم سنة ولا عشرة أيام ومدينتكم أحصن بلاد الروم ، وإذا شئتم كان لكم موضع تزرعون فيه والمياه عندكم وكل ما تحتاجون إليه ، وقد وصلت إلى الكتب من جميع ديار بكر ووعدنى أن يرسلوا عساكرهم لنصرتنا فقالوا أيتها الملكة هذا هو الرأى الرشيد فاكتبى للقوم كتابا أن يقطعوا طمعهم منا فكتبت تقول : أما بعد : فقد وصلنى كتابك وفهمت خطابك ، فأما ما ذكرت من نصر الله لكم ، أما علمت أن المسيح يمهلكم ولا يهملكم ، وإنما ذلك استدراج لكم ثم يأخذكم بعد ذلك وكأنكم بالملوك وأبناء الملوك وقد أقبلت عليكم بسواعد شداد وسيوف حداد وجيوش وأمداد فيأخذون منكم بالنار ويكشفون عن عباد المسيح العار ، وما كنا بالذى نسلم حصننا إليكم أبدا ، فإن شئتم المقام وإن شئتم الرحيل والسلام وربطوه بالحبل وأعطوه للمعاهد فأخذه وأتى

(١) سورة الروم : الآية : ٤٧.

(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٥٦ .

به إلى عياض ، فلما قرأه وفهم ما فيه قال توكلنا على الله وفوضنا أمرنا إليه ثم قرأ ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا** ﴾ [1] .

قال : وعول عياض أن يقيم على آمد وخيله تغير على الهتاج وميافارقين وسائر تلك البلاد . قال وسمعوا ضرب الناقوس .

فقال عياض : أتدرون ما يقول هذا الناقوس ؟ . قالوا وما يقول قال : بعث رسول الله ﷺ ابن عمه علينا ومعه جماعة من المسلمين ليغيروا على أطراف تبوك فاجتازوا بدير الراهب ، وذلك الراهب يضرب بناقوسه . فقال على لمن معه أتدرون ما يقول هذا الناقوس ؟ قالوا الله ورسوله أعلم وأنت يا على فقال يقول مهلا مهلا يا بنى الدنيا مهلا مهلا إن الدنيا قد غوتنا واستغوتنا وشغلتنا غدا نرى ما نرى ما من يوم يمضى عنا إلا لنا أو علينا يا بنى الدنيا جمعا جمعا يا بنى الدنيا شرطا شرطا ، ما من يوم يمضى عنا إلا أثقل ظهرا منا ، ما من يوم يمضى عنا إلا صار منا جهلا قد ضيعنا دارا تبقى واستوطنا دارا تفنى . قال عياض : فقالوا يا ابن عم رسول الله أو يعلم النصرانى ذلك ؟ . قال لا يعلم ذلك إلا نبى أو صديق .

قال حدثنا الربيع أبو سليمان عن موسى بن عامر عن جده قراءة بالخضراء من عسقلان قال فأقام عياض على آمد أربعة أشهر قال فخرج من جيشه الحكم بن هشام واستأذن عياضا أن يشن الغارات على ميافارقين فأذن له فأخذ معه من الصحابة مائة من المهاجرين والأنصار فخرجوا بعد ما صلوا الظهر وعبروا الدجلة وساروا والأرض تطوى لهم فما مضى قليل من الليل إلا وهم على ميافارقين فداروا بها إلى أن وصلوا إلى برج يعرف ببرج الشاة .

فقال الحكم بن هشام : وددت من الله لو فتح لنا هذه المدينة بلا قتال . قال فما استتم كلامه حتى انفتح لهم باب من حائط البرج فدخلوا وهم يخترقون الطرق إلى وسط المدينة إلى كنيستهم العظمى وتعرف ببيعة ماريا وكانت تلك الليلة عيدا عند النصارى ، فلما أقبلوا إلى الصلاة وجدوا أصحاب رسول الله وهم نزول على باب البيعة فصاحوا وتسامع

---

(1) سورة الطلاق : الآية : ٣ .

الناس فأتى صاحب البلد وكان اسمه إسلاغورس ، فلما رآهم قال من أنتم ؟ قال له الحكم نحن أصحاب رسول الله ﷺ قال ومن أين جئتم ؟ قالوا من عسكرنا ؟ قال ومتى جئتم .

قالوا : بعدما صلينا الظهر . قال ومن فتح لكم مدينتنا ؟ . قال له الحكم : فتح لنا من بيده مقاليد الأمور . قال أوما تفزعون منا . فقال الحكم ... نفزع من مخلوق لا يضر ولا ينفع وهو تحت أحكام القهر ؟ وقد قال ربنا في كتابه ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ ـ .

فقال إسلاغورس : إن دينكم دين محدث وديننا دين قديم والقديم أفضل من المحدث فقال له الحكم إذا كان ما قلته حقا ففضل إبليس على آدم لأنه أقدم منه أعلمت أن طينة آدم مشكلة ، وقد قال الله تعالى﴿ **أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه** ﴾ أشرق نور قلبه في وقت تجليه واشتعل بالاتقاد فيه فنظر إليه إبليس وظن قميص عبوديته أبيض بالتوحيد ، وإذا هو أسود بالشرك فأبان نعته القديم عن نعت وقته بقوله ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ كان سائرا في أرض الشرك تحت ظل الجهل بالعواقب فما زال يقطع منازل العبادات بالعبادات ، وهو في عماية عن أبصار جمال المشاهدات ، فلما ظهرت أنوار مصباح الإلهية من مشكاة الأبدية استنار وجه صورة حاله . فاذا هو قد فهم من جوابه وأن عليك لعنتي ، وأصل آدم لما طار من وكر بشريته بأجنحة همته في جو الطلب تعالى عن حطيطة إنسانيته حتى دنا من نيران المحن فافترقت أنوار القسم بأجنحة اصطفائه وحصن قوادم ارتقائه فوقع في حبال وعصى آدم ربه ، فلما أتاه في أودية محبته ، هطلت عليه سحائب محنته ، ورمى بصواعق اهبطا ، فلما خرج إلى بيداء كرباته اشتملته مواكب آلائه مبشرة إياه باجتبائه ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ قال وإن إسلاغورس أمرهم أن يدخلوا البيعة . فقال الحكم بن هشام وما الذى نصنع في بيعتكم ؟ . قال تذكرون فيها ربكم . قال ما كنا ندعى إلى ذكر ربنا فنتأخر عنه ...

قال : فربطوا خيلهم ودخلوا كما أراد إسلاغورس بذلك إلا أنه قد زخرفها وصور فيها بيت المقدس والصخرة وقبة السلسلة ومحراب داود ومهد عيسى وصورته وأمه مريم ، فلما

توسطها أصحاب رسول الله ﷺ قرأ الحكم بن هشام ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾ (١) ورفع بها صوته . فقال لا والله. وإنما أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

قال : فوالله لقد ماجت بيعة القوم وتزلزلت وصفقت القناديل بعضها ببعض ، قال وكان للبيعة شيخ عالم بالأديان والشرائع وكان اسمه عبد المسيح ، فلما نظر ما حل بالبيعة والقناديل صلب على وجهه وكذلك كل ما كان فيها ، وقالوا لملكهم أنت ما أردت إلا هلا كنا إذ أدخلت هؤلاء العرب إلينا أما ترى كيف غضب المسيح علينا ؟ . فقال البطريق لا وحق المسيح ما هو إلا توحيدهم الله وذكر نبيهم أظهر لكم من معجزة نبيهم ما رأيتموه يا ويلكم إذا كان قد فتح لهم باب في السور ودخلوا منه علينا فكيف لا تهتز البيعة وتصفق القناديل لما دخلوها ، وأنا كنت في شك مما ذكرت والآن فيا طوبى لمن كان على دينهم .

(قال الواقدي) وكان هذا خادم بترك بيت المقدس ، وكان في بيت المقدس يوم فتحت على يد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وسمع من البترك في بيت المقدس وهو يقول هذا الذي يفتح الأرض في طولها والعرض ، ومحمد هو الذي بشر به المسيح ابن مريم ، ولقد سأله رجل لما رأى المسلمين يعظمون الصخرة ويقبلون القدم الذي فيها ، فقال للبترك نرى المسلمين يقبلون قدم المسيح ، فقال له يا بني نحن نقول إنه قدم المسيح ، وإنما هو قدم نبيهم محمد بن عبد الله لما عرج به إلى السماء . قال أو عرج به ؟ . فقال نعم أسرى به من مكة إلى بيت المقدس وصلى بالنبيين وأسرى به .

قال الحكم : وذلك لما استبشرت به النفوس وبلغ خبر رسالته ، وأنه زيد في كماله وأشرقت أنوار جماله ، وأراد الحق أن يشرفه على أهل الكونين باقترابه من قاب قوسين فنودي في عالم الملكوت : تأهبوا ثم تأدبوا فهذه ليلة الدنو والاقتراب ، هذه ليلة عتق الرقاب هذه ليلة الحبور ، هذه ليلة السرور ، هذه ليلة الابتهاج ، هذه ليلة المعراج ، انصبوا سلم الإرسال ، وافرشوا فرش الإظلال ، وقوموا على أقدام الاسترسال ، يا جبريل زخرف الجنان ،

---

(١) سورة المائدة : الآية : ١١٦ : مدنية .

وزين الحور والولدان ، يا جبريل انزل بالتهانى إلى بيت أم هانى ، أيقظ حبيب مملكتنا وأركبه على براق قدرتنا ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾[1] فأخذ جبريل مطية خلقها عجيب ، ونعتها غريب، فألجمها بلجام القرب ، وأسرجها بموكب الحب وسار بها فى ميدان الجلال ، وهو ينادى : سبحان الذى أسرى ، فلما وقف ببابه ورفع حجابه ونظر ، وإذا هو مدثر بعباءة تذلله ، متوسد بوسادة عمله ، قد أنحله الشوق ، وأذابه التوق فنشر عليه أنوار السعد ، وبشره بانجاز الوعد ، فقال له يا أيها المدثر قم على قدم همتك ، وقم بوارد عزيمتك ، واركب إلى السماء ، وارق واصعد معراج الدنو والارتقاء ، فقام السيد واتشح ، وجسمه من الحياء قد رشح ، وقد باح باستسلامه ، وركب مركب تحيته وسلامه ورفع على رأسه سحابة الاحترام، وأسرى به من البيت الحرام ذكره جليسه ، وفكره أنيسه ، وشوقه دليله وجبريل خليله ، فلما ولج دائرة بيت المقدس ، وحصل فى فناء المسجد الأقصى فجليت عليه أرواح الأنبياء فى حلل الأنوار والبهاء ، فبادروا إلى سلامه وتحيته واكرامه ، وجليت بين يديه وأثنوا بالصلاة عليه ، وأراد كل منهم أن يصف منزلته ، ويذكر فضيلته ، فقال آدم الحمد لله الذى خلقنى بيده ونفخ فى من روحه وأسجد لى ملائكته وأسكننى دار كرامته وقال إدريس الحمد لله الذى رفعنى مكانا عليا ، وبوأنى مجلسا سنيا ، وقال نوح الحمد لله الذى نجانى من القوم الظالمين ، وجعلنى أبا للمؤمنين ..

وقال إبراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا ، وجعل النار بردا على وسلاما وأصلح لى زوجى بعد ما كانت عقيما ، وقال موسى الحمد لله الذى أعطانى تسع آيات بينات وكتب لى فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء وأهلك عدوى فرعون ونجى قومى ، وفلق لى البحر وكلمنى تكليما ، وقال لى إنى أنا الله ، وقال سليمان ابن داود الحمد لله الذى سخر لى الإنس والجن والطير والريح وعلمنى منطق الطير وآتانى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، وقال عيسى الحمد لله الذى لم يخلقنى من نطفة قذرة وأحيا لى الموتى وأبرأ لى الأكمه والأبرص ، فلما افتخروا بجميع كراماتهم . قال النبى ﷺ

(١) سورة الإسراء : الآية : ١ .

الحمد لله الذى خلقنى من أنوار البهاء ورفع قدرى فى الأرض والسماء ، وكتب اسمى على ساق عرشه ، وقرن اسمى باسمه ، ونزه ذكرى فى معالم قدسه ، وشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى ، ورفع قدرى ، وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ، وأيدنى على من كفر وبعثنى بالرعب ، وأرسلنى بالحنيفية . ونصرنى وجعل أمتى خير الأمم ، وفرض طاعتى على العرب والعجم ، وجعل لى الأرض مسجدا ، وترابها طهورا وشفعنى يوم القيامة فى أمتى ، ونسخ سائر الشرائع بشريعتى ، وأدخل سائر الأمم فى شفاعتى ، وجعل الكعبة قبلتى ، وأسمعنى صلاة أمتى من بعدى لأشهد لهم يوم القيامة ، وجعلنى شاهدا ، وأمتى شهودا على من جحد وظلم ، وكتب اسمى على الأفلاك ، وقال جل وعلا ﴿ **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ (١) .

(قال الواقدى) فلما سمع بطريق ميافارقين هذا الكلام من الحكم بن هشام . قال والله ما فى دينكم مراء وأنتم على الحق ، ولقد كنت أسلمت على يد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ببيت المقدس ، ثم جئت إلى هذه المدينة وكان عليها وال فمات ووليت الأمر من بعده فرجعت إلى دينى الاول . فإن أنا تبت إليه ورجعت إلى دينكم أيقبلنى على ما ارتكبت من المعاصى . فقال له الحكم « سمعت رسول الله ﷺ يقول يوما لأصحابه بأى شيء يكون ابن آدم أشد فرحا ؟. فقالوا بالأهل ، فسكت رسول الله ﷺ وسكت الناس .

فقال رسول الله ﷺ : لا يكون ابن آدم أشد فرحا منه إذا كان فى مفازة ومعه راحلته عليها زاد وماؤه ومنافعه . فاذا كان فى بعض المفازة اشتد عليه الحر فأوى إلى ظل فنزل عن راحلته وتوسد ذراعه فنام ثم انتبه وقد ذهبت راحلته وعليها طعامه وشرابه وغذاؤه ومنافعه فانطلق فى طلبها يمنيا وشمالا فلم يجدها فرجع الى موضعه ليموت فيه ، وقد أيقن بالهلاك فنام ، ثم انتبه فوجد راحلته كما هى فأخذ بخطامها ، ثم قال النبى ﷺ : إن الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من ذلك الرجل بتلك الراحلة » .

قال : فلما سمع إسلاغورس كلام الحكم بن هشام دمعت عيناه وأخذهم إلى دار

---

(١) سورة الأحزاب : الآية : ٤٥ .

ولايته وقال : والله لقد بان الحق وظهر الصدق فأسلم وحسن إسلامه وطلب جماعته فأسلموا بأجمعهم . ثم إنه طلب أكابر البلد وأخبرهم بإسلامه وقال لهم : إنى أريد منكم ما أريده لنفسى ، وإن دين هؤلاء يعلو ولا يعلى عليه فمن أسلم منكم أمن فى الدنيا والآخرة وهم قد نزلوا على آمد ولا بد لهم من ديار بكر جميعها فمن خالفهم وعصى نهبوا بلده ، واستعبدوا أهله وولده ، فإن أسلمتم لهؤلاء القوم أمنتم على أنفسكم وبلادكم .

فقالوا : أيها الصاحب أمهلنا ثلاثة أيام حتى نرى ما لنا فيه الصلاح فتركهم وانصرفوا من عنده ، فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا أن لا يسلموا للعرب أبدا ولو هلكوا عن آخرهم وأصروا على القتال ، فبعد ثلاثة أيام طلبهم فلم يأته إلا القليل ، وأتت إليه العين الصافية وأخبرته بما عزم عليه أهل البلد ، ثم لبسوا سلاحهم وأتوا إليه يقاتلونه فخرج إليهم بجماعة ومعه أصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا قتالا شديدا ، فلما جن الليل . قال : لهم أرسلوا إلى أميركم ينجدنا فأرسل واحدا منهم فما بعد عن البلد حتى سمع قرع حوافر الخيل ، فلما تبينهم إذا هم من عسكر الموحدين ، وإذا هم خمسمائة فارس وعليهم ضبة ابن عدى ، وكان السبب فى ذلك أن عياض بن غنم رأى النبى ﷺ فى المنام وأخبره بقصة ميافارقين وما جرى لصاحبها من أهل بلده وأمره أن يرسل اليهم جيشا فاستيقظ من نومه وأرسل إليهم ضبة بن عدى ومعه خمسمائة فارس وأذن الله للأرض أن تطوى لهم فوصلوا إليهم فى تلك الليلة فأتى بهم إلى باب السر ، وكانوا قد وكلوا به من يحفظه فنادى ففتحوا لهم ، وإذا بصاحب البلد قابلهم فأدخلهم ، فقالوا له من أعلمكم بقدومنا ، فقال صاحب البلد أعلمنى بكم النبى ﷺ رأيته ، وقد نمت من ضيق صدرى بقتال هؤلاء القوم أهل البلد فنمت فرأيت شخصه الشريف فبشرنى بقدومكم ، فلما حصلوا بأجمعهم خرج للقتال أهل البلد فصاح بهم المسلمون : يا أعداء الله قد حَلَّ بكم البوار ، وأحاطت بكم الأقدار ، من أصحاب محمد المختار ، ووضعوا فيهم السيف فولوا إلى منازلهم ودورهم ليتحصنوا بها ، وقد علموا أنه قد نزل بهم مالا طاقة لهم به فنادوا الغوث .

فقال لهم : من أتى إلينا فهو آمن فخرجوا ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ قد أمناكم

على جميع مالكم إلا السلاح . قال فأتوا بجميع ما عندهم من السلاح وسلموه للصحابة . فلما رأوا منهم صدق القول أسلموا إلا قليلا منهم وعلموا البيعة الكبيرة جامعا وأقاموا ثلاثة أيام وتركوا عندهم الحكم بن هشام ومعه عشرة من أصحابه ليعلموهم شرائع الدين ، وأتى ضبة ومن معه إلى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك وقال وإن أهل آمد لم يفتحوا بابا ولا باشروا قتالا وضاق صدر عياض ومن معه من ذلك .

(قال الواقدى) ومكثوا خمسة أشهر وكان خالد بن الوليد كما ذكرنا على باب الماء وكان فى يوم يركب بجيش الزحف ويدور حول المدينة ، فاذا أتى الليل نزل فى منزله وكان غلامه همام يخبز له فى كل ليلة أقراص شعير ويتركها له فى قبته .

فإذا صلى المغرب أكل تلك الأقراص عند الإفطار وأنه استمر ثلاث ليال لم يجد شيئا يفطر عليه ، فقال لغلامه همام أنت يا ولدى ما عندك ما تفطرنى عليه ولك بهذه الليلة ثلاث ليال لم تصنع لى شيئا . فقال والله يا مولاى إننى فى كل ليلة أصنعها وأضعها له ولم يكن عندى منها علم وما ظننت إلا أنك تأكلها ، فلما كانت الليلة الرابعة وضع همامَ الأقراص على عادته وأخفى نفسه وجلس لينظر من يأخذها ، فاذا هو بكلب قد أقبل من نحو المدينة ودخل القبة وأخذ الزاد وخرج فتبعه همام وإذا به قد دخل من مسرب الماء فى جانب السور .

قال : فتركه همام وعاد ، فلما أتى خالد من صلاته أقبل وطلب الفطور ، فقال له همام يا مولاى كان من الأمر ما هو كذا وكذا ، قال خالد يا همام أرنى الموضع فمضى همام أمام خالد وأراه الموضع الذى دخل منه الكلب ، فلما رآه قال الله أكبر فتح الله ونصر وعاد وطلب أصحابه وأعلمهم بالقصة .

وقال لهم : قد عولت أن أدخل المدينة من مسرب الماء وأريد منكم مائة رجل يهبون نفوسهم لله تعالى وتعلمون أن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار وفاء لمن أخذ منها بحقها ودار رجاء لمن تزود منها . ودار نجاة لمن فهم عنها ، الدنيا مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ومسجد أحبابه وأوليائه ، اتخذوها مزرعة فرحمنا الله وإياكم وكان لنا ولكم فمن أراد الزاد

من هذه الدنيا الفانية إلى يوم حشره ، فليبادر إلى التجارة الرابحة ولا يغره طول الأجل فيطمئن إلى التقصير فى العمل ، ألا وإنى قد وهبت نفسى لله وقد اشترى . ثم قرأ ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ (١) فمن باع فليبادر ولا يجزع مما يحاذر فالموعد بيننا فى عرصات القيامة وموقف الحسرة والندامة فاتبعوا سلفكم الطاهر والدين الباهر فعولوا على بركة الله وعونه واختار من أصحابه مائة وأمرهم بلبس السلاح وركب إلى عياض وأعلمه بما عزم عليه من دخوله المدينة من المسرب وقال له : كن على أهبة إذا سمعت التكبير والتهليل . فقال علمت ذلك وأنا على أهبة بحمد الله امض أعانك الله ونصرك وسر على بركة الله وعونه .

قال : فودعه خالد ورجع إلى أصحابه فوجدوهم قد استعدوا فسار أمامهم وهم رجالة إلى أن أتى إلى باب المسرب وكان نصف الليل ، وأمر الله سلطان النوم فاستولى على من كان على السور والحرس لأنه جل شأنه إذا أراد أمرا بلغه وهيأ أسبابه . قال : فأول من دخل من المسرب خالد (رضى الله عنه) وتبعه عامر بن الأحوص وحذيفة بن ثابت وعمران بن بشر وتمام المائة (رضى الله عنهم) وما منهم إلا من تسرب ودخل ومن كان جسيما لا يقدر على الدخول رجع وهو متأسف على الشهادة فحصل فى المدينة ثمانون رجلا ولم يصحبهم الا من دخل من المسرب .

ثم إن واحدا من الذين تأخروا عالج فى حجر فقلعه فاتسع المكان ودخلوا بأجمعهم وأدركوا أصحابهم وقد توسطوا المدينة وارتجت بها الأصوات واستيقظ الراقد وارتعد القاعد ، وقصد خالد مطلع السور ومنع الناس من النزول وأخذتهم الأحجار وأرسل خالد عشرة من أصحابه إلى الباب فكسروا الأقفال وفتحوا الباب ، وكان عياض قد ركب وأيقظ الناس وقد تهيأ للحرب ، فلما كبر خالد ومن معه بادر عياض ومن معه إلى الباب فوجدوه مفتوحا فدخلوا ، وأقبل أهل المدينة يهربون إلى السور والليل قد غسق والظلام اتسق والقتام قد أطبق، فما بقى أحد يقوم من مرقده إلا والسيف قد رمى رأسه عن جسده وهذا خرج من عند

---

(١) سورة التوبة : الآية : ١١١ .

أولاده والسيف قد قطع فى فؤاده وخالد ومن معه يكبرون وقد تقطعت بأهل آمد الأسباب وأحاط بهم العذاب . قال ولم تزل الأبطال تبطح وتطرح وصدور المسلمين تشرح ، ولنحور الكفرة تذبح ، والعوائق تقطع والشجعان للرؤس تقرع ، والصوارم تقطع ، والأنوف تجدع ، وقلب الذليل يفزع ، والجبان يجزع ، والعيون تدمع ، والصائح لا يسمع ، ولا شافع يشفع، ولا مانع يمنع ، ولا دافع يدفع ، ولا قلب يخشع ، حتى إذا ولى الليل ونزع ، والصباح عول على أن يطلع ، وخالد يصيح صياح السميدع ، حتى انطوى الليل بمطارف الدجى عند انتشار رايات الضياء ، فنظر أهل البلد إلى ما حل بهم ونزل عليهم .

فأقبلوا إلى دار الإمارة يطلبون الملكة مريم فلم يجدوها .

قال : وكان السبب فى ذلك أنها سمعت بأن الصحابة قد حصلوا فى المدينة فعلمت أنها لا تخرج من أيديهم فأخفت نفسها ومن معها ونزلت فى سرب فى دار الامارة وأخذت ما تقدر على حمله وخرجت من ذيل الجبل وطلبت بلاد الروم .

(قال الواقدى) فلما علم أهل المدينة أن ملكتهم هربت نادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السيف وجمعهم الأمير إليه فاجتمعوا فى ميدان المدينة . فقال لهم عياض : أما بعد فإن الله تعالى قد نصرنا عليكم وصبرنا وظفرنا بكم ولولا أن الله جعل نبينا نبى الرحمة وأسكنها قلوب المؤمنين لأبدناكم بالسيف عن آخركم ، ولكن قد أمرنا ربنا فى كتابه بكظم الغيظ والعفو فقال الله تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ [1] ثم نظر فيهم فمن أسلم تركه ومن لم يسلم ضرب الجزية عليه من عامه .

(قال الواقدى) وكان شاهد الجمع فى فتح آمد زيد بن حالوك اليهودى ، وكان عالما بدين اليهودية والنصرانية ، وكان يزعم أنه من أولاد داود عليه السلام ، وكان بنو إسرائيل يعظمون شأنه ويأتونه بالهدايا والتحف ، وأنه لما دخل عياض بن غنم (رضى الله عنه) إلى آمد وجمع أهلها فى الميدان وتكلم المشايخ بما تكلموا به قام هو من وسط قومه ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٥٩ .

وكان اسمه مليا بن حنيتا وعرف المسلمين بمكانه وأنه مقدم على بنى إسرائيل وأنه من ذرية داود .

قال : أنتم أصحاب نبى الرحمة وأن الله خلق الرحمة وأسكنها فى قلوبكم ، وأن الله فضلكم على سائر الأمم وقد أنزل فى صحف إبراهيم وموسى يقول : إنى أبعث فى آخر الزمان نبيا أميا ، وأجعل أمته أفضل الأمم ، وأسكن الرحمة فى قلوبهم وبهم أباهى ملائكتى وأبعثهم غرا محجلين من آثار الوضوء ، وأن داود عليه السلام لما أصاب الذنب ونفر عنه الوحش خرج إلى فلاة من الأرض وقال : إلهى بحق النبى العربى الذى تبعثه فى آخر الزمان إلا غفرت لى فأجاب دعوته .

فقال عياض : إن الله يحب العفو وقد عفونا عنكم ، فقال أهل المدينة : فإذا عفوتم عنا نرجع إلى دينكم فأسلم أكثرهم وضربت الجزية على من لم يسلم فى العام القابل على كل بالغ أربعة مثاقيل ذهبا وأخذوا سلاحهم وحملوا لهم شطر أموالهم فحملها وبنى البيعة المعروفة جامعا وأقام فى آمد اثنى عشر يوما وولى عليه صعصعة العبدى ومعه خمسمائة من بنى عمه ومن العرب .

ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودى

قال : وارتحل عياض إلى الحصون وهى حصون الجبابرة وأنفذ إلى أهلها فأسلموا وأرسل النعمان بن معرف إلى أهل أنكل فأسلموه وسميت باليمانية لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان ومضى عياض إلى الجابية ففتحها صلحا ونزل إلى أهل جبل الجودى والسيوان وذى الفرض ... فأخذوا من المسلمين صلحا وعهدا على تقرير بينهم وارتحل المسلمون حتى نزلوا على الهتاج فأبى أهله أن يسلموا وعولوا على القتال ونصبوا الرعادات والمجانيق فنظر عياض إلى ذلك فعظم عليه .

وقال : هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد وإذا قوهم الشر وقد لزمنا من أسلم ومن صالحنا ألزم لنا فلا نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء الله تعالى ، فقال خالد : انزلوا بنا عليه ولعل أن يأتى من عرضيات الأمور ما لم يكن فى حساب .

(قال الواقدى) وكان صاحب الهتاج شيطانا مريدا وجبارا عنيدا ، وكان اسمه يانس ابن كليوس وكان قد تزوج بميرونة ابنة بريوتة ابنة يربول بن كالوص صاحب قلب والحصن الحديد وكانت قد زفت إليه وأقامت عنده سنة ، ثم إنها مضت إلى زيارة أبيها وأمها وأقامت عندهما شهرا ، فلما خرجت من عندهم ومضت إلى الهتاج عند زوجها فبينما هى فى نصف الطريق إذ بلغها أن المسلمين قد نزلوا على الهتاج فجلست فى مكانها ولم تبرح وكان عدو الله يحبها ولا يجد له عنها صبرا ، فلما رأى المسلمين وقد نزلوا عليه علم أنه لا يقدر أن يجتمع بالجارية فاتفق رأيه أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكرا وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطى أحدا طاعة فأرسل إلى عياض يقول له إنك لو أقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن صالحنا سنة كاملة شمسية ، فإن أنت فتحت ما بقى من ديار بكر فنحن نرجع إلى طاعتك وإن لم تقدر على فتح البلاد فلا طاعة لك علينا والسلام، وأرسل إلى عياض رجلا من متنصرة العرب من ربيعة الفرس وكان ذلك الرجل مدبر بلاد الهتاج هو وبنو عمه ، وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله إلى العرب أكثر من الروم ، فلما أدى الرسالة إلى عياض أجابه إلى الصلح لئلا يطول مقامهم ، فلما هم مرهف بالرجوع قال لعياض أما والله أيها الأمير ما كنت بالذى أدع النصيحة للعرب وأستعملها للعلوج ، وهذا العلج قد اتفق رأيه على كذا وكذا ، فإن كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومن معها وتطلب منه البلد فإنه يسلم لوقته فافعل .

فقال عياض : ما كنا نقول قولا ولا نفى به ولعل الله ينظر إلى صدق نياتنا فيفتحه علينا .

حدثنى مالك بن بشر بن عامر وكان ممن حضر فتوح الشام وديار بكر وديار ربيعة .

قال : بينما مرهف يحدث عياضا إذا بغبرة قد أقبلت فقال عياض لميسرة بن مسروق اركب وانظر ما هذه الغبرة ، فركب ومضى هو وجماعة من الصحابة وعاد ميسرة وهو يقول أبشر أيها الأمير بالفتح . قال وما الخبر يا ابن مسروق ؟ . قال هذا جيش ابن هبيرة المازنى قد أغار على البلاد وأتى بالأموال والرجال .

قال : فظهر البشر فى وجه عياض وجعل يتطاول إلى قدوم ابن هيبرة المازنى حتى وصل وسلم على عياض وعلى المسلمين وعرض عليه الغنائم ومرهف بن واقد يتأملها إلى أن عرضت عليه جارية رومية تخجل الشمس منها وعليها زى الملوك فأطرق المسلمون إلى الأرض يستعملون الأدب مع الله فى قوله ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ [1] فلما نظر إليها مرهف قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن دينكم الحق وقولكم الصدق . فقال له عياض ما بالك أيها الرجل ؟ . قال هذه زوجة يانس صاحب الهتاج وقد طرحها الله فى أيديكم فسجد عياض شكرا لله فلما رفع رأسه قال ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [2] .

(قال الواقدى) وكانت ميرونة قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة فوافق طريق قيس بن هبيرة تلك الأرض فأخذها ومن معها وأتى إلى عياض .

فقال عياض لمرهف : ارجع إلى يانس واكتم إسلامك وأخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين وقل له إن أراد أهله فليسلم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه قال فرجع مرهف إلى يانس وحدثه بما جرى فعظم ذلك عليه وكبر لديه وقال لمرهف ما الذى ترى من الرأى ؟ قال اعلم أن هؤلاء القوم ما قالوا قولا إلا وفوا به وبذلك نصروا علينا ومن الرأى أن نسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك ، وأنا الضامن لك منهم ذلك . فقال يانس انزل إليهم وائتنى بعشرة رجال يحلفون لى على ما أريد فإن أجابونى إلى ذلك سلمت إليهم القلعة ولا تأتنى إلا بمن يقبل قوله ويشكر فعله حتى استوثق منهم لنفسى ولعله يكون الرجل الذى شاع ذكره بالشجاعة وفتح البلاد والشام يعنى خالد بن الوليد ، وإنما أراد الملعون ذلك حتى يقبض عليهم ويخلص بهم زوجته .

قال : فنزل إلى عياض وأخبره بذلك وبما قاله يانس . فقال عياض يا مرهف يريد الملعون أن يخدعنا ، ونحن ثمرة الخداع ونرجو من الله أن يرجع مكره عليه ولديه ، ثم قرأ

(١) سورة النور : الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الطلاق : الآية : ٣ .

إن الله لا يصلح عمل المفسدين . قال خالد دعنا أيها الأمير نصعد إليه والله الموفق للصواب .

فقال عياض : اعزموا على بركة الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد وعمرو بن معديكرب والمسيب بن نجيبة وقيس بن هبيرة وميسرة وضرار بن الأزور وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) أجمعين وساروا ومرهف أمامهم إلى أن وصلوا باب القلعة وكان رتب عدو الله غلمانه فى دركات القلعة وأمرهم أن يأخذوا منهم سلاحهم ففعلوا ذلك إلا خالد وعبد الرحمن وضرار فقالوا ما كنا نسلم عدتنا لغيرنا فإن أراد أن ندخل عليه بسلاحنا وإلا رجعنا من حيث أتينا فدخل مرهف عليه وقال إن هؤلاء الثلاثة امتنعوا من إعطاء السلاح وما الذى يقدرون على أن يفعلوه دعهم يدخلوا كيف شاءوا فلو كانوا نارا ما أحرقوا ولا ترهم الجزع فيطمعوا .

فقال : وحق المسيح لقد صدقت دعهم كلهم يدخلوا بعددهم حتى يعلموا أننا لا نخافهم ولا نرهبهم وأيضا لئلا تنفر قلوبهم منا فرجع مرهف وأمر الغلمان أن يردوا إليهم أسلحتهم ودخلوا ، فلما توسطوا القلعة إذا بيانس واقف ، فلما وقعت عينه عليهم دخل الرعب فى قلبه ، لأن من خاف الله خاف منه كل شىء فجعل يهتز ويقع وكان قد قال لجماعته إذا رأيتمونى قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم وإياهم فنظر خالد إليهم فعلم ما فى قلوبهم . فقال له أيها البطريق قف مكانك فإنا قوم لا نؤتى بحيلة ولا مكر لأنا قهرنا الملوك وأخذنا بلادهم بهذه الأشياء ثم إنه انتضى سيفه وزعق بيانس فأدهشه وخيل له أن كل من فى القلعة منهم وتقدم إليه وضربه على حبل عاتقه فأطلع السيف من علائقه فهجمت الصحابة على أهل القلعة ووضعوا السيف فيهم وتكاثر عليهم العدو وتزايد المدد . قال وكان فى داخل المدينة خلق من الرستاق من قرى الهتاج من فسطاس وقرساط وكان يانس قد جمعهم لقتال المسلمين .

قال : فلما قتل خالد يانس ونظروا إلى صبر الصحابة على قتال أهل القلعة قالوا لبعضهم أنتم تعلمون أن العرب ما يسكنون عن أصحابهم ، وقد فتحوا آمد والبلاد فلا يمتنع منهم الهتاج وغيرها فخذوا لكم عند المسلمين يدا وقاتلوا معهم أهل القلعة . قال ففعلوا

ذلك وجردوا سيوفهم وضربوا معهم من كان فى القلعة وسمع عياض الصياح .

فقال : أما والله إن خالدا ومن معه غدر بهم فبادروا إليهم أيها المجاهدون قال فبادر أبو الهول وأصحابه الأربعمائة وهم رجاله فتفرقوا فى الجبل وقصدوا القلعة فمن انهزم من الكفار وضعوا فيهم السيوف فما نجا منهم أحد وما وصل أبو الهول إلى القلعة إلا وقد ملكها خالد واحتوى عليها وصعد عياض والمسلمون وأخذوا كل ما كان فيها وولى عليها مولاه سالما وجعل عنده مائة رجل وكتب إلى أهل فسطاس وفرساط ومن فى القلعة أن لا يزنوا بامرأة أبدا وأشهد عليهم خالدا والمقداد وعمارا ومعاذا وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وضرارا وأطلق عياض الأسارى الذين أتى بهم قيس بن هبيرة وارتحل يطلب ميافارقين فلقيه في طريقه أهل تلك الجبال وأهل الجزيرة وقلب ومتنان وحزب الكلاب فأعطاهم الأمان وضربت عليهم الجزية وردهم إلى بلادهم وأتى اليهم أهل ميافارقين للقائهم وشكروهم على حسن سيرتهم وعدلهم وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات ونزل من جهة الميدان فى سفح الجبل وأقام بها عشرة أيام ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم ، وقال : إنى عولت على المسير إلى ديار أرمينية وإلى أرزن الروم فأشيروا على يرحمكم الله أى طريق نسلك ؟ فقال رجل من المعاهدين ممن هو أعرف الناس بتلك البلاد أيها الأمير أتأذن لى أن أتكلم .

فقال : من كان له رأى فليتكلم . فقال اعلم أنك إذا قصدت بلاد أرمينية يطول مكثك فيها ، واعلم أن بالقرب منك حصنا منيعا يقال له حصن لغوب وغلب عليه اسم صاحبه وهو يطالقون بن كنعان بن عيديوس له جيش عرمرم يزيد على ثلاثة آلاف فارس .

ذكر فتح حصن لغوب

ثم قال : اعلم أيها الامير أن تحت يده معاقل كثيرة ، وربما إنه رحل ركابه من هنا فوقع بهذه البلاد وشن الغارات على أهلها ، ومن الرأى إنك لو وجهت إليه جيشا لعل الله أن يفتح عليك ، فإن أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد وتكون طيب القلب على من تستخلفه من أصحابك . فقال عياض لأصحابه ما تقولون فيما تكلم به هذا الرجل .

فقال خالد : لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على الله ، ثم انصرفوا من عنده وبات ليلته متفكرا فيمن ينفذه إلى الحصن فوقع اختياره على يوقنا فدعاه إليه وقال له يا يوقنا يا عبد الله قد اتفق الرأى عليك أن تمضى إلى الحصن فما الذى تراه .

فقال يوقنا : أصلح الله الأمير قد بلغنى أن الحصن منيع ، وربما إذا نزلنا عليه طال الأمر وتنفد المدة وينقضى هذا الوقت ولا ندرى ما يكون ، ولكن أهب نفسى لله ولرسوله وآخذ مائة من بنى عمى ونتزيا بزى الفلاحين ونأخذ نساءنا وأولادنا نتركهم على البقر وندخل فى جملة أهل البلاد الفلاحين ، فإن حصلنا فى الحصن فنحن نملكه ان شاء الله تعالى فقال عياض : يا عبد الله قد اشتهر أمرك عند جميع أهل النصرانية ونخاف أن تسير فتغرر بنفسك ومن معك فيقبض عليكم والله تعالى قال ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ [1] .

قال : فماذا أبيت فائذن لى أن أشن الغارات على بلاد القوم قال قد أذنت لك فخرج يوقنا ومن معه وهم ألف من قومه وساروا على أرزن وسرد وأسعرد وياباسا وحيزان والمعدن .

(قال الواقدى) وكان من قضاء الله وقدره أن صاحب أسعرد وحيزان والمعدن وياتحلسا ويمهرد وطراجر وسلواس كان بينه وبين يطالقون حرب ، وكان يغير بعضهم على بعض وأخربوا المملكتين ، فلما انتشرت الأخبار بقدوم أصحاب رسول الله ﷺ وأنهم على ميافارقين جفل أهل تلك البلاد ، وعلم بذلك حرسلو صاحب أسعرد وأنه لا طاقة له بالعرب فأخذ هدية سنية وذهب بنفسه ليطالقون بن كنعان حتى يصطلح معه ويكونوا يدا واحدة على قتال المسلمين فبينما هو سائر والهدية معه وقد نزل على قرية اسمها أرغير وعاق على خيله وهو معول على المسير وهو ينتظر الخيل تقطع عليقها وإذ قد كبسهم يوقنا وقد أحاط بالقرية وأخذ كل من فيها وأسر البطريق ومن معه وبات ليلته ، فلما أصبح عرض الاسرى وقال لهم أن الله قد ظفرنا بكم ونصرنا عليكم ، واعلموا أنى ملك من ملوك الروم ملكت البلاد وقدت الجيش وأمرت ونهيت وعبدت الصليب وقربت القربان ، فلما أتى الله

---

(١) سورة البقرة : الآية : ١٩٥ .

بهؤلاء القوم أخبرتهم ونظرت ما هم عليه فعلمت أن الحق معهم فتبعتهم وقلت بقولهم ، وقد كنا بالشام تفزع منا ملوك العجم وكسرى بن هرمز والديلم والترك وكان لنا كرة الارض وكنا لا نلتفت الى العرب حتى خرجوا علينا فاذاقونا مرا وذهبت شجاعتنا وملكوا معاقلنا وحصوننا واحتووا على ملكنا ونصرهم رب الأرض والسماء علينا لأنهم يشيرون إليه بالوحدانية ، فإن آمنتم بالله وحده كان لكم الربح فى الدنيا والآخرة وأطلق سراحكم وأن أبيتم قتلتم عن آخركم فقالوا اتركنا يومنا هذا إلى الليل ندبر أمرنا فتركهم واختلى بحرسلو البطريق وحدثه فى السر وقال له اعمل فى خلاص نفسك ورقبتك من النار وأسلم وقاد نفسك حتى تنال ما تريد فقد بلغنى من الوقائع بينك وبين صاحب الحصن . فقال البطريق لقد صدقت فمن أعلمك ؟ .

فقال له : ما السبب فى العداوة بينك وبينه ؟ .

فقال : إنه طلب يتزوج ابنتى وبعث إلى هدية فرددتها عليه ، فصار عدوى وأغار على بلادى وأغرت على بلاده ، والآن قدمت إليه بهدية حتى أكون أنا وإياه يدا واحدة ، فأتيت أنت إلى وأخذتنى فقال يوقنا إنى أريد لك من الخير ما أريد لنفسى ولست أجبرك على أن تترك دينك ولكن تعاهدنى على أن لا تغدر وأنا أخلى سبيلك وتمضى إلى صاحب الحصن وتدنى نفسك بين يديه وتقول : أيها الصاحب قد ندمت على ما كان منى إذ رددتك عن تزويج ابنتك وإنى كنت أخذتها وزينتها وسقت معها أموالها على أنى أهديها لك ، فلما كنت فى قرية كذا وكذا خرج على قوم من العرب ، فأخذوا المال والرجال ، وقد نجوت إليك بنفسى ، لتأخذ بيدى وتستنقذ ابنتى من العرب ، فإنه إذا سمع دعاه الطمع واستجره الأمل حتى يخرج إلينا ولعل الله تعالى أن يظفرنا به ، فإذا ملكنا الحصن إن شاء الله تعالى كنت أنت تبقى على بلادك ، وكنت آمنا مطمئنا ، واعلم أن ذمامى هو ذمام العرب ومهما فعلته امتثلوه وأمضوه ، فلما سمع البطريق كلام يوقنا قال أفعل ذلك ولكننى أخاف من المسيح أن يغضب على إذا خامرت على أهل دينى .

فقال يوقنا : أنا أحمل هذه الأوزار عنك ، ودع عيسى ابن مريم يطالبنى يوم القيامة .

فقال البطريق : إن كان هذا الذى قلته ، فأنا أفعل وليس يصعب على ولكنى أخاف أن فعلت ذلك الذى أمرتنى به أن لا ينزل من الحصن وربما بعث معى بعض أصحابه فلا يحصل طائل من عدوكم . فقال يوقنا : وما يكون التدبير ؟ فقال البطريق الرأى عندى غير هذا .

قال وما هو ؟ قال تذهب مع أصحابك جريدة بالخيل ، وأنا أكون معك فما نصبح الا ونحن على الحصن ، فاذا أشرفنا عليه تعطنى جوادى وسلاحى وأركض على فرسى فى حال العجلة ، فانى أجده فى الميدان مع أرباب دولته فاذا وقعت عينى عليه ترجلت وحثوت التراب على رأسى وأصيح : أيها الملك ، العرب قد أخذوا أصحابى وغلمانى ، وما جاء معى برسمك ، فاذا قال وأين هم ؟ أقول على فرسخ من بلدك .

فإنه إذا سمع قولى لا يمكنه التأخير عن نصرتى ولا له إلا السرعة إليكم ، واعلم أن أكثر جنده قد فرقهم على الحصون وما عنده إلا ألف فارس أو أقل .

قال : فلما سمع يوقنا ذلك من قوله وثق به وبعث الأسرى إلى عياض ، فلما وصلوا إليه قال لهم : إن أطلقتكم أتعرفون لنا ذلك قالوا نعم وكيف لا نعرفه .

فأطلقهم حتى تسمع أهل البلاد فينزلوا إلى طاعته ، وأما يوقنا فإنه سار جريدة بقية ليلته ، فما برق ضياء الفجر إلا وقد أشرفوا على الحصن فعندها أطلق البطريق ووثق منه بالعهود وأعطاه جواده وسلاحه ، وسار كأنه قد أفلت نفسه وساق على شوط واحد إلى الحصن ، وكان بالقضاء المقدر أنه وجد البطريق يطالقون قد عبر إلى جانب أسعرد ومعه ألف فارس وألف راجل ، وكان السبب فى ذلك أن قوما من أصحاب البطريق حرسلو كانوا فى كنيسة يوقنا فأتوه وحدثوه بما تم عليهم من القوم ، فعبر لعله يستخلصهم من يد يوقنا ، فلما وصل إليه البطريق ترجل وصقع له وحدثه فرق له وقال : كيف تخلصت ؟ قال خلصت يدى من الكتاف وركبت هذا الفرس ، فلما أحسوا بى ركبوا ورائى ، ها هم فى أثرى بالقرب من باياعا .

قال : فلما سمع ذلك يطالقون بن كنعان أمر بالركوب وسار من وقته طالبا يوقنا ،

وقال هذا الذى أردناه من أمر الجهاد قد قربه الله إلينا فدونكم والقوم ولم يمهل بعضهم بعضا ، وتطاعنوا بالرماح وصبر يوقنا صبر الكرام ووقع الصائح من كل جانب ونشرت أجنحتها النواكب ، واستعان أصحاب يوقنا برب المشارق والمغارب ، فبينما هم قد أشرفوا على المعاطب ، إذا أشرقت عليهم غرز الخيل وهم يتسابقون ، فنظر إليهم يوقنا وإذا هم أصحاب رسول الله ﷺ وهم ثلاثة آلاف فارس يقدمهم خالد بن الوليد وكان السبب فى قدومهم أن عياضا خاف على يوقنا وبنى عمه ، فأرسل إليهم فى أثرهم خالدا فوجدوهم فى القتال فأطلق عنانه وقال : يا أهل الإيمان ، وحمله القرآن ، دونكم وعبده الصلبان ، ارفعوا أصواتكم بذكر ربكم .

قال : ونظر يوقنا النصرة وقد أقبلت ، فعظم شأنه والتقى بصاحب الحصن ، وقد عرفه بزيه فتطاعنا طعنا كافيا وتضاربا ضربا شافيا إلا أن يوقنا طعن صاحب الحصن فرماه إلى الأرض قتيلا ، وصنع فيهم خالد (رضى الله عنه) والصحابة (رضى الله عنهم) كما تصنع النار فى الحطب ، ولما قتل يوقنا صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى : عمن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم ، فلما رأوا الرأس ولوا الأدبار ومات أكثرهم وولى الباقون نحو الجبل ، ووقع الصائح فى الحصون بأن يطالقون قد قتل فولوا الأدبار .

(قال الواقدى) وكان ليطالقون زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأى وتدبير ، فلما رأت ما حل بزوجها وأن أهل الحصن قد قتل أكثرهم وتفرقوا بالهزيمة أيقنت بزوال ملكها وخراب بيتها ، فجمعت المشايخ من أرباب دولتها ، وقالت لهم : اعلموا أن الملك قد قتل وقد تفرق شمل من كان معه ، وقد وصلكم ما صنع هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية وبنى ماء المعمودية ، وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر ، وقد دانت لهم الأمور وانتشر شرعهم وعلا ذكرهم ودخل فى دينهم الملوك والبطارقة ، وما نزلوا على حصن إلا ملكوه ، ولا وافوا جيشا إلا هزموه وقد دخلوا أرضكم ، وحلوا ساحتكم فما ترون من الرأى الرشيد ؟ قالوا أيتها الملكة ما تكلمت بشىء إلا فهمناه وعرفناه والأمر إليك .

فقالت : الصواب أنكم تحقنون دماءكم ، وتصونون حريمكم وأموالكم وتدخلون فيما

دخل فيه أهل البلاد وتصالحون العرب فتأمنون على أنفسكم وتعيشون فى ظلهم . فقالوا هذا هو الصواب . قالت فلينطلق منكم رجال إلى هؤلاء العرب ويعقدوا لنا منهم صلحا .

قال : فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلا من خيارهم وعبروا الشط إلى عسكر خالد ، فلما رآهم خالد والمسلمون ، علموا أنهم من أهل الحصن فاستقبلوهم وسلموا عليهم ورحبوا بهم ومشوا معهم إلى قبة خالد ، وإذا هو جالس على التراب ووجوه أصحابه حوله وهم يكثرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بواب فسلموا عليهم فقرأ خالد ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾[1] فتقدم كبراؤهم وعلماؤهم فى دينهم ، وقالوا أيكم الأمير حتى نخاطبه ؟

فقالوا : ليس فينا أمير ولا من يلحظ أخاه بعين الذل ، لأن الإسلام شملنا والدين جمعنا ، ونحن عباد الله ، فلما سمع القوم ذلك قالوا بأجمعهم : والله ما نصركم الله علينا إلا باتباع نبيكم ، وقال خالد : كم تبذلون لنا من المال ؟ فقالوا مهما أردتم امتثلناه . فقالوا إنا لا نريد إلا ما ترضى به أهل الذمة الذين فى البلد حتى تطيب قلوبهم ومن لا يَرحم لا يُرحم ، ولقد سمعت نبينا ﷺ يقول « لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقى » قال فلما سمع القوم ذلك تهللت وجوههم فرحا وقالوا لقد نصركم الله بحق وما نرى دينكم إلا حقا ، فأسلموا عن آخرهم وعادوا إلى قومهم واجتمعوا فى كنيستهم وحدثوهم بما كان وبما رأوا من أصحاب رسول الله ﷺ وحسن سيرتهم .

فقال : أهل البلد ما كنا بالذين نرفع أنفسنا عليكم لأنكم أولو الرأى والدين ، وقد رضينا بما رضيتم به لأنفسكم فأسلموا إلا قليلا منهم ، وأما الملكة لما سمعت ذلك طاب قلبها وبعثت بالإقامة والعلوفة إلى خالد وسألته أن يعبروا إلى جانبهم ونصبت لهم الجسر ، فعبر خالد ومن معه ونزلوا بالبيعة بحيث أن الملكة تشرف عليهم وتنظر اليهم فرأت أقواما قد طلقوا الدنيا وطلبوا الآخرة ... وليس فيهم من ينهر ولا يسفه ، ولا يخالف أخاه ، قد اشتغلوا بالذكر ، وتوحشوا بالصبر ، فلما نظرت إلى حسن عبادتهم نزلت اليهم ، وأسلمت على

(١) سورة النساء : الآية : ٨٦ .

أيديهم فقال خالد تقبل الله منك ورضى عنك ، فالزمى قلعتك ، فلا سبيل لأحد عليك ، ونظر يوقنا إليها .

فقال : وددت لو كانت هذه أهلى ، فأنفذ خالد يشاورها : فأجابت إلى ذلك ، وبعث خالد إلى عياض يشاوره ، فبعث إليه الجواب بأن زوجه ولا تترك من بلاد الحصن مكانا إلا وتنزل فيه .

ذكر فتح طنز ويمهرد وأسعرد

قال : فعول على العبور إلى جانب أسعرد ويمهرد ، إذ قدم عليه أهل حصن طنز للصلح وأن يكونوا طوعا للمسلمين . فقال خالد : من أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن بقى على دينه كانت عليه الجزية من العام القابل فأجبوه إلى ذلك ، فكتب لهم عهدا وعبر إلى طنز ويمهرد وأسعرد والمعدن وأرزن ، وقرروا صلحا ورضوا به . قال وانقضت عدة صاحبة الحصن وهى جانوسة وتزوجها يوقنا ولحق خالد بعياض ، فوجده على سوقاربا وهى مدينة جالوت ، فلما وصل خالد إليه اسلم الناس بعضهم على بعض وأقاموا هناك خمسة أيام وعولوا أن يسيروا إلى بدليس وأخلاط وإذ قد جاءهم الخبر أن طاريون ابنة الملك وهى زوجة الغلام يرغون الذى فتح كفر توتا وكان من أمرها ما ذكرناه قد هربت إلى أبيها ورجعت الى دينها قال فصعب ذلك عليهم .

(قال الواقدى) حدثنى محمد بن يونس . قال حدثنى إسمعيل عن قيس قال : إن طاريون لم تتنصر ولا عادت عن الإسلام ، وإنما مضت إلى أبيها لتدبر عليه حيلة وتسلم البلد للمسلمين لأنها أرادت أن تصنع كما صنع زوجها يرغون بكفر توتا ، فاتفق رأيها ورأى زوجها على ذلك . فقال يرغون أما أنا فلا أتبعك لأننى أفزع من أبيك أن يقبض على فقالت له الزم مكانك ولبست ثيابها وعولت على المسير ، وجعلت غلمانهم فى محل خلوة وقالت لهم : اعلموا أنى قد عزمت على أمر أفعله وأنا أبوح به اليكم . قالوا : أيتها الملكة ما على العبد إلا الطاعة لمولاه ، فأوقفينا على سرك . قالت لهم : اعلموا أنى كرهت المقام بين هؤلاء العرب . وأيضا قد اشتقت إلى وطنى وعولت على أن أخرج بكم إلى الصيد فى

الجبل ، فإذا جن الليل طلبنا أرضنا ، فلما سمعوا قولها فرحوا ، وقالوا نعم الرأى .

فقالت : إنى لست أكرهكم ، فمن كان له رغبة أن يلبث ههنا وهو مائل إلى هذا الدين ، فليقم غير ملوم ، ومن أراد الرجوع إلى وطنه فليعزم معى فإنى أمضى فى هذه الليلة وحق ما أسير اليه لئن بلغنى أن أحدا منكم أفشى سرى إلى يرغون أو غيره من الناس لأضربن عنقه ، فمن كان عازما على صحبتى فليتبعنى ، فأجابوها إلى ذلك ، فلما جن الليل ودعت يرغون وخرجت ومعها اثنا عشر نفرا كانوا لا يريدون الإسلام . وكان لها بكفر توثا اثنا عشر غلاما قد رسخ الاسلام فى قلوبهم وأحبوا المسلمين .

قال : وسارت نحو الجبل ومضت إلى أن تركت أرزن خلف ظهرها وأشرفت على بدليس ، فنزل صاحبها إليها ، وقدم لها إقامة وعلوفة وأقامت هناك بقية يومها .

ذكر فتوح بدليس وأرزن وأعمالها

وكان من قضاء الله السابق وقدره أن عياضا لما نزل على سوقاريا ولحق به خالد ومن معه ولحقهم يوقنا فرح المسلمون بسلامتهم وحدثه بما جرى فسجد لله شكرا ، ثم بعث يوقنا رسولا إلى صاحب بدليس وكانت أرزن وبدليس وقف وأنظر وغيرها من القلاع لبطريق اسمه سروند بن بولص والجارية طاريون نازلة هناك وسروند عندها ، فلما علموا بقدوم يوقنا ركبوا إلى لقياه واختلت به طاريون وقالت له عم لا تظن أنى هاربة ولا إلى الروم طالبة وإنما أريد أن أنصح لله ولرسوله وللمسلمين وأريد أن أغدر بأبى وأقتله وأسلم معاقله للمسلمين ، لكن يا عم أشر على بما أصنع فأنت تعلم أن هذا الدرب لبدليس وأخلاط وعليه قلعة وأنظر وإذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذى تراه ؟ وأخاف إن حصلت عند أبى أن لا أقدر على الرجوع إلى بعلى وإلى المسلمين . فقال لها يوقنا اعلمى أنك إذا سرت بهذه النية فإن الله جل وعلا يفتح عليك أبواب الخير وأمض على ما أنت عليه وأنا لا بد لى أن أمضى برسالة الأمير عياض إلى أبيك وها أنا أبكر فإذا حصلنا هناك كان لنا من التدبير ما يريده الله ونصل إن شاء الله إلى ما نريد وعلمها ما تصنع وودعته وعادت .

فقالت : إن هذا العديم العقل يلح على ويعذلنى لأجل أن أرجع وأعود عما عزمت

عليه من الرجوع إلى دين المسيح ولولا أننى أخاف ممن معه ومن صاحب هذا الحصن أن يعينه علينا لكنت قبضت عليه ، ثم إنها ركبت وسارت تجد السير وأرسلت بعض غلمانها يبشر أباها بقدومها ، فلما وصل البشير ارتجت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد لملتقاها فلقوها عند خضريا ، فلما رأت أباها ترجلت وترجل أبوها والعسكر جميعه وصقعوا بين يديها وضمها أبوها إلى صدره .. وقال لها يا ابنتى كيف كان أمرك .

قالت : إن يرغون نصب على ووصل بى إلى عسكر المسلمين وأسلم فلم يمكننى إلا أن أطاوعه خيفة منهم إلى أن دخلوا ديار بكر فهربت إليك فصلب أبوها على وجهه وهنأها بالسلامة وركب وساروا والمواكب حولهم إلى أن دخلت البلد ودخلت دار المملكة فتلقاها الجوارى والخدم وصقعوا لها وبكوا وبكت وأخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنائس وباتت تحدثهم بما جرى لها وحديث شهرياض وكيف أخذت رأس العين.

فقال أبوها : يا بنية كيف رأيتهم فى دينهم ؟ قالت أيها الملك القوم يتظاهرون بالدين وأنهم يطلبون الدين والعدل حتى يرجع الناس إليهم ، وليس والله دين أفضل من دين المسيح وقد نذرت نذرا متى خلصت من يد العرب أن لا أقرب قربانا ولا أشرب خمرا ولا آكل لحم خنزير ولا أنغمس فى ماء المعمودية حتى أتعبد فى بيعة يوحنا شهرين كاملين فإذا أنا تطهرت من دينهم أقرب القربان وأقبل الصلبان ففرح أبوها بذلك ، فلما كان الغد مضت إلى البيعة وأخلت لها موضعا وجعلت تتصدق على الفقراء وتظهر النسك والعبادة وأقامت تنتظر ما وعدها به يوقنا من القدوم بالرسالة إلى أبيها .

(قال الواقدى) حدثنا أبو محمد قال حدثنى من أثق به عن قيس بن هبيرة . قال كنت من أصحاب يوقنا حين سار بالرسالة إلى بدليس وتحدث مع طاريون وأنفذ أحب بدليس إليه ، وكان لما بلغه قدوم يوقنا صعد إلى حصنه فاستحضره وأنا معه فوجدناه على سرير مملكته فسلمنا عليه . فقال يوقنا ان أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وهو عياض إبن غنم قد أرسلنا إليك ندعوك إلى توحيد الله ورسالة نبيه ولكم ما لنا وعليكم ما علينا واعتبر بمن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم والعز فقد أصبحوا هالكين فما جوابك ؟ . فقال

أيها السيد إنى قد كنت أردت أن أرسل رسولا إلى أميركم فى طلب الصلح وأعطيه شيئا وأن أبقى على دينى ، ومن أراد من أهل بلدى أن يرجع إلى دين القوم فلست أمنعه .

فقال يوقنا : بكَمْ يطيب قلبك أن تدفع فى صلحك على بدليس وأرزن وما تحت يدك من البلاد فإنى إذا أمضيت لك الصلح فقد رضيت به العرب .

فقال : أيها السيد أعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زردية وألف قوس وأن لا يولى على مملكتى غيرى حتى أموت وأن لا يبقى من قبلهم إلا رجل أو رجلان حتى يعلموا من أسلم شرائع الاسلام وأن يكون أمرى نافذا فى مملكتى ، ومن أسلم يكون أمره لمن يكون عندنا من قبلكم وما يكون لى عليهم حكم .

فقال يوقنا : قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك وأنا أعطيناك عهد الله ورسوله على ما ذكرته .

قال : وأعطاه عهد الله ورسوله وهادنه على الهيئة التى هادن رسول الله ﷺ هرقل ملك الروم وحلف له عن المسلمين كلهم . قال وأن قيسا ذهب إلى عياض فأعلمه بما استقر بينهم ، فلما وصل كتاب يوقنا إلى عياض رحل من مكانه إلى أن نزل على بدليس فوجد البطريق قد أخرج ما وقع عليه الصلح ، فلما قدم عياض نزل إليه البطريق وتلقاهم وحياهم بأحسن تحية وأنزلهم فى أحسن منزل وقدم لهم الأموال وكتبوا بذلك عهدا .

قال : ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب إلى البنات وحسنهن فمالت أنفسهم اليهن وشرب أكثرهم الخمر ، فلما رأى عياض ذلك صعب عليه فأمر أن يؤتوه بمن فعل ذلك فأقام عليهم الحد وأخذ منهم حق الله وقال لهم : أكفر بعد ايمان ، أبهذا أمرتم أم لهذه خلقتم ، أما سمعتم ما قال من أمره بين الكاف والنون ..

قال : فتابوا بأجمعهم ، فلما جن الليل اجتمع يوقنا بعياض وحدثه بأمر طاريون وما وافقته عليه وأنها قد وهبت نفسها لله تعالى ومضت تدبر كيف تعمل فى تسليم البلد للمسلمين وأنى وعدتها أن أسير اليها وأعينها على ذلك .

فقال عياض : إذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نطلع عليه خالدا وأصحابه .

فقال يوقنا : افعل ما فيه الصواب ، فأرسل إلى خالد ومعاذ وقيس والمسيب بن نجيبة وعمرو بن معديكرب وعبد الرحمن بن أبى بكر (رضى الله عنه) وحدثهم بالحديث وقال لهم ما ترون من الرأى .

ذكر فتح أرمينية وأخلاط وقف وأنظر

قال خالد : أصلح الله الامير .. إذا كان الامر كذلك فابعث يوقنا رسولا ونحن معه ، فإذا حصلنا هناك يفعل الله ما يريد والحاضر يرى ما لا يراه الغائب .

قال : فسيروا على بركة الله تعالى فتأهبوا وساروا وسار مع يوقنا خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا ، فلما وصلوا أخلاط ونظرت إليهم الروم والأرمن علموا أنهم رسل فأعلموا بذلك الملك وأنهم رسل من العرب ، فأمر بإحضارهم فأتتهم الحجاب إلى باب رومية وهو باب بدليس فرأوهم على خيولهم . فقالوا لهم ادخلوا فأخذوهم إلى دار الامارة وأعلموا الملك بوسطيوس بذلك فأمر باحضارهم ، فلما توسطوا الدهليز أراد الغلمان أن يأخذوا أسلحتهم .

فقال خالد : إنا قوم لا نسلم سيوفنا لغيرنا ، وأن الله بعث نبينا بالسيف وقد قلدنا إياه ولسنا نزيل ما خصنا الله ورسوله به ، فدخل الحجاب وأعلموا الملك بما قال خالد . فقال الملك دعوهم يدخلوا كيف شاءوا لئلا يظنوا أننا نخافهم وإنما ذاك ناموس الملك فدخلوا بهم فلما رآهم وسلموا عليه جلسوا على الأرض كأنهم السباع وكل منهم قد جعل يده على مقبض سيفه وقد بلغ الملك ما هم عليه من الدين والزهد فى الدنيا ، فأوصى أصحابه أن لا يأمروهم بأن يصقعوا له فإنهم لا يجيبونهم لذلك . قال فلما استقر بهم الجلوس قال لهم ترجمانه : يا هؤلاء بم أتيتم إلينا .

فقال يوقنا : إن أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس قد بعثنا إليكم رسلا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أو تدخلوا فيما دخل فيه الناس وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فأعلم الترجمان الملك بما قاله يوقنا .

حدثنا قدامة أنه لم يكن بينهم ترجمان ، وإنما كان المتكلم يوقنا بالرومية وهو لسان القوم .

(قال الراوى) حدثنى من أثق به قال : كان الترجمان بينهم لأن الملك أرمنى لا يفهم إلا بلسان الأرمن ويوقنا كان روميا لا يفهم لسانا آخر ، فلما بلغه الترجمان غضب وقال وحق المسيح والإنجيل لا نعطيهم ولا ندخل فى دينهم أو نموت عن آخرنا ولا يحسبوا أننا مثل من لاقوا من جيوش الروم ولنا الشدة والبأس والقوة والمراس ، ونحن نرمى عن الأقواس بالنشاب والعرب تسميه قاطع الشهوات والأسباب وأنا أبعث إلى صاحب خو وسلوس وأستنصر عليهم باسراغوص ملك المرج ونردهم على أعقابهم ونستخلص منهم البلاد وليس عندنا جواب غير هذا . قال فبلغهم الترجمان ما قاله .

فقال يوقنا : ليأذن لنا بالانصراف لنعلم صاحبنا بهذا الجواب فقال الملك يبتوا عندنا هذه الليلة وفى غد تنصرفون وأمر بهم أن ينزلوا فى المكان الفلانى فخرجوا من عنده إلى المكان الذى أمر به فنزلوا به ينتظرون ما يكون من الجارية طاريون قال ولما خرج الصحابة من عنده ركب من وقته إلى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وقال لها أن العرب قد وجهوا إلى رسولا ومعه جماعة وقالوا لى كذا وكذا وأجبتهم بكذا وكذا فما ترين من الرأى ؟ . فقالت أيها الملك أين هم ؟ قال عوقتهم هذه الليلة حتى أشاورك فى أمرهم . فقالت أريد أن أنظر من هم فإنه لا يخفى على أمرهم ، فإن كانوا من وجوه العرب النافذ أمرهم ، فأمرنى أن أتحدث معهم وأطيب قلبهم بأنك تصالحهم وأطمعهم بذلك ، فإذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص ، فإذا قبضت عليهم ترسل إلى صاحبهم تقول له متى تقدمت إلينا مرحلة واحدة بعثت إليك برؤوسهم فإذا سمع ذلك لا يتقدم ويقع الصلح على أن نسلم إليه أصحابه وينصرك المسيح ويطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفون عنك وما ثم رأى أوفق من هذا .

فقال لها : يا بنية المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومى إليهم ودعى هذه البيعة والزمى البيعة التى فى دارنا فانك كلما أقمت ههنا كان أخوف بنا ، وإن كان مقصودك العبادة ففى أى مكان كنت فيه فان لك معبدا ، فلما سمعت قوله قالت لست أبرح من ههنا حتى يأمرنى البترك بترك هذا المكان فأرسل الملك وراء البترك ، فلما حضر قام الملك له

وعظمه وأجلسه إلى جانبه وحدثه بقصة ابنته .

فقال البترك : قد أذنت لك أن تتعبدى حيث شئت وقد استوهبت ذنوبك مع المسيح وغفر لك . قال فصلبت وجهها ودعت له وقدموا لها بعض مراكب أبيها فركبت ومضت إلى المكان الذى فيه أصحاب رسول الله ﷺ ولم يدخل فيه سواها وأبيها الملك ، فلما رأت يوقنا فرحت واستبشرت وقالت له : أيها السيد إن أبى جاهل بكم غير عارف بقولكم وسوف أكشف له عن أموركم وحق دينى ما رأيت منكم إلا خيرا وسوف أجازيكم على ذلك ، ولولا محبة الأهل والوطن ودين المسيح ما كنت فارقتكم وخرجت هى وأبوها ومضت إلى القصر ، وقالت له : ابشر بما يسرك هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذى عليه زى الروم هذا يوقنا بطريق حلب الذى طرده المسيح عن بابه والرأى عندى أن نطلبهم عندنا إلى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث لا يقف أحد على سرنا . قال ففرح أبوها بقولها وبعث حاجبه إلى الصحابة فأتى بهم وأنزلهم بعض حجر القصر .

(قال الواقدى) وكان عمال أبيها من البطارقة والمقدمين على القلاع قد أتوا يهنئون أباها برجوعها إلى دين المسيح .

فقالت طاريون : من الصواب أن نمضى أنا وأنت الى هؤلاء العرب ونجلس عندهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا الينا وأقول لهم إنى أريد أن أشاور أهل بلدى وأرباب دولتى ، فإما أن نصالحكم ونؤدى إليكم الجزية أو نقاتلكم ونبعث إليهم طعاما مبنجا فإذا أكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ما نريد وأشير به عليك .

قال : فلما جن الليل أتت هى وأبوها عندهم وتحدثوا ساعة ومضوا ، فلما كان الغد جلس أبوها على سريره وعلمت ابنته أنه اشتغل بما هو فيه فأتت طاريون إلى الصحابة وقالت لهم : إذا جئت الليلة أنا وأبى فدونكم وإياه لا تمهلوه فقد اتفق رأيه على كذا وكذا فشكروها على فعلها ومضت عنهم ، فلما كان الليل جاءت ومعها أبوها وتقدمت كأنها تحجبه وأشارت اليهم بأن لا تعجلوا وأمهلوه فامسكوا عنه وتحدثوا ساعة وخرجا من عندهم ، فلما خلا مع ابنته قال لها أما قولك نقبض على هؤلاء العرب فليس بصواب ، وإنى أريد أن

أجمع بطارقتي وولاة أمري من الحصون والقلاع وآخذ لك عليهم عهدا أن لا يخامروا عليك أبدا وأن يطيعوك وأرسل المال والذخائر وما نخاف عليه إلى قلعة يرقبوس فإنها أمنع قلاع الارض .

(قال الواقدى) وهذه القلعة التي ذكرت في وسط بحيرة أرجيس لا سبيل لأحد عليها . قال لها واذا وليتك عليها أطلق العرب فإنه ما سبقني أحد من الملوك إلى قبض الرسل وأيضا يتحدث عني أني فزعت من العرب وقد عولت على لقائهم ، فإن نصرت عليهم فذاك هو المراد وأن نصروا على فلى أسوة بأمثالي من الملوك ، وقد أرسلت إلى الملك درفشيل صاحب أرزن الروم بأن يأتي إلى بجنوده وعدته وعدده ووعدته أن أزوجه بأختك فاروثه فما ترين من الرأى .

قالت له : أيها الملك إذا عزمت على هذا الأمر فلا تترك هؤلاء يمضون حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك درفشيل بجيشه ولا يتخلف عنك أحد وبعد ذلك اترك هؤلاء ، فإذا ساروا إلى صاحبهم فسر أنت في أثرهم بالجيوش واكبس عسكرهم .

فقال : يا بنية ليس من الرأى أن نطلقهم من أيدينا بل نبعث إلى صاحبهم نقول له إنهم مكرمون عندنا وقد رأينا أننا في يوم عيد ندبر فيه أمرنا فإما أن نصالحكم بأداء الجزية وإما أن نقاتلكم والله ينصر من يشاء ونأمرهم أن ينزلوا في مرج بطان فإنه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر ونضرب معهم مصفا ، ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الدروب فما ينجو منهم أحد ونسير إلى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولا يبقى في هذه البلاد ملك سوانا . فقالت له طاريون افعل ما تشاء وتركته وانصرفت إلى مكانها ، فلما عرفت أن أباها قد أغلق أبوابه أتت إلى الصحابة وعرفتهم بما قال أبوها . فقال خالد اللهم يسر لنا الأمر من غير تعب واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ؟ فقال يوقنا وكيف ذلك يا صاحب رسول الله .

فقال خالد : نعم نحن أمورنا بحمد الله منوطة بالنصر وقد كفانا كل أمر ، واعلموا أن هذا الرجل قد عول أن يبعث ليجمع ملوكه وجيوشهم ويحرضهم على قتالنا ، والصواب أننا نصبر حتى يجتمعوا فقالت طاريون لقد نطقت بالصواب يا صاحب رسول الله ووفقت

ولعل أن يحصلوا كلهم فى أيديكم أن شاء الله فإن أبى لا يقدر أن يولينى إلا فى البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون ويأخذ لى عليهم العهد وبعد ما يفعلون ذلك تثورون عليهم إن شاء الله ، ولعل أن يكون فى جملتهم صاحب أرزن ونرسل العبد الصالح يوقنا بزى صاحب أرزن فلعله يملكها إن شاء الله تعالى ونكون ظفرنا بالأرب وخرجت من عندهم .

(قال الواقدى) حدثنا صالح بن عمران عن عبد الرحمن بن الحسن عمن حدثه قالوا جميعا أو من قال منهم : إنه لما اتفق الرأى من الملك صاحب خلاط على ما ذكرنا وأصبح الصباح أرسل وراء صاحب أعماله وولاة الحصون أن يحضروا عنده فأتوا بأجمعهم ولم يتخلف منهم أحد وأتى درفشيل من أرزق ومعه عسكره وكان اجتماعهم فى ليالى عيدهم الكبير فزينوا البيعة وجاءت القسوس والرهبان من كل مكان ودخلوا البيعة وصلوا وقربوا القربان ، فلما فرغوا من قربانهم وصلاتهم جلس الملك على سريره وابنته واقفة عن يمنيه .

فقال للملوك والبطارقة : اعلموا أننى ما جمعتكم إلا لأمر أعرضه عليكم وفيه سداد أمركم وملككم ودينكم وقد عولت على أننى أولى أمركم الملكة طاريون فانها كما علمتم من أصحاب العقل والرأى والتدبير فى الحرب والشجاعة والبراعة فإن قضى على فإنها تكون مالكة فما تقولون فقاموا بأجمعهم وصقعوا له وقالوا نعم الرأى الذى رأيته أيها الملك فانجز أمرك فعندها وثب قائما وأزال التاج عن رأسه ووضعه على رأس طاريون وأمسك بيدها وأجلسها على السرير ووقف عن يمنيها كأنه حاجب ووقف صاحب أرزن عن يسارها وصعقت لها الملوك وبايعوها وتقدمت القسوس والرهبان وأخذوا لها عليهم العهد والميثاق وأجابوا بالسمع والطاعة وبعدها زوجوا أخت طاريون بولد صاحب أرزن وخرجوا من البيعة فى خدمة طاريون إلى قصر الملك وأكلوا السماط وخلعت عليهم وزينت المدينة وضربوا خيامهم بظاهر البلد وعولوا على قتال المسلمين .

(قال الواقدى) حدثنى إسرائيل بن اسحق عن أبى الأحوص . قال بلغنى أن عياض

ابن غنم لما وجه خالدا إلى مدينة أرمينية وهى أخلاط واستبطأهم ساءت به الظنون فيهم فارتحل من بدليس إلى أرض أرزن ونزل بالمرج ووجه عيونه إلى خلاط فغابوا عنه أياما وعادوا إليه وأخبروه أن الملك قد ولى ابنته طاريون على المملكة وقد عقد لها التاج على رأسها وبايعها الملوك وزينوا المملكة من أجل ذلك وقدم صاحب أرزن الروم وزوّج أخت الملكة لابنه وأن القوم قد عولوا على لقائكم ، فلما سمع عياض ذلك قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم غدروا بأصحابنا .

فقال المسلمون : كيف ذلك يا صاحب رسول الله ؟ قال لأن أصحابنا مضوا لأمر يرومونه وقد وفد عليهم . فقالوا ثق بالله وتوكل عليه وأقام عياض على المرج عشرة أيام وحصل له مرض على أمر الصحابة فأتته الناس يعودونه . فقال إذا أراد الله بعبده خيرا زاره الناس .

(قال الواقدى) وعوفى عياض ، فبينما هو قد ركب مع وجوه الصحابة وهم يسيرون وقلبه مشغول من قبل خالد ومن معه ، وإذ قد أتاه سعيد بن زيد وهو ينادى : الوحا الوحا العجل العجل فأسرع إليه عياض وقال ما بك يا ابن زيد يرحمك الله ؟ .

فقال : الحق خالدا ومن معه فقد وقعوا فى بحر اللجاج وهم فى وسطه ، فلما سمع عياض ذلك قال وكيف ؟ قال إن طاريون لما ولاها أبوها الملك وجعل العهد لها ظفرت بأبيها فقتلته وبعثت وراء الملوك على لسان أبيها ، فلما جاءوا إليها قتلتهم وإن بعض غلمانها اطلع على سرها فمضى إلى بقية البطارقة والولاة فأخبرهم بما صنعت فلبسوا السلاح وقعدوا على أهبة ، فلما كان بالأمس ركبت هى فى جيش أبيها إلى الميدان وركبنا نحن لركوبها فما علمنا إلا والقوم قد بقوا علينا وقالوا لنا أظننتم أن المسيح غفل عن أمركم وأنه لا يؤاخذكم بذنوبكم ، وقد أمكن الصليب منكم وهموا بأخذنا فقاتلناهم قتالا شديدا ما سمع أحد بمثله وملأنا الأرض من قتلاهم ، فلما جن الليل وضعت الحرب أوزارها وانفصل الجيش مع صاحب أرزن الروم وبقى مع الجارية نفر يسير من غلمانها وغلمان أبيها فأفاضت عليهم الخلع والنعم وبعثت إلى الأرمن تقول لهم : إنما فعلت ذلك شفقة عليكم

وصونا لحريمكم لأنهم أرادوا أن يقبضوا على هؤلاء العرب ويقتلوهم فكان أصحابهم لا يتركون منكم مخبرا ، فلما بلغهم ذلك . قال العقلاء منهم : والله لقد فعلت، معنا كل خير وأجابها من القوم خمسة آلاف رجل وأني تركت المصف وجئت إليكم مستنفرا ، فلما سمع عياض كلام سعيد أمر الناس بالرحيل وسار سيرا خفيفا وخببا إلى أن أشرفوا عليهم وإذا بالحرب قد قامت على ساقها فكبر عياض ومن معه فارتجت منهم تلك الأرض والجبال وحملوا وكان خالد وأصحابه قد أرضوا الله بقتالهم فقاتلوا قتالا ما سمع على وجه الأرض بمثله ولم يزالوا كذلك حتى انقشع الغبار وانفصل القتار ، وافتقدوا من قتل فوجدوا من قتل من بادية الأعراب مائة وعشرين رجلا ، وافتقد معاذ بن جبل ولده فلم يجده ، فلما جن الليل دخل ومعه رجال من المسلمين إلى المعمعة فوجدوه يجود بنفسه وقد ناله جراحات فحملوه إلى رحله وجلس أبوه عند رأسه .

فقال عبد الرحمن بن غنم أخو عياض : لما رأيته يجود بنفسه بكيت وانتحبت . فقال له مه وهذه لغزوة أحب إلى من كل غزوة غزوتها مع رسول الله ﷺ .

ثم قال له : يا بنى ستلقى ربك ، وكان لما أذن المؤذن للظهر فما انصرف العسكر من صلاتهم إلا وقد كفنه فى دراعته ، وهو متضمخ بدمائه ، فجاءه الناس فوجدوه قد دفنه ، فقالوا له يرحمك الله هلا كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته . قال : ليس ذلك من السنة ، وأن ذلك فعل الجاهلية ، وقد كنا نشتهى أن نبطىء بموتانا ولكنا أمرنا بإنجاز موتانا ، فلما دفنه فى القبر ورجع إلى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس برديه وأتى إلى خيمة عياض وهو يكثر من الابتسام والتكبير ، وليس به إلا ما يسليه عن ذلك ، وقال هنيئا لك يا ولدى.

فقال له عبد الرحمن : وماذا ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات له ابن وكان به ضنينا ، وكان عليه عزيزا فحسن عليه عزاؤه ولم يرمنه شيء فى قضاء الله إلا غفر له وللميت وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوجه الله من الحور العين » ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد وإذا بخيل قد أتت عليها فرسان بغير سلاح ، فلما قربوا منهم ترجلوا وقصدوا الأمير فابتدر إليهم يوقنا وقال لهم من أنتم ؟ قالوا نحن

أصحاب أرزن الروم وهذا مقدمنا ، وأشاروا إلى شيخ منهم حسن الشيبة فراطنه يوقنا .

فقال : إن الله دلنى عليكم وبت الليلة على نية القتال فرأيت المسيح ابن مريم فى النوم وهو يأمرنى باتباع محمد ، وقال لى إن نبى هؤلاء العرب هو الذى بشرت به فمن عدل عنه فليس منى ، فلما سمع يوقنا قوله ترجل هو وجميع من كان معه ومشوا معه إلى عياض وحدثه بجميع ما جرى فقام له وصافحه هو والمسلمون وحدث عياضا وحدثه يوقنا ، ثم أسلم هو ومن معه ففرحت بذلك الجارية طايون وسلمت إليه أختها ، وسار بها إلى أرزن الروم وأرسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا أرزن الروم إلى الإسلام ويعلموهم شرائع الدين.

(قال الواقدى) وهم رواحة بن عبد الله وسلامة بن عدى والمرقال بن الأكوع وابن خويلد وجرير بن صاعد ، وعبدالله بن صبرة ، وسهل بن سعد ومصعب بن ثابت ، وحازم ابن معمر وأبو نمير بن بشار . قال وودع درفشيل أصحاب رسول الله ﷺ وارتحل والعشرة معه حتى وصل أرزن الروم ففرح أهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم ، فلما استقر الملك فى مجلسه طلب أكابر الناس وحدثهم بما رآه وعرض عليهم الإسلام فأسلم أكثرهم ، وأقبل العشرة يعلمونهم شرائع الاسلام والقرآن قال وسلم القلاع والحصون التى كانت لأخلاط المسلمين ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على أداء الجزية من عامهم الآتى وبعث عياض إلى خوى وسواس وما يلى لك الأرض فأسلم خالد بجيش الزحف فجعلهم ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع فأخذها بالسيف ونظر إلى نينوى فإذا هى مدينة قد أخذت السهل والجبل فقال ما هذه ؟ فقيل هذه نينوى ، فقال لعلها مدينة يونس بن متى عليه السلام .

(قال الواقدى) وكان ملكها يومئذ الملك أنطاق فكاتبه عياض فأبى فانفذ إليه الجزيرى صالح . فقال لئن لم تجب هؤلاء إلى ما أرادوه وإلا أذقتك شرا ولا أترك لك عيشا فكتب إليه يقول : إنى أصالحهم إلى ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمر كسرى ، فإن فتحوا بلده دخلت فى طاعتهم . قال وكان هو من تحت يد كسرى فأجابه المسلمون إلى ذلك وصالحوه على موجها ومرجها وكتب عياض إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بما فتح الله عليهم فكتب إليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عياض بن غنم الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أما بعد سلام الله عليك ورحمته وبركاته فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ فالحمد لله الذى أيد الإسلام بنصره وأدحض الشرك بقهره ، ولله الحمد على ما أولى ومنح وأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم ، وأخذ من غنائم حمدا يزيد الآمال انفساحا ، والصدور انشراحا ، وقد لانت الشدة صلابتها ورقت الأيام بعد قساوتها ويسر الله تعالى أمرها ، وقد أوردت الأعداء موارد المهالك ، وضيقت عليهم المسالك فارتبكوا فى زقاقهم ، واشتركوا فى وثاقهم ، ولم يجدوا فى الأرض نفقا ولا فى السماء مرتقى واشتد بهم الفرق وأزعجهم القلق وأنهم احتالوا وخايلوا وداهنوا وأرسلوا وأظهروا البعد عن الآثام والدخول إلى الإسلام والتنزه من الظلم ، والجنوح إلى السلم فأقررناهم على ذلك بعد أن أشرفوا على المهالك ، فمنهم من أسلم وبايع ، ومنهم من أقام تحت الذمة وتابع ، وقد نشر الله أعلامنا ، وأعز ديننا ، وقهر عدونا ، وشد سيوفنا ، وأعلى كلمتنا ، وأظهر شريعتنا ، وقد صرف الله سورتهم ، وأخمد نارهم ، وأزال نصرتهم ، وكفى البلاد والعباد مؤنتهم ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته وبعث خمس ما تحصل من ديار بكر مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ وضم إلى عياضا من العراق عامر بن مزينة رسولا من عند سعد بن أبى وقاص يستنجد عياضا على كسرى فأنفذ له نجدة ثم فتح الله العراق على يد سعد ، وما جرى له من الحروب والوقائع ذكر من أمره ما كان والله الموفق .

ذكر فتوح العراق

قال حدثنا عبدالله بن محمد . قال أخبرنا عبدالله بن جابر .

(قال الواقدى) أخبرنى من أثق به ، قال لما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص بالجيوش مع ابن ميسرة العبسى ، وكان يومئذ ملك العرب بعد أياس بن قبيصة النعمان بن المنذر الملك من قبل كسرى بن أزدشير فكتبا يعلمانه

أن جيوش المسلمين قد أقبلت من المدينة ، وقد وجهها عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليك . وقد عول على أخذ العراق فاستيقظ أيها الملك من غفلتك وانظر فى مصالح دولتك واعلم أن هذا الزمان هو الذى كنا نسمع به ولا نصدق ، ونكذب به ولا نحقق ، ولا نظن أن أحدا يجسر علينا ولا يصل بجيشه إلينا حتى جاء الوقت المقدور وولى المدينة عمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الملوك بشر صبوح ، فقم على قدم الهمم وسر إلى أعدائك وتقدم، وقد أعلمناك لتكون على بصيرة من الأمر ، وإياك أن تهمل الأمر فرب صغير أمر عادا كبيرا ويسيرا عاد عسيرا والحرب أوله شرر وآخره نار تسعر والسلام ، قال وبعثا الكتاب مع نجاب ، فلما وصل به إلى كسرى وقرئ عليه انتفض لذلك واهتز على سريره وأحضر الأساورة والموابذة والديلم والسهارجة وقرأ عليهم كتاب الملوك .

وقال لهم : ما ترون فى هذا الأمر الذى قد وقفنا عليه وأشرفنا من زماننا عليه ؟ ، واعلموا أن هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد فهم ينظرون لهم مواضع يسكنون إليها وينزلون فيها ، وقد أذاقوا الروم شرا وأنزلوا بهم ضرا وملكوا المدائن واحتوا على الخزائن .

وكانت الروم قد اجتمعوا على بكرة أبيهم وما كان منهم أحد إلا أتى الشام وتلاقوا فى الحرب بمكان يقال له اليرموك وهذه شرذمة من العرب قد سرحوا بلادكم . وقد عولوا على أن ينزعوا الملك من أيديكم ولا ينفعكم إلا أن تكشفوا عن ساق العزم ، وتتشحوا بوشاح الحزم وتذبوا عن أهليكم وأموالكم وأولادكم وحريمكم وبلادكم ، واعلموا أن العرب لهم الطمع ، وقد دخل فى قلوبهم أن يملكوا بلادكم وحصونكم ، متى رأوكم ناكلين عن قتالهم فشلين عن نوالهم مالوا عليكم ميلة الأسود على فرائسها فاحسموا موادهم من أول يوم ، وقد قيل فى الأمثال : من نظر فى العواقب أمن غائلة النوائب ، ثم إنه فتح خزائن الأموال والخلع وخلع على الهرمزان وقدمه على خمسين ألفا ، وخلع على عطارد بن مهرود ، وقدمه على عشرين ألفا وخلع على قارين بن همام وقدمه على عشرين ألفا وأمرهم أن يضربوا خيامهم بأرض زرندان ففعلوا ذلك ، وكتب من وقته إلى خراسان وما وراء النهر يستفزهم ومن معهم من الأجناد على قتال أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما وصلت

الكتب إليهم أقبلوا يهرعون إلى العراق كالجراد المنتشر ، وكان فى جملة القوم شهريار بن كباد والفرحان الأهوازى والهزيل بن جسوم جاسر الهمذانى ومعهم أربعون فيلا ووفد الجانيوس بن قتاد .

(قال الراوى) فلما اجتمعت الجيوش خرج كسرى يحضرهم بأرض شهرطاق وفاشة ، وكان رأس جيشه مهرمان فعرض الجيوش . فإذا هى مائة ألف وخمسون ألفا غير الأتباع وقدم الديلم والعجم وأمامهم الفيلة وعقدوا على ظهورها الأسرة بثياب الديباج ، وعلى كل سرير أربعون رجلا مقاتلة ، وهم يضربون بالطبول والصنوج فى خراطيمها أعنى الفيلة بالسيوف ليقاتلوا بها ، وكان فيها فيل أعور كأنه الجبل العظيم وكان هو المقدم على الفيلة حيثما سار سارت وراءه ، إن وقف وقفت ، وقد ربط وراء الفيلة عجل يحمل بيوت السلام والأموال ، فلما عولوا على المسير عاد الملك أزدشير إلى من ذكر من المقدمين .

وقال : اعلموا يا أهل فارس أنكم ما زلتم ملوكا وهيبتكم فى قلوب الترك والديلم والروم والجرامقة وذلك لما كنتم عادلين فى الرعية فادفعوا هؤلاء بالمال . فإن أبوا فدونكم والسيف فوعدوه وساروا .

ذكر فتوح الخورنق وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية

(قال الواقدى) حدثنا الحسن بن اسحق . قال أخبرنا سليمان بن عامر . قال بلغنى أن سعد بن أبى وقاص قدم العراق فى ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب وما منهم من قدم العراق إلا بأهله وولده وما قدم أحد من ملوك الفرس إلا بماله كله حتى يقاتلوا بجد وعزم وبذلك وصاهم الملك كسرى .

قال : وإن سعدا ارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء وكان هناك جيش النعمان بن المنذر وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها ، وقد أضاف إليه جميع العرب وهم من العراق فى ثمانين ألفا وقد أفاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل وقال لهم إن هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شىء من جنسه ، وهؤلاء ،

مثلنا وليس لهم فضل علينا وقد جعلنا الأكاسرة مقدمى دولتهم حتى نكون لهم ركنا وعلى أعدائهم عونا وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا لكن نحن لنا الفخر عليهم وهم يزعمون أن الله بعث فيهم نبيا وأنزل عليهم كتابا يقال له القرآن ، ونحن لنا الإنجيل وعيسى ابن مريم وجميع الحواريين ،ولنا المذبح ، ولنا القسوس والناقوس والرهبان والشمامسة وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم . قال : فبينما هو يقول ذلك إذ جاءه عمه إلياس وهو صاحب الحرس .

فقال له : أيها الملك إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولا ، فقال ائتنى به فأحضره وكان الرسول سعد بن أبى القارى ،فلما وقف بين يدى النعمان صاح به الحجاب والغلمان قبل الأرض للملك فلم يلتفت إليهم . وقال إن الله أمرنا أن لا يسجد بعضنا لبعض ، ولعمرى إن هذه كانت العادة المعروفة فى الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ، فلما بعث جعل تحيته السلام ، وكذا كانت الأنبياء من قبله ، وأما السلام فهو من أسماء الله تعالى ، وأما تحيتكم هذه فهى تحية جبابرة الملوك . فقال النعمان لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجل منكم لأنكم توحدون فى دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون لده عيسى بن مريم .

فقال سعد : أخبرنى عن ابن مريم أكانت القدرة فيه حالة أم ربانية وجرى بينهم كلام كثير . قال فأعجب النعمان كلام سعد . وقال له يا ويح قومك ما الذى جئت به . فقال إن الأمير سعد بن أبى وقاص وجهنى إليك إذ أنت من العرب ويصل إلينا ما نقص عليك وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يبعونها ونحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ولكم مالنا وعليكم ما علينا ، فإن أبيتم فأدوا الجزية ، فإن أبيتم إلى ما دعوناكم إليه فائذنوا بحرب من الله ورسوله . فلما سمع النعمان كلام سعد ضحك استهزاء بقوله .

وقال : لقد حدثتكم أنفسكم بالأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم لا وحق المسيح ،

بل هؤلاء أثبت جنانا ، وأشد طعانا ، وأوسع ميدانا ، فليت شعرى من نفخ فى معاطسكم وحسن الأمل فى أنفسكم تزيلونه من قلوبكم . فقال سعد بن عبيد يا نعمان لقد تشدقت بالباطل ، وتفوهت بكلام غير عاقل ، أما علمت أن العاقبة للمتقين ، والله بكرمه يرفع عنا الباس ، ويظفرنا بجيمع الناس ، وقال نبيه ﷺ « ستفتح على أمتى كنوز كسرى وقيصر » .

فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا وقد بقيت كنوز صاحبك . فقال النعمان من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه ، وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ ؟ . فقال سعد بصره الله بالعلم فى القدم وعلم ما كتب فى اللوح المحفوظ بالقلم . فلما سمع النعمان كلام سعد .

قال له : يا ويح قومك ارجع إلى قومك فليس عندنا جواب إلا السيف . قال فركب سعد وعاد فوجدهم قد نزلوا بالقرب منه فحدث سعدا بما جرى له مع النعمان بن المنذر وما كان من جوابه ، وجعل الأمير سعد بن أبى وقاص ينشد :

سأحمل فيهم حملة عربية ... ولا أنثنى والله عنهم بعسكرى

فإما نرى النعمان فى القيد موثقا ... وإما طريحا فى الدماء المعفر

ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا وساروا إلى أن أشرفوا على جيش النعمان . قال فلما رأوا جيوش سعد أمر الناس بالركوب فتبادت العرب إلى خيولهم فركبتها وجنبت الجنائب وضربت الكاسات وتبادرت الأبطال ونشرت الأعلام ، فلما وصل سعد رضى الله عنه ولقى القوم قد أخذوا أهبتهم رتب جيشه وصفهم وألفهم ، وجعل فى الميمنة سعد بن عبيد القارئ وفى الميسرة سعد العشية وفى الجناح الأيمن سعد بن نجيبة وعلى الجناح الأيسر سعد بن الأقيس الهلالى وأقام الأمير سعد فى القلب ومعه أبو محجن الثقى وزهرة بن جويرية وشرحبيل بن كعب .

(قال الواقدى) حدثنا أحمد بن عامر . قال أخبرنا على بن مسهر عن أبان عن الحسن . قال لما استوت الصفوف وترتبت كل قبيلة جعل الأمير سعد يتخلل الصفوف ويعظ من فيها من عرب بجيلة وطئ وبنى هلال والنخع وغيرهم ، ويقول هذا يوم لا نرى

بعده مثله أما بلغكم ما فعل إخوانكم بالشام لما تكاثرت عليهم جموع اللئام فاستيقظ المسلمون بقول سعد .

وقالوا : نحن نحمل عليهم بشدة العزائم ولعل الله أن ينصرنا عليهم فصاحوا بخيولهم فخرجت كالرياح العواصف ولم يزالوا فى القتال الشديد إلى أن توسطت الشمس فى قبة الفلك ، وقد ثبتت أصحاب النعمان بن المنذر للضرب والطعان .

(قال الواقدى) وأن القعقاع بن عمرو التميمى أو بشر بن ربيعة التميمى أحدهما التقى مع النعمان فى كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها وعلى الكتيبة فمزقها ورمى النعمان بطعنة فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره.

فلما نظرت جيوش الفرس فرت وغنم المسلمون رحالهم وأموالهم وباتوا فرحين وافتقدوا من قتل من المسلمين فكانوا خمسمائة وثلاثين غالبهم من أهل نخع وقد ختم الله لهم بالشهادة وفى ذلك . قالت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط ترثى من قتل من المسلمين:

فيا عين جودى بالدموع السواجم ... فقد شرعت فينا سيوف الأعاجم

فكم من حسام فى الحروب وذابل ... وطرف كميت اللون صافى الدعائم

حزنا على سعد وعمرو ومالك ... وسعد مبيد الجيش مثل الغمائم

هم فتية غر الوجوه أعزة ... ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

قال وان المسلمين جمعوا الأموال واحتوى سعد على قصر الخورنق والسدير ، وترك جميع ما أخذه بالحيرة ، وترك عنده سالم بن نعيم بن مسروق وترك عنده مائة من أبناء المهاجرين والأنصار . قال وأما من انهزم من جموع النعمان بن المنذر فوردوا على القادسية وعليها جنود الفرس مع رستم زاده بن اسفنديار ومعه شهريار بن كنار ، والهذيل بن جشوم، وحشرسوم الهمذانى الجناتيوس بن فتاك وشماهير بن حسوسا .

قال : فلما رأوا المنهزمين من جيش النعمان ملك العرب ، سألوهم عن أمرهم ، فأخبروهم بقتل النعمان وأخذ الحيرة وقصر الخورنق والسدير وجميع ما فيها . قال فوقع

التشويش فى عسكر الفرس وتمكن الخوف من قلوبهم وكثرت الأراجيف ، وأما رستم فإنه جمع الملوك والأساورة وملوك الديلم فى خيمته وقام على سريره خطيبا . فقال : اعلموا أن الدولة بالسياسة والناموس بالرياسة ، وكأنكم بالعرب وقد أشرفوا عليكم فاخرجوا واذهبوا إليهم واركبوا ، فخرجوا من عنده وأخذوا أهبة الحرب ، فبينما هم كذلك إذا بعسكر سعد قد أشرف عليهم وهم على الخيل المضمرة العربية وعليها الفرسان الإسلامية والطائفة المحمدية ، فرتبوا الصفوف وجعل رستم ملوك الفرس عن يمينه ، وملوك الديلم عن يساره ، ووقف رستم فى القلب ودارت به الأساورة ..

فبينما هم كذلك إذ بعث الأمير سعد رسولا إلى رستم وكان الرسول أبا موسى الأشعرى ، فقصد القلب ، فلما رآه الحجاب أتوا إليه والترجمان معهم فقالوا له : يا عربى ما الذى تريد ؟ قال أنا رسول من عند صاحب الجيش ، فبلغوا رستم ما قاله أبو موسى الأشعرى.

فقال : قولوا له مالك وصول إلى المقدم ولكن أفصح لنا عما تريد حتى نأتيك بجوابه. قال فبلغه الترجمان ما قاله ، فقال أبو موسى قل له ندعوكم إلى الشهادة فإن أبيتم الإسلام فأدوا الجزية فإن أبيتم فالسيف أصدق شاهد ، وقد قال الله فى كتابه العزيز ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ (1) فبلغهم الترجمان ذلك ، ورجع أبو موسى إلى سعد ، فلما جن الليل هرب من عسكر رستم جماعة والتجئوا إلى عسكر المسلمين ، فلما أصبح رستم بلغه أن جماعة من عسكره هربوا إلى عسكر المسلمين ، فبعث رسولا إلى سعد يطلب منه أن يرد عليه الذى هرب من الأساورة والمرازبة .

فقال سعد : إنا قوم لا نضيع ذمامنا ولا ننقض عهدنا ، وقد أتوا الينا مستسلمين وفى صحبتنا راغبين فيجب علينا أن نذب عنهم ولا نمكن أحدا منهم ، فعاد الرسول إلى رستم وأعاد عليه الجواب ، فغضب وأمر الجيوش بالزحف . قال وكان الذى هرب إلى جيش سعد شاور بن سليم ونسليك بن أكتم وضرار بن مكتال ومن تبعهم ، فلما رأوا العساكر قد أقبلت تريد المسلمين .

---

(1) سورة الروم : الآية : ٤٧ : مكية .

قال القعقاع : أيها الأمير قد تقدمت الأعداء والفيلة أمامهم ، ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها وصياحها . فقل سعد أخلصوا النيات وأرضوا خالق الأرض والسموات ، وأرشقوا الفيلة بالنبل واقطعوا مشافرها بالسيوف . قال وكان أمام الفيلة فيل عظيم كأنه جبل وكان إذا سار سارت وإذا وقف وقفت ، وأينما توجه كانت وراءه .

قال : فلما حملت الكتائب واضطربت المواكب ، وجاءت الفيلة كأنها جبال وعلى ظهورها الأبطال ، وقد أقبلت بالسيوف ، فرفع سعد بن أبي وقاص كفيه مبتهلا بالدعاء لرب الأرض والسماء وقال : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ (١) قال زهرة بن جويرية : فوالله لقد رأيت سعدا يدعو وعيني مع الفيلة ، وإذا بالفيل الأعور قد ولى يريد المدائن والفيلة بأجمعها ، والرجال لا يقدرون على ردها وهي سائرة على وجوهها ، وكفى الله المؤمنين القتال من الفيلة . قال فلما ولت الفيلة ، غضب رستم وأقبل بعموده الذى من الذهب يضرب به وجوه الفيلة ويطمطم بفارسيته ويحرض قومه على القتال وهم يحملون خوفا منه وهو يطلب من هرب من جيشه ، والخيل أمامه منهزمة والمسلمون لا يتبعون المنهزمين وأوقفوهم مواقفهم ، وقد طابت قلوبهم بمعاملة الله ، فطعنوا فى صدور الاعداء وقد أطلع الحق على قلوبهم ، فما وجد فيها غيره ، فبينما الأمير سعد يحرض على القتال إذ لقيه الأسود العنسي وهو طائش العقل ذاهل اللب . فقال له ما وراءك يا ابن قيس ؟ فقال أيها الأمير إياك أن تعبر هذا الصف ، فإن فيه الموت الأحمر والضيغم القسور ، وهو جبار من الفرس ، وقد قتل من المسلمين أربعة ، ولقد قاتلته حتى كاد أن يأتي على ولولا أن منّ الله علي بخالد بن جعفر بن قرط لكان قتلنى ، لأن فيه شجاعة وبراعة .

فقال سعد : يا مسكين وأين المفر من المقدور وقد قدر الله الأقدار ، أما سمعت قول الملك الجبار ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ (٢) ودخل

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٥٠ : مدنية .

(٢) سورة النساء : الآية : ٨٣ : مدنية .

الصف الذى ذكره الأسود ، وإذ قد لقيه خالد بن جعفر ، ولونه قد تغير ، فقال له ما وراءك يا ابن جعفر ؟ فقال الثعبان الأغبر ، والأسد الغضنفر ، أيها الأمير ارجع عن هذا الفارس ، فإنه علج عنيد ، وفى يده عمود من الذهب ، يورث به خصمه العطب ، وقد قتل الأقران ، وأباد الشجعان ، وقد كاد أن يقضى عليّ لولا سعد العشيرة أدركنىَ لكان أهلكنى ، فلما سمع سعد ذلك عظم عليه ، وقصد مكانه يريد أن يفدى الناس بنفسه وبروحه ، ويبدد فى سبيل الله مهجته ، وهو يخترق الصفوف فلقى سعد العشيرة ، فقال له : ما وراءك يا ابن لؤى ؟ قال ورائى جبار لا يقابل وبطل لا ينازل ، ولولا بشر بن ربيعة لسقانى من عموده كأس القطيعة ، فلما سمع قوله قصد نحوه ، فوجد بشرا مصفر اللون ، فقال له : ما وراءك يا ابن ربيعة ؟ فقال ما قصر القعقاع أنى لولاه لكنت من الهول على غرر ، فسار سعد على طريق بشر وقد سلك سبيل توفيقه فلقى القعقاع وهو يفرق الكتائب ويصدم المواكب . فقال له : لله درّك يا ابن عمرو أين فارس الفرس وكيف خلص من يدك ، فقال أيها الأمير لولا أنه دخل الصفوف لسقيته كأس الحتوف ، وغاص من وسط الخيل ولم أبلغ منه النيل.

(قال الواقدى) ولم يزل القتال بين المسلمين والكفار ، إلى أن فرق الليل بينهم فرجعت كل طائفة إلى مكانها ،فلما رجع رستم إلى سرادقه بعث غلمانه إلى مقدمى عسكره فحضروا . فقال لهم : لقد خذلتم ونزل بكم العار والبوار ، فما الذى خذلكم وأى شىء شغلكم ونزل بكم وأنتم أولو البأس الشديد والأمر العتيد ، وهؤلاء قوم كنا لا نعبأ بهم ولا تحدثنا أنفسنا عنهم بأمر ، وقد خذلوا فرسانكم وأوردوهم موارد الهلاك قتلوا منكم الصناديد ، فبأى وجه ترجعون إلى المدائن وبم تحتجون عند الملك أزدشير ، وإنى أرى دولتكم قد انصرمت ، وأيامكم قد انقضت . فقالوا أيها السيد : لقد بلينا بقوم لا يرهبون الموت ، ولا يجزعون من الفوت ، وكلما طعنا صدورهم تقدموا ، وكلما قللنا جموعهم صدموا .

فقال رستم : ما أرى من الرأى إلا أننا فى نصف الليل نكبسهم فلعلنا نظفر بهم ويكون لنا عند الملك اليد البيضاء فاستصوبوا رأيه وافترقوا لأجل أن يصلحوا شأنهم .

(قال الواقدى) حدثنا عامر بن سويد . قال لما رجعنا من قتال العدو إلى خيمة سعد رأيناه جالسا على التراب ، فلما رآنا قال مرحبا بقوم هجروا الدنيا وطلبوا العقبى كيف كان يومكم قلنا لقد شفينا نفوسنا من الأعداء ونصرنا شرع نبينا المصطفى ، ولقد رميت منا رجال كثيرة من المسلسلة بنشابهم . فقال سعد اجمعوا إلى العسكر جميعه وأمروا غلمانكم يجمعوا الشيح والقيصوم فإني أريد أمرا أرجو لكم به النجاة من الله قال ففعل القوم ذلك . فقال للموالى اجعلوا ما جئتم به من الشيح والقيسوم على ظهور الإبل ووجهوها نحو المسلسلة فإذا اقربتم منها فاشعلوا النار فى ظهور الإبل والذعوها بأسنة الرماح حتى تدوسهم، ونحن من ورائكم بسيوفنا .

قال ففعلوا ذلك ، فلما أتى الليل تقدموا أمام العسكر بالأموال والموالى من ورائهم إلى أن قربوا من المسلسلة وأطلقوا النار فى الشيح ولذعوها بالأسنة ، فلما رأت الجمال ما على ظهورها من النار وما حل بها من الأسنة داست صفوف المسلسلة دوس الحصيد وحطمتها على وجه الصعيد وركب الأمير سعد مع الجيش ووضعوا السيف فيمن بقى من المسلسلة فبينما هم كذلك وإذا بعساكر الفرس قد أتوا وارتفع الضجيج ، وعلا العجيج ، وسميت تلك الليلة بليلة الهديرة ولم يزالوا فى القتال إلى الصباح .

قال : وسمعت قائلا يقول كفيناكهم ، فقلت من أنتم ؟ . فقالوا نحن من خزيمة النخع ، ولم يزالوا يقاتلون حتى ما بقى منهم أحد ولا بقى لهم نسل ، فلما طلعت الشمس ركب رستم بن اسفنديار وركب جيشه عن آخرهم ووقفوا بأجمعهم فاستقبلهم الموحدون وسعد يتخلل الصفوف ويعظهم ويوصيهم : أى الأمراء ، وكان فى الليل قد طاف على العسكر فرأى أبا محجن الثقى يشرب الخمر ، وقال له : يا عدو نفسه لقد محوت أجر جهادك وعبادتك والله لآخذن منك حق الله وجلده الحد وقيده .

(قال الواقدى) أخبرنا يوسف بن عمر قال الأسدى عن طلحة ومحمد قالوا إن أول من فتح الحرب رستم وطلب البراز فخرج إليه نجيبة فقتله فخرج زهير فقتله فأراد القعقاع أن يخرج وإذا بفارس قد أقبل إلى رستم وهو كالريح فى هبوبها فصاح برستم صيحة أدهشته وطعنه فى خاصرته فأطلع السنان من الخاصرة الأخرى فنظر إليه سعد فإذا هو أبو محجن وقد

صنع ذلك برستم . قال المتوكل عليه : سألتك بالله أن تتركه .

(قال الواقدى) حدثنا يوسف بن عبد الأعلى قال حدثنا عمر بن إبراهيم عن عبد الله بن المبارك قال لما نزل سعد بن أبي وقاص على القادسية وقاتل عسكر الفرس وانهزمت الفيلة إلى المدائن ، وكان سعد رضى الله عنه يتنكر فى الليل ويمشى فى عسكره فمر فى بعض الليالى برجال من ثقيف فوجد أبا محجن وهو يشرب ويترنم على خمرته ، فلما رآه غضب وقال له لقد ذهب أجرك ونقص قدرك بعد جهادك للكافرين تتعرض لغضب رب العالمين ، أترضى لنفسك بذلك ثم أنه حده وقيده وجعل عليه من يحفظه ، فلما كان من الغد ووقع الزحف وبرز فارس العجم وكان منه ما ذكرناه عاد إلى القيد ، فلما قتل رستم بمشاهدة الناس أتى إليه سعد ليعلم حقيقة الأمر فوجده فى القيد . فقال له يا أبا محجن أنت صاحب الفضيلة .

فقال : الفضل لله ولرسوله فأقسم عليه فحدثه بحديثه . فقال له إذا كان هذا صنيعك فاذهب فقد عفوت عنك ومن عاد فينتقم الله منه . فقال أبو محجن : والله ما عدت أشربها أبدا وتاب .

(قال الواقدى) حدثنا زائدة عن جده مروان بن أوس . قال كنت بالقادسية ، وشهدت فتحها لما قتل رستم وولده عجزشير وولت الفرس على عقبهم لا يلتفت أحد منهم إلى ما وراءه من الأموال والأصحاب وما لهم قصد إلا السلامة لأنفسهم ، وأتى نساء المسلمين ومعهن الماء فدرن بين القتلى والجرحى فمن وجدنه من المسلمين فيه الرمق سقينه الماء ونضحن على وجهه وينقلن من قتل من العرب إلى العرب ويتركن رم الفرس .

(قال الواقدى) حدثنا سليمان بن بشر عن أم كثير امرأة همام بن الحرث قالت شهدت القادسية مع سعد ، فلما نزل النصر وانهزمت الفرس شددنا ثيابنا وأخذنا الماء وابتغينا القتلى فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، ومن كان من المشركين أخذنا ما عليه .

حدثنا الحرث عمن أدرك ذلك . قال لم يكن من قبائل العرب أكثر نساء من نساء بجيلة والنخع وكانوا فى ألف وسبعمائة امرأة . قال وأخذت المسلمون عدة لم يروا مثلها وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد وسفيان بن سليم والمهلب بن غزوان والقادح بن

عنبسة ونعمان بن نعيم وأربعون رجلا من المهاجرين والأنصار سنذكر من قتل ممن كانوا يقرأون القرآن إذا جن الليل كدوى النحل قال وأخذ المسلمون من الأموال ما لم ير مثله ، ولما كان بعد الفتح بيوم جاءت النجدة التى بعثها عياض بن غنم من أرض الموصل وجاء من شهد الفتوحات بالشام مع عامر بن الجراح ، وكان الذين قدموا سبعمائة ، فلما وصلوا إلى عين التمر استعجل للنصرة فترك الجيش وسار فى سبعين فارسا وأتت بقية السبعمائة بعد ذلك ، وكان معه قيس بن عبد يغوث وقيس بن أبى حازم وسعيد بن نزار ومالك بن الأشتر النخعى فتقدم هاشم وقيس معه فى السبعين .

(قال الواقدى) حدثنا إبراهيم بن بشار . قال أخبرنا محمد بن على عن سليمان ابن أرقم أن عدة التقلى بالقادسية تسعة وثمانون رجلا ، وكان المشهور منهم قيس وعطارد وهشام ومذعور ومقرب والأسود وعمرو بن قيس والنعمان .

(قال الواقدى) وبلغنا عن رجل من تميم عن امرأة منهم قالت : شهدت القادسية وضم للنساء لكل منهم ثلاثة وثلاثون مثقالا من العنبر ومثلها مسك ، وأما الكافور فما كنا نعبأ به إلا من عرفه ، وكانت العرب تقول للسوقة : هل لكم من ملح طيب وكانوا يعطون كيل كافور بكيل ملح ، وإن رجلا من العساكر عجن عجينا وجعل فيه من الكافور وجعل يذوقه بعد خبزه ويقول : ما لهذا الملح لا يطعم فى العجين وأن رجلا ممن له خبرة بالملح قال أعطيكم جراب ملح يطعم طعمه .

قال : فأخذه وأعطوه ملء جرابه كافورا غال وأن سعدا لما هزم الله العدو على يديه جمع الأموال كلها وكان الذى يقبض الأموال سليمان بن ربيعة . قال فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من العامل بالعراق سعد ابن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . أما بعد : سلام عليك وإنى أحمد الله الذى لا إله الا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ وأنا وصلنا إلى العراق والتوفيق يقدمنا ، والنصر يؤيدنا ، وقد اطلع الله على قلوبنا وامتحن خفيّ أسرارنا فما وجد فيها سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، فوفى لنا بوعده إذ وفينا بصادق عهده ، فلقينا العدو وهو شاكى السلاح ،

وغير راجع عن الطماح ، وقد شمر لنا عن ساق الجد فدارت لنا عليه الدوائر فهزمنا كتائبهم وزلزلنا مواكبهم ، واستأصلنا شأفتهم ، وقتلنا مقدمـــهم ، فجرى بذلك سابق القدر ﴿ فأخذناهم أخذَ عزيز مقتدر ﴾ (١) وملكنا الحيرة والقادسية ، وأنزل الله بأعدائنا الرزية ، فلما كان بعد الفتح بيوم قدم المرقال وهشام وسبعون رجلا من الصحابة وبعده بثلاثة أيام قدم سبعمائة من الشام من جند أبى عبيدة ولم أسلم لأحد شيئا من الغنيمة ، ونحن ننتظر أمرك فى ذلك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين ، وسلم الكتاب إلى زيد بن عمرو فركب نجيبه وسار نحو المدينة .

قال أخبرنا أحمد بن عمر قال حدثنى سابق بن مسلم قال وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يركب فى كل يوم نجيبه ويقصد طريق العراق إلى قريب الظهر ، وذلك لما بلغه أن رستم نزل على القادسية . قال فخرج على عادته إذ لقيه البشير وهو نوفل ، فلما رآه نوفل أبرك ناقته وسلم على أمير المؤمنين ، وقال له أبشر بكل خير ودفع إليه كتاب سعد وهو يقول : قد هزم الله العدو ونصر الموحدين وملكنا الحيرة والقادسية بهم فرقى المنبر وقرأ عليهم كتاب سعد ، وقال ألا وإن إخوانكم المسلمين يقرئونكم السلام ، وقد اتبعوا الكتاب والسنة وحادوا عن طريق البدعة وأقاموا على شرائع الهدى ، وأرادوا المشورة فيمن قدم عليهم ، فأما الجواب فالغنيمة لمن شهد الوقعة والمواساةلمن لحق بهم بعد الوقعة بثلاثة أيام ونزل عن المنبر وكتب إلى سعد :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد :

سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه ﷺ ، وقد وصلنى كتابك فحمدت الله كثيرا بما فتح الله على أيديكم وإنى قد أبليت بكم وأبليتم بى ، وإنى والله لا أحصى شيئا من أموركم فأعلمه ، وأما إذا اجتمع صلح فإذا أشفق الوالى ونصحت الرعية وعمل الإحسان وعلى الرعية الصبر والشكر ، وأما الغنيمة فلمن شهد الوقعة والمواساة لمن أتى بعد ثلاثة أيام ، ومن شهد حربكم من مملوك وعتيق بعد ثلاثة أيام فأشركوه والزموا

(١) سورة القمر : الآية : ٤٢ .

الإحسان فيما فتح الله عليكم وختم الكتاب وسلمه للرسول فسار يجد السير إلى أن أتى سعدا ودفع إليه الكتاب ، فلما قرأه كتب إليه بعد البسملة يعلمه بما تجدد .

أما بعد : يا أمير المؤمنين فإني لم أر فارسا مثل القعقاع بن عمرو التميمي فإنه حمل في العدو في يوم واحد ثلاثين حملة يقتل في كل حملة فارسا ولم أر فارسا مثل الحرث الكندي فإنه كان يحمل في المواكب فيقصم عروقها وأرسل الكتاب الثاني والخمس مع سعد ، قال ووصل المنهزمون من الفرس إلى المدائن ودخلوا الإيوان وحدثوا كسرى بما جرى وبقتل رستم وولده فاغتمّ لذلك وأيقن أن دولة الفرس قد انقرضت وانصرمت فاحتجب ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع مات لأنه حمل الهم على قلبه فقام بعده ولده يزدجرد ولم يكن له غيره .

قال حدثنا عبد الله بن مروان قال حدثنا نعيم عن جده وكان أحفظ الناس للفتوح . قال لما وجه كسرى بن أزدشير رستم إلى قتال سعد أنفذ معه نصف بيت ماله ، وهي ستمائة ألف ألف إلى المصف ، فلما صفت الصفوف وضعها أمام الجيش ، وقال كل من قتل فارسا كان له كذا وكذا ومن قتل راجلا فله كذا وكذا فصار ذلك كله إلى المسلمين فأرسل الخمس مع سعد وهو مال كثير لا يحصى عدده لكثرته .

لما وصل المال لعمر بن الخطاب بكى ، وقال أف لمن يغتر بالدنيا أو يميل إليها ثم قرأ ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾ (١) فوالله لم يلتمس منه قليلا ولا كثيرا ولا درهما ولا دينارا فقالت له حفصة يا أمير المؤمنين : لو رفقت بنفسك وأكلت طعاما أطيب من طعامك ولبست ثوبا أميز من ثوبك فقد فتحت لك الفتوح ، وأتت الأموال فتمعر وجهه غضبا ، وقال لها ناشدتك الله أخبريني عن أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ من بيت مال المسلمين قالت ثوبان كان يلبسهما يوم الوفد ويخطب فيهما يوم الجمعة والعيدين .

فقال : أي طعام كان يأكل عندكنّ قالت خبز الشعير ، وكان عندنا في أسفل عكة دسم فإن تظاهر طعمه فيها يتول قد زدتن في الدسم ، قال فأي بساط كان يبسطه عندكنّ

---

(١) سورة النساء : الآية : ٧٧ .

قالت كان لنا كساء نجعله في الصيف تحتنا ، وفي الشتاء نفرش نصفه ونلتحف بنصفه . فقال يا حفصة : إن مثلي ومثل صاحبي كثلاثة نفر تتابعوا طريقا فمضى الأول وقد زاد فبلغ ، ثم تبعه الثاني فسلك طريقه فمضى إليه ، ثم تبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما كان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع معهما أبدا .

ذكر فتح نهمشير

(قال الواقدي) وإن عمر رضي الله عنه بعث إلى سعد بأن يمضي إلى المدائن وأن يخلف النساء والأولاد في الحيرة وعندهم من الجند جماعة ويجعل لهم شركة في كل مغنم وكان مقام سعد بعد الفتح بالقادسية شهرين ، فلما استهل الشهر الثالث أنفذ على مقدمته زهرة بن جويرية وأتبعه بعبد الله وشرحبيل بن الشمطاء وأتبعهما بهاشم بن عتبة وخالد بن عرفجة صاحب الساقة وقسم الجيش معهم وقد غنموا ما كان في عسكر الفرس من مال وسلاح وكراع ، وكان رحيلهم من القادسية لبضع أيام مضين من شهر شوال .

قال : ونزل زهرة بالكوفة بمن معه ولحق به عبدالله وشرحبيل بمن معهما وتتابعت الجيوش وارتحل زهرة وسار إلى بالس ونزل عليها وإذا بأناس من أهل السواد أتوا اليه وطلبوا منه أمانا فأعطاهم وقال لهم ما عندكم من خبر العدو ؟ .

فقالوا : أيها الأمير استعمل الحذر جلبابا والتيقظ بابا ، واعلم أن رجلا من المرازبة قد ضمن لكسرى لقاءكم وردكم ومعه عسكر جرار فقال زهرة أبعد الله شره وجعل كيده في نحره ، فبينما هو كذلك إذ أشرفت عليهم طلائع القوم وتبينت لهم البيارق والازدهارات فركب زهرة للقائهم ورتب أصحابه للحرب وهو يقول ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم** ﴾ (١) .

(قال الواقدي) ولما أشرفت الكتائب أطلقوا ألسنتهم بذكر الله وتسارعوا إليهم فأوسعوا لهم الميدان وتقدمت الصناديد وتأخرت الرعاديد وضج المسلمون بالتكبير وطعنوهم في صدورهم ونحورهم وإذ قد وقعت عين زهرة على فارسهم العميد وبطلهم الشديد فقصده دون غيره وتطاعنا وتضاربا وتقاربا وتباعدا ، ثم إن زهرة رماه بطعنة في صدره فأخرج

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٦٠ : مدنية .

السنان من ظهره فخر إلى الأرض صريعا ، فلما رأوه ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان فيهم رجل من أكابرهم ذو عقل سديد ورأى رشيد ، فلما رأى ما حل بقومه أتى إلى زهرة طائعا مختارا وعقد له معه صلحا فأعطاه أمانا وسأله عن خبر جيوش كسرى .

فقال : يا سيد قومه : اعلم أن أكابر من انهزم منهم بالقادسية قد اجتمعوا وهم النهرجان والمهراق الدارى والهرمزان .

فقال لهم القيروان : بأى وجه تعودون للملك كسرى ، وقد أعطاكم الوظائف والعطايا والولايات فأقيموا هنا حتى تبيض وجوهنا عنده أو نهلك عن آخرنا . قال فلما سمع زهرة وعبد الله وشرحبيل وهاشم وخالد انتظروا سعدا حتى أتى وأعلموه . فقال استعينوا بالله وتوكلوا عليه وكانوا قد ملكوا الجسر فعبروا عليه وعدوا إلى الجانب الآخر وأشرفوا على جموع القوم فوقعت فى الفرس الأراجيف وتمكن الخوف من قلوبهم ، وكلما عين الهرمزان والقيروان إلى الأهواز وكانت كنوز كسرى فى جبل ظاهر الأهواز وكان عليها مقدما نهاويد ، فلما بلغه هزيمة العسكر نهبها ، وأما النهرجان ومهراق فإنهما قصدا المدائن وعبرَا نهراشير وهى مدينة الذنب .

قال : فلما حصلوا بالعدوة القصوى وقطعوا الجسر قصدوا الإيوان ويزدجرد هناك فدخلوا عليه وحدثوه بما جرى لهم مع العرب ، فلما سمع ذلك أيقن بزوال ملكه ، فلما كان الليل عول على أن ينفذ أمواله وذخائره إلى نهاوند وتهيأ للحرب ، وأما زهرة فإنه سار فى أثر القوم حتى جاوز سوار ونزل وأتى بعده هشام والمرقال نزلا عنده حتى تكامل الجيش ونزل سعد بن أبى وقاص وارتحلوا إلى كوثاريا وأشرفا عليها ، فلما رأى الفرس عسكر المسلمين قد أشرف عليهم أخذوا أهبة القتال وتهيئوا ومقدمهم شهريار ..

فلما وصل اليهم زهرة ورآه شهريار وقع الرعب فى قلوب أصحابة وماج بعضهم فى بعض ولولا خوفهم من شهريار لولوا الأدبار ورتب زهرة أصحابه ، فلما استوت الصفوف خرج شهريار للبراز وعليه رى الملوك والأكاسرة ، وقال : أنا شهريار فهل يبرز إلى فارس لفارس أو أربعة أو عشرة لفارس .

فلما سمع زهرة كلامه قال والله لقد أردت برازك غير أني لا أدع أحدا يخرج إليك إلا عبدا فإن قتلته فتكون قد قتلت عبدا وإن قتلك فهو المراد ، ثم إنه دعا مولى أبا نباتة الأعوجي فقال له دونك وهذا العلج واستعن عليه بالله فخرج إليه أبو نباتة ، فلما وصل إليه ونظره استحقره لأن شهريار كان مثل البعير فألقى نفسه على أبي نباتة وقد جرد سيفه ، فلما رآه أبو نباتة قد وصل اليه صادمه كأنه أسد وتضاربا بالسيوف حتى تكسرت فرمياها وتقابضا حتى سقطا إلى الأرض فوقع شهريار بأبى نباتة وهو يراوغه فوقعت إبهام شهريار فى فم أبي نباتة فقطعها فارتخت أعضاؤه فانفلت وانقلب عليه فصار فوقه وجرد خنجره وطعنه به فى نحره فقضى عليه فأخذ تاجه وسواريه وسلبه فرسه وعدته وتوجه بها إلى المسلمين ، فلما نظر جيشه ما حل به ولّوا الأدبار وأقام زهرة هناك إلى الصباح وأقبل بقية الموحدين فحدث زهرة سعدا بما جرى لمولاه مع شهريار وكيف انهزم الفرس ، ففرح سعد بذلك وأمر أن يحضر أبا نباتة فأحضره .

فقال سعد : عزمت عليك إلا لبست سواريه ودرعه وتاجه وركبت جواده . قال ففعل فأعطاه السلب جميعه ، وقال له قد أفلحت فكان أول مسلم سُوِّر بالعراق .

(قال الواقدى) حدثنا نوفل بن عدى . قال أخبرنا وائل بن غانم اليشكرى قال لما قدم سعد إلى كوثاربا نزل فى المكان الذى سجن فيه ابراهيم الخليل عليه السلام فصلى فيه وحمد الله وصلى على رسوله ﷺ وقرأ - ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [1] الآية . قال وأقام سعد بمشهد كوثاريا أياما ثم دعا الناس ، وقال لهم اعلموا أن الله تعالى قد نصركم فى مواطن كثيرة وقد أراكم ما وعدكم نبيكم محمد ﷺ لما قال « ستفتح على أمتى كنوز كسرى وقيصر » ، وقد ملكتم طرفا من كنوز كسرى والتمام على الله ، وقد عولت على العبور إلى المدائن التى من الجانب الغربى .

فقالوا جميعهم أيها الأمير من يخالف ولا يبخل بنفسه على الله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال فلما سمع قولهم قدم زهرة برايته وجيشه وأمره أن يسير فسار

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٤٠ .

فى اثنى عشر ألف فارس فما سار غير قليل إذ رأى بين يديه خيلا وعليها فوارس فأخذوا أهبتهم فإذا هم زهاء من مائتى فارس من الفرس فأرسلوا منهم فارسا يعلم المسلمين أنهم أهل ساباط ومقدمهم يقال له سرد وهو يطلب لأهل بلده صلحا وعهدا . فقال له : زهرة ائتنى بهم ، فلما قربوا منهم ترجلوا وأتوا المسلمين فتلقوهم بالبشر والسرور . فقال لهم زهرة من أنتم ؟ قالوا نحن أهل ساباط وهذا مقدمنا وقد أقبلنا نطلب صلحكم .

فقال زهرة : من قصدنا قبلناه ، ومن أراد صلحنا صالحناه ولسنا قوما نريد الفساد فى الأرض ، ثم أمضى صلحهم على ما وقع عليه الاتفاق بينهم . قال وانطلق سرزاد إلى قومه ومعه جماعة فرحين بالصلح ، ولما نزل زهرة فى نهمشير وجد كتائب الفرس وعليهم مقدم يقال له فيروز وهو فارس قومه ومعهم كبكبة كسرى التى يعتمد عليها فى وقت شدته . قال واجتمع جيوش الموحدين عند زهرة مع سعد وتأهبوا للقتال .

(قال الواقدى) فلما ترتبت الصفوف كان أول من برز واشتهر وسما وافتخر فيروز ورطن بالفارسية ، وقال يا هؤلاء العرب لقد أطمعتم أنفسكم فيما لا تصلون إليه وساءت ظنونكم وزعمتم أنكم تملكون العراق وتأخذونه من أيدى الأكاسرة وهذا ظن لا يصير أبدا، ونحن كتيبة كسرى أولو الشدة والبأس والقوة والمراس وأنا مقدمهم والرئيس فيهم فليبرز إلى مقدمكم ويفعل مثل ما فعلت أنا من بين قومى .

قال : فما استتم كلامه حتى خرج إليه هاشم بن المرقال يجر قناته من ورائه وحمل عليه وحصل بينهما حرب يشيب منها الطفل ، ثم إن هاشما طعنه فى صدره فأطلع السنان من ظهره ، قال فلما قتله هاشم ورجع إلى المسلمين قبله سعد بين عينيه ، فترجل هاشم وقبل رجل سعد وقرأ ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ (١) قال وارتحلوا فى أثرهم إلى أن نزلوا نهمشير وبقى كلما أقبلت قبيلة تكبر وتنزل إلى أن أحاطوا بهم من كل جهة فأظهر القوم الزينة والسلاح والعدد والمجانيق وهم على الأسوار .

(قال الواقدى) وأقام سعد على نهمشير شهرين وبعث خيله للغارات على شط

---

(١) سورة إبراهيم : الآية : ٤٤ .

الفرات والدجلة ، فأتوا ومعهم ألف فلاح فضمهم إلى شرزاد مقدم ساباط حتى يأتيه الجواب فيهم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويرجعوا إلى مقرهم ، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين يقول بعد البسملة :

أما بعد ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته فإنى أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلى على نبيه وإننا نزلنا على نهمشير بعد ما لقينا فيما بين القادسية ونهمشير عسكرا مع قرط ابن فيروز وظفرنا الله به وبمن معه ، وأن فيروز قتله هاشم وانهزم من بقى معه ونزلنا بعد ذلك على نهمشير وبثثنا عساكرنا فأصابوا من الفلاحين ألف نفر فما رأيك فيهم ؟ فأجابه أن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين على عهدكم ولم يعينوا عليكم عدوكم فلهم أمانهم ومن لم يأتكم وهرب منكم وأدركتموه فشأنكم وإياه افعلوا فيه ما شئتم ، فلما جاء الكتاب خلى سبيلهم وأرسل وراء الدهاقين فدعاهم إلى الاسلام أو الجزية فأجابوا إلى أداء الجزية .

قال : وأما أهل مدينة ونهمشير فشرعوا يرمون عسكر المسلمين بالسهام والحجارة والمجانيق ، فلما نظر سعد إلى ذلك دعا سرزاد وقال له : إن أهل هذا البلد لم يتركوا للصلح موضعا وأريد منكم أن تصنعوا لنا مجانيق ، ففعل سرزاد وعمل مجانيق فما مضت ثلاثة أيام حتى صنع له ذلك ونصب له ذلك على ونهمشير أكثر من عشرين منجنيقا فأشغلوهم بها عن قتال المسلمين وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وترامت الفرس بنشابها والعرب بنبالها وقاتل زهرة بن الجديرية قتالا يرضى الله ورسوله ، ثم إن زهيرا قال لسعد دعنى أتقدم لعلى أرمى بنبلة أو أضرب بسيفى هذا ضربة ، فتقدم ودخل العدو فتلقاه فارس اسمه شهرياض فحمل عليه وطعنه طعنة أخرج بها أمعاءه وقتله فاجتمعت عليه الأعاجم فقتلوه وانهزموا ودخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب وصعدوا على الأسوار وبعدها أشرف علينا رجل منهم وقال : إن الملك يقول لكم هل لكم فى الصلح على أن لنا ما بين دجلة إلى هنا ولكم ما يأتيكم من دجلة إلى خيلكم ، فتقدم إليه أبو مقرة الأسود بن قطينة وقد أنطقة الله بما لا يدرى ما هو ، فأجابه بالفارسية وهو لا يعرف منها شيئا ولا يحسنها .

قال : فرجع الرجل على السور ، فقلنا لأبى مقرة ما قلت له ؟ فقال والذى بعث محمدا بالحق ما أدرى ما قلت له إلا أن الله أنطقنى بشىء ، ولعل أن يكون فيه خير للمسلمين ولا زالوا يسألونه حتى سأله سعد بن أبى وقاص .

فقال : والله يا أمير ما أعلم ولا أدرى فتعجب سعد من ذلك وأمر الناس بالزحف والرمى وأن لا أحد من أهل المدينة يظهر لهم ولا يبين . فقلنا لعلهم أن يكونوا يكيدوننا بمكيدة ، وإذا نحن فى اليوم الثانى برجل قد خرج الينا وهو ينادى الأمان الأمان ، فأمناه وأتينا به إلى الأمير سعد .

فقال له : ما الخبر ؟ .

قال : إن القوم ليسوا فى المدينة وقد هربوا . قال سعد ومن أى شىء هربوا ؟ فقال الرجل إن الملك بعث إليكم رسولا يعرض عليكم الصلح فأجبتم أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل أفريزيا نوح فتركوا المتاع والأموال والرجال ولم يكن لهم غنيمة إلا أنفسهم . قال فلما ألسنتهم وترد علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك وإلا فإنما هو شىء ألقى على فم هذا الرجل فأبرزوا إلى القصوى فخرجوا من البلد وقد تركوا المتاع والأموال والرجال ولم يكن لهم غنيمة إلا أنفسهم .

قال : فلما سمع سعد ذلك من الرجل سجد شكرا ، وأمر المسلمين أن يدخلوا المدينة بالعدد خوفا من الكمين ففعلوا وركب سعد وتقدم المجاهدين ودخلوا وداروا بالبلد فلم يجدوا فى ونهمشير أحدا من الفرس ووجدوا الأموال على حالها فاحتووا عليها وأقام سعد بها ثلاثة أيام وخرج إلى الشط وأراد أن يعبر بالناس إلى المدينة القصوى وهى أسبانير فلم يجدوا شيئا من السفن فأقام أياما من شهر صفر والناس يحرضون على العبور إلى ذلك الجانب وهو يأبى إشفاقا على المسلمين ، فبينما هو كذلك إذ جاءه أعلاج فوقفوا بين يديه ودلوه على مخاضة تخاض فأبى .

ذكر فتوح الإيوان ودخول المسلمين فى الدجلة
وفتوح أسبانير وهى المدينة القصوى

فلما دلوه على المخاضة أبى وقال بحر عميق وما كنت أغرر بالمسلمين والله يصنع بهم ما يشاء ، فبينما هو كذلك إذ أتوه بعلج وأثوابه تقطر بالماء فسأله سعد عن حاله فقال كيف حالى والملك قد رأى فى منامه أن المسلمين قد عبرت إليه وقد استشعر بزوال ملكه وهو معول على الهرب وأن يأخذ أمواله ويمضى إلى خراسان .

قال : فلما سمع سعد ذلك جمع المسلمين وحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إن عدوكم قد استعصم منكم بهذه السفن ، وكسرى قد عول على الهرب بأمواله ورجاله وإنى قد عولت على العبور إن شاء الله تعالى ، واعلموا أنه ليس وراءكم من تخافونه ، لأن الله قد ملككم معاقلهم وبلادهم ، وقد رأيت من الرأى أن تقطع هذا البحر إليهم ونقدم عليهم فما أنتم قائلون .

فقالوا جميعا : قوى الله عزمك على الرشد فافعل ما أراد الله به ، فعندها قال سعد رحمكم الله ونصركم أيكم يبتدىء أو يتقدم ويجس لنا المخاضة وينبش عليها من على الشط حتى تتلاحق به الناس فابتدر لها عاصم بن عمر وانتدب معه ستمائة من أهل النخوة ممن شاع ذكرهم ونما فخرهم وعلمت شدتهم وسار عاصم أمامهم حتى وقف على الشط ومعه الكتيبة الخرساء وهى كتيبة القعقاع بن عمرو رضى الله عنه .

(قال الواقدى) حدثنا يونس بن عبد بن يوسف بن عمرو . قال ابتدر عاصم وشرحبيل وأبو مقرّن ومالك بن كعب الهمدانى ومثل هؤلاء السادات وركبوا خيولهم واقتحموا الدجلة واقتحم بعدهم الستون والستمائة فى أثرهم وأول من نزل فى الماء عاصم بن ولاد وأبو مقرن وشرحبيل ومالك بن كعب وغلام من بنى الحرث ، فلما رأتهم الأعاجم وقد قربوا منهم وأعدوا للخيل التى تقدمت خيلا منهم اقتحموا الماء ، فأول من لقيهم من جيش سعد عاصم بن عمرو ، فلما لقى خيل فارس فى الماء صاح بأصحابه ، وقال شرعوا رماحكم إلى الأعلاج واقصدوا أعينهم ، فلما سمعوا كلام عاصم قصدوا عيون

العدا وسقوهم كأس الردى ، فلما رأت الفرس ثبات العرب فى الماء كثباتهم فى الأرض للطعن والضرب ولوا الأدبار والمسلمون فى أثرهم فقتلوا غالبهم وما نجا إلى الشط إلا القليل وملك المسلمون جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون ، فلما علم سعد ذلك أذن للمسلمين بالاقتحام ، وقال لهم استعينوا بالله وتلاحق الجند ونزلوا الدجلة وهى ترمى بالموج والناس يجهدون فى عومهم وهم لا يكترثون بالموج ولا بتلاطمه وكأنهم على وجه الأرض ونزل بأهل فارس ما لم يكن فى حسابهم وقاتلوا قتالا شديدا .

(قال الواقدى) حدثنى من أثق به : أن أول من عبر من الجيش ستون فارسا خرجوا زمرا ، فأول زمرة تسعة أولهم عاصم ، والزمرة الثانية ثلاث وثلاثون . قال عاصم بن عمرو وقد اقتحمنا الدجلة خيلا ورجالا ودواب حتى نزلنا ولا نرى الماء من كثرة الناس وخرجت خيلنا وهى تنفض معارفها وتصهل على الشط إلهاما من الله .

قال : ولما رأى الملك كسرى أن المسلمين قد عدلوا إلى الجانب الثانى أمر شهريار ابن ساو أن يبرز للمسلمين ويقف فى مقابلتهم ففعل وأخذ كسرى ما قدر على حمله من أمواله من الدر والجواهر واليواقيت وما أشبه ذلك . قال وأن سعدا ليخوض الماء خوضا وهو يقول - ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1] قال ولم يغرق من الناس أحد .

(قال الواقدى) حدثنى النعمان بن عاملة الضبى عن أبيه عثمان أنهم سلموا عن آخرهم ، وأن رجلا من بارق يقال له عرقدة زال عن فرسه وكانت شقراء وكأنى أنظر اليها وصاحبها غريق ، فمضى إليه القعقاع بفرسه وأخذ بيده وجره حتى عبر به .

فقال الناس : عجزت النساء أن تلد مثلك يا قعقاع ولم يذهب للناس فى الماء شىء إلا قدحا كانت علقته رثة فانقطعت فذهب الماء بالقدح . فقال صاحبه والله لأجهدن عليه وما كان الله ليسلبنى قدحى من بين العسكر فلما عبروا أتى رجل من الناس ليغتسل وإذا بالأمواج قد رفعت القدح إليه فتناوله وأتى به إلى العسكر فعرفه صاحبه فأخذه .

(قال الواقدى) حدثنى عمرو بن تميم . قال بلغنا أنه لما عبرت المسلمون تحامت

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٦ .

الفرس وقاتلت قتالا شديدا وحمت أنفسها وعولت على أن تقاتل إلى أن تموت وهم خواص الملك وأصحاب الإيوان والحصون والقلاع ومقدمهم شهريار بن ساور ، فطعنه ابن نمير فى عينه ففقأها وانثنى عليه يضربه بالسيف فقتله وإذ فاجأتهم خيالة من نحو الإيوان وقالوا لهم عمن تقاتلون ، فإن الملك هرب بأمواله وأهله وخدمه .

قال : فلما سمعوا ذلك ولوا الأدبار ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور المسلمين إليها وسموا يوم عبورهم الدجلة يوم الجراثيم لأنه لم يكن أحد يعبر إلا ظهرت له جرثومة يسير معها وهى من القش المربوط حزما .

قال قيس بن أبى حازم : خضنا الدجلة وهى تطفح . فلما توسطناها كان يصل الماء من الفرس للحزام . فلما نظرت الفرس إلى ذلك والمسلمون يعبرون من غير مشقة جعلوا يقولون بالفارسية ديمور : يعنى جاء الجن قالوا والله ما أنتم تقاتلون إنسا إنما تقاتلون جنا فانهزموا ، وأراد المسلمون الدخول إلى الإيوان فمنعهم سعد من ذلك ، وقال لهم إياكم والعجلة فى الأمور فإنها تورث الندامة وإنى أخاف أنها من بعض مكايد العجم فلم يدخل إليه أحد . قال وتقدم سلام المجازى إلى سعد وكان غلاما . وقال له أيها الأمير والله لقد أرضيت اليوم الله ورسوله وقتلت المقدم عليهم .

ثم إنه استشهد بقية رفاقه الستين فلم يشهد له أحد منهم . فقال للغلام المجازى والله ما قتلته فنكس الغلام رأسه وأراد أن ينصرف وإذ قد وثب رجل من الصحابة اسمه هاشم بن عتبة. وقال لسعد أيها الأمير أنا رأيته وقد قتل مقدم الفرس فصدقه سعد وأعطى الغلام سلبه.

(قال الواقدى) حدثنا عبد الله بن بشر ، قال : حدثنا سليمان بن عامر ، قال : أخبرنا عبد الله أن يزدجرد الملك لما كان بأعلى الإيوان يوم خاض المسلمون الدجلة ورأى عبورهم والخيل لا ترجع والعرب لا تجزع والصحابة يتحدثون وهم فى الماء كأنهم على الأرض أيقن بزوال ملكه وذهاب عزه فنزل وهو يبكى : وأخذ من بيوت المال والخزائن من الثياب والآنية شيئا لا قيمة له ولا يعرف له ثمن وترك ما بقى من عدة الحصار من الزاد والبقر والغنم ومن كل الأطعمة والأشربة وكان أول من دخل المدينة القصوى مسكن الملك،

وهى إسبانير يعقوب الهدنى ومعه الكتيبة الخرساء كتيبه القعقاع بن عمرو فدخلوا يخترقون أزقة المدينة ولا يلقون أحدا .

قال : فعزم سعد على الدخول فى المدينة القصوى لما أمر زهرة بن الجويرية أن يذهب بعسكره ويتبع المنهزمين وسير كتيبة أخرى مع المرقال فلحق بحاجب بن حجاب بن كسرى فخاطبه بالفارسية .

فقال : إن العرب قد عبرت إلينا ولم يعرفه فطعنه المرقال فقتله وأخذ غلمانه أسرى وموجودهم وأتى به إلى سعد ويقال أحد مرازبة كسرى الكبار كان يوم دخول العرب المدينة داخلها وكان غير مكترث بهم فخرج إلى ظاهر داره ورجع يريد منزله وإذا بغلمانه وهم خارجون من الدار يهرعون وقد أخرجوا الأمتعة . فقال مالكم ؟ . قالوا إن الزنابير قد غلبت على منازلنا فأخرجتنا بالقوة .

قال : واشتد الصياح والبكاء والعويل من أهل المدينة وهم يلطمون على وجوههم . فلما رأى المرزبان أخرج لأمة حربه ولبسها وأتوه بجواده فشده وأسرجه فانقطع ثلاث مرات فمر به فارس من العرب فطعنه . وقال خذها وأنا ابن المخارق ومضى عنه ولم يلتفت إلى سلبه . قال ودخل سعد يطلب الإيوان . فلما دخل المدينة دخلها وهو يقرأ ﴿ **وأورثناها قوما آخرين** ﴾ (1) فلما دخل الإيوان ترجل وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينها واتخذه مسجدا . قال وكان فى الإيوان تماثيل وصور فتركوها على حالها . قال وأتم سعد الصلوات من يوم دخل الإيوان . فإنه أراد المقام بها وجمع وكانت أول جمعة صليت بالعراق وبالمدائن فى شهر صفر .

ثم إن سعدا تحول من الإيوان بعد ثلاثة أيام إلى القصر الأبيض وأقام سعد على قبض أموال الغنائم عمرو بن عمرو بن مقرن وأمره أن يجمع ما فى القصور والإيوان والخزائن والدور والأسواق وأن يحصيها ، وكان أهل المدائن لما رأوا العرب فى أرض واحدة فروا وأخذوا معهم ما قدروا على حمله وما انفلت أحد منهم بشئ إلا وأخذه منهم المسلمون

---

(1) سورة الدخان : الآية : ٣٠ : مكية .

وأتوا به إلى سعد فتسلمه عمرو وصيرها فى جملة ما جمعوه من الأموال ، وكان أول شىء جمعوه يومئذ بالقصر الأبيض ، ثم منازل كسرى وسائر دور المدائن . قال جهد بن صبار دخلنا المدائن فمررنا بأبيار عليها أغطية من رصاص فظننا أنها طعام ففتحناها . فإذا هى أوان من ذهب وفضة ورأينا كافورا كثيرا فحسبناه ملحا فما اعتبرناه . قال وخرج زهرة فى طلب المنهزمين فانتهى إلى جسر النهروان واذا عليه كثير من الفرس بأعظم عدة وأحسن زينة وهم يزدحمون على الجسر .

قال : ووقع بغل فى الماء فتكاثروا عليه وصاح بعضهم على بعض قال ووقع منهم بغل آخر فصاروا فى هرج ومرج . فلما رآه المسلمون . قال زهرة إن لهذا البغل لشأنا وما تكالب عليه القوم وصبروا مع ما فى قلوبهم من الخوف إلا لأمر عظيم ، وقال احملوا عليهم وابذلوا فيهم السيوف .

قال : فحملنا عليهم حملة صادقة فقتلنا منهم أناسا كثيرة وولى الباقى منهزمين وأخذنا البغل ، وإذا عليه حلة كسرى وثيابه ودرعه ووشاحه التى كان فيها الجوهر وكان يجلس بها للمباهاة . قال فأتينا بها . قال سهل بن سابق لما أخذنا البغل وأتينا به لم ندر ما عليه، وعن يعقوب عن جده ، قال كنت مع من خرج فى طلب المنهزمين ، وإذ نحن ببغلين مع اثنين وهما يرميان كل من يقربهما بالنشاب ولم يجسر أحد أن يدنو منهما فقصدتهما وحملت عليهما وقتلتهما وأتيت بالبغلين إلى صاحب الأقباض وهو يكتب كل ما تأتى به العرب من سائر العراق . فلما أتيته بالبغلين ، قال لى على رسلك حتى ننظر ما معك فحطيت عنهما . فإذا فى الحمل الواحد تاج كسرى وجواهره وفى الحمل الثانى ثيابه وهى موشحة بالذهب منظومة بالدر ، وعن محمد بن طلحة والمهلب قالا خرج القعقاع فى طلب المنهزمين فلحق بفارس من الفرس ، وهو يكر على قوم من المسلمين وقد جزعوا منه وما أحد منهم يدنو إليه فقصده القعقاع بشدة عزمة وقال له دونك أيها الكلب اللئيم لقتالى وطعنه فقتله ووجد معه عيبات مغلقات ففتحوها ، فإذا بالعيبة الواحدة خمسة أسياف وفى الأخرى خمسة أسياف محلاة بالذهب ودروع كسرى من أيام غزواته لهم ،

وأما السيوف فكانت سيف كسرى وسيف هرقل وسيف مهمود وسيف خاقان وسيف النعمان بن المنذر . فلما رآها سعد ، قال : يا قعقاع خذ أى سيف شئت وجاهد به العدو فأخذ سيف هرقل وأعطاه درع بهرام جور ، أما بقية الأسلاب فأعطاها للكتيبة الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان فأمسكهما لأمير المؤمنين يرسلهما مع الخمس والتاج الثياب وعن رجل من الصحابة . قال كنت مع الناس فى طلب المنهزمين من خيل كسرى .

فبينما أنا على طريق إذا برجل ومعه حمار وكان راكبا عليه ، فلما رآنى ترجل ، وجعل يحث حماره على السير حتى انتهى إلى نهر قد خرب فلم يمكنه العبور فدنوت منه فأخذ يرمينى بالسهام فزغت عن رميه وحملت عليه فقتلته وأخذت الحمار ووجدت آخر ومعه حمار فتركه وانهزم فأتيت بهما إلى صاحب الأقباض .

فإذا على أحدهما فرس مصوغ بالذهب والفضة مرصع بالدر والجواهر ولجامه كذلك وسرجه كذلك وعليه فارس كذلك ، وإذا على الحمار الآخر ناقة من فضة وعليها كور من الذهب مرصع ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مرصع بالجواهر ، وكان كسرى يضيفهما للتاج وكان يباهى بهما ملوك الأرض . وعن أبى عبيدة الهبرى . قال لما هبط المسلمون بالمدائن وجمع صاحب الأقباض الغنيمة وبقى الرجل يأتى بما معه فيدفعه إلى صاحب الأقباض .

فقال صاحب الأقباض : ما رأينا مثل هذا قط . ثم قال للرجل الذى أتى بالحمارين بالله عليك هل أخذت شيئا منه ؟. فقال والله لولا الله لما أتيتكم بهما . فقالوا له وما أنت ؟ فقال والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه ومضى فتبعه واحد من موالى صاحب الأقباض فسأل عنه . فقالوا هذا عامر بن القيس . قال وبلغ الخبر سعدا رضى الله عنه .

فقال : أحلف بالله الذى لا إله إلا هو إننا ما اطلعنا على أحد من أصحاب جيش القادسية يريد الدنيا ولقد اتهمنا ثلاثة فاتبعناهم فعجزنا عن وصف أمانتهم وزهدهم ، وهم طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة بعد النبى ﷺ ، والثانى عمرو بن معد يكرب ، والثالث

هو قيس بن هبيرة .

قال حدثنا من شهد فتح المدائن . قال خرجنا بعد فتح القصر الأبيض وكان قد تحصن به رجال من المرازبة ، وكانوا أشد جلدا وأقوى عزيمة من جميع الفرس وتحالفوا أنهم لا يسلمون أبدا والذين حصلوا وتولوا حصارهم كتيبة الأهواز وهى كتيبة القعقاع .

فلما رأينا عزمهم على الموت بعدنا عن نشابهم وحجارة مجانيقهم وطال علينا ذلك وشكونا ذلك إلى سعد ، وقلنا له قد حرمنا الجهاد بحصارنا لهؤلاء الأعلاج ، فقال سعد لسلمان تقدم إليهم ودبر شيئا فيه مصلحة للمسلمين وأمنهم فتقدم إليهم سلمان وكلمهم بالفارسية فأمسكوا عن رميه ، وقالوا له من أنت ؟ . فقال أنا رسول من المسلمين اعلموا أن الرجل يقاتل عن نفسه وماله وولده إذا رجا الخلاص وما أرى لكم من خلاص قط ، وهذا الملك قد انهزم وأخذنا مملكته وخزانته وما بقى فى المدائن أحد غيركم فاتقوا الله فى أنفسكم ولا تهلكوها وسلموا لنا هذا الحصن ولكم الأمان إلى أى جهة توجهتم لا يعارضكم منا أحد . قال فلما سمعوا قوله قالوا : لا نسلم حتى نهلك عن آخرنا ، ثم رموا سلمان بالنشاب فقرأ – ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾ [1] وأشار إلى النشاب بيده فذهبت السهام يمينا وشمالا ولم يصبه منها شيء . قال فلما رأوا ذلك . قالوا فبحق ما تشير إليه من أنت . قال أنا روزنة وقد عمرت أربعمائة سنة ولحقت آخر أيام عيسى ابن مريم وطفت الأرض حتى لحقت بنبى هذه الأمة ﷺ . فلما أتيته أكرمنى وخدمته فعظمنى حتى إنه جعلنى من أهل بيته فقال سلمان منا أهل البيت ، فلما سمعوا قوله وحققوا معرفته علموا أنه كان من عظماء أهل دينهم . قال فصقعوا له وقالوا والله ما نخفى عليك شيئا من أمرنا وسبب قتالنا ليس بسبب مال ولا متاع ، إنما الملك قد مضى يريد نهاوند ولم يقدر على أخذ ابنته معه وهى مريضة وقد سلمها إلينا فلزمنا من أمرها ما لزم ، فإن كنتم تعطون الأمان عليها سلمنا لكم وإلا نموت يدا واحدة ، فلما سمع منهم ذلك .

(١) سورة الأحزاب : الآية : ٢٥ .

قال دعوا هذا الأمر حتى أشاور الأمير ، ثم عاد وحدث سعدا بما سعه . فقال يا عبد الله إن المسلمين قد انتشروا فى العراق ونخاف أن يقع بهم أحد فلا يبقى عليهم ، ولكن قل لهم لكم علينا أن نذب عنكم وتكونوا فى ذمامنا حتى تجاوزوا أى جهة تريدونها ، وبعد ذلك لا نضمن لهم ما يأتى عليهم . قال فحدثهم سلمان بما قاله الأمير . فقال العقلاء منهم لولا أن العرب على حق ما نصروا علينا ومن الرأى أن نرجع إلى دين هؤلاء العرب ونعيش فى ظلهم ، وأن القوم لا يريدون ملكا وقد رأيتم هذا الرجل وما ظهر لكم من كرامته .

قال : ففتحوا باب السر وخرجوا إلى العسكر وأتوا إلى سلمان فأتى بهم إلى سعد وأسلموا على يديه ، فلما جرى ذلك بكى سعد . وقال اللهم انصر الاسلام وقرأ قوله تعالى - ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ (١) - وبعث إلى صاحب الأقباض فأخذ جميع ما فى القصر الأبيض من الأموال وخزانة الملك ، فلما قسم الغنائم على المسلمين أعطى أولئك أوفى نصيب وأنزل كل واحد منهم فى داره ، فلما رأى أهل البلد ذلك منه وما صنع مع هؤلاء دخل فى دين الإسلام منهم ألوف اقتداء بالقوم .

(قال الواقدى) حدثنا موسى بن عبد الله عن عمرو عن جده يحيى ، قال بلغنا غير هذا ، وذلك أن هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود الملك ، فانتهى سيره إلى مرج حلوان فالتقى بكتيبة من أهل فارس بالعدد والسلاح والهوادج والخدم والجوارى والمماليك وقد داروا بمحفة من العود الرطب وعليها من الثياب الملونة المذهبة وأهلتها من الذهب مرصعة بالجواهر وقاتلوا دون المحفة قتالا شديدا ، وكانت المحفة لشاهران ابنة الملك يزدجرد ابن كسرى ، وكان السائر بها سافر بن هرمز ، فقتله وقتل أصحابه أكثر ما كان مع سافر .. وولى الباقى منهزمين وتسلم هاشم المحفة وما حولها وأتوا بذلك كله إلى سعد وأعلموه بأن ابنة كسرى معهم ، فقرأ سعد قوله تعالى ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ (٢) - الآية ، ثم أشرف سعد على ما بقى من الخزائن فوجد صندوقا عظيما ظاهره وباطنه بالديباج المذهب

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٤٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ٢٦ .

وفى داخله بساط كسرى وهو البساط الذى كان يفتخر به على الملوك ملوك الدنيا ، كله ذهب منسوج بالحرير منظوم بالدر واليواقيت الملونة والمعادن والجواهر المثمنة والزمرد ، وكان طوله ستين ذراعا قطعة واحدة فى جانب منه كالصور ، وفى جانب كالشجر والرياض والأزهار ، وفى جانب كالأرض المزروعة المقبلة بالنبات فى الربيع ، وكل ذلك من الحرير الملون والمعادن على قضبان الذهب والزمرد والفضة ، وكان الملك لا يبسطه إلا فى أيام الشتاء فى إيوانه إذا قعد للشراب ، وكانوا يسمونه بساط النزهة والمسرات ، فيكون لهم شبة الروضة الزهراء ، فلما رآه العرب قالوا : والله هذه قطيفة زينة . قال ولما قسم سعد على الناس الغنائم أصاب الفارس اثنا عشر ألف دينار وكلهم كانوا فرسانا ولم يكن فيهم راجل ، وأخرج للغائبين مع النساء والحريم فى الحيرة نصيبهم وقسم الدور بين الناس وكان قد ولى القبض عمرو بن عمرو المدائنى ، وولى القسمة سليمان بن ربيعة ، وكان فتح المدائن فى شهر صفر ، أخرج الخمس لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأراد أن يقسم البساط ، فلم يدر كيف يقسمه فقال سعد : معاشر المجاهدين إنى رأيت من الرأى أن نرسله إلى عمر ليصنع فيه ما يختاره فأجابوه على لسان واحد نعم ما رأيت أيها الأمير فردوه إلى صندوقه وأضافه إلى الخمس ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، من عامله على العراق سعد بن أبى وقاص .

أما بعد فسلام عليك وإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ على ما منحنا الله الظفر على العدو الذى أطاع شيطانه وأرخى فى ميدان الغى عنانه ، وقد أجرانا الله سبحانه على جميل العادة ، وأخذنا الملك من يزدجرد بن كسرى فى كثرة أطواده واحتز رؤوس أجناده الذين جاست الهيبة ديارهم ، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ (1) وقد انهزم عدو الله بعد ما قتلنا جنده وأخذنا ابنته وإننا منتظرون أمرك فيما يكون بعد هذا ، ونحن مقيمون على المدائن ، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وسلم الكتاب والمال

---

(1) سورة محمد ﷺ : الآية : ١١ .

إلى بشر ، وضم اليه خمسمائة فارس ، وسلمه ابنة كسرى بمحفتها وخدمها ، ثم إن سعدا رأى رأيا أن يسير بشيرا يبشر بفتح المدائن وبقدوم الخمس وبما أنعم الله على المسلمين ليكون أزيد هيبة وبهجة بالفتوح ، فأرسل جيش بن ماجد الأسدى أو ابن هلال والله أعلم فخرج على ناقته وقصد المدينة يجد السير ، قال وكان عمر رضى ا للهعنه فى كل يوم بعد ما يصلى الصبح يقرأ ما تيسر ويركب ناقته ويتوجه نحو طريق العراق ويرتقب ما يرد عليه من أخبار المسلمين .

قال : فخرج على حسب العادة وإذا هو بجيش قد أقبل على ناقته ، فلما رآه عمر قصده وقال له : يا عبد الله من أين أقبلت ؟ قال من المدائن يا أمير المؤمنين قال فما عندك من الخبر أقرَّ الله عينك وغفر لنا ولك ؟ قال : أبشر يا أمير المؤمنين بالفتح العميم والسعد الجسيم ، وأن لله سبحانه وتعالى قد هزم جند المشركين وقطع دابر القوم المجرمين وأخلى منهم ديارهم وأخفى آثارهم ، وزعزع مراكبهم وطحطح مواكبهم وكتائبهم ، وشتت جموعهم ، وأخلى ربوعهم ، وقصم آجالهم ، وفرق أحوالهم ، وترك مساكنهم خالية وأوطانهم خاوية . قال فلما سمع عمر رضى الله عنه هذا المقال ، حمد الله وأثنى عليه وقال خذلوا من مأمنهم وسار وهو يحدثه بفتح المدائن حتى دخل المسجد وتسامع الناس ، فأتوا حتى غص المسجد بالناس وأقبل جيش يحدثهم وهم يكثرون الثناء على الله ويصلون على النبى ﷺ وبعدها وصل بشر بالمال ومعه ابنة الملك كسرى ولباسه وسلاحه وبساطه ، فلما نظر عمر إلى ذلك قال :

إن الذى أهدى إلينا هذا لأمين . فقال على كرم الله وجهه : أنك عففت فعفت الرعية ، فحمد الله وأثنى عليه وأفرز من الخمس سهم من غاب من المسلمين وقسم الخمس فى مواضعه ، ثم قال أشيروا على فيما أصنع فى هذه القطيفة أعنى البساط ؟ فقالوا رأيك أعلى . فقال على كرم الله وجهه لم يدخل عليك جهل ولا تقبل شكا ، وإنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، ولبست فأبليت ، وأكلت فأفنيت . قال فوالله لقد صدقتنى يا أبا الحسن ، ثم إنه قسم البساط قطعا بين الناس ، قال فأصاب كل رجل منهم

قطعة فباعها بنحو العشرين ألف دينار ، فلما فرغ من توزيعه وتوزيع مال الخمس ، دعا بمحكم بن رواحة وكان من أجسم أهل المزينة وأجفاهم خلقة فألبسه زى كسرى، ووشاحه وتاجه وسواريه ومنطقته وحلاه بحليته وعصابته وسيفه وسلاحه وعدته ، ونظر الناس إليه كأنه كسرى فى ملكه ، فقال عمر رضى الله عنه : اعتبروا بالدنيا وتقلباتها بأهلها وما يرى من مصائبها وعطبها هذا كسرى ما زال يفتخر على ملوك الدنيا بكثرة أمواله وذخائرة وجواهره وعزه وجنوده ، ولم يقدم لنفسه شيئا ينفعه عند الله وغرته الأمانى الكاذبة فأخذه الله من مأمنه وبقى مرتهنا بما اكتسب فى دينه ودنياه .

ثم قال : أيها الناس هذا ملك المدائن ، قد انتقل عن أصحابه وتوزع بين أرابابه ، أين تلك الحشمة والسلطان ، أين الجنود والأعوان ، أين الغلمان ،أين المماليك والخدام ، أين التاج والإكليل ، أين الجيش والفيل ، أين الصحاب والخليل ؟ وقرأ قوله تعالى ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ (١) ثم قال : أيها الناس من له منكم يد سابقة فليقم فقام عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . فقال أنا يا أمير المؤمنين ابن الصاحب والخليل وابن أول من آمن ووزر وصدق رسول الله ﷺ ونصر وأنفق ماله وتصدق ودخل معه الغار وانتصر وجاهد بين يديه رجاجج من كفر وجادل وافتخر وأنزل الله فيه ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ (٢) .

فقال عمر رضى الله عنه : والله لقد صدقت وبقليل من فضله قد نطقت . ثم أمر له بخلعة وعشرة آلاف درهم ، ثم قال أيها الناس من يقم منكم فقام عثمان بن عفان وقال : أنا من جهز جيش العسرة وحفر بئر رومة وألف القرآن وجمعه وختمته فى ركعتين وتزوجت الابنتين وصليت إلى القبلتين وأنفقت المال فى حبه وأنزل الله فى حقى ﴿ **أمن**

---

(١) سورة النساء : الآية : ٨٢ .

(٢) سورة الحديد : الآية : ١٠ .

هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (١) فقال عمر رضى الله عنه : أحسنت يا أبا الفتيان فمثلك من رفض الكذب وأبان الحق وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم إنه نظر إلى الأخوين الزاهدين والغصنين النضرين ، سهدى شباب أهل الجنة وريحانتى نبى هذه الأمة وقال لهما : يا حبيبى ما الذى أخركما من مثلكما يفتخر وقال: ألستما سبطى الرسول ، أليست أمكما فاطمة البتول ، أليس أبوكما سيف الله المسلول، أليس فى بيتكما نزل التأويل ، أليس كان سادسكما تحت العباء جبريل ، أليس فيكما أنزل الله الجليل ما على المحسنين من سبيل ؟ فإن افتخرتما فلكما الفخر البليغ ، ثم أمر لكل واحد منهما بعشرين ألف درهم فقال على : لله درك يا عمر ومن مثلك تكلم ونشر ومدح أهل البيت وأثنى وذكرا خيرا وشكر ، ثم قال : أيها الناس من كان لأبيه سابقة فليقم .

فقام عبد الله بن عمر رضى الله عنه وقال : يا أبت أما أنا ابنك وأنت أبى لك الفضائل والحمد والافتخار فى الأمة ، وذلك الوقار والرجاحة والفصاحة والنصاحة نصرت الإسلام والمرسلين ، واتبعت سنن سيد المسلين ، وأنزل فى حقك أرحم الراحمين ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٢) وأنت الذى أظهرت الإسلام جهرا وقلت لا يعبد الله سرا . فقال عمر : يا بنى الشقى ما يغتر بالدنيا الساحرة ، والسعيد من يعمل للآخرة ، وقرأ ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ (٣) ثم أمر له بألف درهم . فقال يا أبت أنا هجرت وأنفقت ونصرت وزعزعت مواكب الروم وما قصرت وتأمر لى باليسير من مال الله الكير وتعطى هؤلاء ما أعطيت فقال يا بنى اسلك طريق الإنصاف ولا تتبع الإسراف ، وأنا أقول لك إن كان لك جد كجدهما أعطيتك أو أم كأمهما وفيتك ، وإن كان لك أب كأبيهما أرضيتك ، يا بنى كل نسب يضمحل يوم القيامة ويخفى إلا

(١) سورة الزمر : الآية : ٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآية : ٦٤ .

(٣) سورة فصلت : الآية : ٤٦.

نسب البتول ، ولما فرغ من ذلك أمر بابنة كسرى أن يوقفوها ، فأوقفت بين يديه وعليها من الحلى والحلل والزينة والجواهر شيء كثير ، وأمر أن ينادى عليها ، فقال للمنادى : أزل عنها هذا القناع ليزاد فى ثمنها ، فتقدم إليها المنادى ليزيل عنها ذلك فامتنعت وضبته فى صدره ، فغضب وهم أن يعلوها بالدرة وهى تبكى .

فقال على كرم الله وجهه : مهلا يا أمير المؤمنين فإنى سمعت قول رسول الله يقول «ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر » فسكن غضب عمر رضى الله عنه ونظر إليها فرآها تحدق بالنظر إلى الحسين بن على رضى الله عنه فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وإنى أرى هذه الجارية تحدق بنظرها إلى الحسين بن على وما خفى على أنها أرادته من دون الناس أجمعين لأنه ليس فينا أصبح وجها منه ، ثم قال يا أبا عبدالله خذها هدية منى إليك فشكره على ومن حضر من المسلمين .

(قال الواقدى) قال يونس بن عبد الاعلى حين قرأت عليه فى المسجد الأقصى فى شهر ربيع الأول سنة مائتين وتسعين من الهجرة حدثنا عدنان بن ماجد الغنوى قال : لما انهزمت الفرس من المدائن واستولى عليها سعد بن وقاص رضى الله عنه وكان من أمره ما ذكرنا استقر قراره بالقصر الأبيض ، جلس حيث كانت الأكاسرة تجلس فلبس عند ذلك ثياب النسك والخشوع وتسريل سربال الخضوع وعلم أن الدنيا أضغاث أحلام وأن الآخرة هى دار المقام ، وكلما نظر إلى آثار الأكاسرة وملكهم ازداد يقينا ودينا على دينه . قال وأنشد عاصم بن عمر فى ذلك بعد فتح المدائن يقول :

شهدنا بعون الله أفضل مشهد	بأكرم من يقوى على كل موكب
ركبنا على الجرد الجياد سوابحا	بكل قنـــاة بل بكل مقضب
وكنا بعون الله لا نرعـــوى إذا	تبادر طعن كالغـــمام المشطب
وكان جهاد قـــد ملكنا بأمه	من الملك مستعلى البناء المذهب
ترانا وإنا فى الحروب أسودها	لنا العزم لا يخفـى لكـل مجرب

نجول ونحمى والرماح شوارع ونطعن يوم الحرب كل مخبب
قدنا على كسرى بشدة حربنا وما حربنا فى النائبات بمختبى

ذكر فتوح مدينة نشاور ، وهى فتوح العجم والعراق

(قال الواقدى) وكان من قضاء الله وقدره أن ابن كسرى لما انهزم من المدائن مضى إلى حلوان وانضاف إليه كل من وصل اليه من المنهزمين من الأساورة والمرازبة والديلم وغيرهم فقام فيهم خطيبا وذكر زوال ملكه وأسر ابنته وخزائنه وأمواله وبكى وبكت أرباب دولته ، ثم قال : يا أهل فارس إن الدنيا دنية الفعال ، سريعة الزوال ، قريبة الارتحال ، وهذا ملككم قد زال ، وعزكم قد حال ، ودياركم قد سبيت ، والعرب قد استولت على العراق ولا بد لهم منكم ولا غنى لهم عنكم وستنظرون خيلهم ، وقد طلبت خراسان والرى وهمذان ، وما بقى لكم جهة تتوجهون إليها إلا بلاد آبائكم وأجدادكم فانتبهوا وانتهزوا الفرصة وأزيلوا الغصة وأدركوا ما بقى من أيامكم ولا ترتدوا على أدباركم ، وقد بلغنى أن الدنوس العادى بن هر بن كيقباذ بن يزدجرد التقى هو والإسكندر بن القليس الرومى وما زال يقاتلان ويقتتلان حتى قتل أحدهما فشمروا أنتم عن ساق الجد ودونكم والقوم هذه الكرة أما لكم وأما عليكم فلعل النار والنور ينصرانكم وأنفق فيهم ما كان معه فاستعدوا للقاء، وأخذوا على أنفسهم وضربوا خيامهم فى مرج حلون وجاء علماء دينهم وأوقدوا لهم النار وقربوا لها القربان وتحالفوا أن لا ينهزموا ولو ماتوا عن آخرهم ، قال ومضت نساؤهم وبنات ملوكهم وأبطالهم الذين قتلوا فى الثياب ملطخات بالدماء وهن يستفززن الجيوش والعساكر من بلاد العجم وغيرها ، قال وإن الحجاب والمرازبة والأساورة تعاهدوا على أن لا يفروا أو يموتوا عن آخرهم .

(قال الواقدى) حدثنى محمد بن عاصم بالكوفة بعد ما أخذها المسلمون . قال لما فتحت المدائن واتخذها المسلمون وطنا فما كان دأبهم إلا أن يحفروا دور الفرس ويخرجوا خباياهم وأموالهم قال عبدالله بن حجفة : حضرت العرب وقد أخرجوا من إزاء القصر الأبيض من مصنع هناك للفرس الأكاسرة تمثالا من الذهب على صفة الفارس ، وقد

سكبوا عليه الماء حتى غار فى الأرض ، وكانت ملوك الفرس يفتخرون بذلك على سائر الملوك ، فوالله لو قسم ذلك على عرب بكر بن وائل لكان يسد منهم مسدا وجاءت عيون المسلمين إلى سعد وأخبروه بما فعل القوم واجتماعهم فى مرج حلوان فى مائة ألف ، وقد وجهوا أثقالهم وما يعز عليهم إلى الجبل وهم يطلبون لقاءكم ، قال واجتمع المسلمون فى الإيوان وقالوا :

أيها الأمير ، إن العدو قد اجتمعوا بمرج حلوان وتعاهدوا على أن لا ينهزموا أبدا ويموتوا عن دم واحد يريدون مدائنهم . قال فكتب سعد إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بذلك ويقول له : إن أهل الموصل قد مات ملكهم الإنطاق وقد تولى عليهم الشكان بن قالوص وارتدوا عن صلحنا وعول ملكهم على أن يكون عونا لأهل فارس علينا والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، فلما وصل الكتاب إلى عمر أرسل يقول له : يا سعد اعلم أن الله منجز وعده وبعث إليه هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألف فارس ، من المهاجرين والأنصار ألفان والبقية من العرب .

قال : وأن ابن كسرى لما حصن حريمه وأمواله فى الجبل أمر على عسكره مهران الدارى ووصاه وسار مهران بالعسكر فركب معه ابن كسرى مقدار ميل وودعه ورجع إلى حلوان والمدد يأتى اليه من سائر بلاد العجم . قال ووصل مهران إلى مدينة نشاور ونزل بها فى دار الولاية وأقام بها ، فلما كان الغد ركب فى وجوه قومه ودار بهم على أسوارها وأبوابها وأمر بتحصينها فى علو سورها ونصب آلات الحصار بالعرادات والمجانيق وحفر خندقا عميقا وصنع حسكا من الحديد جعله حول المدينة والخندق وما خلى من أهل البلد صغيرا ولا كبيرا حتى استعمله فى السور والخندق وادخر القوت وعلف الخيل وما يحتاجه للحصار واستوثق من أهل البلد الكبير والصغير منهم وأخذ رهائنهم وحلفهم على أن لا ينهزموا أبدا . قال فلما اتفق ذلك كله أقام ينتظر قدوم المسلمين .

قال : وأما هاشم بن عتبة فإنه سار فى اثنى عشر ألف مجاهد حتى أشرف على مدينة نشاور فوجدها محصنة بالعدد والعدو قد أظهرت الزينة والسلاح على الأبراج بالدروع

والجواشن والمجانيق والعرادات والبيارق والأعلام ووضعوا فى أركان المدينة على الأبراج قباب حديد ليضرموا فيها النار ويستنجدوا لها ويستنصروا بها على العرب ، فلما أشرف عليهم عسكر هاشم بن عتبة ضجوا بكلمة كفرهم وأشاروا إلى الشمس والنيران يسجدون لهما قال والأرض ترتج من تحتهم والسماء ترعد من فوقهم والأكوان تسترجع وتصيح فى هلاكهم فنودوا من قبل الله أن اسكنوا عن اضطرابكم فأنا الحليم الذى لا أعجل على من عصانى ، ولا أخيب من دعانى ، أنا الذى تسبح لى السموات ومن فيها ، والأرضون بنواحيها ، وقد سبق فى علمى أن أطهر هذه الأرض من الأرجاس وأبدلها بمن قلت فيهم ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [1] أنا الذى أمهل ولا أهمل وعزتى وجلالى لأطهرن هذه الأرض من الكفرة الملحدين والفئة المفارقين ، ولأبدلن بيوت النار بمساجد أذكر فيها آناء الليل وأطراف النهار يعمرها رجال قد أحسنوا الظنون وذكرتهم فى الكتاب المكنون ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ [2] .

(قال الواقدى) حدثنا عمرو بن ربيعة الشيبانى . قال أخبرنا أحمد الطويل قال لما نزل هاشم بن عتبة على مدينة نشاور بمن معه من المسلمين لم يلتفتوا اليهم ولم يكترثوا بهم وأروهم التجلد والشدة وجعلوا يطاولونهم ولا يخرجون إليهم فصعب ذلك على المسلمين والمدد واصل إليهم من عند يزدجرد بن كسرى فاشتدت قلوب أعداء الله فقالوا لمهران الدارى أيها الصاحب ما الذى تنتظر بنا فى قعودنا ومقامنا من وراء السور ، وقد اشتقنا إلى القتال فاخرج بنا إلى هؤلاء القوم فقد ضاقت صدورنا وضاقت بنا المدينة وهذه الشمس المنيرة تنصرنا وتظفرنا على أعدائنا وكذلك النار والنور ، فلما رآهم معولين على القتال أمرهم بالخروج وجعل على خيله جوزان بن جهران وأمره أن يزحف بالجيش ، فلما فتح باب المدينة وخرج الفرس فرح المسلمون بذلك وتبادروا إليهم بأسرار صافية وهمم وافية يطلبون القتال فى مرضاة الله ذى الجلال ، وأنفسهم لذلك مستبشرة نازحة وهممهم إلى الحرب

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٠٨ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية : ١٠٥ .

مسرعة فادحة وقد سئموا من سكنى دار الغرور ، واشتاقوا إلى سكنى القصور ، ومعانقة الحور، وقالوا إلهنا قد سئمنا من هذه الدار ، واشتقنا إلى دار القرار ومجاورة المختار ، فأنجزنا ما وعدتنا ، وسامحنا اذا توفيتنا ، وأجرنا من عذاب النار ، واحشرنا مع الكرام الأبرار ، الذين قلت في حقهم ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[1] قال : ولما ركب المسلمون جعل على مقدمة الخيل طلحة بن خويلد وبقى هاشم على الساقة . فقال أيها الناس والله لا تنال الجنة إلا بحسن الأعمال فاتركوا من قلوبكم الميل إلى دار اللهو والاهوال ، والمقام فى دار الزوال جاهدوا لتدخلوا جنة عرضها السموات والأرض فهذه نار الحرب قد فاض تيارها ، وعلا دخانها ، وصفقت أمواجها ، وبدا فجاجها فاركبوا فيها سفينة النجاة والانجاد ، واقطعوا بشراع الاجتهاد هذا الطريق وانشروا أعلام الصدق .

قال : وقد اصطفت عساكر العجم ودقت بوقاتها ، ونشرت ازدهاراتها فهم كذلك إذ أقبل عليهم ملك الرى فى اثنى عشر ألف فارس ، فلما رأى هاشم ذلك .

قال : يا فتيان العرب لا تنظروا إلى كثرتهم وقلتكم فقد كان المصطفى ﷺ يوم بدر فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وخذل الله الكافرين ، وقد كانت قريش فى حدها وحديدها وعددها وعديدها ، ونصر الله نبيه ورسوله قال الله تعالى ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾[2] إذا بالخيل قد حملت عليهم كأنهم السيل . فقال هاشم أخلصوا النيات ولا تولوا الأدبار ، واعلموا أنه قد تولى عليكم الجبار .

قال : وأطبق الناس بعضهم ببعض وساروا بين البسط والقبض وازدحمت الأمم وقامت الحرب على قدم ، وقاتلت أبطال العجم وضربت بحرابها ، ورمت بصفاحها وفوقت بسامها، وأظلم الجو من الغبرة فى تلك الآفاق ، واعتمدوا على الضرب بالأسياف الرقاق ، وطعنت العرب بالرماح الدقاق ، وقلعت عرب اليمن بنبالها الأحداق ، ودنت الأعمار إلى المحاق ، وبلغت الأرواح التراق ، وعظم الأنين والزعاق ، وصبرت الأعاجم على ما لا يطاق،

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٤٩ .

وسقاهم العرب من أسنة رماحهم كأس الفراق ، ولم يزالوا فى القتال الى أن ذهبت الأنوار وجاء الليل ومضى نور النهار ، وفى أخر اليوم قدم القعقاع بن عمر ومعه اثنا عشر ألف فارس فقويت قلوب المسلمين بقدوم عساكر الموحدين وأعلنوا بكلمة التوحيد فدوت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والحجر والشجر ، فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به ارتعدت فرائصهم فاستقبلوهم بنيات صادقة ، وهمم متوافقة ، وأعلنوا بذكر كلمة الحق والصلاة على سيد الخلق فبذلوا صوارمهم فى الأعداء ، وأوردهم شراب الردى ، وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة وطلقوا الدنيا بتاتا ، وعلموا أنهم يصيرون أمواتا ، وصاروا بعد الألفة أشتاتا فوقعت الهزيمة على عسكر العجم وحمل المسلمون فى آثارهم وخذلهم الله فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا وهرب الباقون وأخذ المسلمون مدينة نشاور وغنموا ما فيها من الاموال ، وكان شيئا لا يقع عليه حصر وأقاموا فيها وبنوا الجامع وذكروا الله فيه ذكرا كثيرا وأكمل الله لهم فتوح العراق ، وكتبوا كتابا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمونه بذلك وبعثوا الخمس فوصل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسّر بذلك سرورا عظيما فحمد الله تعالى كثيرا وسرت المسلمون سرورا زائدا على ما فتح من بلاد كسرى وأعمالها على يد سعد بن أبى وقاص واستوطنوا البلاد رضى الله عنهم أجمعين .

ذكر فتوح البهنسا وأهناس وأعمالها وفضائل جبانتها

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

اعلم وفقك الله أن مدينة البهنسا ذكر بعض المفسرين أن الله سبحانه وتعالى ذكرها فى كتابه العزيز بقوله عز وجل فى حق عيسى عليه السلام – وجعلنا ابن مريم وأمة آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين – قال هى أرض البهنسا ،وكان من أمر عيسى عليه السلام ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، واستشهد بها زهاء من خمسة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ منهم من الأعيان والأمراء زهاء من أربعمائة ، ويتبعهم من الأشراف والصحابة نفر كثير ، منهم على بن عقيل بن أبى طالب والحسن بن صالح بن الحسين بن على بن

أبى طالب الذى عمر جامعا بها ، وكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى وزياد بن أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب والفضل بن العباس عم رسول الله ﷺ .

وسنذكر من استشهد من الصحابة الأعيان بها إن شاء الله تعالى عند الفتوح وأبنائهم وجماعة كثيرة ، وذكر جماعة من السادات الأخيار أن من زار جبانة البهنسا خاض فى الرحمة حتى يعود ومن زارها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنه لا يزورها مهموم إلا فرج الله همه ، ولا مغموم إلا أذهب الله غمه ، ولا صاحب حاجة إلا قضيت بإذن الله عز وجل ، والأماكن المستجاب فيها الدعاء منها عند مجرى الحصى ومقطع السيل وأن هناك خلقا كثيرا من الشهداء ، ومشهد الحسن بن صالح بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وعند قبر زياد بن أبى سفيان بن الحرث ، وعند قبر عبد الرزاق من داخل الباب ، وعند معبد عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وعند قبور الشهداء بسفح الجبل ، وقبليها مكان يعرف بالمراغة قبل الجبانة عندها قبور الشهداء هناك بسفح الجبل .

روى جماعة من الصالحين أنهم قد جاوروا الجبانة المذكورة ، وكانوا من أرض المشرق وجماعة من أكابر الصالحين من أرض المغرب من أقصى الأندلس وأنهم رأوا هذه الفضائل بانت لهم فضائل وأنوار وشاهدوا ذلك عيانا ، وروى أصحاب التاريخ رضى الله عنهم أنه لم يكن بأرض مصر من البحيرة مشهد أكثر من أرض البهنسا وأن مجرى الحصى عند منقطع السيل من الجهة الغربية قتل هناك خلق كثير واستشهد بها أربعمائة رضى الله عنهم أجمعين ، وسنذكر ذلك عند الفتح إن شاء الله تعالى . أما فضائل البحر اليوسفى الذى المدينة على جانبه فهو أكثر عجائب ، منها أنه غزير البركة لأنه يفيض حتى يروى ما حوله من القرى والبلدان من قليل من زيادة النيل ، ومنها أنه إذا زاد النيل شيئا قليلا يزاد فيه شىء كثير ، ومنها أنه اذا انقطع عنه مدد النيل تفجرت من أصله عيون فصارت نهرا جاريا وهذا لا يوجد بغيره أبدا من الأنهار ، ومنها أنه ينقسم بأرض الفيوم ماء يسير فيروى زراعات وأراضى شتى وضياعا وهذا لا يوجد لغيره أبدا ، ومنها أنه دفن فيه يوسف الصديق عليه السلام وأقام إلى زمن موسى عليه السلام فازداد بذلك بركة ومنها أنه شقه جبريل عليه السلام بخافقة

من جناحه بأمر الله عز وجل للسيد يوسف عليه السلام وبين صاحب مصر كلام بعد فراغ السنين المجدبة ، فإنه لما اجتمعت بنو اسرائيل عند يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة على ذلك وذكروا ذلك لملك مصر .

فقال : ملك مصر يا يوسف رد على ملكى فاجتمع رأيهم على الفرقة والقسمة فقسمت الأرض : أى أرض مصر ، فوقع الجانب الغربى ليوسف عليه السلام ، وكان قفرا رمالا وتلالا ، فأراد أن يجرى له نهرا من النيل ، فجمع له مائة ألف عبد ودفع لهم المساحى والزنابيل وأمرهم أن يحفروا من الجهة القبلية عند فمه الآن فحفروا ثلاث سنين ، وقد أجرى لهم مؤنة من خزائنه ، فكان كلما جاء الليل سد ما حفروا ففعل من الجهة الشرقية كذلك إلى سبع سنين حتى أعياه ذلك ، وقلق قلقا شديدا فأوحى الله إليه يا يوسف قد استعنت برجالك ومالك ، ولم تستعن بى وعزتى وجلالى لو استعنت بى لحفرته لك فى أقل من طرفة عين فخر ساجدا لله تعالى وهو يقول : سبحانك ما أعظم شأنك وأعز سلطانك، ثم قام من سجوده ونزع أثوابه واغتسل ولبس المسوح وخرج إلى الربوة وخر ساجدا متضرعا إلى الله تعالى فأوحى الله إليه ارفع رأسك فقد قضيت حاجتك .

ثم أمر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام فخرقه بخافقة من جناحه ، وقال بعضهم بطرف ريشة من جناحه من فمه من الجهة القبلية إلى آخر الفيوم فى أقل من طرفة عين بقدرة الله تعالى ، فعمر يوسف عليه السلام قناطر وبنى مدينة الفيوم وقسم الأرض بينه وبين إخوته وبنيه فكانت أرض البهنسا لأفرائيم بن يوسف ، فشرع فى عمارتها وقطعت الأحجار وعمرت الأسوار والقناطر ، وكان النهر يجرى من وسطها من الجهة القبلية ، ثم يخرج من الجهة البحرية إلى زمن الإسلام وسنذكر ذلك فى الفتح إن شاء الله تعالى ، وكان لها من الأبراج والرساتيق ما لا يوصف وسكنها جماعة من بنى اسرائيل واتخذوا دورا ومساكن ، وذلك جميعه غربى مصر ، وأرض البهنسا إلى آخر الصعيد من الجهة الغربية كلها مختصة ببنى اسرائيل لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، وجعل يوسف عليه السلام هؤلاء العبيد خولة فلاحين زراعا بأرض البهنسا والفيوم وغيرها ، وشرع فى عمارتها

وغرست فيها الأشجار على جانب البحر اليوسفى من الجهة الشرقية والغربية .

وكانت المرأة تخرج بمكتلها ومغزلها فى يدها والمكتل على رأسها فلا ترجع إلا وقد امتلأ من جميع الثمار من غير أن تمس شيئا بيدها فلما عصت بنو اسرائيل وجحدوا نعمة الله عز وجل وعملوا المعاصى نزع الله تلك النعمة من أيديهم وأعطاها لغيرهم ، فاحتووا على الملك دونهم بجحودهم نعمة الله وقتلهم أنبياء الله الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى اتخذوهم أذلة بعد أن كانوا سادات واستعملوهم خولة وفعلة وبنائين وحجارين ونجارين واستخدموا نساءهم وأبناءهم ، ولم يزل بنو اسرائيل فى أضيق عيش وأعظم بلاء وأشد كربة وأعظم بلية من تكليف ما لا يطيقون حتى أنقذهم الله عز وجل بمبعث موسى عليه السلام ، وليس هذا الكتاب مختصا بذلك ، واحتواء على المدائن والمزارع والبساتين .

ذكر خروج عيسى عليه السلام من مصر وإقامته بأرض البهنسا

قال الله تعالى ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ (١)

الآية ، وتقدم أنها البهنسا على اختلاف المفسرين والواقدى وابن اسحق وابن هشام وأصحاب السير وأهل التفسير مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وابن عباس ، ومن تكلم فى هذا الكتاب العجيب الذى لو كتب بالذهب لكان قليلا وقد جمع فيه كتب كثيرة وتواريخ وتفاسير وفتوحات . قالوا : كان مولد عيسى لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وهرقل كما تقدم فى فتوح الشام وكان بالبهنسا قنطاريوس ، والله أعلم باسمه .

فلما سمع الملك هيردوس بخبر المسيح قصد قتله ، وذلك أنهم نظروا إلى نجمه وقد طلع فعرفوا ذلك بحساب لهم فى كتاب لهم فبعث الله ملكا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هيردوس وأن يعلم مريم أن تخرج إلى أرض مصر فإنه إن ظفر بولدك قتله ، فإذا مات

(١) سورة المؤمنون : الآية : ٥٠ .

هيردوس فارجعى إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسى على حمار له حتى دخل مصر ، وورد أرض البهنسا وهى الربوة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز ﴿ **وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ [1] وهناك بئر فى المعبد يستشفون بمائها من الأمراض وهى التى كانت مريم وابنها يستقيان منها ويتوضآن منها للصلاة ، وكان هناك سرب تحت الأرض قيل إن مريم لما دخلت بولدها أرض البهنسا وجدا بئرا وليس عليها رشاء ، فطلب عيسى عليه السلام الماء ليشرب بعد أن عطش عطشا شديدا وبكى فحزنت أمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه ، وهى من ذلك اليوم تزيد ويعرف منها زيادة النيل فجعل النصارى لها عيدا إلى يومنا هذا ، وهناك دير وزراعات والله أعلم ، ثم دخل مدينة البهنسا وأقام بها اثنتى عشر سنة وأمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين حتى تم لعيسى المدة المذكورة .

روى محمد الباقر ، قال لما جاء عيسى إلى البهنسا وهو مع أمه له ابن شهرين كأنه ابن سنتين ، فلما كمل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به إلى الكتاب بأرض البهنسا فأقعده المؤدب بين يديه وقال له قل بسم الله الرحمن الرحيم . فقال عيسى بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له المؤدب قل أبجد فرفع عيسى طرفه وقال أتدرى ما أبجد ؟ فعلاه المؤدب بالدرة ليضربه . فقال له يا مؤدب لا تضربنى إن كنت لا تدرى فاسألنى حتى أعرفك. فقال قل لى .

فقال انزل من على مرتبتك فنزل من على مرتبته وجلس عيسى مكانه ، ثم قال الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، والجيم جلال الله ، والدال دين الله ، والهاء هوية جهنم وهى الهاوية والواو ويل لأهلها ، والزاى زفير جهنم ، والحاء حطت الخطايا عن المستغفرين، والكاف كلام الله لا مبدل لكلماته ، ولاصاد صاع بصاع ، والقاف قرب حيات جهنم من العاصين فقال لها المؤدب خذى بيد ابنك فقد علمه الله تعالى فلا حاجة له بالمؤدب .

حدثنا الحسين ومحمد بن الحسن المقرى . قال حدثنا الحكيم محمد بن أحمد بن حمدون . قال حدثنا محمد بن حمدون بن خالد ؟ قال حدثنا الحكم بن نافع عن

(١) سورة المؤمنون : الآية : ٥٠ .

إسمعيل عن ابن أبى مليكة عـن عطية عن أبى سعيد الخدرى . قـال قـال رسول الله ﷺ « إن عيسى عليه السلام أرسلته أمه إلى المكتب ليتعلم ، فقال له المعلم قل بسم الله الرحمن الرحيم . فقال عيسى عليه السلام . وما بسم الله الرحمن الرحيم ؟ .

فقال المعلم : لا أدرى . فقال عيسى : الباء بهاء الله ، والسين سناء الله والميم ملك الله » إلى آخر ما جاء من الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام بأرض البهنسا .

قال وهب : كان أول آية أراها عيسى عليه السلام بمدينة البهنسا للناس فى صغره أن أمه كانت نازلة فى دار بالبهنسا من أرض مصر عند دهقان من دهاقنة الملك أنزلها فيها يوسف النجار عنده حين أتى بها من أرض الشام إلى مصر ، وكانت داره مأوى المساكين ، فسرق للدهقان مال جزيل من خزانته وكان الدهقان من أخصاء الملك صاحب البهنسا ولم يتهم المساكين فحزنت مريم على مصيبة الدهقان صاحب ضيافتها ، فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أمه .

قال : يا أماه أتحبين أن أدلك على ماله ؟ قالت نعم قال قولى له يجمع المساكين الذين كانوا فى داره . فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع المساكين الذين كانوا فى داره . فلما اجتمعوا أتى إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فجعل المقعد على كاهل الأعمى وقال له قم به . فقال له الأعمى إنى ضعيف عن ذلك . فقال له كيف قويت على ذلك البارحة ، فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام به ، فلما استوى قائما وهو حامله أوصله إلى كوة الخزانة . فقال عيسى عليه السلام : هكذا أخذ مالك البارحة ، لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينه .

فقال الأعمى والمقعد : صدقت فردا على الدهقان ماله فوضعه الدهقان فى خزانته وقال يا مريم خذى نصفه .

فقالت : إنى لم أخلق لذلك ، ثم قال الدهقان أعطيه لابنك . قالت هو أعظم منى شأنا ، ثم لم يلبث إلا قليلا وعمل لولده عرسا فجمع إليه أهل المدينة كلهم فكان يطعمهم شهرين ، فلما انقضى ذلك زارته أكابر البلاد وملوكها وليس عنده طعام ولا شراب ولا أدام، فلما اجتمعوا أمر عيسى عليه السلام بجرار الخمر الفارغة أن تملأ ماء ، ثم مر بيده على أفواهها وهو يمشى فكلما مرت يده على جرة امتلأت شرابا هذا وهو ابن اثنتى عشرة

سنة ، فازدادت أهل البهنسا فيه اعتقادا ومن حولها من المدائن والقرى والسواد من أرض مصر وله آية أخرى بأرض البهنسا .

قال السدى : كان عيسى – عليه السلام – يحدث الصبيان فى المكتب بما تصنع آباؤهم ، ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ، فينطلق الصبى إلى أهله ويبكى عليهم حتى يعطوه شيئا فيقولون له من أخبرك بهذا ، فيقول عيسى فحبسوا أولادهم : أى أهل البهنسا عنه وقالوا لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم فى مكان فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم . فقالوا ليس هنا أحد . فقال : ما فى هذا البيت قالوا خنازير . قال عيسى كذلك يكونون إن شاء الله تعالى ففتحوا عليهم الباب فوجدوهم خنازير ، ففشا ذلك فى الناس وهابه الناس .

قال السدى : لما نزل عيسى عليه السلام بأرض البهنسا نزل فى قرية من قراها على رجل فأضافهم وكان للملك خباز فجاء ذلك الرجل ذات يوم وهو مغتم حزين فدخل بيته ومريم عند زوجته . فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه كئيبا ؟ قالت لا تسألينى . فقالت لها أخبرينى لعل الله أن يفرج عنك . قالت لها إن ملك البهنسا إذا خرج من مدينته يجعل على كبير كل قرية يوما يطعمه ويسقيه الخمر فإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم علينا وليس عندنا سعة .

قالت مريم : قولى له لا يهتم فإنى آمر ابنى أن يدعو له فيكفى ذلك فذكرت مريم ذلك لعيسى عليه السلام . فقال عيسى عليه السلام إن فعلت ذلك يقع شىء فقالت له أمه لا تبال فإنه أحسن إلينا وأكرمنا .

فقال عيسى : قولى له : اذا قرب الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمينى ، ففعل ذلك واذا بالملك قد أقبل فارتجت الأرض من الطبول والزمور والصناجق وأقبلت العساكر، فدعا عيسى عليه السلام ربه عز وجل فتحول ماء القدور لحما وطعاما ملونا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثلها قط ، فلما أكل الملك ذلك الطعام وشرب سأل الدهقان من زين لك هذا الخمر . قال من أرض الفيوم فلم يصدقه .

وقال للدهقان : إنه يأتينى منها الخمر والعنب لعصره وليس يساوى هذا . فقال من

أرض أخرى ، فلما خلط عليه الكلام أنكر عليه ؟ فقال أنا أخبرك : عندى غلام لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وأنه دعا الله تعالى حتى جعل الماء خمرا ، وكان للملك ولد يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه . فقال إن كان كلامك صدقا فليدع ربه أن يحيى لى ولدى ، فدعا عيسى وأعلمه بذلك . قال أفعل لكنه إن عاش وقع شىء كثير . فقال الملك لا أبالى بعد أن أراه . فقال عيسى إن فعلت ذلك أتتركونى أنا وأمى نمضى حيث جئنا .

قال الملك : نعم فدعا الله تعالى فأحيا الغلام ، فلما رآه أهل المملكة قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكل أموالنا هذا الملك بظلمه حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتلوهما ، فذهب عيسى وأمه والآيات فى ذلك كثيرة يطول شرحها ذكرها أبو اسحق الثعلبى فى عرائسه ، والله تعالى أعلم .

ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة رضى الله عنهم

قالت الرواة بأسانيد صحيحة عمن حضر الفتح من أصحاب السير والتواريخ مثل الواقدى وأبى جعفر الطبرانى وابن خلكان فى تاريخ البداية والنهاية ، ومحمد بن اسحق وابن هشام وكل منهم دخل حديثه فى الآخر لما فى ذلك من اختلاف الرواة ممن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصحابة رضى الله عنهم .

قالوا : وحضر ذلك معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص أمير الجيوش على مصر وأخيه محمد وخالد بن الوليد وابنه سليمان وقيس بن هبيرة المرادى والمقداد بن الأسود الكندى وميسرة بن مسروق العبسى والزبير بن العوام الأسدى وابنه عبد الله وضرار بن الأزور ، ومن بنى عم النبى ﷺ مثل الفضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفاء مثل عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن عثمان رضى الله عنه ، وقد اختصرنا فى أسمائهم خوف الإطالة وكلهم حدثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدثوا

بذلك أبناءهم رضى الله عنهم وقد أخذنا هذه الفتوح على قاعدة الصدق لإثبات فضل رسول الله ﷺ والصحابة رضى الله عنهم إذ لولاهم ما كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين ، ولقد نفذت سراياهم فى الأرض شرقا وغربا حتى ولت الأعداء منهم هربا وسكبوا دماءهم فى الأرض سكبا واستباحوا أموال الكفار نهبا وسلبا ، والله قد جعل منهم فى قلوب أعدائه خوفا ورعبا فهم نجوم الهداية وأهل الولاية قد شرعوا الشرائع ورتلوا القرآن ترتيلا . قال الله فى حقهم تعظيما وتبجيلا ، ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ [١] .

قال حدثنا أبو عبدالله بن المحدث المصرى غفر الله له : اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصانا وكذلك تواريخ منقولة وكنت قدمت المدينة يعنى البهنسا لزيارة جبانتها لما رأيت فى ذلك من الفضائل والفضل والأجر والخير الحبور ، فإن زيارتها تمحص الذنوب ، وتكشف الكروب ، وتحسن الأخلاق ، وتدر الأرزاق ، وتورث النصر على الأعداء وتكفى البأس والردى ، لما فيها من السادات الشهداء ، ممن باع نفسه لله ، وقتل فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ممن قال فى حقهم من له الفضل والمنة ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ [٢] فهم - ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [٣] فزرنا الجبانة فى ساعة الأسحار ، ورأينا ما فيها من الأنوار ، وبزيارة قبور السادة والأخيار ، نرجو من الله أن يحط عنا الذنوب والأوزار ، فلما قضينا الزيارة ،ولاحت لنا تلك الإشارة أخبرنا عن تلك السادة الأمجاد وما كان لهم من الصبر على الغزو والجهاد فسألنى بعض الأصحاب عن سبب فتح مدينة البهنسا ليدفع البأس والردى فحرك لذلك خاطرى ، حتى أسهرت لذلك ناظرى ، وطالعت التواريخ والفتوحات ، وتجنبت المزاحات ، حتى انتخبت هذا الكتاب فهو كالدرة اليتيمة التى لا يعرف لها قيمة ترتاح عند سماعه النفوس ، ويزول الهم والبؤس ،

---

(١) سورة الأحزاب : الآية : ٢٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية : ١١١ .

(٣) سورة آل عمران : الآية : ١٦٩ .

ويشجع فى ثواب لله العميم ، وذلك بعد الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين . ونحن نبتدىء .

بسم الله الرحمن الرحيم ، قال حدّثنى من أثق به من الرواة ممن تقدم ذكرهم . قال: لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه مصر والإسكندرية والبحيرة والوجه البحرى كله جميعا كان بالصعيد نوبة وبربر وديلم وصقالبة وروم وقبط ، وكانت الغلبة للروم ، كان أكثرهم روما ، ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أى جهة يقصد وهل يسير بالجيوش شرقا أو غربا وما يصنع فأشاروا عليه مكاتبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب إليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين على مصر ونواحيها إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سلام عليك ورحمة الله وبركاته :

أما بعد : فإنى أحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، والسلام على من بالمدينة من المهاجرين والأنصار والحمد لله قد فتحت لنا مصر والوجه البحرى والإسكندرية ودمياط ولم يبق فى الوجه البحرى مدينة ولا قرية إلا وقد فتحت وأذل الله المشركين وأعلى كلمة الدين ، وقد اجتمعت أصحاب رسول الله ﷺ من السادات والأمراء والأخيار المهاجرين والأنصار يطلبون الإذن من أمير المؤمنين فإنهم على الجهاد قلقون باعوا نفوسهم لله رب العالمين ،وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم ، وكتب هذه الأبيات :

صوارمنا تشكو الظمأ فى أكفنا	وأرماحنا تشكو القطيعة كالهجر
إليك افتقاد الحرب ياطيب الثنا	ويامن أقام الدين بالعز والنصر
فقد ولعت خير الكرام إلى العدا	بنو شيبة الحمد السرى وبنو فهر
وصالت لسؤى مع معد وغالب	وسادات مخزوم الكرام ذوى المفخر
تروم مسيرا للأعادى على شفا	تمكن من أعلاهم البيض كالسمر
ترى كل علج غائص فى دلاصه	تجعجع فى نقع تأجج كالجمر

بكل كميت صادق الوعد صائل ... يرى درعه الزاهي تمكن بالصبر
نرى الموت في وقع الوقائع مغنما ... ونكسب من قتل العدا غاية الأجر

(قال الواقدى) فلما فرغ عمرو بن العاص من الكتاب عرضه على أصحابه ، ثم طوى الكتاب وختمه واستدعى برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندى وسلم إليه الكتاب ودفع له ناق عشارية فاستوى على كورها وخرج يريد المدينة ، وهو يقول :

أسير إلى المدينة في أمان ... وأرجو الفوز في غرف الجنان
وأرجو أن يقرب لى اجتماعى ... وأعطى ما أريد من الأمانى
إلا يا ناقتى جدى وسيرى ... إلى نحو النبى بلا امتهان
وأقرئيه السلام وأنشديه ... كلاما صادقا حسن البيان
ألا يا أشرف الثقلين يا من ... به شرف المدينة والمكان
فكن لى في المعاد غدا شفيعا ... إذا ما قيل هذا العبد عانى

(قال الواقدى)ولم يزل سائرا ليلا ونهارا حتى قدم المدينة الطيبة الأمينة بعد صلاة العصر فدخل وأناخ ناقته على باب المسجد وعلقها بفضل ذمامها ، ودخل فى مسجد رسول الله ﷺ وسلم على قبره الشريف وصلى ركعتين بين القبر والمنبر ، ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب فسلم عليه . قال فرد علىَّ السلام وصافحنى ، وكان لما رآنى أقبلت وأنا فرحان قال سالم جاء بكتاب من مصر مرحبا به .

ثم التفت وعن يمينه على بن أبى طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله السادات والمهاجرون والأنصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد ابن زيد وطلحة بن عبدالله وبقية الصحابة رضى الله عنهم حوله ، ثم ناولته الكتاب . فقال ما وراءك يا سالم ؟ . فأنت سالم فى الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

فقلت : الخير والبشرى والأمن يا أمير ، فلما قرأ الكتاب فرح استبشر وكانت تلك الغنائم قد وصلت إلى المدينة قبل ذلك بأيام ،وقسمت على الصحابة رضى الله عنهم ، ثم إنه استشار عمر رضى الله عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن حضر فأشار عليه

على بن أبى طالب أن عمرو بن العاص لا يسير بنفسه ليكون أهيب له فى قلوب أعدائه وأن يجهز جيشا من عشرة آلاف فارس ويؤمر عليهم خالد بن الوليد رضى الله عنه فإنه سيف لله. فقال عمر صدقت وقد قال رسول الله ﷺ « خالد سيف الله تعالى » وفى رواية « أن خالدا سيف لا يغمد عن أعدائه » ثم بات سالم لك الليلة . فلما أصبح صلى الصبح فى مسجد رسول الله ﷺ .

ثم أقبل على أمير المؤمنين عمر يسأله الجواب . فعندها استدعى عمر رضى الله عنه بدواة وقرطاس ، ثم كتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله على مصر ونواحيها عمرو بن العاص ، سلام عليك ورحمه الله وبركاته .

أما بعد . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، والسلام عليك وعلى من معك من المهاجرين والأنصار ورحمة لله وبركاته ، وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك ، فاذا قرأت كتابى هذا فاستعن بالله واربط الخيل وأرسل الأمراء لكل بلد أمير ليقيموا شرائع الدين ويعلموا الأحكام .

ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ وأمر عليهم خالد بن الوليد وأرسل معه الزبير بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود وغانم بن عياض الأشعرى ومالكا الأشتر وجميع الأمراء وأصحاب الرايات ينزلون على المدائن ويدعو الناس إلى الإسلام، فمن أجاب فله ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى فليأمروه بأداء الجزية ، وإن عصى وامتنع فالحرب والقتال وأمرهم إذا حاصروا مدينة أن يشنوا الغارات على السواد وأن بمصر مدينتين كما بلغنى إحداهما يقال لها أهناس قريبة من مصر والثانية يقال لها البهنسا أمنع وأحصن وبلغنى أن بها بطريقا طاغيا سفاكا للدماء يقال له البطليوس وهم أعدا م بطارقة مصر كما بلغنى ، وأنه ملك الواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وعليك بتقوى الله فى السر والعلانية ، أنت ومن معك ، وأنصف المظلوم من الظالم، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوى ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وأقم أنت

بمصر ، وأرسل الأجناد وإن احتجت إلى مدد فأرسل وكاتبني ، وأنا أرسل لك المدد ، والمعونة من الله عز وجل ، وأسأل الله تعالى أن يكون لكم بالنصر المعونة والفتح ، والحمد لله رب العالمين .

ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله ﷺ ودفعه إلى سالم فأخذه وودع الصحابة وودع قبر رسول الله ﷺ بعد أن توضأ وصلى ركعتين وسار ولم يزل سائرا حتى قدم مصر فوجد عمرا والصحابة نازلين بأرض الجيزة ، وكان زمن الربيع ، وهو جالس فى خيمته وأصحابه عنده، وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الأزرق والأحمر والأصفر سعتها ثلاثون ذراعا ، وقد فرش فيها فرشا كان للقبط ، وهو جالس يتحدث مع المقداد وخالد والفضل وغانم والأمراء جميعهم رضى الله عنهم وهو كأحدهم . قال سالم فأنخت ناقتى فسمعت عمرا يقول ، وأنا خلف الخيمة قد أبطأ سالم . فقال خالد كأنك به وقد أقبل فهويت فأحس خالد بى من داخل الخيمة ولم يرنى بعينه ولا غيره لا علم بى ، فقال سالم . فقلت لبيك يا أبا سليمان . فقال مرحبا بك يا سالم وحياك الله .

ثم تقدمت وسلمت على عمرو وخالد وعلى بقية الأمراء . ثم ناولته الكتاب فقرأه إلى آخره وفهم ما فيه . فلما سمع الأمراء ما فيه فرحوا بذلك فرحا شديدا .

ثم إن عمرا استشار الأمراء فى ذلك ، وكانوا لا يفعلون شيئا إلا بمشورة بعضهم ولذلك مدحهم الله فى كتابه العزيز بقوله عز وجل ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ (١) فأشاروا عليه أن يرسل خلف الأمراء الجنود المتفرقة فى البحيرة شرقا وغربا وأن يرتب الجيوش ليقصدوا الصعيد ويتوكلوا على الله عز وجل .

(قال الواقدى) وكانت الصحابة لما فتحت مصر الوجه البحرى قد تفرقوا فمنهم فى الإسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس ، وكان أكثرهم بوسط البحيرة فى المكان المعروف بالمنزلة مثل القعقاع بن عمرو التميمى وهاشم بن المرقل وميسرة بن مسروق العبسى والمسيب بن نجيبة الفزارى ، فعندها استدعى عمرو رضى الله عنه بالنجابة والسعاة

---

(١) سورة الشورى : الآية : ٣٨ .

وعمرو بن أمية الضمرى ومثل هؤلاء رضى الله عنهم أجمعين ، وكتب الكتب وأرسلها للأمراء فعندها أجابوا بأجمعهم لأنهم رضى الله عنهم كانوا أشوق للقتال من العطشان للماء البارد الزلال ، وتركوا فى البلاد والمدائن من يحفظها أو يحرسها خيفة من العدو وأقبلوا نحو مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبر عمرو رضى الله عنه بقدومهم فدخل دار الإمارة ، وهى قريبة من الجامع العمرى ، وأقبلت السادات والأمراء يسلمون عليه ، وكان ذلك نهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية ، وقيل اثنتين وعشرين والله أعلم .

قال حدثنا محمد بن عبد الله . قال حدثنا عبيدة بن رافع عن أبيه جحيفة عن جابر ابن عبد الله الأنصارى ، وحدث بذلك ابن سلمه رضى الله عنه . قالوا لما قامت الأمراء والأجناد من الصحابه رضى الله عنهم أقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو رضى الله عنه بالناس . فلما فرغ من خطبته أمر الناس أن لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقرأ عليهم الكتاب .

فلما فرغ من قراءته وثبوا كلهم كالأسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها ، وقالوا كلهم سمعنا وأطعنا ، ولأرواحنا فى سبيل الله بذلنا ، وللجهاد طلبنا ، وفى الثواب رغبنا ، وإلى الجنة اشتقنا ، ففرح عمرو بذلك . وقال إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن أولى عليكم سيف الله، والنقمة على أعداء الله ، صاحب القتال الشديد ، والبطل الصنديد ، خالد بن الوليد .

(قال الواقدى) وكان خالد بن الوليد صديق عمرو فى الجاهلية وأسلما فى يوم واحد ، ثم التفت عمرو الى خالد ، وقال ادن منى يا أبا سليمان فدنا منه ، فقال عمرو يا معاشر أصحاب رسول الله ﷺ إنكم كلكم لكم الفضل وإنى لست بأفضلكم وفيكم من هو ذو قرابة ونسب من رسول الله ﷺ وأنتم تعلمون ما فتح الله على يديه من البلاد ، وما أذل الله على يديه من الأجناد .

(قال الراوى) فوثب الفضل بن العباس رضى الله عنه ، وقال أيها الأمير إنا بذلنا أنفسنا فى رضا الله عز وجل ، وما نريد بذلك إلا رفعة عند الله عز وجل ، وأن خالدا من

أخيارنا ولو أمرت علينا عبدا حبشيا لامتثلنا أمره فى رضا الله عز وجل فناهيك بخالد ، وهو سيد سادات قريش عزيز فى الجاهلية والإسلام ، فتهلل وجه خالد وعمرو فرحا ، ثم أمرهم بالنزول جميعا بأرض الجيزة قريبا من الهرم الشرقى ، وأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر رضى الله عنهم أجمعين .

(قال الراوى) بسنده إلى الواقدى وابن اسحق وابن هشام لما تكاملت الجيوش ذلك فى ربيع الآخر من السنة المذكورة صلى عمرو بأصحابه صلاة الصبح ، ثم قام من ساعته يمشى على قدميه وحوله جماعة من المسلمين ، ومعه خالد بن الوليد والمقداد بن الأسود الكندى والزبير العوام الأسدى والفضل بن العباس الهاشمى وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبدالله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال والمسيب بن نجيبة الفزارى والعباس ابن مردس وأولاد عبد المطلب وبقية السادات حتى طلع على رابية وأشرف على الجيش ، فلما رأى اجتماعهم سر سرورا عظيما ، ثم أمر بعرض الجيش فتقدمت الأمراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيشه وبنى عمه على عمرو بن العاص ، فكانت عدتهم فيما ذكر ، والله أعلم ستة عشرة ألف فارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية ، معتقلين بالرماح الخطية ، راكبين الخيول العربية ، من خيار أمة خير البرية ، فعند ذلك قال لهم عمرو : يا معاشر الأمراء أصحاب الرايات والسادات الأخيار إن خالدا أمير عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ، وكونوا كلمة واحدة ، ونازلوا المدائن والقلاع ، وشنوا الغارات على السواد ولا تقاتلوا قوما حتى تدعوهم إلى الشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن أبوا فأداء الجزية ، فأن أبوا فالقتال بينكم وبينهم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين – وأرسلوا الطلائع ولا يكون فى الطلائع إلا كل فارس كرار فى الحرب والقتال وثبتوا أنفسكم ولا يغرنكم كثرة أعدائكم فأنتم الغالبون ، فقد ذكر الله فى كتابه المكنون المبين ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ (١) وأحسنوا نياتكم وثبتوا عزائمكم ، فأنتم الغالبون والله

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٤٩ .

معكم ، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول الله ﷺ وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجون إلى وصيتى بارك الله فيكم .

(قال الراوى) ثم إن عمرا استدعى بأصحاب الرايات ، فكان أول من تقدم بعد خالد الزبير بن العوام رضى الله عنه وهو راكب على جواده الأغر شاك سلاحه فسلمه الراية وأمره على خمسمائة ، فلما خرج بعسكره هز الراية ، وأنشد يقول :

أنا الزبير ولد العـــــوام	ليث شجاع فارس الإسلام
قرم همام فارس هجـــام	أقتل كـل فارس ضـــرغام
وإننى يوم الوغى صــدام	وناصر فـى حانها الإسلام

قال: ثم استدعى بالفضل بن العباس وأمره على خمسمائة فارس من أصحاب رسول الله ﷺ فتسلم الراية بيده وتوجه ، وهو يقول :

إنى أنا الفضل أبى العباس	وفـارس منازل حـــواس
معى حســـام قاطع للراس	وفلق الهامات والأضراس
أفنى به الأعـداء بلا إلباس	وما علـى فيهـم من باس

قال : ثم استدعى بزياد بن أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وسلمه الراية ، وكان رضى الله عنه فارسا عظيما وبطلا صنديدا فتسلم الراية وتوجه . وهو ينشد :

أنا الفارس المشـــــهور يوم الوقائع	بحد حسام فـى الجماجم قاطع
ورمحى على الأعداء ما زال طائلا	إذا التحم الأعـداء للضد قاطع
وعزمى فى الهيجـاء ما زال ماضيا	برأى ســديد للمحاسن جامع
أصول على الأعداء صـــولة قادر	وأشـبعهم ضـربا ببعض لوامـع
أمام الوغى من آل ذروة هاشـــم	حـماة البرايا كالبدور الطـوالع
أنا ابن أبى سفيان من نسل حارث	تموت العــدا منى وكل منازع

قال : ثم استدعى من بعده عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأمره على

خمسمائة فارس فتسلم الراية وتوجه وهو يقول :

وحق من أنزل الآيات في السور — وأرسل المصطفى المبعوث من مضر
لا أثني عن لقا الأعداء ولو جمعت — حماة أبطالهم يوما كما الدبر
حتى أبيدهم ضربا وأتركهم — فوق الثرى خمشا مخدوشة الصدر
بكل قرم همام ماجد نجد — إلى الوقائع يوم الحرب مبتدر
نحن الكرام الذى للدين أرسلنا — أمام دين الورى غيث الندا عمر

قال : ثم استدعى من بعده جعفر بن عقيل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا ابن عقيل من لؤى وغالب — همام شجاع للأعادى غالب
حماة الوغى أهل الوفا معدن الصفا — إلى جود يمنانا مسير الركائب
ولا يعرف المعروف إلا بعرفنا — ولا الجود إلا جودنا كالمواهب
علا مجدنا فوق الثنا وسناؤنا — علا شرفا من فوق كل الكتائب
فيا ويل أهل البغى منا إذا التقت — فوارسنا فيهم بحد القواضب

قال : ثم استدعى من بعده أخاه الفضل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتسلمها وتوجه وهو يقول :

إنى أنا الفضل أبى عقيل — أسير للحرب بلا تمهيل
بحد سيف قاطع صقيل — به أبيد الكافر الجهول
أنا ابن عم أحمد الرسول — المرسل المبعوث فى التنزيل

قال : ثم استدعى من بعده المقداد بن الأسود الكندى وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فوجه وهو يقول :

أنا المقداد فى يوم النزال — أبيد الضد بالسمر العوالى
وسيفى فى الوغى أبدا صقيل — طليق الحد فى أهل الضلال

معى من آل كندة كـل قرم ... يجيد الطعن فـى يوم النزال
فياويل العـــدا والروم مـــنا ... إذا التحم الفوارس فى القتال
وهم صرعى كأعجاز لنخل ... بقطعها الفــــوارس بالنصال

قال : ثم استدعى من بعده عمار بن ياسر وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا الهمام الفــــارس الكرار ... أفنى بســـيفى عصبة الكفار
إن جالت الخـــيل بلا إنكار ... وقام ســوق الحرب من عمار
حمى لدين المصطـفى المختار ... صلى عليه الواحد القهـــــار
وعلى آله وصحـــبه الأخيار ... ما بان ليل وأضــــــاء نهار

قال : ثم استدعى من بعده العباس بن مرداس السلمى وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا العـــــباس ذو رأى قويم ... معى ســـادات آل بنى سليم
أذل بهم حماة البغـــــى لما ... ترى الهيجـــاء كالليل البهيم
وسيفى ماضى الحـدين أضحى ... لأهل الشرك والموت العمـيم
به أفنى الطغاة بكــــل أرض ... وأقتل كل أفــاك أثيـــــم
ونحن بنو ســـــليم خير قوم ... هدينا للصــــراط المســـتقيم

قال : ثم استدعى من بعده أبا دجانة الأنصارى رضى الله عنه وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أسير باســـــم الواحد المنان ... جهرا لأهل الكفر والطغيان
أذيقهم ضربا علـــــى الأبدان ... بكل هنـــــدى مبيد الجان
أنصر دين المصطفى العـدنانى ... صلـــــى عليه الملك الديان
وآله والصحـــــب والإخـــوان ... ما ناح قـمرى على الأغصان

قال : ثم استدعى من بعده غانم بن عياض الأشعرى رضى الله عنه وسلمه الراية وتوجه وهو يقول :

إنى إذا انتسب الفوارس أشعرى ... قرم همام فى المعامع عنترى
بحماة أبطال الأعادى نزدرى ... وبراحتى من القواضب أبترى
يوم التلاطم للفوارس مسكر ... وأحوم حومات الغزال الجؤذرى
فلأقتلن فوارسا وعوابسا ... وأذيقهم منى العذاب الأكبر

قال : ثم استدعى من بعده أباذر الغفارى وأمره على خمسمائة فارس وسلمة الراية فتوجه وهو يقول :

سأمضى للعداة بلا اكتئاب ... وقلبى للقا والحرب صابى
ولى عزم أذل به الأعادى ... وأرجو الفوز فيهم كالثواب
وإن صال الجميع بيوم حرب ... لكان الكل عندى كالكلاب
أذلهم بأبيض جوهرى ... طليق الحد فيهم غير آبى

قال : ثم استدعى من بعده القعقاع بن عمرو التميمى والمغيرة بن شعبة الثقفى وميسرة بن مسروق العبسى ومالكا الأشتر النخعى وذا الكلاع الحميرى والوليد وعقبة بن عامر الجهنى وجابر بن عبد الله الأنصارى وربيعة بن زهير المحاربى وعدى بن حاتم الطائى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم وقد اقتصرنا فى أشعارهم خوف الإطالة وكل واحد يسلمه راية ويؤمره على خمسمائة فارس قال فلما تكاملوا وتجهزوا خرج عمرو وأصحابه فودعهم وسارت الكتائب ، وتتابعت المواكب يطلب بعضها بعضاً وخلفهم الذرارى والصبيان حتى أتوا الجيزة ونزلوا بمكان يعرف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقرى والرساتيق وتقدمت الطلائع يتجسسون الأخبار ، وقد كان بدهشور بطريق عظيم من قبل مارنوس صاحب إهناس ، وكان فارسا مكينا وكلبا لعينا قاتله الله وكان يقول فى نفسه أنه يناظر البطليوس فى ولايته لكن البطليوس صاحب البهنسا لعنه الله كان أشد بأسا ، وأعظم مراسا ، وأكثر عددا ، وأقوى مددا ، وأوسع بلادا فكاتبه فى ذلك وكاتب روسال صاحب

الأشمونين وكاتب أقراقيس صاحب قفط ، وكان يحكم على أخميم وكاتب الكيلاج وكان يحكم إلى عدن والبحر المالح إلى بلاد البجاوةالنوبة وحد السودان تسامع الناس بمسير العرب إلى الصعيد وكاتبت الملوك بعضها بعضا وماج الصعيد بأهله إلى حد الواحات ووقع الرعب فى قلوبهم فعند ذلك وثب مكسوج ملك البجاوة وحليف ملك النوبة وجمعوا ما حولهم من أرض النوبة والبجاوة والبربر وأتوا إلى أسوان .

وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفايح الفولاذ فى كل قبة عشرة من السودان طوال القامة عراة الأجساد على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور وغيرها ومعهم الدرق والحراب والكرابيج والقسى والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون ،وكانت عدتهم عشرين ألفا .

فلما وصلوا أسوان خرجوا إلى لقائهم بعسكرهم وأعلموهم بأمرهم وساروا إليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فأنزلوهم وضيوفهم ثلاثة أيام ، ثم خرج بطريق أسوان ومعه جيش حتى وصلو إلى ملك قفط صاحب القرية القريبة من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسير معهم جيشا وساروا حتى وصلوا إلى أنصنا ، وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم ، وكان منجما ، وكان يحكم شرقا وغربا ، وكانت مدينته عظيمة على شاطئ البحر وبها جند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوه ثلاثون ذراعا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنائس وقلاع على أعمدة الرخام وغيرها فى المدينة ، فلما نزلت تلك العساكر على أنصنا خرج إليهم بطريقها جرجيس بن قابوس وتلقاهم وأرسل معهم ابن عم له يسمى قيطارس ، وكان فارسا شديدا فى أربعة آلاف فارس ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا بواد البهنسا عند بطريق يسمى قلوصا من بطارقة البطليوس .

فلما سمع بهم البطليوس خرج إلى لقائهم فى عسكر عظيم زهاء من خمسين ألف فارس من البطارقة وعليهم الدروع المذهبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهاج وعلى رؤوسهم التيجان المكللة باللآلئ والجواهر راكبين على خيول وبراذين مسرجة عليها سروج

الذهب الجنائب مغطاة بأغشية من الحرير الملون المرقوم بالذهب والفضة والخز ، وكان معهم خمسون صليبا طول كل صليب أربعة أشبار من الذهب تحت كل صليب ألف فارس على كل صليب رمانة من الذهب المنقوش وهم فى زى عظيم عجيب ، وقد أكثروا من الطبول والزمور وضرب القرون والمعازف حتى ارتجت الأرض ومعهم الجمال والبغال والجاموس ، فلما التقوا ترجلت الملوك والبطارقة للقائهم وسلم بعضهم على بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب ، فقال لهم البطليوس لا تطمعوا العرب فيكم ولا فى بلادكم فإنما مثل العرب كمثل الذباب إن تركته أكل وإن منعته فر وهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كاتبت لكم سنجاريب ملك برقة وكاتبت ملك ألواح وكأنكم بهم قد أتوا إليكم ولولا أننى أخشى أن العرب يأتون إلى بلادى لما يسمعون أنى خرجت إليهم فيشتغل جماعة بقتالكم وجماعة يأتون إلى بلادى فيملكونها ، وليس فيها من يذب عنها إذا خرجت معكم لكنت فى خدمتكم فإنا نجد فى الكتب القديمة أنهم إذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد قائمة .

قال كرماس الرومى ، وكان ممن أسلم بعد ذلك وحضر وحدث به يا معاشر الملوك والبطارقة إنى قد اطلعت على الكتب القديمة وفيها أنهم إن ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد بعد ذلك قائمة .

قال : فلما سمع الملوك ذلك صعقوا له ثم انتدب من بطارقته عشرين ألفا ممن عرفت شجاعتهم وبراعتهم وملك عليهم صاحب الكفور ، وكان كافرا طاغيا ، وكان اسمه بولص، وكان لعينا ودفع له صليبا من الذهب وعلما من الحرير الأطلس الأصفر مرقوما بالذهب فيه صورة الشمس ودفع لهم ما يحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملون وأوانى الذهب والفضة والصناديق المملوءة بالذهب والفضة والبراذين والبغال وعليها أحمال الحرير الملون وبعضها محمل بالمواكب يتلو بعضها بعضا حتى قربوا من مدينة ببا الكبرى فخرج إليهم بطريقها صندراس وتلقاهم وفعل معهم كما فعل البطليموس وأضافهم وجهز معهم جيشا عشرة آلاف فارس من صناديد بطارقته وولى عليهم بطريقا اسمه darديس ، وكان يناظر بطريق الكفور فى الشجاعة والقوة والبراعة وساروا حتى

قربوا من مدينة برنشت فخرج إليهم بطريقها فتلقاهم ، وأنه يناظر البطريق الأعظم رأس بطارقة الكوة ولم يزالوا سائرين حتى ملئوا الأرض شرقا وغربا هذا ما جرى لهؤلاء .

(قال الراوى) وأما ما كان من أصحاب محمد ﷺ فإنهم لما نزلوا قريبا من دهشور كما ذكرنا ، وكانت العيون من المسلمين من بنى طئ ومذحج ينزلون يتزيون بزى العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلوا بالعساكر المذكورة ، وكانوا حذاقا متفرسين ، فلما رأوا ذلك هالهم أمره .

(قال الراوى) حدثنى سنان بن قيس الربعى عن طارق بن مكشوح الفزارى عن زيد بن غانم الثعلبى ، وكان ممن حضر الفتوح وشهد الوقعة صحبة جيش خالد بن الوليد رضى الله عنه . قال بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج : ونحن على أهبة السفر إذ قدمت الجواسيس فأخبروا خالدا بقدوم العساكر .

فقال لهم : هل حرزتم الجيوش ، فقالوا نعم نحو مائتى ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين وغيرهم وهم فى أهبة عظيمة ومعهم ألف وثلثمائة فيل وعلى ظهورها الرجال كما وقع فى يوم حرب العراق ، فلما سمع الأمراء ذلك اضطربوا ثم ثبتوا جنانهم ، وقالوا ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ [١] .

قال خالد لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قرأ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ثم قرأ ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ [٢] ثم إن خالد قال لأصحابه ولا تهتموا لذلك واصبروا ﴿ **وأنتم الأعلون والله معكم** ﴾ [٣] فليست جموعهم بأكثر من جموع اليرموك ولا من جموع أجنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التى هى تاج عزهم ملكتم الوجه البحرى وقتلتم مائة من ملوكهم وبطارقتهم ، وقد صارت الشام واليمن والعراق

(١) سورة التوبة : الآية : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٤٩ .

(٣) سورة محمد : الآية : ٣٥ .

والحجاز بأيديكم ، وقد دانت لكم البلاد ، وقد كنتم قليلا فكثركم الله وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وقاتلتم مع رسول الله ﷺ ونصرتم بالملائكة ووعدكم على لسان نبيكم ﷺ أنه يستخلفكم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلكم ومن قتل منكم كان فى الجنة وتنتقل روحه إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فلما سمعوا كلامه تهللت وجوههم فرحا وقالوا يا خالد نحن كلنا بين يديك ، وقد وهبنا أنفسنا لله ابتغاء وجه الله ومرضاته .

(قال الواقدى) ثم إن خالدا وجه يزيد بن معرج التنوخى إلى عمرو بن العاص مسرعا وأعلمه بذلك فترك فى مصر ابن عمه خارجة ، وكان رجلا صالحا وأخرج معه أربعة آلاف فارس وترك فى مصر نحو أربعين فارسا من أصحاب رسول الله ﷺ وجاء اليهم أربعة آلاف فارس ، فلما أقبلوا سلموا عليه وقالوا كنا نحن نكفيك أيها الأمير .

فقال لهم : أعلم ذلك ولكنكم فى أول بلاد العدو وما ينبغى أن أقعد عنكم ، ففرحوا بذلك وتأهبوا للقاء العدو ، وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع يتجسسون الأخبار ، فلما كان فى بعض الأيام ، خرج الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل وأخواه على ومسلم وعبدالله بن الزبير وسليمان بن خالد بن الوليد، ومحمد فرجة بن عبدالله وعبدالله بن المقداد وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله ابن عمرو بن العاص وعمرو بن سعد بن أبى وقاص ، ومحمد بن مسلمة عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق وزياد بن المغيرة بن شعبة وتبعهم من السادات نحو أربعمائة سيد من أولاد الصحابة والأمراء أصحاب الرايات ، وألف وستمائة من أخلاط العرب من المهاجرين والأنصار لبسوا دروعهم ، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم ، وتنكبوا بحجفهم وساروا إلى قريب من دير هناك بسفح الجبل يعرف بدير المسيح يكشفون الأخبار ، فبينما هم كذلك إذا بغبار طلع إلى عنان السماء وانعقد ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : هذا غبار وحش قال بعضهم : لو كان كذلك لكان تقطع قطعا وتفرق فرقا ، وإنما هذا عسكر جرار وأن الخيل إذا داست بحوافرها ارتفع الغبار .

(قال الواقدى) حدثنا أبو الزناد عن عبد الله عن أبى مالك الخولانى عن طارق بن

شهاب الجرهمى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن نتحدث مع الفضل واذا بالغبار قد قرب منا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان ، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ثم لم يمهلوا دون أن حملوا .

(قال الراوى) وكان ضرا بن الأزور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل النجدة ، وساروا فى طريق الجبل على غير الجادة ، فبينما هم يسيرون إذا بالغبار قد ثار وانكشف عمن ذكرنا فلما عاينوهم أيقنوا بالهلاك ، فعندها وثب ضرار رضى الله عنه وقال : لا فرار من الموت فلم يمهلوهم دون أن داروا عليهم ، فرأوا أن لابد لهم من القتال والتقت الرجال بالرجال وصبروا صبر الكرام وأحاطت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان، فلله در ضرار لقد قاتل قتالا شديدا ، فلم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار جماعة وكبا به جواده فأسروه وأسروا جماعة من أصحابه ، وكان الذى قاتلهم رأس البطارقة صاحب ببا الكبرى ، فأوثقوا ضرارا وأصحابه كتافا وربطوهم على ظهور خيولهم وأرسلوهم إلى العسكر ، وانفلت من القوم مولى من موالى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، يقال له سالم فسار يجد فى مسيره ، حتى قدم على خالد وعمرو ، فعند ذلك وثب المسيب بن نجيبة الفزارى ورافع بن عميرة الطائى وأخذا معهما ألفا من أصحاب رسول الله ﷺ وساروا ومعهما رجل من أسلم من الجيزة يدلهم على طريق غير الجادة وكمنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذى أسر ضرار وأصحابه ، وقد اختفى عنهم الأثر .

فقال الدليل : أظنكم قد سبقتم القوم اكمنوا ههنا ، وكان الذى مضى بضرار وأصحابه خمسمائة فارس .

(قال الراوى) وكانت خولة بنت الأزور قد شق عليها أسر أخيها ضرار ، فلما سار المسيب ورافع وجماعتهما فى طلب أخيها ، تهللت فرحا وأسرعت فى لبس سلاحها وأتت إلى خالد وقد هم القوم بالمسير وقالت : أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر إلا ما سيرتنى مع هؤلاء عسى أن أكون مشاهدة لهم . فقال خالد للمسيب ورافع أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما ، فقالا السمع والطاعة ونزلوا بالمكان المذكور ، فبينما هم كذلك

كامنون إذا بغبرة قد لاحت لهم ، فقال لهم رافع أيقظوا خواطركم فأيقظت القوم هممهم ، فاذا قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه ،وهو ينشد ويقول :

ألا بلغا قـــومى وخـــولة أننـــــى ... أســـــير رهين مـــوثق اليـد بالقيد
وحولى علـــوج الروم من كل كافر ... وأصبحت معهـم لا أعـيد ولا أبدى
فلـــو أننى فـــوق المحجــل راكـبا ... وقائم حد العضــب قد ملكت يدى
لأذللت جمـــع الروم إذلال نقمـــة ... وأسقيتهم وســط الوغى أعظم الكد
فيا قـلب مت هـــما وحزنا وحسرة ... ويا دمع عينـى كن معـينا على خدى
فـــلو أن أقوامـى وخـــولة عندنا ... والزم ما كنا عـــليه من العهـــد
كبا بى جوادى فانتبذت على الوغى ... وأصبحت بالمقدور ولم أبلغن قصدى

(قـال الراوى) فنادته خـولة من مكمنهـا : قـد أجـاب الله دعاك وقبـل تضـرعك ونجواك، أنا خولة ، ثم كبرت وحملت وكبر رافع والمسيب . قال أكثر من ساعة وكنا إذا كبرنا تصهل الخيل إلهاما من الله تعالى ، فما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن آخرهم وخلص الله ضراراً وأصحابه ، وأخذنا خيل القوم وأسلابهم وسلاحهم وكانت أول غنيمة .

(قـال الراوى) ولما تخلص ضرار وأصحابه ركـب جوده عريانا وأخذ قناة كـانت مطروحة ، وحمل على القوم وهو يقول :

لك الحمد يا مولاى فى كل سـاعة ... مفــــرج أحـزانى وهـــمى وكربتى
فقد نلت ما أرجوه من كل راحـــة ... وجمعـت شــــملى ثم أبرأت علتى
سأفنى كلاب الروم فى كل معـرك ... وذلك والرحــــمن أكـــبر هـمتى
فيا ويل كلب الروم إن ظفرت يدى ... به سوف أصليه الحســـــام بنقمتى
وأتركهم قتلى جميعا على الثـرى ... كما رمة فى الارض من عظم ضربتى

(قـال الراوى) فلمـا فـرغ ضـرار من شعره إذا بالخيل قـد أقبلت منهـزمة ، وكـان السبب فى ذلك أنه لما حملت الروم على الفضل بن عباس صاح هو وبنو عمه ولم يرعهم

وصبروا صبر الكرام ، واشتد الزحام ، وعظم المرام ، وجرت الدماء ، واسودت السماء وحمى الوطيس ، وقل الأنيس ، وهمهمت الأبطال ، وقوى القتال ،وعظم النزال ، ودارت رحى الحرب ، واشتد الطعن والضرب ،وجالت الرجال ، واشتد القتال ، وضربت الأعناق ، وسالت الأحداق ، وعظمت الأمور ، وغابت البدور ، وكان المسلمون لا يظهرون فيهم لكثرتهم ، ولا يعرف بعضهم بعضا إلا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وقد صبر الفضل صبر الكرام فالله در الفضل لقد اصطلى الحرب بنفسه ، فكان تارة يقلب الميمنة على الميسرة وتارة يقلب الميسرة على الميمنة ويقاتل والراية بيده ، ولله در مسلم بن عقيل وأخويه لقد قاتلوا حتى صارت الدماء على دروعهم كقطع أكباد الإبل ، ولله در سليمان بن خالد بن الوليد المقتول بوقعة الدير قريبا من طرا بقرية تسمى دهروط ، وقتل معه عبد الله بن المقداد وجماعة وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

(قال محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه) وقاتلنا قتال الموت وأيقنا أن المحشر من ذلك الموضع ولم نزل فى قتال من ارتفاع الشمس حتى غربت ، قد قتل من الروم مقتلة عظيمة وتقدم الفضل إلى بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب ، وطعنه فى صدره فأخرج السنان من ظهره ، فلما رأت الروم ذلك شجعوا أنفسهم وفشا القتال بيننا وبينهم ، وقتل من المسلمين أربعون رجلا وقتل منهم ثلثمائة لكن الرجل ما قتل منا حتى قتل جماعة من الروم ، فبينما نحن كذلك وقد أيقنا أن الموت فى ذلك الموقف ووطنا عليه نفوسنا ، وإذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغبار عن رايات إسلامية ، وعصابة محمدية زهاء من ألفى فارس ، وفى أوائلهم فرسان أمجاد سادات أنجاد ، أحدهم المقداد والثانى زياد والقعقاع بن عمرو ، وشرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس فلم يمهل المقداد دون أن حمل وخاض فى الخيل وهو ينشد ويقول :

ألا إننى المقدد أكبر صائـــــل ... وسـيفى على الأعداء أطول طائل
إذا اشتدت الأهوال كنت أمامها ... وأضرب بالـسمر الطوال الذوابل
ولى همة بين الورى تردع العدا ... لها تشــــهد الأبطال بين القبائل

فليس لسيفي في الأنام مبارز وليس لشخصي في الأنام منازل

ثم إنه خاض في وسط الحرب وحمل من بعده زياد بن أبي سفيان وهو ينشد يقول :

أنا زياد بن أبي سفيان جدي يرى من أشرف العربان

كذا ابنْ عمي أحمد العدناني معي حسام ثم رمح ثاني

أطعن كل كافر جبان وكل قلب ناقص الإيمانْ

(قال الراوي) ثم غاص في وسط القوم فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص في القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين . وهو يضرب بالسيف فيهم طولا وعرضا ، ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمي وهو ينشد ويقول :

أنا الهمام الفارس القعقاع ليث همام ضيغم مطاع

معي حسام يبرئ الأوجاع ويقطع الهامات والأضلاع

يا ويل أهل الشرك والنزاع مني إذا في الحرب طال الباع

قال : ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول :

ألا يا عصبة الإسلام صولوا على الأعداء بالسيف الصقيل

وأسقوهم حياض الموت جهرا بلذع السمهرى الرمح الطويل

وموتوا في الوغى قوما كراما شدادا في المعامع والنزول

(قال الراوي) ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضا ، هذا وزياد غائص في القوم كما ذكرنا ، وقصد البطريق الأعظم صاحب ببا الكبرى وضربه على عاتقه الأيمن بالسيف فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر ، وقد أجابته المسلمون بتكبيرة واحدة ، وكبرت الجبال وارتجت الأرض لوقع حوافر الخيل ،وحمل كل أمير على بطريق فقتله فلم تكنْ إلا ساعة حتى ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار لا يلوى بعضهم على بعض ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة جرزة وميدوم ، فبينما ضرار وأصحابه مقبلون واذا بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين في أثرهم يقتلون ويأسرون ولم يعلموا ما جرى لضرار ورفقته ، فلما رأوه سلموا عليه وهنئوه وأصحابه بالسلامة فقص عليهم ما جرى لهم

واجتمعوا بالمسيب وأصحابه وأروهم مكان المعركة ومكان القتلى ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا.

(قال الراوى) وإن عمرا وخالدا لما خرج الفضل وأصحابه قلق عليهم ، فقال خالد لعمرو : يا أبا عبد الله لقد غرر الفضل وأصحابه بمن معه من المسلمين وإنى أخشى أن تكون للروم طليعة فيغيروا على أصحابنا . قال عمرو كذلك هجس بخاطرى يا أبا سليمان فما ترى من الرأى ؟ قال خالد الرأى عندى أن أرسل طليعة أخرى خلفهم قال . نعم الرأى، ثم استدعى بالزبير بن العوام وأبى ذر الغفارى رضى الله عنهما وأعلمهما بذلك ، وأراد خالد أن يركب معهما فمنعه الزبير وحلف لا يسير إلا هو وانتخب معه فرسانا ، فساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قد كسروا الروم كما ذكرنا ، ثم جمع المسلمون الأسلاب والسلاح والخيل ورجعوا إلى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم .

(قال الراوى) فلما رجع المسلمون إلى العسكر ، وكان معهم ستمائة أسير أعلن المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فأجابهم المسلمون كذلك ، ولما عاينوا الأسلاب والأسارى معهم فرحوا بذلك وسلم بعضهم على بعض وتلقاهم عمرو وخالد وباقى الأمراء تفاءلوا بالنصر وقدموا الأسارى وعرضوهم على عمرو وخالد وأوقدوا النيران بالمرج وباتوا يقرءون القرآن ويتضرعون إلى الله المنان ، وليس فيهم إلا من هو راكع أو ساجد.

(قال الراوى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما المنهزمون فإنهم مضوا إلى البطارقة والملوك وأخبروهم بما وقع من أمرهم فعظم عليهم من قتل وأستعدوا للقتال وركبوا خيولهم وإبلهم وأفيالهم وتزينوا بزينتهم وساروا يجدون المسير وقد أكثروا الطبول والزمور والصنوج .

قال قيس بن الحرث : وأقام المسلمون بعد الوقعة يوما ، فبينما نحن فى اليوم الثانى بعد صلاة الصبح ، وكان الأجاويد من الأمراء والأبطال فى كل يوم يركبون ويستنشقون الأخبار، فبينما هم ينتظرون إذ ثار الغبار حتى تعلق بالجو وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر ،والسيل المنحدر ، وارتجت الأرض من ازدحام الخيل وقعقعة اللجم ، فرجعوا وأعلموا صاحب رسول الله ﷺ ، وصاح الصائح فى العسكر : النفير النفير يا خيل الله اركبى وفى الجنة ارغبى والثواب اطلبى ، فتواثب المسلمون إلى قدومهم ولبسوا دروعهم وإلى

خيولهم فركبوها وإلى راياتهم فنشروها ، وإلى زينتهم فأظهروها ، وإلى قلوبهم من الغش فطهروها ، ونفوسهم لله باعوها ، فلم تكن إلا ساعة حتى استعدوا ، وأقام خالد وعمرو يعبيان قومهما للقتال فجعلا في القلب أصحاب الطعن الضرب مثل الفضل بن العباس وبنى عمه من سادات بنى هاشم وهم جعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل بن أبى طالب وزياد بن أبى سفيان بن الحرث ومثل هؤلاء الأبطال ، وجعل فى الجناح الأيمن الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندى والمسيب بن نجية الفزارى ، وجعل فى الجناح الأيسر القعقاع ابن عمرو التميمى وهاشم بن المرقال وغانم بن عياض الاشعرى وأبا ذر الغفارى وجابر بن عبد الله الأنصارى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم وثبت خالد وعمرو فى القلب ومعهما عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهنى وبقية الصحابة من الأمراء أصحاب الرايات ممن شهد الوقائع مع رسول الله ﷺ وعن عبد الله بن زيد عن أبى أمامة رضى الله عنه ، وكان من أصحاب الرايات . قال فبينما نحن كذلك إذا بأعلام المشركين قد انتشرت ، وآياتهم قد ظهرت ، وزينتهم وصلبانهم قد ارتفعت ، ولغتهم بالكفر قد طمطمت ، وأفيالهم قد أقبلت ، ورجالهم للقتال قد تبادرت ، فلما رأى المسلمون ذلك أخلصوا نياتهم ،ولم يهلهم ما رأوا من عدوهم ، وتضرعوا بالدعاء لخالقهم وقد استغاثوا بمالكهم وأكثروا من الصلاة على نبيهم ولم يزالوا سائرين حتى قربوا من القوم ورأوهم رأى العين ، فعند ذلك أمسك المشركون أعنة خيولهم وسلاسل أفيالهم وألقى الله الرعب في قلوبهم ، ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لا يبين منه غير حماليق الحدق وتدوير المآقى وبين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بملء فيه : يا معاشر العرب ارسلوا إلى الملك أحدا يكلمه فأعلم المسلمون عمرا وخالد بن الوليد بذلك ، فأراد خالد أن يخرج إليه فمنعه الأمراء من ذلك ، فعندها وثب المقداد بن الأسود وحلف لا يخرج إليه إلا هو بنفسه .

فقال عمرو وخالد : يا أبا عبد الله انظر ما يكلمك به الأعلاج وادعهم إلى كلمة الإخلاص المنجية يوم القصاص ، فإن أبوا فالجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا قاتلناهم -

﴿ حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ [(١)] .

(قال الواقدى) فعندها ركب المقداد جواده وسار حتى وقف بين يدى البطريق وكان ذلك بولص صاحب الكفور الطغى اللعين بطريق البطليوس وقد أتى بإذن الملك البطارقة، فلما رآه كلمه بلسان عربى مبين ، ثم قال يا بدوى أأنت-أمير قومك . قال لا ؟ قال فانى لا أريد إلا الأمير حتى أسأله عما بدا لى لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا . فقال المقداد سل عما بدالك وما تريد فإنا قوم إذا فعل أحدنا أمرا وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لا ينكر عليه ذلك ويجيز له الأمير ما فعل فأخبرنى عن أمرك وشأنك . قال لا يكلمنى إلا أمير القوم ، وإن كان عنده خوف منى ألقيت سلاحى .

فقال المقداد وقد ضحك من كلامه ويحك يا عدو الله لو كنت أنت وأمثالك بأسلحتهم ما فكرنا فيكم ، وأن الواحد منا لو وقع فى ألف منكم لتلقاهم بنفسه ولا أهمه ذلك والمعونة من الله تعالى فإنا وطنا أنفسنا على الموت وعلم أن هذه الدنيا فانية ولا يبقى إلا وجه الله تعالى فاسألنى عما بدا لك . قال له : لا أسمع إلا كلام الأمير فدع عنك كثرة المطاولة . قال المقداد : إنا لنا أميرين :أحدهما متولى الأمر والآخر قائد الجيوش فأى أمير تريد .

قال أخبرنى بأسمائهما ؟ قال أما الذى هو متولى الأمر فيسمى عمرو بن العاص والآخر يسمى خالد بن الوليد . قال إنى أريد خالدا سمعت عنه أمورا وأحوالا وأن الروم تتحدث عنه بعجائب كثيرة .

(قال الواقدى) وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال فى نفسه لعلى أغدره فإنى إن قتلته كان لى الفخر على جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وإن لم أقدر عليه أسمع ما يقول من خطابه ، قال فعند ذلك لوى المقداد عنان جواده ورجع إلى خالد، فعند ذلك قال خالد لأصحابه إن المقداد قد رجع وأن عدو الله لا يريد إلا إياى . فإن طلبنى مضيت إليه ، وإن رأيت منه غدرا أخذت روحه من بين كتفيه وأستعن عليه بالملك العلام .

(قال الروى) فبينما خالد يتحدث بهذا لكلام إذا بالمقداد قد وصل وأعلم عمرا

---

(١) سورة يونس : الآية ١٠٩ .

وخالدا بما وقع ، فعندها خرج خالد رضى الله عنه مبادرا عليه لأمة حربه فتعلق به أكابر أصحابه فحلف أنه لابد له من الخروج إليه ، ثم خرج مبادرا حتى وقف بين يديه ، فلما رأى خالدا قد وصل إليه احترز على نفسه وأراد أن يخدع خالدا ويهجم عليه .

فقال خالد : أيها البطريق ها أنا خالد سل حاجتك الذى جئت لها وإياك والمخادعة فإنى جرثومة الخداع . فقال بولص يا خالد اذكرلى الذى تريد وقرب الأمر بيننا وبينكم واحقن دماء الناس واعلم أنك مسئول عن ذلك وواقف غدا بين يدى الله عز وجل ، فإن كنت تريد شيئا من الدنيا فلن نبخل به عليكم وندفعه صدقة منا إليكم ، لأنه ليس عندنا فى الأمم أضعف منكم حالا ، وقد علمنا أنكم كنتم فى بلادكم قبل أن تفتحوا البلاد فى قحط وجوع وتموتون هزالا وقد ملكتم بلادا وشبعتم لحما وركبتم خيولا مسومة وتقلدتم بسيوف مجوهرة وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم ، فإن طلبتم منا شيئا أعطيناكم إياه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا فى بلادنا كما طمعتم فى غيرها واقنعوا منا بالقليل .

قال فلما سمع خالد مقالته قال يا كلب النصرانية وأخس من غمس فى ماء المعمودية إنه قد بعث الله إلينا نبينا فهدانا من الضلالة وأنقذنا من الجهالة ، واننا قد ملكنا الله بأيدينا ما أغنانا به عن صدقتكم وأحل لنا أموالكم وأباح لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، فإن أبيتم ذلك فتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والله ينصر من يشاء ، وإن الحرب والقتال أحب إلينا وأشهى من الصلح ، وإن كنتم تزعمون أنه لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب ، فإن الواحد منا يقاتل منكم ألفا ، وإن هذا ليس بخطاب من يطلب الصلح ، فإن كان هذا الطمع ترجو به أن تصل إلى بانفرادى عن أصحابى فذلك منك بعيد ، وإن أردت القتال فدونك فإنى كفء لك ولأصحابك إن شاء الله تعالى ، فلما سمع بولص كلام خالد وثب فى سرجه وقال ليس لك عندى إلا هذا السيف ، ثم جرد سيفه ودنا من خالد رضى الله عنه وشابكه وضرب بيده فى درعه ومنطقته ووثب كل منهما على الآخر واستغاث الملعون بأصحابه وقال لهم بادروا إلى فقد أمكننى

الصليب من أمير العرب فابتدر إليه البطارقة من كل جانب وخرج كردوس عظيم أكثر من مائتى فارس وجردوا السيوف وأتوا إلى خالد رضى الله عنه .

فلما رآهم خالد مقبلين إليه وثب وثبة الأسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطريق بعد أن أحاطت به الروم وجاء كردوس ثانى وخالد يضرب فيهم يمينا وشمالا وعدو الله بولص يصيح ويقول ياويلكم خذوه قبل أن يفوتكم قال وكان ضرار والفضل بن العباس وعلىّ بن عقيل وعبدالله بن المقداد وسليمان بن خالد رضى الله عنه على كثيب قريب من الروم ، فلما رأوا الروم والسيوف بأيديهم وقد أحاطوا بخالد ركضوا خيولهم ، وكان أول من ابتدر للحرب ضرار بن الأزور رضى الله عنه وهو ينشد :

عليك ربى فـى الأمـــور المتكل　　اغفر ذنوبى إن دنا منـى الأجــل
يارب وفقنى إلى خــــير العمل　　وعنى امــح ســـيدى كل الزلل
أنا ضرار الفارس القـــرم البطل　　باغى على الأعداء أضحى المنصل
أقمع بسيفى الروم حتى يضمحل　　مالى ســواك فى الأمـــور من أمل

(قال الراوى) حدثنا رفاعة بن قيس . قال حدثنا حامد بن عياض عن أبيه عن جده عن نافع بن علقمة الربعى . قال كنت فى القلب فى عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور . قال بينما نحن ننظر إذ رأينا السيوف جذبت وأحاطت بخالد بن الوليد فخرجنا كردوسا من أجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم إذا قد سبق من ذكرنا يعنى ضرارا والجماعة المذكورين ، فكان أول من قدم على الروم ضرار وهو عريان بسراويله قابضا على سيفه وهو يزأر كالأسد والقوم من ورائه متبعوه حتى وصلوا وضرار أمامهم وهو واثب على جواده وثبة الأسد مسرعا وهو يهز السيف وهو زاحف على بولص فارتعدت فرائصه . وقال يا خالد دعنى من هذا الشيطان واقتلنى أنت ولا تدعه يقتلنى فانى أتشاءم من طلعته . فقال هو قاتلك لا محالة : هذا مبيد الأقران ، هذا قاتل وردان وملك التركمان ومبيد عبدة الصلبان ومن يكفر بالرحمن ، فبينما هم فى المجاورة وإذا بضرار قد أقبل وهز سيفه وصــرخ : يا عدو الله لم تغن عنك خديعتك شيئا ولا غدرك بصاحب رسول الله ﷺ .

ثم أراد أن يضربه بسيفه فصاح به خالد اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله ، ووصلت إليه أصحاب رسول الله ﷺ وكل يبادر إلى قتله ، فقال لهم خالدا اصبروا .

قال : ونظر بولص لعنه الله إلى ما حل به قد جذبه ضرار من قربوس سرجه اقتلعه وجلد به الأرض فغشي عليه فأشار بأصبعه قال الأمان يا خالد . فقال له خالد : يا كلب النصرانية لا يعطى الأمان إلا لأهل الأمان أنت رجل أردت أن تمكر والله خير الماكرين ، فلما سمع ضرار ذلك لم يمهله دون أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن ، فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار وتبادرت أصحاب رسول الله ﷺ ووضعوا السيف فيهم . فلما رأى الروم ما حل بهم حملوا بأجمعهم وتقدمت أصحاب الفيلة وعلى ظهورها الرجال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد القتال وعظم النزال وصفت الصفوف وازدحمت الألوف وتلفت النفوس وقطعت الرؤوس وبطل القيل والقال وقلت الرجال وزمجرت الأبطال واشتد القتال واتسع المجال وعظم البلاء واسودت السماء وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار وطمطمت السودان وكفروا بالرحمن وثار العجاج وزمجرت الاعلاج وقتلت أصحاب الفيلة قتال شديدا وقد قسموهم أربع فرق : فرقة مما يلى الميمنة ، وفرقة مما يلى الميسرة ، وفرقة مما يلى القلب ، وفرقة مما يلى العسكر تصايحت النوبة والبجاوة والروم ، فالله در خالد بن الوليد لقد قاتل قتالا شديدا ، فكان تارة فى القلب وتارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة ، وكذلك الأمير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمى والقعقاع بن عمرو التميمى وغانم ابن عياض الأشعرى رضى الله عنه على الساقة مع النساء والولدان والذرارى والصبيان وانقطع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال إلى كردوس ينوف على ألف فارس من الروم والسودان فغاصوا فى أوساطهم ، وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه عرنان بن ميخائيل ، فلما رأى ما حل به وبأصحابه بادر إلى الصليب ليقبله وينظر إليه ، ثم رطن الروم بلغتهم وأحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ وأرادوا أن يتمكنوا منهم ، فعندها وثب عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى ذلك

البطريق فحمل عليه وكان عليه ديباجة صفراء من فوق درعه ، وعلى رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفى وسطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليا وتصادما سويا ، ثم إن عبد الرحمن ضربه بالسيف فى نحره فأطاح رأسه عن بدنه ، فلما رأى الروم ذلك حملوا على عبد الرحمن وأصحابه بأجمعهم حملة واحدة وصبر لهم أصحاب رسول الله ﷺ ، وكل منهم مشتغل بنفسه عن نصرة صاحبه وأيقنوا بالهلاك، وخرج عبد الرحمن وفى يده جرح هائل والدم يسيل عن درعه فتناول السيف بيده اليسرى وجعل يقاتل بها وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحا فى يده وفى وجهه وهو يمسح الدم مرارا فأيقنوا بالهلاك .

وكان الفضل بن العباس وبنو عمه ممن ذكرنا تارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وحملوا فى أعراض القوم حتى وصلوا الكردوس الذى فيه عبد الرحمن وعبد الله بن عمر وهاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعقروا جواده من تحته ووأصحابه يذبون عنه وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالمرمح وجراحاته تتدفق دما ، وقد جرح عبد الله بن عمر فى يده ست جراحات هائلة ، فلما رأى الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسا وخرقوا الصفوف وضرب فارسا ممن أحاط بعبد الرحمن على رأسه فقطع البيضة ونزل إلى أضراسه فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار ، فلما سقط عن جواده ابتدره عبد الرحمن وركب الجواد وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن أصحابهم ، وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلى الجناح الأيسر فعطف عليها كردوس من الروم والسودان فأزالوهم عن أماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفروا بين أيديهم ، فصاح بهم أبو هريرة رضى الله عنه وابنه عبد الله ومالك بن الأشتر يا قوم لا تولوا فرارا من الموت أتريدون أن تكونوا عارا عند العرب فما عذركم غدا بين يدى رسول الله ﷺ ؟ أما سمعتم قول الله عز وجل ﴿ **فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ (1) الآية : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف الموعد عند قبر المصطفى . قال فلم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة إلى غانم بن عياض الأشعرى

---

(1) سورة الأنفال : الآيتان : ١٥١ ، ١٦١ .

وأصحابه والنساء والصبيان ، فلما رأت النساء ذلك صحن فى وجوههم وفعلن كما فعلن يوم اليرموك وصرن يضربن وجوه الخيل بالأعمدة وقاتلت خولة بنت الأزور قتالا شديدا ، فلما رأى غانم ذلك ، وكان معه قيس بن الحرث ورفاعة بن زهير المخزومى وخمسمائة فارس من أهل العدة والنجدة صاح غانم النجدة يا أصحاب رسول الله فتواثبوا إليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نية وثبات ، فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين .

(قال الواقدى) ولم يزل السيف يعمل فى الرجال من أول النهار إلى وقت العصر وأنزل الله النصر على أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الأفيال والرجال الذين على ظهورها تضرب أصحاب رسول الله ﷺ بالنشاب فجاء مفرج بن عيينة الفزارى إلى فيل مقدم على أربعمائة فيل فطعنه فى إحدى عينيه فاشتبك الرمح فى عينه ما قدر أن يجذبه فبرطع الفيل هاربا وألقى ما على ظهره من الرجال وداسهم برجليه فقتلهم فتبعه الفيلة التى خلفه ، وألقت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأرجلها فصاح مفرج دونكم وخرطيمها ومشافرها فإنها مقاتلة فابتدر بنو فزارة وبنو قراد وبنو عبس يضربون مشافر الفيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلا وقتلوا من على ظهورها من الرجال ولم يزل القوم فى الكر والفر والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجز الفريقين ورجعت الروم والسودان إلى أماكنهم وتفقد المسلمون من قتل منهم فإذا هم مائتان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة وتفقد المشركون قتلاهم فإذا هم خمسة آلاف من النوبة والبجاوة والروم فبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح ويقرءون القرآن ويدفنون قتلاهم ، فلما أصبح الصباح وقاموا إلى إصلاح شأنهم إذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم وعديدهم ، وقد أظهروا زينتهم واصطفوا خمسة كل صف أربعون ألفا والمشاة بين أيديهم خمسون ألفا . قال قيس بن علقمة : لقد دخلت الشام والعراق ورأيت جنود كسرى والجرامقة واليرموك وأجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح إسكندرية ودمياط فلم أر مثل كسرتهم فى مرج دهشور ، فلما رأيناهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلل الصفوف ويقول لهم إنكم لستم ترون بمصر الصعيد جيوشا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وإن كسرتموهم فلا تقوم لهم قائمة أبدا فاصدقوا فى الجهاد عليكم بالصبر إياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا بذلك النار وألصقوا المناكب ولا تحملوا حتى آمر بالحملة .

(قال الراوى) وإن البطارقة لما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ قد عولوا على ضربهم شجع بعضهم بعضا ، وقال لهم بطرس أخو بولس المقتول اعلموا أنكم إن انكسرتم لا تقوم لكم قائمة بعد هذا أبدا ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم ويسبون حريمكم وعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا وقدموا الفيلة أمامكم ، والرجالة خلف ظهوركم واستعينوا بالصليب فهو ينصركم .

(قال الرواى) وأما عمرو وخالد فإنهما قالا نريد من يكشف لنا عن القوم ويعود فوثب الفضل بن العباس رضى الله عنه وقال أنا ، فسار حتى قرب من القوم ورأى زيهم وأهبتهم ورأى شعاع البيض والبيارق والرايات كأجنحة النسور ، فلما رآه القوم قالوا فارس قد طلع ولا شك إنه طليعة فأيكم يبتدره فابتدره ثلاثون فارسا ، فلما نظرهم ولى كأنه منهزم وركض قليلا حتى بعد ثم لوى عنان الجواد نحوهم وطعن أول فارس والثانى والثالث فدخل رعبه فى قلوبهم ، فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارسا بعد فارس حتى صرع منهم عشرين فارسا ، فلما قرب من الروم ولى راجعا إلى المسلمين وأعلمهم بذلك ، فقالوا له غررت بنفسك يا بن عم رسول الله ، فقال إن القوم طلبونى وخفت أن يرانى الله منهزما فجاهدت بإخلاص فنصرنى الله عليهم ، واعلموا أنهم لنا غنيمة إن شاء الله تعالى .

قال : فأقبل عمرو وخالد يرتبان العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم فى اليوم الأول ، فجعل فى الساقة زياد بن أبى سفيان بن الحرث فى ألف فارس حول البنين والبنات والأموال ، وكانت فيهم النساء اللاتى تقدم ذكرهن فى أجنادين واليرموك ، وهن عفيرة بنت غفار وأم أبان بنت عتبة أخت هند وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت ذراع ولبنى بنت سوار وسلمى بنت النعمان وهند بنت عمرون وزينب الأنصارية ، فهؤلاء من النساء اللاتى عرفن بالشجاعة ، فقال لهن خالد يا بنات العرب لقد فعلتن فعالا أرضيتن الله ورسوله والمسلمين بها وقد بقى لكن ذكر يتحدث به جيلا بعد جيل وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكن، وأبواب النيران ، وقد فتحت لأعدائكن ، وإنى أحرضكن إذا جاءت الروم والسودان إليكن فقاتلن عن أنفسكن كما قاتلتن فى يوم أجنادين ويوم اليرموك.

فان رأيتن أحدا هاربا فدونكن وإياه وأشرفن عليه بولده وقلن له إلى أين تولى عن أهلك وولدك وحريمك وحرضن المسلمين على ذلك ، فقلن أيها الأمير ما يفرحن إلا أن نموت أمامك يا أبا سليمان لنضربن وجوه الروم والسودان حتى لا يبقى لنا عذر . قال فشكرهن على ذلك .

ثم عاد خالد إلى الصفوف وجعل يدور بينها بجواده ويحرض الناس على القتال وهو يقول :

أيها الناس انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا من كفر واحسبوا أنفسكم فى سبيل الله واصبروا على قتال أعداء الله ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ولتكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحد ، فإن السهام إذا خرجت جميعا لم يخل أن يكون فيها سهم صائب ، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .. واعلموا أنكم لا تلقون بالوجه القبلى مثل هؤلاء اللئام فإنهم حماتهم وبطارقتهم وملوكهم ، فقالوا سمعا وطاعة ، وأقبل خالد ووقف فى القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائى والمسيب بن نجيبة الفزارى وذوى الكلاع الحميرى وربيعة بن عباس ومالك الأشتر والعباس بن مرداس السلمى ونظائرهم من بقية الامراء . ..

ثم زحفوا بسكينة ووقار . فلما رأى الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملء الأرض طولا وعرضا فلما التقى الفئتان ، وتراكم الجمعان ، وقد أظهر أعداء الله فى زينتهم الصلبان والأعلام ، ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان ، فبينما الناس كذلك إذ خرج راهب كبير عليه جبة سوداء وقلنسوة وزنار فنادى بلسان عربى أيكم أمير القوم فيخاطبنى ويخرج إلى فخرج إليه خالد . فقال له أنت أمير القوم .

قال خالد : كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله . فإن أنا بدلت أو غيرت فلا طاعة لى عليهم ولا إمارة .. فقال القس : اعلم أنكم قد ملكتم بلادا وقدمتم إلى بلاد ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها ، وإن ملوكا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وأفنوا أنفسهم عليها ، وأن النصر لايدوم لكم وأن الملوك أرسلونى إليكم .

فإن سمحتم نجمع لكم مالا ونعطى لكل واحد منكم ثوبا وعمامة ودينارا ولك أنت

مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار ولكل واحد حمل من البر وحمل من الشعير ولك عشرة أحمال ولصاحبكم عمرو عشرة آلاف دينار ومثلها ثياب ومثلها عمائم ومائة حمل بر ومائة حمل شعير وارحلوا عنا وأنتم موقرون أنفسكم ، فإننا عدد الجراد ولا تظنونا كمن لاقيتم من الفرس والروم وأهل الشام والقبط . فإن فى هذا الجيش من النوبة والبجاوة والسودان والروم وكبار البطارقة والأساقفة ونجمع عليكم ما لا طاقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكأنكم بالنجدة قد وردت علينا وإن بقية الروم لم تأت إليكم ، وإنما أرسلوا من يقاتل عنهم فقال خالد والله ما نرجع عنكم الا بإحدى ثلاث خصال : إما أن تدخلوا فى ديننا أو تؤدوا الجزية أو القتال ، وأما ما ذكرت أنكم عدد الجراد فالله قد وعدنا بالنصر على لسان نبيه ﷺ وأنزله فى كتابه ، وأما ما ذكرت أنكم تعطوننا من الثياب والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكم جميعها كما ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم ، فقال الراهب أنا أرجع أخبر أصحابى بذلك .

فإنى قد أتيت من قبل البطليوس صاحب مدينة البهنسا ، وقد أرسلنى إلى صاحب أهناس واتفق الملوك والبطارقة وأرسلونى إليكم ، وأنا أرجع إليهم وأخبرهم بجوابك . ثم إن القس لوى راجعا من حيث جاء ، فلما رجع اليهم وأخبرهم بذلك كاتبوا ملوكهم على ذلك وأرسلوا جوابهم بالقتال ، فلما وصلت الكتب تقدمت الروم والسودان قدموا بين أيديهم الفيلة وأمامهم الرجالة بالقسى والسيوف والدرق والمزاريق فصاح الفضل بن العباس ورفاعة بن زهير المحاربى والقعقاع بن عمرو التميمى وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الأسود الكندى ومعاذ بن جبل ، وقالوا معاشر المسلمين اعلموا أن الجنان قد فتحت والملائكة قد أشرفت والحور تزينت وأشرفت من الجنان ثم قرأ ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ ثم رتبوا الصفوف فتقدم خالد وقال اقرنوا المواكب واثبتوا واعلموا أن هؤلاء أكثر منكم بعشرة أمثالكم وأزيد فطاولوهم إلى وقت العصر . فإنها ساعة النصر على الأعداء وإياكم أن تولوا الأدبار وازحفوا على بركة الله وعونه .

(قال الراوى)و تزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاوة ، فلما تقارب الجمعان

رمت أصحاب الفيلة نشابهم فكانت كالجراد المنتشر ، فقتلوا رجالا وجرحوا أبطالا وخالد تارة يضرب بسيفه فى الميمنة وتارة فى الميسرة وكان فى أصحاب الفيلة من السودان والبربرسواكن يسمونهم القواد شفاههم العليا مشقوقة وبها خزام من نحاس . فاذا كان وقت الحرب لا يخرجون القواد إلا إذا حمى الحرب واشتد الطعن والضرب وكانوا سواد طوال طول كل واحد منهم عشرة أذرع فإذا أرادوا الجرب جعل فى كل خزام سلسلة بطرفين فى كل طرف واحد من البربر . فإذا وقع صلح بين الفريقين والا زحفوا بهم وأطلقوا السلاسل ودفعوا لهم أعمدة من حديد طوالا فيضرب الواحد الفارس والفرس فيقتلهما بضربة ومنهم من يركب الفيلة ويقاتل على ظهورها ، فلما التقى الجمعان خرجت تلك القواد وعلى أجسادهم جلود النمور وفوق أكتافهم مربوطة على صدورهم وفى أوساطهم مثل ذلك وهم عراة الأجساد والرؤوس ليس عليهم غير ما ذكرنا وبأيديهم الأعمدة والرجال يقودونهم بتلك السلاسل والجيوش ينظرون متى يؤمرون بالحملة ، فلما رأى المسلمون ذلك فمنهم من ثبت ومنهم من جزع .

قال وبرز البطريق أخو بولص المقتول وهو راكب على جواد عال وعليه لحاف من جلود الفيلة وقاتل .

(قال الراوى) حدثنى خالد بن أسلم عن طريف بن طارق وكان من الأزد . قال لما فعل البطريق ذلك ولت الأزد من بين يديه منهزمين ، وإذا بفارس قد أقبل يركض بجواده، وهو عارى الجسد حتى قرب من القوم ، وأنشد يقول :

لقد ملكت يدى سنانا وصارما ... أذل عداة السوء إن جئت قادما
وأتركهم شبه الرخام إذا مشى ... عليه شجاع لا يزال مصادما
والا كأغنام مضين بقفرة ... وأصبح مولاها عن السعى نائما
قد ملك الليث الغضنفر جمعها ... وأصبح فيها بالمخالب حاطما

(قال الراوى) وصاح الفارس . أنا ضرار بن الأزور . أنا قاتل ملوك الشام أنا ضرار دين الاسلام ، والمسلط على من يكفر بالرحمن ، أنا قاتل بولص الكلب ذى الطغيان . قال

فلما سمع الروم كلامه عرفوه فتقهقروا إلى ورائهم فطمع فيهم وحمل عليهم ، فقال بطرس من هذا البدوى الذى لم يزل عارى الجسد يقتل بالسيف مرة وبالرمح مرة . قالوا هذا ضرار بن الأزور فتحير الملعون ، وقال هذا قاتل أخى ، ولقد اشتهيت أن آخذ بثأره ، ثم عزم على الخروج إليه فسبقه بولص رأس بطارقة الكورة ، وقال أنا آخذ بثارك . ثم حمل على ضرار فتجاولا طويلا وافترقا مليا فما كان أكثر من ساعة حتى طعنه ضرار طعنة صادقة فى صدره خرقت الدروع ، وخرجت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله بروحه إلى النار ، فقال بطرس هذا جنى وليس للإنسان أن يقاتل الجن ، ثم لبس لامة حربه وتعصب بعصابة من اللؤلؤ الرطب ولبس الكورة وحلف لا يخرج إليه غيره وحمل على ضرار ، وقال دونك والقتال فلم يفهم ضرار ما يقول ، ثم حمل عليه وأخرج صليبا من الذهب كان معلقا فى عنقه فضحك ضرار عليه ، وقال أنت تستعين بالصلبان وأنا استعين بالملك الديان .

ثم أرى كل منهما ما أدهش الناس من الحرب فصاح خالد وبقية الأمراء ما هذه الفترة يا ضرار والجنة قد فتحت لك ولعدوك قد فتحت النار ، فاستيقظ ضرار وحمل على البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا فى حرب عظيم وحميت عليهم الشمس ، وثار الحرب حتى كل منهما الساعدان وعرق تحتهما الجودان فأشار البطريق إلى ضرار أن يترجل ويترجل البطريق معه شفقة على الجوادين ، واذا برأس بطارقة أهناس قد أخرج له جوادا مجللا بالحرير ليركبه ، فلما نظر ضرار إلى ذلك صاح بجواده أثبت معى هذه الساعة وإلا أشكوك لرسول الله ﷺ فذرفت عين الجواد بالدموع وحمحم وجرى أكثر من جريه المعتاد وتلقى ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فأرداه وأخذ جواده وأراد قتله .

إذا بكردوس خرج من الروم ومعهم الكلب الكبير شاول أحد بطارقة الأشمونيين وأحاطوا بضرار وكان على رأس شاول تاج من الذهب الأحمر ، فلما رأى الصحابة الكردوس الذى خرج على ضرار والتاج يلمع على رأسه ، فعندها خرج خالد رضى الله عنه فى عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه وعبدالله بن جعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر

الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن المقداد وقوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة وصبر ضرار للروم حتى وصلت إليه الأمراء ، وقالوا :

أبشر يا ضرار فقد أتاك النصر والفرج وقد ذهب عنك الخوف والجزع فلا تخف من الكفار واستعن بالله الواحد القهار .

فقال ضرار : ما أقرب الفرج من الله والتقت الرجال بالرجال وطلب خالد صاحب التاج والعصابة وضرار مع خصمه ، فلما رأى شاول البطريق المسلمين قد أحدقوا به وما حل بجماعته اندهش وارتعد ، هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فألقى ضرار نفسه من على جواده وتبعه حتى لحقه ، ثم رمى الرمح من يده وتواخذا بالمناكب وتصارعا وكان عدو الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غير أن الله أعطاه حولا وقوة ، فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده في بطن عدو الله فقلعه وجلد به الأرض فصاح يستنجد بالبطارقة وتصارخت الروم والسودان وأصحاب رسول الله ﷺ فلم يمهله ضرار دون أن ركب عليه ، وهو يعج كالبعير ، فعندها أظهر ضرار سيفه ومكنه من نحره فقتله فزعق زعقة سمعها العسكران فحملت الروم والسودان ، هذا وضرار قد احتز رأسه وقام عن صدره وهو ملطخ بالدماء .

ثم كبر المسلمون ودنا الفريقان بعضهم من بعض والتحمت الأبطال، وقوى القتال ، وعظم النزال ، وسال العرق ، وازورت الحدق ، وعظمت الرزايا وأظلمت الدنيا ، ودارت رحى الحرب ، وقوى الطعن والضرب ، وضاقت الصدور ، واشتدت الأمور ، وضاقت المذاهب ، وقطعت المناكب ، وما كنت ترى إلا دما فائرا وكفا طائرا ، وجوادا غائرا هذا وقد زحفت السودان ، وأصحاب السلاسل ذوو الكفر والطغيان ، وضربوا بالأعمدة الحديد، ويومهم يوم شديد ، وبانت الشجعان ، وفر الجبان ، وبقى حيران ، وعمرو بن العاص يحرض الناس على القتال ، ويقول :

يا أيها الناس ويا حملة القرآن اذكروا غرف الجنان ، فسر الناس بقوله ونشطوا وصارت السودان يضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعا ، وكذلك أصحاب الفيلة يرمون بالنشاب ، ويضربون بالحراب إلى أن جاء وقت العصر ، وقد قتل من الفريقين

خلق كثير وظفر خالد بخصمه شاول لعنه الله وضربه بالسنان فى صدره فخرج السنان يلمع من ظهره ووقع على الأرض يخور بدمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار . قال ولما عظم القتال والبلاء . قال رفاعة المحاربى ، وقد انتخب من بنى محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الفيلة ، وقال يا وجوه العرب دونكم وأعينها ودنا من الفيل الأبيض، وهو قائدها وهى خمسمائة فيل وتقدم إليه والسيف فى يده ، وهو ينشد ويقول :

يا لك من ذى جـثة كبيرة　　　لقـيت كل شـدة خطيرة

اليوم قد ضاقت بك الحظيرة　　　حتى ترى ملقى على الحفيرة

قال : ثم ضربه بالسيف فولى هاربا . ثم برك وكان عليه عدة من السودان فى قبة من الأديم فلما سقط الفيل إلى الأرض قام علج عن ظهره وفى يد عمود فضرب به رفاعة فزاغ عنه وضربه رفاعة على عاتقه الأيمن فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار فتلاحقت العرب بإعجاز الفيلة وصاروا يطعنون الفيلة فى أعينها كما ذكرنا فولوا منهزمين .

قال : وقصد خالد والمقداد وأجواد الأمراء القواد الذين تقدم ذكرهم وطلبوا من الله النصر والثبات وصاروا يأتونهم وهم فارس عن اليمين وفارس عن اليسار فيقتلون مساك السلاسل ثم يمسكون أطراف السلاسل ويطلقون الأعنة فينقاد معهم كالبعير الشارد فيأخذون العمود من يده ويقتلونه شر قتلة ولم يزل القوم فى قتال ونزال وأهوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وقد قتل من الفريقين خلق كثير فأما المسلمون فقد قتلوا منهم اثنى عشر ألفا من الملوك والبطارقة خمسة عشر بطريقا وملكا من السودان وغيرها ، وبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح .

(قال الراوى) وكان قد أثخن بالجراح جماعة من المسلمين فى ذلك النهار وكان المسلمون طائفة يدفنون القتلى ، وطائفة يداوون الجرحى ، وطائفة يقرءون القرآن ، وطائفة يصلون وطائفة نيام من كثرة ما لحقهم من التعب ، وخالد بن الوليد والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه يدورون حول العسكر الى

الصباح ، فلما لاح الفجر أذن المؤذنون وصلى عمرو بن العاص بالناس الصبح بسورة الفتح ثم دعوا الله عز وجل أن يرزقهم النصر ، ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالأمس ، فلما فرغ المسلمون من تعبية الصفوف أقبل الأمراء يحرضون الناس على القتال وقد جعلوا على الساقة رافع بن عميرة الطائى والحرث بن قيس ورفاعة ابن زهير فى خمسمائة فارس .

(قال الراوى) قال عبادة بن رافع حدثنا سالم بن مالك عن عبد الله بن هلال وكان فى خيل رافع . قال لما رتبت الصفوف والتقى الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نذب عن النساء والصبيان ، والنساء اللاتى تقدم ذكرهن يقاتلن أشد القتال إذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاوة ومعهم زهاء من ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الإبل والرجال والنساء والصبيان زهاء من ألف بعير ومائتى امرأة وغير ذلك ، وكان فى ذلك زائد بن رباح البكرى وعباد بن عاصم الغنوى ومعهما مائتا فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح وبنت زاهر ونظائرها من النساء لقد قاتلن حتى ضربن بالسيف على رؤوسهن وسالت الدماء على وجوههن وهن يقلن الله الله يا نساء العرب قاتلن عن العسكر وعن أنفسكن وإلا صرتن بأيدى الأعلاج الغلف والسودان فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان .

فرجع فارس إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأعلمهما بذلك وهم فى أشد القتال فتصايحت المسلمون وخرج جماعة من الأمراء من وسط المعركة وهم الفضل بن العباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وزياد بن أبى سفيان وعبد الله بن أبى طلحة وضرار بن الأزور وجماعة من الأمراء وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وأدركوهم عند أول الجبل وهم يريدون جهة الفيوم ، فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس إلى أين يا أعداء الله ؟ فتراجعت الروم والسودان عنهم واقتتلوا قتالا شديدا فابتدر ضرار إلى مقدم السودان وطعنه فى صدره فأطلع السنان يلمع من

ظهره ، وكذلك الفضل بن العباس تقدم إلى بطريق عظيم وطعنه فى لبته فأطلع السنان يلمع من قفاه فانجدل يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار .

قال : واستمروا يقاتلون حتى قتلوا مقتله عظيمة ، فلما عاينوا ذلك ألقوا ما بأيديهم من الغنيمة وولوا ووثب المسلمون وردوا السبى والحريم وردوا الأسارى وحلوهم وساعدتهم النساء بالأعمدة والسيوف والخناجر ، فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكبو الجواد بصاحبه فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه إلى الأرض فتجلد به الأرض ثم تضربه فتقتله حتى قتلن جماعة من الروم والسودان والبجاوة وغيرهم .

فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين من بين أيديهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا أسلابهم وخيولهم .

(قال الواقدى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما العسكر فإنهم لم يزالوا فى قتال شديد وأمر عتيد وضرب وطعان وقتل رجال وجندلة أبطال وفرسان ، وقد قامت الحرب على قدم وساق ، وضربت الأعناق وصالت الشجعان وولى الجبان حيران ودارت رحى الحرب واشتد الطعن والضرب وقطعت المعاصم وطارت الجماجم وحامت طيور المنايا وعظمت الرزايا واشتد الزحام وعظم المرام وضاقت الصدور وعظمت الأمور واشتد الغبار وقل الاصطبار وقاتلت الأمراء بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الروم أصواتها وضربت ببوقاتها وطعنت برماحها ورمت بنشابها وحارت الأفكار وعميت الأبصار وثار الغبار وأظلم النهار ،وكان شعار المسلمين يا نصر الله انزل وصبر المسلمون لهم صبر الكرام ،فلله در الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود والفضل بن العباس وعقبة بن عامر والمسيب بن نجيبة الفزارى ونظائرهم من الأمراء فلقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا وصبروا صبر الكرام .

وأما عمرو وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الفيلة برجالها وقاتلت الروم بأبطالها والسودان بأفيالها فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة فى ذلك اليوم فما كنت تسمع إلا من يصيح وايداه والفيلة تحطم

والسودان يرمون الأبطال ، فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربى وأتى إلى خالد وعمرو ، وقال أيها الأمراء إن دام هذا الأمر هكذا هلكنا عن آخرنا .

قالا : فما الرأى يا أبا حازم ؟ قال الرأى أن نجمع ثيابنا ونغمسها زيتا ودهنا ونجعلها على رؤرس الرماح ونجعل فى أعلاها نارا ، ثم نأمر رجالا يجمعون القيصوم وغيره ونجعله فى غرائر على ظهور الجمال عريا ونشغلهم بالقتال ، ثم تأتى الفرسان تمانعهم وتساق عليهم الجمال فإنها إذا أحست بالنار حطمتهم فلا يصبرون على ذلك والمعونة من الله تعالى فاستصوبوا رأيه وأعدوا رجالا لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن إلا ساعة حتى تهيأت المكيدة وجمعوا من الفرسان ألف فارس وصبغوا تلك الثياب بالدهن والزيت وأطلقوا النيران برؤوس الأسنة وحملوا الغرائر بالقيصوم غيره وأشعلوا فيه نارا وضعوا الحراب فى أجناب الابل ، فلما أحست بالحراب فى أجسمها والنار فى ظهورها فعندها حطمت الروم والسودان ، فلما رأت الفيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوادها ورمت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأخفافها ورجعت خيل الروم وبراذينها وهربت بغالها وذابت قلوب رجالها وضربت الأمراء فى الأعداء بسيوفها وطعنت برماحها ورمت بنشابها . قال المسيب بن نجيبة ولقد رأينا طيورا أظلتنا فى زى النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه على وجه الكافر ورأسه ، ثم يضع مخالبيه فى عينيه فيرميه إلى الأرض فلم تكن إلا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولت الروم الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل وأظلم النهار ووصلت الهزيمة إلى القرية المعروفة بالدير إلى اللاهون وإلى أهناس وإلى ميدوم وتبعهم المسلمون الليل كله إلى الصباح وقد تفرق شملهم وشرد جمعهم وأسر منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف ، وقتل منهم ما لا يحصى .

قال رافع بن أزد الجهنى : لما رجعنا إلى مكان المعركة وجدنا الأرض قد امتلأت من قتلى الروم والسودان والبجاوة وغيرهم واختلط جماعة من قتلى المسلمين بهم ما عرفناهم من الروم إلا أن الروم كان بأيديهم صلبان . والمسلمون ليس لهم ذلك فميزناهم منهم بذلك وجمعنا جريد النخل والقصب وضعنا على كل قتيل جريدة أو قصبة وذلك فى مكان

المعركة ، ثم جمعناها وحصرناها فاذا الكفار تسعون ألفا وقتل فى الجبال والطرقات ما لا يحصى وتفقد المسلمون من قتل منهم فاذا هم خمسمائة وثلاثون رجلا ، وجمعت المسلمون الغنائم والأموال ثم قسمت وأخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابا بالفتح وما جمعه من الخمس واستدعى بالأمير هاشم بن المرقال رضى الله عنه وندب معه ثلاثين رجلا من خيار الجند وأمره بالمسير إلى المدينة وأقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة أيام حتى استراحوا ورجع من كان خلف المنهزمين ، ثم اجتمعوا إلى عمرو واستأذنوه فى المسير إلى الوجه القبلى فأذن لهم وودعهم ودعا لهم وقال يعز على فراقكم ولو أن أمير المؤمنين لم يأمرنى بالمسير ما فارقتكم ، ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون وكان جملة من قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل ألف وقيل تسعمائة وأربعون على اختلاف الرواة ، والله أعلم أى ذلك كان .

(قال الراوى) ما أخذت فى هذا الكتاب إلا على قاعدة الصدق والمعونة من الله تعالى ، فلما ملكت المسلمون البلاد وأذلت أهل الشرك والفساد وذلك ببركة الصحابة رضى الله عنهم ، فهم الرجال الأبطال والسادة الأخيار والمهاجرون والأنصار وأصحاب محمد المختار الذين فتحوا بسيوفهم الأمصار وأذلوا الكفار وأرضوا العزيز الغفار وباعوا نفوسهم لله الواحد القهار بجنات تجرى من تحتها الانهار .

(قال الراوى) لما رجع المنهزمون إلى الملوك والبطارقة أخبروهم بذلك وقع الرعب فى قلوبهم وحاروا فى نفوسهم ولم يدروا ما يدبرون وما يصنعون . قال فصعب على بطريق أهناس وعلى صاحب البهنسا ما صنع ببطارقهما وعولوا على الحصار وجمعوا الآلة وصاروا يخرجون ما يحتاجون إليه وتيقنوا أن لابد للحرب من أرضهم ووطنوا أنفسهم ، وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه وضاقت نفوسهم مما حل بهم .

(قال الراوى) ووصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ففرح بذلك فرحا شديدا وقرأ الكتاب على عليّ بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، ثم قسمت

الغنائم على أهل المدينة وقسم لنفسه كأحدهم رضى الله عنه وكتب جواب الكتاب ودفعه لهاشم ، وقال له قل لعمرو يحث الصحابة ويحرضهم على فتح الصعيد .

(قال الراوى) وأما عمرو بن العاص رضى اللهعنه فإنه لم يرجع إلى مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع إلى مصر بعد أن جهز العساكر إلى الصعيد .

(قال الراوى) ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والأمراء رضى الله عنهم استشار بعضهم بعضا أى مكان يقصدون ؟ فاتفق رأيهم أن يسيروا ألف فارس طليعة وأمر عليهم قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم . منهم رفاعة بن زهير المحاربى والقعقاع بن عمرو التميمى وعقبة بن عامر الجهنى وذو الكلاع الحميرى رضى الله عنه وصاروا يسيرون فى وسط البلاد وبقية العساكر قريبة منهم ، فمن أطاعهم طلب الأمان أمنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية ومن أبى قاتلوه ومن أسلم تركوه ، وسار خالد ببقية الجيش يريدون إهناس فإنها كانت أعظم مدائن الوجه القبلى بعد الكوة وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدة ، ولما أحس بطريقها بمجئ الصحابة إليه جمع البطارقة ، وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمتهم بانهزام جيوشهم وشاورهم فى أمرهم ، وقال لهم خذوا أهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وإلا صرتم عبيداً للعرب يفعلون بكم ما يختارون ، وإن شئتم صالحناهم حتى يعلم ما يكون من بطارقته ، فأجابوه وقالوا لا نسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا فى هذه المدينة الحصينة ونقاتل ، فإن غلبنا عولنا على الحصار واتفق رأيهم على ذلك ، فكان الذى أجابهم إلى ذلك خرج بنفسه وأمواله ومن لم يجبهم إلى ذلك أقام، وكذلك بطارقة البهنسا : منهم من انتقل إلى البهنسا بماله وأولاده ، ومنهم من أقام ببعض المدائن ممن عولوا على الإقامة والحصار والقتال .

وسار خالد بالجيش حتى قرب من أهناس وبين يديه الطلائع والأمراء وهم يشنون الغارات على السواحل والبلاد ، فمن خرج إليهم وصالحهم عقد معهم صلحا صالحوه ولهم الميرة والعلوفة والضيافة ومن أبى دعوه إلى الإسلام ، فإن أبى طلبوا منه الجزية ، فإن أبوا

شنوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبا من أهناس وبلغ الخبر إلى عدو الله .

فقال : لابد من لقائهم وقتالهم حتى أنظر ما يكون من أمرهم ، ثم خرج إلى ظاهر المدينة قريبا من السور ولم يبعد عنها ، وكان للمدينة أربعة أبواب فأغلق ثلاثة وفتح الباب الشرقى وأخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدة والزينة ، وقال : إن دخلنا المدينة من غير قتال طمعت العرب فى جانبنا ، ثم فرق بطارقته وعرض جيشه فكانت عدتهم خمسين ألفا، وقال اثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا أول جند أخذوا وأقاموا يتأهبون للقتال وينتظرون قدوم الصحابة رضى الله عنهم .

(قال الواقدى) وأما خالد فلما قرب من أهناس استدعى بالزبير بن العوام وضم إليه ألف فارس من الأمراء وغيرهم وأمره بالمسير ، ثم استدعى بالفضل بن العباس وضم إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بميسرة بن مسروق العبسى وضم إليه ألف فارس وسار على أثره ، ثم استدعى بزياد بن أبى سفيان وضم إليه ألف فارس وسار على أثره ، ثم استدعى بمالك بن الأشتر النخعى وضم إليه ألف فارس وسار على أثره وسار خالد ببقية الجيش.

قال حدثنا عون بن سعيد ، قال حدثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك العلوى . قال كنت فى خيل الزبير بن العوام رضى الله عنه لما توسطنا البلاد وتعرضنا لأهلها وشننا الغارة على السواد فوجدنا قطيعا من الغنم ومعها رعاة ، فلما أحسوا بنا تركوها ومضوا فسقناهم ، ثم سرنا قليلا وإذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارى من القبط وغيرهم ، فلما رأونا فروا وكان معهم عشرون فارسا من العرب المتنصرة من جذام ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة ، فلما عاينونا فروا من بين أيدينا فأطلقنا الغارة عليهم ، فلما كان غير بعيد حتى أدركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فأجابوا بأنهم من قرى شتى وأنهم يريدون أهناس فعرضنا عليهم الإسلام فامتنعوا فأردنا قتلهم فمنعنا من ذلك الزبير رضى الله عنه وقال حتى يحضر الأمير خالد ويفعل ما يريد . قال وسرنا حتى قربنا من أهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات ، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبير وكبر المسلمون حتى ارتجت الأرض لتكبيرهم وخرجت الروم إلى ظاهر خيامهم ينظرون إلينا وعدو الله مارنوس بن ميخائيل ينظر إلينا والحجاب والنواب وأرباب الدولة من البطارقة حوله وعليهم أقبية الديباج وعلى رؤوسهم

التيجان المكللة وبأيديهم العمد المذهبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله . قال فلما أقبلنا عليهم تصايحوا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم واستقلونا فى أعينهم ، ولما قرب الزبير من القوم هز الراية وأنشد يقول :

أيا أهـــل أهناس الطغاة الكوافر ويا عصبة الشـــيطان من كل غادر
أتتكم ليوث الحرب سادات قومها على كل مشكول من الخيل ضامر
فإن لم تجيبوا ســـوف تلقون ذلة ونقتل منكـــــم كل كلب وفاجر

(قال الراوى) ثم نزلنا قريبا من القوم ، فلم يكن غير قليل حتى أقبل الفضل بن العباس رضى الله عنه وحوله السادات الأماجد ، فكبر وكبروا معه وهز الراية وأنشد يقول :

أيا أهل أهناس الكلاب الطواغيا أتتكم ليوث الحرب فاصغوا مقاليا
أقـــــروا بأن الله لا رب غيره وإلا تروا أمرا عظيـــــما مدانيا
أقروا بأن الله أرســــل أحمدا نبيا كريمـــــا للخلائق هاديا

(قال الراوى) ثم نزل قريبا من أصحابه ، فلم تكن إلا ساعة حتى أقبل الأمير ميسرة ابن مسروق العبسى هو والمسلمون فأجابه المسلمون فهز الراية وأنشد يقول :

أتينا لأهناس بكـــــل غضنفر على كل صاهل مـن الخـيل أجرد
فإن هم أطاعونا شكرنا فعالهم وإلا أبدناهم بكل مهـــــــــند
ونخرب أهـنـاسـا ونقتل أهلها إذا خــــــالفوا دين النبى محمد

(قال الراوى) ونزل قريبا من الفضل ، ولما كان غروب الشمس أقبل زياد بن أبى سفيان رضى الله عنه بمن معه وكبر هو والمسلمون وهز الراية وأنشد يقول :

هلموا إلى أهناس يا آل هاشم ويا عصبة المختار نســـل الأعاظم
ودونكم ضرب الســـهام بشدة وقطع رؤوس ثم فلق جـــماجم
لننصـــــر دينا للنبى محمد نبى الهدى المبعوث من آل هاشم

(قال الراوى) وبات المسلمون رضى الله عنهم يقرءون القرآن ويصلون على النبى ﷺ

وهم يتحارسون حتى لاح الفجر ، ثم أقبل المقداد رضى الله عنه بأصحابه وكبر هو والمسلمون ولما قرب من أصحابه هز الراية وأنشد يقول :

أنا الفارس المشهور فى كل موطن   وناصـــر دين للنبى محمـــــد

لعلنا ننال الفــــــــوز عند إلهنا   فيافوز من أضحى نزيل المؤيد

ونقتل عباد الصـليب جـميعهم   بأسـمر خـــطى وعضب مهند

(قال الراوى) ونزل بازاء الفضل ، وتكلم الأمراء المتقدم ذكرهم . قال ولما رأونا ظنوا أن ليس وراءنا أحد وقعدنا ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلمونا ، فلما كان اليوم الثانى عند طلوع الشمس إذا بالغبار قد طلع والقتام قد ارتفع من خيول عادية وعليها فوارس حجازية ، وكبر المسلمون ورفعوا راياتهم الإسلامية وأعلامهم المحمدية ، فسمع أصحاب رسول الله ﷺ الصياح فخرج الأمراء إلى لقائهم واذا فى أوائلهم خالد بن الوليد رضى الله عنه وإلى جانبه غانم بن عياض الأشعرى وأبو ذر الغفارى ، فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب فى قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله ﷺ قريبا من أهناس كل منهم فى مركزه ، وأقاموا ذلك اليوم فلما كان اليوم الثالث جمع خالد الأمراء وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضى إلى بطريق أهناس . فقال المقداد أنا له . فقال له خالد : أنت له فخذ من شئت. فأخذ معه ضرار بن الأزور وميسرة بن مسروق العبسى : وقال لهم خالد : ادعوه الى الإسلام ، فإن أبى فالجزية ، فإن أبى فالقتال واحرصوا على أنفسكم .

(قال الراوى) وساروا إلى القوم حتى قربوا من العسكر وهم يدوسون بخيولهم أطناب الخيام والسرادقات ، فصاحت بهم الحجاب : من تكونون ؟ فقالوا نحن رسل فأعلموا البطريق بذلك فأمر بإحضارهم ، فلما حضروا بين يديه صاحت بهم الحجاب والنواب أن قبلوا الأرض للملك ، فلم يلتفتوا إليهم ولم ينزلوا إلا على باب سرادق الملك ووقفوا على الباب فأذن لهم فى الدخول فدخلوا وأمسكوا لجم خيولهم ، فأراد الغلمان أن يمسكوها فامتنعوا من ذلك فأشار إليهم البطريق فتركوهم ، ثم دخلوا عليه فإذا هو جالس على سرير من الذهب مرصع بالدر والجوهر وحوله البطارقة جلوس ، والحجاب والنواب وأرباب الدولة

قيام وبأيديهم السيوف والأعمدة والرماح ، فلما رآهم تغير لونه واندهش وأذن لهم بالجلوس . فقالوا : لا نجلس على هذا الفرش فإنه حرام علينا ، فأمر بالبسط الحرير فرفعت ، ثم فرش أنطاعا من الصوف ثم أشار إليهم فقالوا لا نجلس حتى تنزل من سريرك .

قال : فرطنت الروم فأشار اليهم فسكتوا وأرادوا أن ينزعوا منهم سيوفهم فامتنعوا من ذلك ، فتركهم وكلمهم الملك فأبوا حتى ينزل عن سريرهه ، فنزل وكلمهم بلسان عربى وسألهم عن حالهم ، فأجابوا أنهم لا يفارقونه حتى يسلم هو وقومه ، أو يؤدوا الجزية أو القتال فامتنع عن ذلك وقال اذهبوا والموعد غدا للقتال ، وخرجوا من عنده على ذلك ورجعوا إلى خالد وأعلموه بذلك فتأهب الأمراء للحرب ، فلما أصبح خالد صلى بأصحابه صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا النصر النصر يا خيل الله اركبى وللجنة اطلبى ، فركب المسلمون خيولهم وركزوا راياتهم واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وخالد فى وسط الجيش ، وعلى الساقة ميسرة بن مسروق العبسى ، ومالك الأشتر النخعى فى خمسمائة فارس من المهاجرين والأنصار .

(قال الراوى) فلم تكن غير ساعة حتى برزت الروم وأظهرت صلبانها .

قال حدثنا رافع بن مالك عن عباد بن مازن عن محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه .

قال : لما أقبلت رايات القوم عددناها فإذا هى خمسون صليبا تحت كل صليب ألف فارس ، فكان أول من افتتح الحرب بطريق عليه ديباجة حمراء وعلى رأسة بيضة ، معصب عليها بعص..ة من جوهر ، فبرز إليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله ، ثم طلب البراز فبرز اليه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم يمهله أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فخرج يلمع من عاتقه الأيسر فانجدل عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار ، وطلب البراز ، فبرز إليه فارس من الروم فقتله ، ثم آخر فقتله وطلب الميمنة وشوش صفوفهم وقتل أبطالهم ، ثم عاد إلى القلب ، ثم خرج من بعده شرحبيل بن حسنة وفعل كفعله ،ثم حمل من بعده الفضل بن العباس ، ثم حمل من بعده العباس بن مرداس ، ثم من بعده أبو ذر الغفارى ، ثم تبادر المسلمون بالحملة ، فلما رأى الروم ذلك أيقظوا أنفسهم

فى عددهم وعديدهم وتظاهروا بالبيض والدروع ، ولم يزل القتال بينهم حتى توسطت الشمس فى قبة الفلك .

(قال الراوى) فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص فى الميمنة فقلبها على الميسرةوغاص فى الميسرة فقلبها على الميمنة ، وقاتلت العرب قتالا شديدا حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين ، وبات المسلمون يتحارسون وتفقد المسلمون بعضهم بعضا . فإذا قد قتل منهم اثنان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة ، الأعيان منهم ربيعة بن عامر الداودى وزيد بن ربيعة المحاربى وغانم بن نوفل المحاربى وصفوان بن مرة اليربوعى ، والبقية من أخلاط الناس ، وقتل من أعداء الله ألف وثلثمائة وأزيد ولما خلا عدو الله بأصحابه تذكروا ما وقع فى الحرب وصعب عليهم ما لقوه من العرب فأراد الملك الصلح فغلب البطارقة عليه وأعدوا للحرب والقتال ، فلما أصبح الله الصباح وبارق الفجر لاح صلى المسلمون صلاة الصبح ، ثم اصطفوا على ظهور خيولهم واصطفت الروم وبرزت البطارقة وأظهروا زينتهم وبرز بطريق عظيم يقال له صاحب طنسا وعليه لامة حربه وطلب البراز فبرز إليه الفضل بن العباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس فضربه بالسيف على رأسه فوصل إلى أضراسه فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار ، وبرز بطريق ثان فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيارهم فحملت الروم حملة واحد وحمل المسلمون وحمل ضرار بن الأزور رضى لله عنه وأظهر شجاعته وحمل مذعور بن غانم الأشعرى والفضل بن العباس ومحمد بن عقبة بن أبى معيط ومسلم وجعفر وعلى أبناء عقيل وعبد الله بن جعفر وسليمان بن خالد وعبد الرحمن ابن أبى بكر وتجاهرت الأمراء وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب وثار القتام حتى صار النهار كالظلام وتراشقوا بالنبال واشتد القتال وقطعت المعاصم وطارب الجماجم فما كنت ترى إلا جوادا غائرا ودما فائرا واشتد الكرب وكثر الطعن والضرب وسال العرق واحمرت الحدق وجال خالد كالأسد وأرغى وأزبد ، فعند ذلك رفع غانم بن عياض طرفه إلى السماء .

وقال : يا عظيم العظماء أنزل علينا نصرك كما أنزلته علينا فى مواطن كثيرة وانصرنا

على القوم الكافرين فأمنت جماعة من الأمراء على دعائه فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال الكفار يتساقطون لاندرى بماذا يقتلون ، فلما رأى الروم ذلك فروا إلى الباب وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلى السور وهم لا يلتفتون إلى ذلك ودخلوا إلى الأبواب ودخل اللعين وصال عليهم خالد وجماعة من الأمراء واقتطعوا قطعة من الروم نحو خمسة آلاف وكان المسلمون قريبين من اللعين فاقتتلوا عند الباب ورموهم بالحجارة فقتلوا منهم نحوا من ثلاثة آلاف وخرج من الباب نحو ألف فارس وحملوا، ودخل الباقون وأغلقوا بابهم وطلعوا على الأسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة النبال حتى فرق الليل بينهم .

(قال الراوى) وأقام المسلمون على حصار أهناس ثلاثة أشهر وفى كل يوم يناوشونهم بالقتال والأسوار رفيعة والأبواب منيعة وأصحاب رسول الله ﷺ كل يوم يشنون الغارات حتى يصلوا إلى أطراف الكورة .

(قال الراوى) وأقام المسلمون على حصار أهناس ثلاثة أشهر وقد قل عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابه ، ثم إن خالدا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد أعياه فتح الباب ، فقال له المرزبان رضى الله عنه وكان من مرازبة كسرى وقد أسلم وخرج إلى الجهاد وحبس نفسه لله عز وجل وهو المقتول بالبهنسا قريبا من البلد شرقى البحر اليوسفى فى وقعة صاحب طجة ذات الأعمدة وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى . فقال المرزبان إننا كنا فى بلاد الفرس إذا حاصرنا مدينة ولم نقدر على فتحها أخذنا زيتا وكبريتا ووضعناه فى صناديق من خشب ، وجعلنا لها أعوادا تحملها رجال ورجال يذبون عنهم إلى أن يصلوا إلى الباب أو إلى قريب منه ، ويجعلون فى الصناديق نارا ويولون فتعلق النار فى الأبواب ويذوب الحديد فتنفتح الأبواب وتعلق النار فى الحطب والخشب والحجارة فتهدمها ، فقال خالد نفعلها إن شاء الله تعالى .

فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا فى جمع ما ذكرنا ووضعوه فى صناديق ، وجعلوا فى أطرافها أعوادا طوالا من أسفلها وحملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلون

والمرزبان أمامهم يعلمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والحجف والحجارة والنبال تتساقط عليهم من أعلى السور حتى وصلوا إلى أول باب من أبواب المدينة ، وهو الباب الشرقى وهو أعظم أبوابها .

فلما قربوا من الباب رفعوا الصناديق على الباب وألقوا النار فى الزيت والكبريت ووضعوها وانقلبوا فلم يكن أسرع من لحظة حتى علقت النار بحجارة الباب والأخشاب والحديد وثارت النار إلى أعلى السور حتى وصلت إلى البرج فسقط البرج بمن فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة وتبادرت المسلمون إلى الباب وملئوا قرب الماء وأطفئوا تلك النار ، ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينا على أعمدة من الحجارة المنحوتة وكانوا أغلقوا أبوابه ففعلوا به كما ذكرنا .

ولما رأى الملعون ذلك لم يطق أن يصبر وأمر بفتح الباب وصاح الأمان ومعه جماعة من حشمه وخدمه وبطارقته فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فأمر خالد بضرب أعناقهم ، فمن أسلم تركوه ومن أبى قتلوه واستغاثت بهم السوقة والرعية وقالوا مغلوبون فمن أسلم تركوه ومن بقى على دينه ضربوا عليه الجزية وهدموا دورا وأماكن حتى صارت تلالا ، وغنم المسلمون أموالا كثيرة من أوانى الذهب والفضة والفرش الفاخرة ووضعوا فيها عبادة بن قيس قيما ومعه ثلثمائة من المسلمين وخرجوا بظاهر المدينة ولم يبق إلا من أسلم ومن وضعت عليه الجزية وعمروا بها مسجدا .

ولما فرغ خالدمن ذلك جمع الغنائم ، وأخرج خمسها وأرسله إلى عمرو بن العاص يرسله إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولأصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها ، وأقام خالد بعد ذلك بأهناس هو وجماعته من الأمراء أربعين يوما ، واستدعى خالد بعدى بن حاتم الطائى رضى الله عنه وأضاف إليه ميمون بن مهران وضم إليه ألف فارس وأمرهم أن ينازلوا أول بلاد البطليوس لعنه الله وينازلوا أهل الكورة وإذا وصل إلى قيس بن الحرث يأمره بالمسير إلى قريب البهنسا ويقاتل من يقاتله ويسالم من يسالمه ويصالح من يصالحه حتى يأتيه المدد ، ثم أرسل فى أثره غانم بن عياض

الأشعرى رضى الله عنه وضم إليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجيبة الفزارى وأبو ذر الفغارى والمرزبان الفارسى وكذلك جعفر ومسلم وعلى وعبدالله بن المقداد وولد خالد سليمان ومحمد بن طلحة وعمرو بن سعد بن أبى وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ وقال لهم خالد سيروا حتى تصلوا إلى مدينة البهنسا أنا فى أثركم ما لم يحصل لى ولأصحابى مانع وادعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوكم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ومن أبى فالجزية ومن أبى فالحرب والقتال ونازلوا المدائن وأقرنوا المواكب ولا تسيروا إلا يد واحدة وفرقوا الكتائب وكونوا قريبين بعضكم من بعض غير متباعدين .

فإذا وقعت كتيبة منكم بمالا طاقة لها به تبعث النفير وثبتوا هممكم وأخلصوا نياتكم وقووا عزائمكم ، فإذا وصلتم إلى البهنسا التى هى دار ملكهم ومحل ولايتهم فأرسلا إلى الملك وادعوه إلى الإسلام ، فإن أطاع فاتركوه فى ملكه وإن أبى فالجزية عن يد وهم صاغرون وإن أبى فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، وبلغنى أنها مدينة كثير أهلها وأنها كثيرة الخيل وحولها مدائن وبلاد وقرى ورساتيق ، فمن سالمكم وصالحكم فصالحوه ومن قاتلكم فقاتلوه وعليكم بالحزم وإخلاص النية وصدق العزيمة . قال الله تعالى فى كتابه المكنون ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [1] ثم استدعى بالمغيرة بن شعبة رضى الله عنه وكان معه زياد الأكبر أبو المغيرة جد زياد الذى هو بقرية ديروط بقرب طنبدا ، وسيأتى ذكر زياد بن المغيرة وأصحابه هناك إن شاء الله تعالى عند وقعة الدير ، واستدعى بسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين رضى الله عنه وأبان بن عثمان بن عفان وجدد عليهم الوصية وودعهم .

(قال الراوى) وسار عدى بن حاتم الطائى وميمون حتى وصلا ميدوم وما حولها فوجدوا قيس بن الحرث قد صالح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحا وأقرهم بالجزية ما عدا جماعة وكذلك أهل برنشت بعد قتل بطريقهم وكذلك أهل تلك البلاد إلى دهشور ونادى فى ذلك الإقليم بالأمان وجبوا له أموالا عظيمة على الصلح والجزية وعبر جماعة من

(١) سورة آل عمران : الآية : ٢٠ .

المسلمين إلى البر الشرقى ، وهم : رفاعة بن زهير المحاربى وعقبة بن عامر الجهنى وذو الكلاع الحميرى وألف من أصحاب رسول الله ﷺ وشنوا الغارات من العقبة التى هى قريب من قبلى حلوان على تلك القرى والبلاد ، فمن صالحهم صالحوه ، ومن أبى قاتلوه حتى وصلوا إلى أطفيح ثم إلى البرنيل ، وكان هناك بطريق يعرف بصول فخرج إليهم أهلها فصالحوهم على الجزية وعبروا من هناك وسار عدى بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحرث قريبا من القرية المعروفة بقمن ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون .

فقال له قيس بن الحرث : لا تنزل هنا حتى يفتح لنا ما حولها من البلاد ويأتى خبر من الأمير خالد بن الوليد ويأذن لنا بما يريد فأجاب إلى ذلك ونزل عدى بأصحابه بالقرية المعروفة ببنى عدى ثم سار وترك ابنه حاتما وإخوته وأحاطوا بالقرية وسار قيس وأصحابه حتى وصلوا إلى القرية المعروفة بنوس والبلد المعروف بدلاص فخرج إليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا البلاد على ساحل البحر حتى نزلوا ببا الكبرى وغانم بن عياض على أثرهم وكان بها دير عظيم يعرف بدير أبى جرجا ، وكان له عيد عظيم يجتمعون إليه من سائر البلاد فوافق قدوم الصحابة قريبا من عيدهم فجاءهم رجل من المعاهدين وأعلمهم بذلك فانتدب قيس بن الحرث رضى الله عنه ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة فأمر عليهم رفاعة بن زهير المحاربى وأمرهم أن يشنوا الغارة على الدير .

قال وكان جماعة من رؤساء الكورة من الروم والقبط والخيول المسومة حول الدير يحرسونهم وهم فى أكلهم وشربهم وزينتهم وبيعهم وشرائهم فما أحسوا إلا والخيل على رؤوسهم فما قاتلوا إلا قليلا وانهزموا ونهب أصحابه جميع ما فى السوق ومن أثاث وغيره وساقوا الغنائم وأحاطوا بالدير فقاتلوا من على الدير فقطعوا السلاسل والأقفال ، وتعلق جماعة من الصحابة على الحيطان ودخلوا الدير وأخذوا منه أمتعة وأثاثا وأوانى من ذهب وفضة ، وأسروا مائة أسير وساروا حتى توسطوا البلاد ، وكان بالقرب من البحر اليوسفى قرى كثيرة وبلدان وكان فيها مدينة تعرف بسحاق ، وكان بها بطريق من عظماء بطارقة البطليوس .

فلما بلغه قدوم الصحابة جمع جنوده إلى البلد المعروفة بنشابة ، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصحاب رسول الله ﷺ وقيس بن الجرث خرج إليه أهل بيا الكبرى وما حولها من السواد وكذلك أهل هوريت وعقد لهم صلحا وساروا ، فلما قربوا من القرية المعروفة الآن ببنى صالح ، فبينما هم سائرون إذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف ، فلما رآهم المسلمون لم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم واقتتلوا قتالا شديدا وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار والتقى الجمعان واصطدم الفريقان ، فلله در رفاعة بن زهير المحاربى وعقبة بن عامر الجهنى وعمار بن ياسر العبسى وميسرة بن مسروق العبسى .

(قال الراوى) وقاتلت أصحاب رسول الله ﷺ قتالا شديدا وصبروا صبر الكرام ، وإن عدو الله لاوى بن أرمياء صاحب شيزا وكان فارسا شديدا وبطلا صنديدا ، فجال وصال وقتل الرجال ، فعندها برز إليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسى فقتله ، فخرج إليه عمار بن ياسر العبسى فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقع بينهما ضربتان وكان السابق بالضربة عمار فطعنه بالرمح فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار ، فعندها غضب الروم لأجل قتل صاحبهم وحملوا على عمار فى كبكبة من الخيل فعقروا الجواد من تحته ، وتكاثر عليه فقتلوه وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلا .

قال حدثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غانم اليربوعى وكان فى خيل رفاعة بن زهير المحاربى . قال نحن على القتال وقد عظم النزال ووطنا أنفسنا على الموت ، ورفاعة يحرض الناس على القتال وهو ينشد ويقول :

يا معشر الناس والسادات والهمم ... ويا أهل الصفـــا يا معدن الكرم
فســـددوا العزم لا تبغوا به فشلا ... ومكنوا الضرب فى الهامات والقمم
وخلفــوا القوم فى البيداء مطرحة ... على الثرى خمشـــا بالذل والنقم

(قال الواقدى) وجعل يحرضهم ويقول يا معشر السادات والأقيال أبشروا فإن الروم

لم تقم لهم قائمة أبدا ، وأبشروا بالحور والولدان فى غرفات الجنان ، وأن الجنة تحت ظلال سيوفكم .

قال رفاعة : فبينما نحن فى أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشف الغبار عن ألف فارس فى الحديد غواطس ، عليهم الدروع الداودية وعلى رؤوسهم البيض العادية المجلية معتقلين بالرماح الخطية ، راكبين الخيول العربية ، فتأملناهم فإذا هم سليمان بن خالد ابن الوليد وعبدالله بن المقداد وعبدالله بن طلحة وأخوه محمد وزياد بن المغيرة والوليد ومحمد بن عتبة ومحمد بن أبى هريرة وجماعة من الصحابة والأمراء وأبناؤهم رضى الله عنهم ، وكان غانم بن عياض الأشعرى جهزهم طليعة قدامه ، فلما رأونا كبروا وكبرنا لتكبيرهم وخاضوا فى أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقا من البطارقة فقتله ، فلما رأت الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم أصحاب رسول ﷺ يقتلون وينهبون ويأسرون إلى بلدة سبزا وما حولها من السواد إلى سلقوس ، فأسروا منهم نحو خمسمائة أسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون إلى القرى والبلاد ، ولما قتل بطريق شندا خرج إليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحا واتفقوا على أداء الجزية وكذا من حولهم من القرى ، ونزل هناك عمر بن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحرث أمام القوم حتى نزل قريبا من طنبدا والبلد المعروف بإسنا ، وكان بها بطريق يسمى بولياص بن بطرس وكان كافرا لعينا فخرج إلى لقاء المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكيدة منه وعقد مع المسلمين صلحا ووافقهم على أداء الجزية عن بلده وعن إسنا وكانت تحت حكمه ، وارتحل قيس بن الحرث ومن معه وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بدهروط ، فعهد مع أهلها صلحا ، ونزل سليمان بن خالد وعبدالله بن المقداد وجماعة قريبا من البلد ، ومنهم من نزل عند القرية المعروفة بأطينة ، وصار جماعة يدخلون البلد ليلا ثم يعودون خوفا من المكيدة ولا حذر من قدر الله عز وجل .

(قال الواقدى) وكان المتخلفون خمسمائة فارس ، فجعلوا يسيرون على جانب البحر ويشنون أى يغيرون على أهل السواد ، فمن صالحهم صالحوه ومن أسلم تركوه ،

وسار قيس بن الحرث حتى نزل بالبلد المعروف الآن بالقيس ، وبه سميت وكان فيها بطريق من بطارقة البطليوس وكان من بنى عمه رجل اسمه شكور بن ميخائيل والله أعلم باسمه ، فدخل أهل السواد كلهم البلد وحاصروها حصارا شديدا نحو شهرين .

ثم أعانهم الله تعالى وحرقوا بابا من أبوابها ففتحت ودخلوا إليها وكان ذلك بعد وقعة جرت بينهم فى مكان يعرف بكوم الأنصار ، فهزموهم هناك وحاصروهم وفتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الأموال وأخذوا جميع ما فيها بعد أن دعوهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك ، ثم شنوا الغارات على ما حولها من البلدان والبلد المعروف بماطى، ثم إلى الكفور ، فخرج إليهم بطريق كان ابن لخم المقتول بدهشور لعنه الله وأخوه بطرس وعقدا مع المسلمين عقدا على الصلح وأعطوا الجزية ، وسارت العرب إلى البلد المعروف بالدير وسملوط وما حولها من القرى ، ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذى يعرف بزهرة .

وأما بقية السواد الذى حول البهنسا شرقا وغربا ، فلما تحققوا مجيء العرب هربوا إلى البهنسا بأموالهم ونسائهم وذراريهم وتركوا البلاد جميعها خرابا ، وكان البطليوس لعنه الله أرسل إليهم بطارقته فحملوهم إلى البهنسا واستعد للحصار وجمع عنده ما يحتاج إليه مدة الحصار .

(قال الواقدى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما عدو الله بولياص صاحب طنبدا فإنه كاتب البطليوس يقول : إنى ما صالحت العرب إلا مكيدة وإنى أريد الغدر بهم فجهز لى جيشا من البطارقة على أن أظفر بجماعة من أبطال المسلمين ونأخذ بثأر من قتل منكم قريبا .

قال : وكان عدو الله كل يوم تأتيه الأخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم من أهل البلاد والسواد بما جرى للعرب وبأخبار من قتل من البطارقة وأخذ البلاد والأموال ، فحمل هما عظيما ولم يظهر ذلك لأحد من بطارقته ، وإنما كان يطيب قلوبهم ويقول بلدنا حصينة وإن قاتلونا قاتلناهم وإن غلبونا دخلنا بلدنا ، فلو جاءنا أهل الحجاز جميعهم ما وصلوا الينا ولو أقاموا عشرين سنة ، والله غالب على أمره وناصر دين الإسلام ومذل الكفرة

اللئام ، فلما بلغ البطليوس مكاتبة عدو الله بولياص فرح بذلك فرحا شديدا . قال واستدعى ببطريق من بطارقته يسمى روماس وضم إليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمرهم أن يسيروا تحت ظلام الليل فلما جاء نصف الليل حتى وصلوا لى طنبدا ودخلوا إلى بولياص ففرح بذلك فرحا شديدا واستعدوا للهجمة على المسلمين . قال وأصبح المسلمون وقد صلوا صلاة الصبح وإذا بالخيل قد أقبلت إليهم فنادوا : النفير هاجمونا وغدرونا ، فركب المسلمون خيولهم وساروا إلى قريب الدير ، وإذا بالروم مقبلين فى عشرة آلاف فارس وكان أعداء الله قد كمنوا كمينا قريبا من قناطر كانت هناك ونهر يجرى فيه الماء من النيل فى أوانه عميق غربى الدير قريب من البلد .

(قال الواقدى) ولما رأى المسلمون لمعان الأسنة والبيض وخفقان الأعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا إلى خيولهم فركبوا وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وأقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم ، وحرض بعضهم بعضا على القتال ، وكانوا قد سبقوا إلى شرذمة من المسلمين كانوا نزولا قريبا من الدير ووضعوا فيهم السيف وأحاطوا بهم وجالوا واتسع المجال إلى قريب من دهروط ، فخرج سليمان بن خالد ابن الوليد وعبدالله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشداد بن أوس وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، واشتد القتال ،وعظم النزال ، وعميت الأبصار ، وقدحت حوافر الخيل الشرار ، ولمعت الأسنة ، وقرعت الأعنة ، ودهشت الأنظار ، وحارت الأفكار ، أحاطوا بالمسلمين من كل جانب ، فالله در سليمان بن خالد بن الوليد وعبدالله بن المقداد لقد قاتلا قتالا شديدا وأبليا بلاء حسنا ، ولله در زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وتارة فى القلب، وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب ،وقد صار المسلمون بينهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وصبرو لهم صبر الكرام وكان أكثر المسلمين قد أثخن بالجراح واشتد الكفار ، هذا والمسلمون قد انتدبوا أبطالا وجعلوها خلف ظهورهم وقاتلوهم قتالا عظيما ، هذا وأعداء الله قد أحاطوا بهم وحجزوا بينهم وبين البلد ،وقاتل سليمان وأصحابه قتالا شديدا ووطنوا أنفسهم على الموت وشجع بعضهم بعضا وصار

سليمان بن خالد يقول : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند حوض النبى ﷺ وقاتل قتالا شديدا حتى أثخن بالجراح ، وقتل من المسلمين نحو مائتين وعشرين قريبا من التل الذى غرب البلد المذكور ، وما قتل الواحد منهم حتى قتل من أعداء الله خلقا كثيرا .

(قال الواقدى) ولما رأى المسلمون وسليمان بن خالد ما حل بأصحابه صار تارة يكر فى الميسرة وتارة يكر فى الميمنة ، وأعانه بالحملة عبدالله بن المقداد وبقية الصحابة ، وتقدم سليمان بن خالد وطعن بطريق إسنا طعنة صادقة فأرداه عن جواده وغاص فى القلب .

قال حدثنا أوس بن شداد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال : كنت فى الخيل صحبة سليمان بن خالد وقد حجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نشعر أن لهم كمينا إذ خرج الكمين علينا وقاتلناهم قتال الموت وقتل منهم جماعة نحو ألفى فارس وقتل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثين فارسا وكذلك عبد الله بن المقداد ، فأحاط بسليمان بن خالد رضى الله عنه كردوس نحو ألفى فارس وعقروا جواده من تحته ، فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمنى ، فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت ، فأحاطوا به .

فلما تيقن بالقتل التفت وقال : يعز عليك يا خالد بن الوليد ما حل بولدك ولكن هذا فى رضا الله عز وجل ، وكان قد طعن فى صدره نحو عشرين طعنة حتى قل حيله وسقط إلى الأرض ، ثم تنفس وقال : الساعة نلقى الأحبة ، ولما رآه عبد الله بن المقداد على ذلك المصرع صاح لا حياة بعدك يا أبا محمد والملتقى فى جنات عدن ، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنة وضرب ضربات كثيرة فى وجهه وهو يقطع الرماح ويمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح : واشوقاه إليك يا مقداد ، ثم تبسم وقال مرحبا ، ثم مات وأيقنّا كلنا بالموت وأن القيامة هناك وإذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات إسلامية وعصائب محمدية وفى أوائل القوم القعقاع بن عمرو التيمى والمسيب بن نجيبة الفزارى وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان وبنو هاشم وبنو عبد المطلب وسادات الأوس والخزرج ، وغانم بن عياض الأشعرى ومن معه من الأمراء

السادات، فلم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى أجلوهم وقتل البطريق بولياص لعنه الله ومعه بطريق البطليوس ، وانهزمت الروم واتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة إلى البحر اليوسفى ورموهم فى البحر وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم في المعركة نحو أربعة آلاف وأسروا نحو ألف ومائتى أسير وهرب منهم إلى البطليوس جماعة واختفوا إلى الليل ودخلوا لبطليوس وأعلموه بذلك ، فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره ، وحار فى أمره ، واستعد للقاء المسلمين .

(قال الواقدى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما أهل طنبدا وأهل إسنا وكانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا ، فإنهم لما وردت عليهم الأخبار ومعهم البطارقة ، سألوا بطريقهم القتال وكان نصرانيا ولم يكن روميا وكان اسمه لوص وبه سميت البلد فأبى ، فلما انهزم البطارقة وخرج أهل طنبدا وأهل إسنا من السوقة والرعية وأولادهم وغيرهم وبكوا فى وجوههم وقالوا : نحن قوم رعية وكنا مغلوبين على أمرنا فإنا أهل ذمتكم ورعيتكم . قالوا بشرط أن تدلونا على ما هربوا إليكم فأجابوهم إلى ذلك وصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون الدور والمساكن ويقبضون على الروم ويسلمونهم إلى المسلمين ، وكان النصرانى يقبض على الرومى ويأتى به إلى المسلمين ، حتى قبضوا من طنبدا وإسنا نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والأبيار التى كانوا يحبسون فيها الأسارى من المسلمين وغيرهم ولما اجتمعت الأسارى من الروم والنصارى أمر غانم بن عياض بضرب رقابهم على تل هناك يعرف بالكوم ورجعت المسلمون إلى مكان المعركة ، فلما عاينوا القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعبيد بن الدارى ، بكوا عليهم وعلى من قتل معهم من الأمراء رضى الله عنه وحزنوا عليهم حزنا شديدا ، وأنشد عمار بن ياسر ينعى سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومن معهما بقوله :

يا عين أذرى الدمع منك الصبيب ثم اندبى يا عـــين فقد الحبيب
وانعـــــى لمقتول غدا فى الفلا مجندلا وســـط الفيافى غريب
وابكى ســـــليمان ولا تغفلى فأمـــره والله أمــــــر عجيب

قـــد كان لا يفــــــكر في العدا	إن ســل من غمد سيف قضيب
وتحذر الأعــــــداء من بأســــه	لو أنهم أعـداد رمل الكـــثيب
فيا حمـــام الأيك نوحـــى إذاً	على فتى قد كان غصـنا رطيب
وأعلمى بما جـرى خـــــالدا	لعله يبكى بدمـــــــع صبيب
وأخبرى المقداد مـــــن بعده	بأن عبـد لله أضحـــى سليب
بل واندبى الأخـيار من بعــدهم	وكل قـدم للمعالـــى مصيب
لا يلتقـــى البطليوس خـيرا ولا	أجناد أبناء أهــــل الصليب
قد كمنوا جيشـــا لنا عــامدا	يوم الوغى من كل كلب مريب
وحـــــق من أعطى لنا نـصره	فى كل واد ثم فتحـــا قريب
لنأخذن الثأر من جمعهــــــم	جهرا ونطفـــى من فؤاد لهيب

(قـال الواقـدى) وإن غـانما رضى الله عنه جـمع الشـهداء ودفنهـم فى ثيـابهـم ودروعهم. قال سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول « يحشر الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دماء اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

(قال الواقدى) وأقام غانم رضى الله عنه بعد أن دفن الشهداء قريبا من التل والأمراء يشنون الغارات على السواحل وعدى بن جابر بن عبد الله الأنصارى وأبو أيوب والمسيب بن نجيبة الفزارى فى ألف فارس ، فأغاروا على أهل شرونة ، فخرج إليهم بطريق يعرف بصندراس الجاهل وبطريق أهريست فى خمسة آلاف فارس واقتتلوا قتالا شديدا عند سفح الجبل فبلغ الخبر غانم بن عياض الاشعرى فأرسل اليهم كتيبة أخرى صحبة ابن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان فى ألف فارس ، فلما رأى الروم ذلك وقع الرعب فى قلوبهم وكان بينهم حروب عظيمة .

ثم إن الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل وضربه ضربة هاشمية على رأسه فقطع الخوذة والبيضة والرفادة ، إلى أن سمع خشخشة السيف فى أضراسه فكبر وكبرت المسلمون لتكبيره فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار

وكان الفضل بن العباس فارسا شديدا وبطلا صنديدا ، فغاص فى وسط المشركين وفتك فيهم ، والمرزبان حمل على بطريق شرونة فقتله ، وحمل ابن المنذر على بطريق أهريت فقتله ، فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلى المكان المعروف بالدير وأهريت وغرق منهم خلق كثير وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس ، وأسر منهم ألف وخمسمائة وتحصن منهم جماعة من الروم والنصارى فى مدينة الجاهل ، وكانت حصينة فحاصرها المسلمون سبعة أيام وحرقوا الأبواب ، وهدموا الجدران ، وأخرجوهم من البيوت ، وأخربوا تلك المدينة إلى يومنا وخرج إلى المسلمين نصارى من شرونه وأهريت وعقدوا مع المسلمين صلحا ، وأعطوا الجزية ، وأنزلوا مرة الكلبى فى مائتين من أصحابه وغيرهم وابن عمرو بن العاص فى المكان المعروف ببناء خالد فى مائتى فارس ، وعبر المسلمون البحر ونزل عامر بالعرب فى مائتى فارس قريبا من طنبدا وإسنا وببا القرية ، وارتحل غانم بن عياض رضى الله عنه ببقية الجيش ، ولما تكاملت المسلمون أرسل بين يديه المسيب بن نجيبة الفزارى والعباس بن مرداس السلمى والفضل بن العباس الهاشمى وعامر بن عقبة الجهنى وزياد بن أبى سفيان بن الحرث فى ألف وخمسمائة فارس فساروا إلى مكان يعرف بانجرنوس ، وكان هناك قلعة ومرج للملك البطليوس وكان فى زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حول القلعة وتجتمع عنده البطارقة يقيم أشهرا ثم ينزل على الإقليم ثم يعود إلى البهنسا .

(قال الواقدى) وأرسل لوص إلى البطليوس يطلب منه جيشا صحبته بطريق من بطارقته ، فأرسل إليه بطريقا كافرا لعينا اسمه شلقم وبه سميت البلد التى هى قريب من البهنسا ، وكان الجيش عشرة آلاف فارس ، والله أعلم .

قال حدثنا مسلم بن سالم اليربوعى عن شداد بن مازن عن طارق بن هلال : أنه كان فى خيل العباس بن مرداس السلمى .

قال : بينما نحن نسير إذ رأينا غبرة وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب ، فتأهبنا للحملة وتأهبوا لنا ، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا وحملنا

عليهم وأحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالا شديدا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم ، وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت ، فلم تكن إلا ساعة وقد قوى الحرب والقتال حتى أشرف علينا الأمير غانم بن عياض الأشعرى مع بقية الجيش ، فقوى قلبنا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير ، فتقدم الفضل بن العباس إلى البطريق شلقم وكان فارسا شديدا وعليه ديباجة مفصصة بالذهب وفى وسطه منطقة بالذهب مرصعة بالجواهر ، وقد عصب رأسه بعصابة من الجواهر وبيده عمود من الذهب طوله ثلاثة أشبار وأزيد ، وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعمود ، فلما رآه الفضل ظن أنه يريده ، فحمل عليه الفضل وهو ينشد ويقول .

يا أيها الكلب اللعين الطاغيا ... ومن أتى لجيشنا معاديا

أبشر لقد وافاك ليث ضاريا ... بحد سيف فى عداه ماضيا

كان له الرب العظيم واقيا ... من كل كلب إذ يكون طاغيا

قال : فلم يفهم ما يقول الفضل وحمل عليه وتعاركا وتجاولا وضرب الفضل رضى الله عنه فحاد عنها وعطف عليه وانتزع العمود من يده وضربه ضربة هاشمية قرشية أبان بها رأسه عن بدنه ونظر إليه فلم يسقط فعاد عليه وهو جثة بلا رأس فتلقاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبا بكلاليب فى سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته دما . فقال له الفضل إن السلب لى فخذه فقد وهبتك إياه . فقال لا أعدمنا الله مكاركم يا بنى هاشم وعطف على لوص فقتله وقتل كل أمير بطريقا غيره وحملت المسلمون حملة رجل واحد فبددوا شملهم فولوا منهزمين بين أيديهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلى أن وصلوا إلى البحر اليوسفى والقوهم فى مكان قريب من شاقولة فسميت القرية بذلك وتحصنت جماعة بقلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدران واستخرجوا ما هناك وقتلوا من المسلمين ثمانية وأربعون رجلا ، من أعيانهم سيف الأنصارى رضى الله عنهم أجمعين ، ودفن هو وأصحابه بمكان الوقعة ، وكان زياد بن المغيرة وجماعته نزولا فى أماكنهم قريبا من طنبدا كما ذكرنا حول البلد

المعروف بدهروط ، وكان زياد صديقا للأمير سليمان بن خالد بن الوليدفكتب كتابا للأمير خالد بن الوليد يعزيه فى ولده سليمان ويقول :

ياخــالد إن هذا الدهــر فجــعنا	**فى ســيد كان يوم الحرب مقداما**
مجندل الفرس فى الهيجا إذا اجتمعت	**وللصناديد يوم الحــرب خصاما**
لا يمــلك الضــد من أبطالنا أملا	**إن حاز ساعده القصاص صمصاما**
يا طول ما هــزم الأعداء بصارمه	**أنالهم منه تنكيســا وارغــاما**
كأنه الليث وســط الغاب إذ وردت	**له العدا وعلى الأشــبال قد حـامى**
يا عين جودى بفيض الدمع منك دما	**بل واندبى فارســا قد كان ضـرغاما**
والســيد الفرد عبد الله قد حكمت	**به المنايا وحــكم الله قـد داما**
نجم الفتــى العلم المقداد خير فتى	**قد كان فى ملتقى الأعـداء هـجاما**

(قال الواقدى) فلما وصل الكتاب إلى خالد بن الوليد كان قريبا من الدير ببقية الجيش وهو ينفذ السرايا وأهل البلاد يأتونه بما صالحوه عليه من المال وغيره وقد جهز عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهرى والزبير رضى الله عنه بألف فارس إلى الفيوم ، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى ، فلما ورد الكتاب على خالد سقط إلى الأرض وخر مغشيا عليه ، ثم أفاق واسترجع ، وقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾[1] ثم قال : اللهم إنى احتسبت أجرا ولا تحرمنى الثواب برحمتك يا أرحم الراحمين ، ثم قال والله لآخذن فيه ألف سيد من ساداتهم ولأقطعن ساداتهم وفرسانهم وإننى أرجو أن آخذ بثأره إن شاء الله تعالى ولأقتلن البطليوس شر قتلة لعلى أشفى بذلك غليل صدرى وحرارة كبدى وليكونن على يدى خراب دياره وانهزام جيوشه وزوال ملكه ، وهطلت مدامعه على وجنته أحر من الجمر، ثم جعل يسترجع ويقول :

---

(١) سورة البقرة : الآية : ١٥٦ .

جرى مدمعي فوق المحاجر منهمل وحر فؤادى من جوى البين يشتعل
وهام فؤادى حين أخبرت نعيه فليت بشير البين لا كان قد وصل
لقد ذوب الأحشاء وأجرى مدامعي صبيبا وعن نار الفؤاد فلا تسل
سأبكى عليه كلما أقبل المساء وما ابتسم الصبح المنير وما استهل
وكان كريم العم والخال سيدا إذا قام سوق الحرب لا يعرف الوجل
أحاطت به خيل اللئام بأسرهم وقد مكنوا منه المهند والأسل
وعيشك تلقاهم صراعا على الثرى عليهم يسوق الوحش والطير محتفل
فوا أسفا لو أننى كنت حاضرا بأبيض ماضى الحد فى الحرب مكتمل
وحق الذى حجت قريش لبيته وأرسل طه المصطفى غاية الأمل
لأقتل منهم فى الوغى ألف سيد إذا سلم الرحمن واتسع الأجل

(قال الواقدى) وأقبلت الأمراء يعزون خالدا ومدامعهم تفيض من عيونهم ويقولون أعظم الله لك اجرا ، وأعقبك عليه صبرا ، وجعله لك غدا فى المعاد ذخرا ، والله لقد عدمنا القوى ، وقد أبيد القلب من حشاشتنا واكتوى ، ونحن لقتله ذاهلون ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ [1] وكذلك يعزون المقداد فى ولده عبدالله وبلغ الخبر عمرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابا بالتعزية وبلغ الخبر المدينة لعمر بن الخطاب فاسترجع هو وبقية الصحابة مثل على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله ، ومن كان حاضرا من الصحابة بالمدينة الطيبة رضى الله عنهم وكتبوا إلى خالد والمقداد كتابا يعزونهما فلما وصل الكتاب إلى خالد والمقداد اطمأنا لما عليهما من الصبر وما لهما من الأجر والثواب .

(قال الواقدى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما البطليوس لعنه الله فإنه لما تحقق مجيء العرب إلى مدينة البهنسا فتح خزائن الأموال وفرق المال والسلاح والعدة من الملبوس والدروع وغير ذلك وفرق على البطارقة وعلى غيرهم من الجند ، وكان هناك بيت مقفل كما

---

(١) سورة البقرة : الآية : ١٥٦ .

ذكرنا فيه صفة العرب وأسماؤهم فأمر بفتحه وهو يظن أن فيه مالا مدخرا فمنعه القسوس والرهبان من ذلك فأبى ففتحه فلم يجد فيه إلا صفة العرب وأسماءهم كما ذكرنا أول الكتاب فنظر لذلك ودخل الكنيسة وجلس على سريره وجمع حوله البطارقة فاستشارهم فى أمره فقام شيخ كبير راهب وكان مطاعا عنده مسموع الكلام كبير السن ، وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة وفى يده عكازة من الأبنوس ملبسة بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يفهم .

ثم قال بعد ذلك : يا أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية قد كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون فى الرعية وتأخذون للمظلوم من الظالم وتنصفون الضعيف من القوى وتواسون الفقير ولا تمدون أيديكم إلى شيء من أموال الناس وتهابون الزنا ، وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة إليكم وداعية لكم وكان الملك فيكم ولما لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر وظلمتم الرعية وجرتم فى الاحكام وحكمتم بغير الحق ولا تأخذون للضعيف حقه من القوى ومددتم أيديكم بالدعاء عليكم ودعاء المظلوم مستجاب وكثرة الظلم خراب فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود إلى غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم وبدعاء المظلومين عليكم ، فلأجل ذلك سلطت عليكم العرب فملكوا بلادكم وقتلوارجالكم ونهبوا أموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا على معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبوا عن حريمكم وأموالكم ولا تمكنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتى لكم جميعا ، فما سمع البطليوس لعنه الله كلام القس وما تكلم به التفت إلى بطارقته وجماعته ونوابه ، وقال هل سمعتم ما قال أبوكم ؟

قالوا : سمعنا . قال : فما عندكم من الرأى ؟ قالوا نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا فى غيرنا وإن غلبونا استعددنا للحصار وعندنا من الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين وأزيد وبلدنا حصين ولا نسلم أنفسنا وإلا يكون علينا عارا عند الملوك قال فشكرهم البطليوس على ذلك ووثب قس آخر ، وكان يناظر ذلك القس فى المعرفة واستخرج كتابا معلقا كان عنده فى صندوق من الأبنوس مقفل بأقفال من الفولاذ

وقال يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اسمعوا ما نعته لكم العلماء والكهان والحكماء، إن يبعث نبي آخر الزمان يسمى محمد بن عبد الله من بني عدنان يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه يبعثه الله نبيا إلى جميع البشر ، مولده بمكة ، ودار هجرته طيبة ، ثم يقيم أعواما ويتوفاه الله عز وجل ، ثم يتولى الأمر بعده رجل يسمى أبا بكر وتزداد العرب به فخرا ويجهز العساكر إلى الشام ، ثم لم يلبث إلا أياما قلائل ويتوفاه الله تعالى ويتولى الأمر من بعده الرجل الأصلع الأحور المسمى بعمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الأعداء بأشأم صبوح تفتح على يدية الأمصار ويبعث سراياه إلى سائر الأقطار ، وأنا نجدفي الكتب القديمة أن هذه المدينة تفتح على يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمى بخالد بن الوليد ، فإن سمعتم قولي وقبلتم فاعقدوا مع العرب صلحا فإن الدولة لهم ودينهم الحق ، ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وببركه نبيهم محمد .

قال : فلما سمع البطارقة كلامه غضبوا غضبا شديدا وأرادوا قتله فمنعهم البطليوس من ذلك وقال له كأنك خفت من سيوف العرب ، وأنا أعلم أن الرهبان والقسوس لا قلب لهم لأنهم ليس لهم أكل إلا العدس والزيت والليمون والأشياء الرديئة ولا يعرفون اللحم فلأجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك للملوك القدماء لبطشت بك ، ولئن عدت إلى مقالتك هذه لأقتلنك شر قتلة قال فسكت القس الراهب وخرج البطليوس من وقته وساعته وجلس في قصره ذي الأعمدة ، ثم استدعى ببطارقته وخلع عليهم ورفع لهم الأعلام والصلبان وعرض عليه جيشه فإذا هم ثمانون ألفا غير السوقة المشاة فسر بذلك سرورا عظيما ، ثم استدعى ببطريق من بطارقته يدعى قابيل ، وكان لا يقطع أمرا دونه فخلع عليه ودفع له الثمانين ألفا وأمره بملاقاة العرب ، ثم استشار خواص مملكته في الإقامة في البلد أو الخروج إلى ظاهرها . فقال له ذوو الرأي من بطارقته:

أيها الملك إنك إذا أقمت في البلد استضعفوا رأينا وأمرنا ، وإذا كنت بجانب المدينة لا تجد العرب أن تصل إلينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الأبواب ويساعدونا من فوق الأبراج ، فإذا عظم الأمر فلا ندخل المدينة إلا من أمر عظيم فاستصوب رأيهم ، ثم أنه

أمر الفراشين أن يخرجوا الخيام والسرادقات والقباب بظاهر المدينة وأخرجوا له سرادقا عظيما سعته سبعون ذراعا وارتفاعه مثل ذلك على أعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملون : الأزرق والأحمر والأخضر والأبيض والأصفر والأسود ومقضب بقضبان الذهب والفضة مرصع باللؤلؤ وفيه تصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير الوحوش والكواكب وفرش من الفرش وبسط الحرير الملون ووضع فيه المساند والوسائد والأنطاع وأطناب السرادقات حرير ملون بأوتاد من عاج وأبنوس فى حلق من ذهب وفضة وعلق فه قناديل وسلاسل من ذهب وفضة ، ووضع فيه سريرا من خشب الساج المنقوش المصفح بالذهب الوهاج على قوائم بزمامين من ذهب وفضة طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه مثل ذلك يصعد إليه بدرج من خشب مصفح بصفائح من ذهب وفضة ، وعليه فرش حرير ووسائد ومساند ونمارق وحوله ثمانون كرسيا مصفحة بالخشب الأبنوس يجلس عليها أرباب الدولة وأصحاب الصولة وضرب حوله من الخيام والسرادقات ما لا يوصف له عد .

(قال الراوى) حدثنا جماعة من الصحابة ممن شهد الفتح وعاين السرادقات أنه لما هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق منصوبا مقابل الباب البحرى المعروف بباب قندوس أمر بطريقا من بطارقته اسمه سمعان أن ينصب سرادقه الذى وهبه له عند باب توما وهو الباب القبلى وأمر بطريقا اسمه اصطافين أن ينزل فى الجانب الشرقى قريبا من القناطر على ساباط معقود على أعمدة من الحجارة فأمره أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة .

قال هبار بن أبى سفيان : أو سلمة بن هاشم المخزومى ما نزلنا على مدينة من مدائن الشام ولا رأينا أكثر عددا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا ولا أقوى قلوبا منهم وأكثروا من الصلبان ونصبوا السرادقات والمنجنيقات على الأسوار وأسلبوا على الأسوار جلود الفيلة المصفحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام وغير ذلك .

(قال الراوى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما الأمير عياض بن غـانم الأشعرى رضى الله عنه ، فإنه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبى ذر الغفارى وأبى هريرة الدوسى

ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومي ومالك الأشتر النخعي وذى الكلاع الحميرى رضى الله عنه ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول فى الجهة الشرقية وقال لهم إن قاتلوكم قاتلوهم ونازلوا القلعة حتى تأخذوها ، وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء والطليعة من هؤلاء السادات وهم الفضل بن العباس وأخوه عبيدالله ابن العباس وشقران وصهيب ومسلم وجعفر وعلى أولاد عقيل بن أبى طالب وعبدالله بن جعفر وزياد بن أبى سفيان وتتابعت خلفهم السادات وأصحاب المروءات مثل نعيم بن هاشم ابن العاص وهبار بن أبى سفيان وعبدالله بن عمرو الدوسى وسعيد بن زبير الدوسى وحسان ابن نصر الطائي ومعمر بن خويلدة السبكى وسنان بن أوس الأنصارى ومخلد بن عون الكندى وابن زيد الخيل ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضى الله عنهم وتتابعت القبائل يتلو بعضها بعضا وعبروا إلى الجانب الغربى ، فبينما هم سائرون وإذا بعدو الله قابيل قد أقبل بالبطارقة المتقدم ذكرهم .

فلما التقى الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة أشار إلى أصحابه فأمسكوا عن المسير وتقدم إلى رابية عالية وإلى جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بأن ينادى برفيع صوته قربوا إلى البطريق رجلا منكم ذا خبرة يكلمه فوثب إليه جرير الحميرى وأتى إلى عياض وقال أيها الأمير أتأذن لى أن أكلمه . قال نعم إن طلبوا الصلح ورفعوا القتال صالحناهم حتى يحضر الأمير خالد بن الوليد ويفعل أمره ، وإن أرادوا القتال قاتلناهم واستعنا بالله تعالى عليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(قال الراوى) فعندها سار حتى وقف بازاء البطريق وقال له سل حاجتك . فقال له أأنت أمير القوم .

قال : لا ولكنى متكلم عن الأمير . فقال له لم تركتم بلاد الشام والنعم العظام وأتيتم إلى هذه البلاد ؟ وكنتم فى بلاد الحجاز تقاسون جوعا وعريا فذقتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن فلم يكفكم ذلك حتى أتيتم إلى مصر وقهرتم القبط وأتيتم إلى بلاد الفرس وقهرتم ملوكها ولم تكتفوا حتى أتيتم إلينا وهجمتم علينا فى بلادنا وقتلتم أبطالنا

ونهبتم أموالنا ونحن نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم وقصدتم مدينتنا التى هى دار ملكنا ومحل ولايتنا ، ولقد طلبها من قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والأكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين وأنتم هجمتم علينا وقتلتم رجالنا ، فقولوا لنا ما الذى تريدون منا ؟ فإن كنتم تريدون مالا وترجعون عنا : قمت أنا عن الملك بذلك وترحلون عنا وتردون لنا ما ملكتم من بلادنا وأن الملك لا يخالف لى أمرا فأخبرونى ما الذى تريدون وما الذى تطلبون ؟ .

فقال له جرير : أفرغت من كلامك ؟ . فقال له نعم . قال له جرير خذ جوابك . أما قولك كنا فى ضيق حال فهو كما ذكرت ، ولكن أنعم الله علينا بالإسلام وهو أول نعمة ثم أمرنا بالجهاد ، وأن الله تعالى أباح لنا أموال المشركين ما داموا محاربين ، وأمرنا أن نجاهدكم حتى تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، أو تسلموا ، أو تقاتلوا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ـ وأما قولك المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهواتنا وأن بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها .

(قال الواقدى) فلما سمع البطريق الكلام غضب غضبا شديدا ، وقال أنا كفء لكم دون الملك ، ثم أمر أصحابه بالحملة على جرير .

قال : فما لويت عنان جوادى إلا والخيل قد ركبتنى ، فعندها توثب المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وتبادرت الرجال وزمجرت الأبطال وزحفت الأفيال وتراشقوا بالنبال وتضاربوا بالنصال وتطاعنوا بالسمر والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد النزال وكثرت الأهوال وتقاتلت الفرسان وولى الجبان حيران ، فالله در المغيرة بن شعبة عون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس رضى الله عنه : لقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ولم يزل القتال يشتد من ارتفاع الشمس إلى الغروب ، فعندها وثب عبدالله بن جعفر إلى قابيل وضربه ضربة فحاد عنها عدو الله وولى هاربا وحمته جماعة نحو ثلثمائة فارس ولم يزل الفريقان فى قتال ونزال إلى أن غابت الشمس وافترق الجمعان ، وقد قتل من المسلمين نحو خمسين رجلا ختم الله لهم بالشهادة وقتل من الروم نحو ألفى فارس .

قال : واجتمعت الروم حول قابيل حين ولى هاربا إلى أن وصل إلى البطليوس ، فلما

رآهم وبخهم وقال لهم بأى وجه تفرون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم . قال له قابيل أيها الملك ليس الخبر كالعيان ، وهؤلاء ليسوا بإنس وإنما هم جن فى القتال ، ولولا الأجل حصين ما عدت اليك ، فغضب الملك وقال اسكت قد تمكن رعب العرب من قلبك وستنظر ما يكون من أمرهم ،ثم بات فى قلق شديد حتى أصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال امهلوا حتى أنظر ما يكون من أمرهم .

ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق

(قال الراوى) ولما أصبح المسلمون صلوا صلاة الصبح ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها فلم يجدوا لأعداء الله خبرا ولا أثرا وتيقنوا أنهم انهزموا ومضوا إلى مدينتهم ، فسارت المسلمون إلى أن قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والأعلام .

(قال الراوى) حدثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل . قال لما أشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب . قال عياض رضى الله عنه : اللهم اخذلهم وانصرنا عليهم : اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا واخزهم ﴿ **إنك على كل شىء قدير** ﴾ (١) وأمن المسلمون على دعائه . قال فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا فخرجوا الى ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدرق والقسى والنبال ورأينا خلقا كثيرة على الأبراج وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الأمير وبقية الأمراء من ذلك وقالوا لا حملة إلا بعد إنذار ، ثم إنهم لم يأتوا الينا ولا ناوشونا بقتال واستقلونا فى أعينهم .

(قال الواقدى) ونزل المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريبا من البياض الذى على المغارة نحو المدينة هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما أبو ذر الغفارى وأبو هريرة الدوسى ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميرى فإنهم ساروا حتى نزلا قريبا من القوم وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا خرج أعداء الله للقائهم . فقال مالك بن الأشتر : يا قوم إن أعداء الله خرجوا للقائكم فاشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم

---

(١) سورة التحريم : الآية : ٩ .

يملكون الجسر واستعينوا بالله .

فعندها خرج المرزبان ومعه ثلثمائة فارس حتى وصلوا إلى الجسر والحجارة تساقط عليهم من أعلى السور حتى ملكوا الجسر وجعلوا فى أماكن المخاضات حراسا بسيوف محدودة واقتتل المسلمون وأعداء الله قتالا شديدا وثبتوا فى القتال سبعة أيام ، وكلما أتوا إلى مكان المخاضة وجدوه مربوطا بالرجال وصار كل ليلة تهرب منهم جماعة من الروم ويهيمون على وجوههم يريدون الصعيد فتلقاهم رافع بن عميرة الطائى ومعه سرية من أصحاب قيس ابن الحرث عند البلد المعروف بإدقار وكانوا حوالى البحر اليوسفى يشنون الغارات على تلك السواحل ، فبينما هم كذلك يسيرون إذ سمعوا دوى حوافر الخيل فظنوا أنهم مسلمون فكلموهم فلم يرد عليهم أحد فلحقوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس ففروا من بين أيديهم فقتلوا منهم نحو مائتين وهرب الباقون وقتل من المسلمين ثلاثة وهرب الروم نحو المخاضة فغرق منهم مائة وأسروا منهم مائتين وهرب الباقون وسألوهم عن سبب خروجهم فأخبروهم انهم يرودون ، فعند ذلك أوثقوهم كتافا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين الى أن أوصلوهم إلى عياض بن غانم الأشعرى فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأقبلوا نحوهم ففرحوا بالأسارى .

ثم عرضوهم على الأمراء المتقدم ذكرهم فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فضربت أعناقهم والروم ينظرون إلى ذلك ، ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا قتالا شديدا وحمى الحرب وكثر الطعن والضرب من ارتفاع الشمس إلى وقت العصر وفشا القتل فى الروم ، فلما رأوا ذلك ولوا الادبار وركنوا إلى الفرار وصعدوا على القلعة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار ونصبوا آلات القتال .

قال : هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما الصحابة رضى الله عنهم فإنهم نزلوا فى سفح الجبل والوادى فى المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة الغربية ، فلما جاء الليل أوقدوا نيرانهم واجتمعت كل قبيلة ببنى عمها يقرءون القرآن ويصلون على محمد أشرف ولد عدنان ، وما فيهم إلا من هو راكع أو ساجد أو داع لله عز وجل لعله أن ينصرهم على عدوهم

وباتت الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة وخارجها ، وقد أعلنوا بكلمة كفرهم حتى ضجت منهم أرض البهنسا واستغاثت إلى الله عز وجل ، فناداها بلسان القدرة اسكتى يا بهنسا ، فوعزتى وجلالى لأهلكنهم ولأسكننك قوما يوحدونى من خيار خلقى ، ولأجعلن تلك البيع مساجد للصلاة والجمع ، فلما سمعت الأرض الخطاب من قبل رب الأرباب مالت فرحا واهتزت طربا وبقيت منتظرة وعد ربها بزوال كربها فلم يكن إلا قليل حتى أزال الله عنها أهل الكفر والطغيان وعبدة الصلبان وأسكنها خير أمة أخيار من المهاجرين والأنصار من أصحاب محمد المختار يصلون بها آناء الليل وأطراف النهار ، وجعلت البرية مدافن للسادات الشهداء الأطهار ، وصار عليها بعد الظلام أنوار ، وصارت زيارتها تحط الخطايا والأوزار .

(قال الواقدى) ولما أصبح الصباح صلى المسلمون صلاة الصبح وجلسوا ينتظرون ما يكون من أمر الروم وإذا بقس قد أقبل راكبا بغلة وعليه مدرعة من شعر وقلنسوة وزنار ، فسار حتى وصل قريبا من العسكر ، ثم تكلم بلسان عربى وقال يا مسلمين أريد أمير العرب .

(قال الراوى) حدثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن شداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات . قال بينما نحن جلوس نتحدث مع الأمير عياض بن غانم إذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القس . قال فأذن له الأمير عياض بالدخول فدخل القس، فوجد الأمير عياضا جالسا فى خيمته على فراش من أدم وحشوه من ليف وفرش المشركين التى اكتسبوها مطوية على جانب وحوله السادات والأمراء رضى الله عنه كلهم جلوس حوله وهو كأنه أحدهم وسيوفهم على أفخاذهم وعليهم هيبة ووقار .

فلما دخل القس اندهش وحار وأخذه الانبهار ، ثم التفت يمينا وشمالا وقال : يا قوم أيكم الأمير حتى أكلمه فإنكم كلكم أراكم سادات وامراء وعليكم هيبة ووقار ، فأشاروا إلى الأمير عياض فالتفت إليه وقال : يا فتى أنت أمير قومك . قال كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله عز وجل . فقال له القس : إن الملك البطليوس قد أرسلنى إليكم يريد ذا الرأى والخبرة ليسألة عن أمركم ، فلعل أن يكون ذلك سبب حقن الدماء بينكم وبينه . قال

فعندها التفت الأمير عياض إلى أصحابه وقال ما تقولون فيما أتاكم به هذا القس ، ومن ينطلق إليه ويخاطبه ويعود إلينا .

قال : فوثب المغيرة بن شعبة وقال أنا أمضى إليه وأريد معى عشرة رجال من الأمراء ذوى المروءة والبأس . فقال له الأمير اختر من شئت وفقك الله وسددك ، وردك إلينا سالما غانما ، أنت ومن معك . قال فالتفت وراءه وقال : أين سعيد بن عبد القادر ، أين أبو أيوب الأنصارى ، أين خالد بن زيد الأنصارى ، أين زيد بن ثابت الأنصارى ، أين مسعود البدرى، أين جرير بن مطعم ، أين أبو يزيد العقيلى ، أين معاوية بن العكم الثقفى ، أين عمار بن حصين ، أين زيد بن أرقم ، فأجابوه بالتلبية ، فقال لهم خذوا أهبتكم وانطلقوا معى على بركة الله وعونه .

قال : فتبادر هؤلاء الأمراء السادات إلى خيامهم ولبس كل واحد درعه وتنكبوا بحجفهم ، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم .

(قال الواقدى) ثم إن المغيرة رضى الله عنه دخل إلى خيمته ولبس درعه وشد وسطه بمنطقته ، وهى من الأدم وفيها خنجران واحد عن اليمين وواحد عن الشمال وتقلد بسيف من جوهر واعتقل برمح أسمر وركب جواده الأدهم ، وأخذ كل واحد منهم عبده راكبا على بغلة وودعهم فالتفت الأمير عياض ، وقال للمغيرة اعرف يا أبا شعبة ما تكلم به هذا المعلون فما عرفتك إلا مفلح الحجة فادعه إلى الإسلام وما فرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وما أبيح من الحلال ، وما حرم من الحرام ،فإن أبى فالجزية فى كل عام ، فإن أبى فالقتال بحد الحسام ونرجو النصر من الملك الديان ، بجاه محمد خير الأنام . قال فقال المغيرة أرجو من الله الملك الوهاب المعونة فى رد الجواب وسارت الأمراء والقس أمامهم راكب على بغلة وعبيدهم خلفهم على بغالهم وكل عبد عليه لامة حربه وساروا وهم معلنون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

قال زياد بن ثابت ، ولما فارق القوم الأمير عياضا نظرت إليه وعيناه تذرفان بالدموع حتى بلت دموعه لحيته ، وهو يقرأ القرآن . فقلت أنا أيها الأمير ما هذا البكاء . فقال لى يا

ابن ثابت ، هؤلاء والله أنصار الدين . فإن أصيب رجل منهم فما يكون عذرى عند الله عز وجل ؟ قال وسار المغيرة وأصحابه حتى أشرفوا على عسكر العدو ، واذا هو ملء الارض ، وهو نازل حول مدينة البهنسا فصاح المغيرة ومن معه يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، فبينما هم كذلك إذ أقبل إليهم بطريق ومعه رجل من العرب المتنصرة راكبا إلى جانبه ومعهما نحو مائة فارس وساروا بين أيديهم حتى وصلوا إلى قريب سرادق الملك ولاح البطليوس وهو جالس على السرير فعند ذلك خرج لهم الحجاب والنواب وأرباب الدولة والصولة ، وقالوا قد وصلتم وبلغتم إلى سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم . فقال المغيرة ، أما خيولنا فننزل عنها .

وأما سيوفنا فلا ننزعها ، فإنها عزنا وما كنا بالذى ينزع عزه الذى يعتز به دهره قال فأخبر الحجاب الملك بذلك فقال دعوهم يدخلون بسيوفهم فنادتهم الحجاب ادخلوا .

(قال الواقدى) فعندها ترجل أصحاب رسول الله ﷺ عن خيولهم ويخترقون صفوف الكفار وهم لا يهابون إلى أن وصلوا إلى سرير الملك فدخلوا إلى أن وصلوا إلى النمارق والفرش والديباج والملك جالس على سريره ولما نظر المسلمون إلى ذلك عظموا الله تعالى وكبروه فارتج السرادق وتغيرت ألوان القوم وصاح بهم الحجاب قبلوا الأرض للملك فلم يلتفتوا اليهم . قال المغيرة لا ينبغى السجود إلا إلى الملك المعبود ، ولعمرى كانت هذه تحيتنا قبل ، فلما بعث الله تعالى محمد ﷺ نهانا عن ذلك فلا يسجد بعضنا لبعض قال فسكتوا .

قال : فأمر الملك بكراسى من ذهب وفضة فنصبت لهم فلم يجلسوا عليها ، وكانوا من حين دخلوا أمروا بعض عبيدهم أن يطووا البسط من تحت أرجهلم إلى أن وصلوا إلى فرش الديباج فشالوها على جنب ، فقالت لهم البطارقة : قد أسأتم الأدب معنا إذ لم تسجدوا للملك ولم تمشوا على فرشنا .

فقال المغيرة : إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم والأرض أطهر من فرشكم لأن رسول الله ﷺ يقول « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » وقال الله تعالى ،

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخركجم تارة أخرى ﴾ .

(قال الواقدى) لم يكن بين البطليوس والصحابة ترجمان لأنه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية ، فعند ذلك أمرهم بالجلوس ، فقال المغيرة إما أن تنزل عن سريرك وتكون معنا على الارض أو تأذن لنا بالجلوس معك على السرير لأن الله تعالى شرفنا بالإسلام قال فأشار إلى المغيرة رضى الله عنه والصحابة جلوس وأيديهم على مقابض سيوفهم فالتفت البطليوس إلى المغيرة ، وقال له ما اسمك ، فقال عبد الله المغيرة ، فقال يا مغيرة إنى أكره أن أبدأك بالكلام ، فقال المغيرة تكلم بما شئت فإن عندى لكل كلام جوابا .

ثم إن البطليوس أفصح فى كلامه وقال : الحمد لله الذى جعل سيدنا المسيح أفضل الأنبياء ، وملكنا أفضل الملوك ونحن خير سادة فقطع عليه المغيرة ، فقالت الحجاب والنواب لقد أسأت الأدب مع الملك يا أخا العرب فأبى المغيرة أن يسكت وقال : الحمد لله الذى هدانا للإسلام ، وخصنا من بين الأمم بمبعث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهدانا به من الضلالة ، وأنقذنا به من الجهالة ، وهدانا إلى الصراط المستقيم فنحن خير أمة أخرجت للناس نؤمن بنبينا ونبيكم وبجميع الأنبياء ، وجعل أميرنا الذى هو متولى علينا كأحدنا لو زعم أنه ملك وجار عزلناه عنا فلسنا نرى له فضلا علينا إلا بالتقوى ، وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونقر بالذنب ونستغفر منه ، ونعبد الله وحده لا شريك له، ولو أذنب الرجل منا ذنوبا تبلغ مثل الجبال فتاب قبلت توبته ، وإن مات مسلما فله الجنة، قال فتغير لون البطليوس .

ثم سكت قليلا وقال : الحمد لله الذى ابتلانا بأحسن البلاء ، وأغنانا من الفقر ونصرنا على الأمم الماضية ولقد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون إلى بلادنا فيمتارون البر والشعير وغيره ونحسن إليهم وكانوا يشكروننا على ذلك وأنتم جئتمونا بخلاف ذلك تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحصون والقلاع وتريدون أن تخرجونا من بلادنا وديارنا ، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أضعف حالا منكم لانكم أهل الشعير والدخن وجئتم بعد ذلك تطمعون فى بلادنا وأموالنا وحولنا جنود كثيرة ، وشوكتنا شديدة، وعصابتنا عظيمة ، ومدينتنا حصينة فالذى جرأكم علينا أنكم ملكتم الشام والعراق واليمن

والحجاز وارتحلتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وخربتم المدائن والقلاع ولبستم ثيابا فاخرة وتعرضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خدما لكم وأكلتم طعاما طيبا ما كنتم تعرفونه وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر ومعكم متاعنا وأموالنا التى من قومنا وأهل ديننا ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نؤاخذكم بما تقدم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب أموالنا ، الآن فارحلوا عنا واخرجوا من بلادنا . فإن فعلتم فتحنا خزائن الأموال وأمرنا لكل رجل منكم بمائة دينار وثوب حرير وعمامة مطرزة بالذهب ولأميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب ، ولكل أمير منكم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد ان نستوثق منكم بالأيمان أنكم لا تعودون إلى الإغارة على بلادنا هذا كله والمغيرة ساكت ، فلما فرغ ، البطليوس من كلامه ، قال له المغيرة قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا ، ثم قال الحمد لله الواحد القهار الفرد – الصمد الذى ﴿ **لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحدا** ﴾ [1] **فقال له** البطليوس نعم ما قلت يا بدوى ، فقال المغيرة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرتضى ، ونبيه المجتبى ، فقال له البطليوس لعنه الله لا أدرى أن محمدا رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه ثم التفت إلى المغيرة ، وقال يا عربى ما أفضل الساعات؟. فقال ساعة لا يعصى الله فيها .

قال : صدقت يا أخا العرب لقد بان لى رجحان عقلك فهل فى قومك من له رأى مثل رأيك وحزم مثل حزمك قال : نعم فى قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغنى عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا أمثال ذلك وهم قادمون إلينا عن قريب .

فقال البطليوس : ما كنا نظن ذلك منكم ، وإنما بلغنا عنكم أنكم جماعة جهال لاعقول لكم ، فقال المغيرة كنا كذلك حتى بعث الله فينا محمدا ﷺ فهدانا وأرشدنا .

فقال البطليوس : لقد أعجبنى كلامك فهل لك فى صحبتى ، فقال المغيرة : يسرنى ذلك إذا فعلت ما أقول لك ، قال : ما هو ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده

---

(١) سورة الإخلاص : الآيتان : ٣ ، ٤ .

ورسوله . قال البطليوس لا سبيل إلى ذلك ، ولكن أردت أن أصلح الأمر بينى وبينكم .

قال المغيرة رضى الله عنه الأمر إلى الله وأما قولك لنا أنا أهل فقر وبؤس وضر فقد كنا كذلك وكنا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وإبله وكنا لا نعظم إلا الأشهر الحرم حتى بعث الله إلينا نبيه ورسوله ﷺ نعرف أصله ونسبه صادقا أمينا نقيا إماما رسولا أظهر الإسلام وكسر الأصنام ، وختم به النبيين ، وعرفنا عبادة رب العالمين ، فنحن نعبد الله ولا نعبد غيره ، ولا نتخذ من دونه وليا ولا نصيرا ، ولا نسجد الا لله وحده لا شريك له ، ونقر بنبوة محمد ﷺ وقد أمرنا أن نجاهد من كفر بالله واتخذ مع الله شريكا جل ربنا وعلا ، وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم ، فمن اتبعنا كان من إخواننا وله ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى الإسلام والجزية فالسيف حكم بيننا وبينه والله خير الحاكمين ، وهى على كل محتلم فى العام دينار وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع فى صومعته ، فقال البطليوس لقد فهمت قولك عن الإسلام فما قولك عن الجزية عن يد وهو صاغر فإنى لا أدرى ما الصغار عندكم ؟ . فقال المغيرة رضى الله عنه وأنت قائم والسيف على رأسك ، فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبا شديدا ووثب قائما ووثب المغيرة من موضعه وانتضى سيفه من غمده ، وكذلك فعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(قال الراوى) حدثنا مسلم بن عبد الحميد عن طارق بن هلال عن عبدالله بن رافع .

قال كنا مع المغيرة وجذبنا السيوف وثبنا على القوم وأخذتنا غيرة الإسلام وما فى أعيننا من جيوش البطليوس شىء وعلمنا أن المحشر من ذلك الموضع ، فلما رأى البطليوس منا ذلك وتبين له الموت من شفار سيوفنا نادى مهلا يا مغيرة لا تعجل فتهلك ، وأنا أعلم أنك رسول والرسول لا يقتل وإنما تكلمت بما تكلمت لأختبركم وأنظر ما عندكم والآن لا نؤاخذكم فاغمدوا سيوفكم . قال فأغمدنا سيوفنا وتقدم المغيرة حتى صار فى مكان البطليوس وزحزحه إلى آخر السرير ، وكان المغيرة رجلا جسيما فاتكأ عليه حتى كاد أن يخلع فخذه من موضعه . قال ثم التفت إلى المغيرة وقال ما قولكم فى المسيح ابن مريم ؟ .

قال المغيرة : عبدالله ورسوله ؟ قال فمن أى شىء خلق ؟ قال خلقه الله من تراب ، ثم قال له كن فكان ودل على ذلك القرآن العظيم . قال عز وجل ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[1] . قال فما الدليل على أن الله واحد ؟ . فقال المغيرة القرآن العظيم ، قوله تعالى على لسان نبيه ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[2] . فقال له البطليوس ما رأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور ، وكان المغيرة رضى اللهعنه أصيب فى إحدى عينيه يوم اليرموك ، فقال له المغيرة إن ذلك لا يعيبنى ، ولقد أصيبت فى الجهاد فى سبيل الله من كلب مثلك وأخذت بثأرى من الذى فعل بى ذلك فقتلته وقتلت جملة منهم ، والثواب من الله عز وجل أعظم من ذلك. فقال البطليوس ما أحذق جوابك فهل فى قومك مثلك؟.

قال : قد قلت لك فينا أهل العلم والرأى ومن لا أساوى فى علمهم شيئا وأنا رجل بدوى ، فلو رأيت على بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ المختار مقاتل الكفار ومبيد الفجار والليث الكرار والبطل المغوار . قال أهو معكم فى هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأريد أن أنظر اليه ؟ .

فقال المغيرة : قاتلك الله إن الإمام عليا كرم الله وجهه أعظم قدرا من أن يسير إلى مثلك .. قال : فهل أحد غيره ؟ قال : نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو خليفتنا وعثمان بن عفان وعبد الرحمن وسعيد وسعد وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وأمراء متفرقين فى الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر كل أمير يقوم بألف مثلك فى الشجاعة والبراعة وغير ذلك ، أما سيف الله الأمير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابة من الأمراء فكأنك به ، وقد أقبل علينا برجال سادات شداد وأمراء أمجاد . فقال له

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٥٩ .

(٢) سورة الإخلاص : الآية : ١ ـ ٤ .

عند ذلك إنى أريد أن أصلح الأمر بينى وبينكم وأريد قبل الحرب أن أنظر إلى جماعة ممن ذكرت .

(قال الراوى) وكان عدو الله أراد أن يغدر بأصحاب رسول الله ﷺ ففهم المغيرة منه ذلك . فقال : غداة غد آتيك منهم برجال تنظر إليهم . قال ففرح عدو الله وأضمر المكر لأصحاب رسول الله ﷺ ورد الله كيده فى نحره ..

(قال الراوى) ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند البطليوس وما صدقوا بالنجاة وركبوا وأمر البطليوس حجابه ونوابه أن يسيروا معهم إلى قريب من عسكرهم . قال ووصل المغيرة وأصحابه إلى الأمير عياض بن غانم الأشعرى وحدثه بما جرى له مع البطليوس فقال عياض : وحق صاحب الروضة والمنبر ما ترككم إلا خوفا من سيوفكم ، وهذا رجل حكيم إلا أن الشيطان قد غلب على عقله .

(قال الراوى) ولم يناموا تلك الليلة إلا وقد أخذوا أهبتهم للحرب واستعدوا ، فلما أصبح الصباح أذن المؤذنون فى عسكر المسلمين فأسبغوا الوضوء وصلوا الصبح ، ثم ركبوا خيولهم وقد علموا أن العدو مصبحهم وقد عبوا صفوفهم ، وكانت الجواسيس من العرب يدخلون فى عسكرهم وينقلون الأخبار ووصلت جواسيس عياض بن غانم إليه وأعلموه بذلك ، وأن الروم متأهبون للقتال فرتب جيشه ميمنة وميسرة ، فجعل فى الميمنة الفضل بن العباس ، وجعل فى الميسرة أبا أيوب الأنصارى ، وجعل فى القلب القعقاع بن عمرو التميمى .

قال حدثنا قيس بن عبدالله . قال حدثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغنوى قال : حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبى ﷺ وفيهم سبعون بدريا والأمراء وأصحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة ودفن بأرض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف ، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

(قال الراوى) وكان على الرجالة معاذ بن جبل ، وعلى الساقة والنسوان والصبيان

سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس . قال وصار الأمير عياض يتخلل الصفوف ويقول : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف : يا أهل الإسلام اعلموا ان الصبر مقرون بالفرج وأن الله مع الصابرين والصابرون هم الغالبون ، وأن الفشل سبب من أسباب الخذلان ، فمن صبر على حد السيف فإذا قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه والله يحب الصابرين ، وصار يقول ذلك لأصحاب الرايات . قال وما فرغ الأمير عياض من تعبية الصفوف إلا وعساكر البطليوس والروم قد أقبلت ومعهم النصارى والفلاحون والعرب المتنصرة ، وأمامهم صليب من الذهب الأحمر زنته خمسة أرطال وفى أربعة جوانبه أربع جواهر كالكواكب .

قال حدثنى سنان بن الحرث الهمدانى عن شداد بن أوس وكان ممن حضر الفتوح إلى آخرها قال وأقبلت الصلبان وأنا أعدها صليبا بعد صليب حتى عددت ثمانين صليبا تحت كل صليب ألف ومعهم القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل وأكثر أعداء الله فى عسكرهم من الرايات والأعلام فبينما الناس كذلك إذ أقبل بطريق وعليه درع مذهب ولامة حرب وهو يرطن بلغته وطلب البراز فبرز إليه القعقاع وتعاركا وتجاولا ، ثم طعنه القعقاع فى صدره-فأطلع السنان يلمع من ظهره ، فخرج علج آخر وقد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس على السرير مع الملك وطلب البراز فبرز إليه رجل من الأزد فمنعه الأمير عياض من ذلك وقال اذهب فلست كفؤا له .

قال : فبرز إليه المسيب بن نجيبة الفزارى وضربه فتلقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب فضيعها ، ونظر أن أحدا يناوله سيفا فلم يجد فأراد الرجوع وإذا بالقعقاع بن عمرو أقبل وبيده سيف فناوله إياه فكر راجعا وضرب البطريق على عاتقه الأيمن فأطلع السنان من عاتقه الأيسر فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار ، فلما رأت الروم ذلك حملوا على المسلمين حملة واحدة واشتد القتال وعظم النزال وعدو الله البطليوس راكب على جواد أهداه له صاحب صقلية والبربر يساوى خمسمائة دينار ، وكان أيام الحصار يصعد به ويرمح على أسوار المدينة ، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى موضعه ، وعلى بدنه درع مذهب وفى وسطه منطقة من الجوهر وعلى

رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب والصلبان والأعلام مشتبكة على رأسه وقد حمل كردوس من الروم على ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام ، ثم حمل كردوس آخر ، فالله در الفضل بن العباس وأخيه عبيد الله وأولاد عقيل وعبد الله بن جعفر وسادات بنى هاشم لقد قاتلوا قتالا شديد وأبلوا بلاء حسنا ، وتقدم الفضل إلى حامل الصليب وطعنه فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكسا إلى الأرض ، فنظر إليه البطليوس فأيقن بالهلاك وهم أن يأخذه ، فلم يجد لذلك من سبيل .

قال : فأحاط به المسلمون وصار الفضل وسادات بنى هاشم يذبون ويرجعون الروم عن الصليب ، ولما رأى الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة وأسعفه بنو عمه بالحملة والأمراء فقهروا الروم وقتلوا منهم جماعة ، وازدحم المسلمون على الصليب يريدون أخذه . فقال لهم الفضل إنه لى دونكم ، ثم عطف عليه ومال فى ركابه وأخذ الصليب وكر راجعا إلى المسلمين وسلمه لعبد الله يسلمه لعبده مقبل ، وكان راكبا مع المسلمين ، فأخذه ومضى إلى خيمته . قال وحمل الفضل بن العباس ثانيا وحملت الأمراء واشتد القتال وعظم النزال وسالت الدماء وكثر العرق وازورت الحدق . قال ولما رأى عدو الله البطليوس ذلك حمل على المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو خمسة آلاف وكانوا على جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وصبروا لهم صبر الكرام .

هذا والفضل رضى الله عنه تارة يكر فى الميمنة وتارة يكر فى الميسرة وحمل الأمراء جميعهم ، فالله در القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجيبة الفزارى والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قاتلوا قتالا شديدا حتى بقى الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل وتوسط المسلمون كتيبة منهم ، فبرز بطريق عظيم الخلقة كأنه برج فحمل عليه سفينة مولى رسول الله ﷺ وأراد أن يضربه وسطا عليه ، وإذا بضربة أتته من خلفه فأردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك فى أضلاعه وخشخش الرمح فى عظم ظهره ، ثم جذب الرمح وهو ملقى على الارض ونزل جماعة وأخذوا سلبه ، قال فتأملنا من ضرب البطريق فإذا هو

زياد بن أبى سفيان رضى الله عنه .

قال : فلما رأى الروم ذلك حملوا حملة منكرة وقامت الحرب على ساق واحدة وضربت الأعناق وشخصت الأحداق وتضاربوا بالصفاح وتطاعنوا بالرماح واشتد الكفاح ورطنت الروم بلغتهم ولم يزالوا فى قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعان ، وقد قتل من قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة ونالوا درجة السعادةوبات الفريقان يتحارسون والمسلمون أوقدوا النيران وأتوا إلى مكان المعركة وميزوا القتلى ، فلما رأى الأمراء ما حل بهم وبأولادهم بكوا وقالوا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(قال الراوى) وقتل من المشركين نحو ألفين وخمسمائة ، وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك أصحاب السرير ، فلما رأى البطليوس ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس فى سرادقه وحوله أكابر دولته من حجابه ونوابه وقدم له الطعام والشراب فامتنع عن ذلك ، ثم التفت إلى حجابه وبطارقته ووبخهم توبيخا عظيما ، وقال مثلكم لا يصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذى دخل فى قلوبكم وتريدون أن تصيروا معرة عند الملوك بفعالكم هذه .

فقالوا : أيها الملك ، إن هذا اليوم ما أخذنا فيه أهبتنا ، وما كنا نظن أن العرب فيهم هذه الشجاعة . فقال وما عندكم من الرأي أترضون بالعار والذل ولا سيما وقد أخذ الصليب من يديكم وخذلتموه ؟ .

فقالوا : أيها الملك ، سوف ترى منا ما يسرك فى غد نكمن لهم كمينا ونخرج لهم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين و نأمر جماعة يسلسلون أنفسهم وهم الرماة كعادة الروم أن يفعلوا ونقاتلهم ولا نمكنهم من مدينتنا ولو قتلنا عن آخرنا فاستوثق الملك منهم بقولهم ، ثم كتب كتابا وأرسله تحت الليل إلى بطريقى طنجة وقلعة الأبراج يسألهم النجدة وكانوا بطارقة شدادا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من حملة السلاح ، فلما ورد عليهم الكتاب جهزوا النجدة والأهبة ، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

(قال الراوى) وأصبح المسلمون فصلوا صلاة الصبح وتبادروا إلى خيولهم فركبوها ، ثم صفوا صفوفهم ورتبوا مواقفهم كما ذكرنا أولا ، وصار الأمير عياض يحرض الناس وقد جعل فى مكانه المغيرة بن شعبة وعطفوا على أصحاب الرايات ، وقال لهم أطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة ، وإذا لقيتم العدو فاحملوا حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا وركب الأمراء كاليوم الأول ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم فى ثيابهم ودمائهم .

قال : فما شعرنا إلا والروم قد أقبلوا علينا ورطنوا بلغتهم علينا وابتدر منهم خمسة آلاف فنزلوا عن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائر إلى أوساطهم ووضعوا غرائر النشاب : أى الصناديق بين أيديهم وأقسموا بالمسيح لا يزولون ولو قتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة صفوف .

(قال الراوى) حدثنا سنان بن أبى عبيدة عن زياد عن الحرث عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات .

قال : بينما نحن نتأهب للحرب وللحملة إذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف سهم كأنها تخرج من كبد قوس واحدة كالجراد المنتشر أو السيل المنحدر فجرحت رجالا وقتلت أبطالا وولت خيل العرب نافرة وصبرت جماعة من الأمراء وحمل الفضل بن العباس وأخوه وسادات بنى هاشم ، وكذلك زياد بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة والمسيب ابن نجيبة الفزارى وجميع الأمراء واقتتل الفريقان قتالا شديدا وفشا القتل فى المسلمين ، وثبت القوم لقتال العرب ، وعدو الله البطليوس تارة يكر فى الميمنة وتارة يكون فى الميسرة وتارة فى القلب وحوله كتائب المشركين .

(قال الراوى) فصبرنا صبر الكرام ووطنا أنفسنا على الموت والأمراء يحرضون على القتال ، وقد قتل من الفريقين طائفة إلا أن القتل لم يبن فى المشركين لكثرتهم ، ولم نظن أن القوم لهم كمين إذ خرج للقوم كمين من خلفنا والمسلسلة من بين أيدينا وأحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وقتل جماعة من السادة والأمراء

وأخلاط الناس ، فلله در سادات بنى هاشم وأبان بن عثمان بن عفان . فلقد قاتل أصحاب الرايات براياتها ، وقاتل عدو الله فى القلب وأنكى فى المسلمين وقتل رجالا وجندل أبطالا ، وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده إلا وهو قد صار فى وسط الروم .

قال : فعندها تقدم القعقاع والمسيب بن نجيبة الفزارى ، وقالا قربوا الجمال فى وجوه القوم يا وجوه العرب فاستاقوا الإبل وسنابك الخيل وأقبلت الرجال والرماة يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة : هذا والروم على حالهم ، فلما رأى أعداء الله ما حل بقومهم من فعل المسلمين بهم ازدادوا طغيانا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الشمس ، ثم أنزل الله نصره على المسليمن فتظاهروا عليهم ، وتقدم جعفر بن عقيل إلى كتيبة من الروم وغاص فى أوساطهم وطعن البطريق المقدم عليهم فقتله ، وكذلك زيد بن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوهم وعظم النزال واشتد القتال وألجئوهم إلى ورائهم ، فلما رأت الأمراء والسادات وبنو هاشم ما حل بهم تواثبوا كالأسود الضارية وحملوا على الروم وألجئوهم إلى الأبواب واقتتلوا قتالا شديدا عند باب الجبل والباب البحرى .

(قال الراوى) وكانت ليلة لم تر الصحابة مثلها قتل الصحابة رضى الله عنهم ألوفا وقتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة وأزيد وتظاهر المسلمون بعد ذلك عليهم وألجئوهم إلى السور واقتتلوا قتالا شديدا وعظم البلاء وعدو الله يحمى أصحابه وهم فى أشد القتال ، وكان شعار المسلمين تلك الليلة ينادون : يا محمد يا محمد يا نصر الله أنزل وقتل جماعة من المسلمين عند الأبوب وعظم النزال ، وكان يسمع ضرب السيوف على الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان الأسنة كالكواكب وأحدقت المسلمون بالروم وعدو الله يحمى قومه تارة يكون عند باب قندوس وتارة يكون عند باب توما فى جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق إلا من انقطع من قومه أو كبا به جواده ولم يزلوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا على الاسوار وضربوا بالنواقيس والبوقات والقرون وعلقوا الأبواب ورموا الأقفال ، فلما أصبح الصباح صلى المسلمون صلاة الصبح وأتوا إلى موضع المعركة وتفقدوا من قتل منهم فإذا هم خمسمائة وعشرون رجلا من باب توما إلى باب قندوس ختم الله لهم

بالشهادة .

(قال الراوى) ولما رأى المسلمون ذلك بكوا بكاء شديدا وأعظم الناس حزنا الأمير عياض لأجل من قتل تحت رايته ، وكان البكاء عى الشهداء الأعيان من قريش وبنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس ، فلما رأى مسلم بن عقيل أخوته وما حل بهم، ورأى الفضل بن العباس وعبد الله بن جعفر وسادات ما حل ببنى عمهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا فى مصابهم، فعند ذلك أنشد همام بن جرير يقول :

يا عين ابكى لا تمـــلى البكى ... سحى دموعا مثل سكب الغمام

وابكى على السادات من هاشم ... وعصبة المخـــتار خـــير الأنام

نوحى على الليث ابن عم النبى ... هـــو جعفر المشكور ليث همام

وابكى على الشهداء لا تغفـــلى ... ما لاح بـــرق أو غنى حـــمام

فلا لقى البطليـــوس خـيرا ولا ... أجناده أهـــــل الصليب اللئام

لنأخـــذن الثأر يا قــــــومنا ... بطعن خطـــــى وحد الحسام

قال : ووارى المسلمون شهداءهم ، ثم إن الأمير عياضا فرق الأمراء على الأبواب فنزل السادات من بنى هاشم وغيرهم مثل زياد بن أبى سفيان والوليد وأخيه محمد وأسامة ابن زيد وأبى أيوب الأنصاى وفضالة بن عبيد وأوس بن حذيفة وعمرو بن حصين ورافع ابن خديج وأبى دجانة وجابر بن عبد الله وبقية الأمراء .

قال : ونزل القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجيبة الفزارى وأمثالهم من الأمراء بألفى فارس على باب الجبل والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة والمهلب الطائى ونظراؤهم من الأمراء بألفى فارس عند باب توما . قال وعبى القوم آلات الحصار ورتبوها على الأسوار وأقاموا مدة شهر لا يقاتل بعضهم بعضا ، بل كل يوم يركب البطليوس لعنه الله جواده المتقدم ذكره ويلبس لامة حربه ويطلع بالجواد على أعلى السور وحوله المناة من خلفه وقدامه وبأيديهم السيوف المحددة والدرق والدبابيس والأطيار المذهبة والقسى والنشاب وكان عرض السور يمشى عليه خيالان متكاتفان باللبس الكامل .

قال : هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما خالد فإنه أرسل عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله ابن عمر إلى الفيوم وجرى بينهم وقعات وحروب اختصرنا ذكرها خوف الإطالة ، فإن المقصود الذى عليه مدار هذا الكتاب هو فتح البهنسا وما وقع فيها والله أعلم ،ثم أنهم ساروا حتى اتصلوا إلى مدينة الفيوم وحاصروها أياما قلائل ، ثم فتحوها وفتحوا الفيوم فى أقل من شهر وأخذوا الأموال والغنائم ورجعوا إلى خالد رضى الله عنه وكان مقيما بالنورية كما ذكرنا .

قال : هذا ما جرى لهم ، وأما أبو ذر الغفارى وأبو هريرة الدوسى وذو الكلاع الحميرى ومالك الأشتر النخعى فإنهم لما ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعة نحو عشرين يوما واقتتلوا قتالا شديدا .

قال : حدثنا قيس بن مالك عن منصور بن رافع عن أبى المنهال وكان من أصحاب مالك الأشتر .

قال : بينما نحن نحاصر القلعة ، وقد تظاهروا علينا إذ نحن بغبرة وقت الفجر ، وكانت ليلة مقمرة فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا إلى خيولنا فركبناها ، واتضح النهار وبان ، وإذا عشرون صليبا تحت كل صليب ألف فارس ، وكان السبب فى ذلك بطريق طحا ذات الاعمدة وبطريق قلعة ذات الأبراج وما حولهم لما بلغهم كتاب البطليوس تجهزوا بأنفسهم وجمعوا ما حولهم من الروم النصارى وخرجوا أول الليل خوفا من العرب ، فما أصبحوا إلا على القلعة والنيل كان فى أول زيادته والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التى على البحر اليوسفى فقطعوها وساروا حتى نزلوا على القلعة وكان بلغهم حصارها فلم تشعر المسلمون إلا وقد أقبلوا وهجموا عليهم وأتوا إلى نحو باب المدينة فوجدوا الأمير زيادا وأصحابه هناك . قال مالك الأشتر يا وجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم ، هذا والروم صاحوا وطمطموا بلغتهم ورطنوا من أعلى السور ، وكذلك أهل القلعة دقوا الطبول وضربوا بالنواقيس فلم يزالوا على المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم إلى جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف ،وكان الأمير زياد رضى الله عنه فى

نحو مائتين من أصحاب رسول الله ﷺ فحملوا عليهم وصبروا لهم صبر الكرام وقتل الامير زياد رحمه الله تعالى وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالا شديدا وصبروا لهم صبر الكرام .

(قال الواقدى) فسمع المسلمون وهم حول المدينة فأتوا إلى الجانب الشرقى فوجدوا السيوف مجذوبة والرايات مرفوعة ، وقد قتل جماعة من المسلمين على شاطئ البحر نحو أربعين رجلا فصاحت ما فعلوا بنا ، فعندها هجم القعقاع بفرسه البحر ، وقال بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أننا أفضل من بنى اسرائيل عندك ، وقد فرقت لهم البحر فسار ولم تبتل قوائم فرسه وانحدر إلى جانب القلعة ، وكانت بقلب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفى فارس إلى أن طلعوا إلى البر الشرقى ، واقتتلوا قتالا شديدا .

قال : فبينما نحن فى أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس يقدمهم رفاعة بن زهير المحاربى وهم من أصحاب قيس بن الحرث وكانوا فى بلد تسمى بردوها وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين وأخبرهم بمسير أهل طحا ذات الأعمدة وصاحب قلعة الأبراج لقتال المسلمين وعلموا أن البحر حاجز بينهم وبين أصحابهم فأتوا إلى الأمير قيس بن الحرث واستأذنوه حتى وصلوا وهم فى القتال كما ذكرنا، فلما رأوا القوم كبروا فأجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

ثم حملوا عليهم وقاتلوهم قتالا شديدا ، وكان الفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان ومسلم بن عقيل فى جملة من عبر إلى البر الشرقى ، فعندها وثب القعقاع بن عمرو التميمى على بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب على بطريق طحا ذات الأعمدة فقتله وزياد بن أبى سفيان على بطريق عظيم فقتله ، فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وهرب منهم جماعة فألجئوهم إلى البحر فغرق منهم جماعة وأسر منهم نحو ثلاثة آلاف وأتوا بهم إلى نحو السور قريبا منه وضربوا أعناقهم والبطليوس ينظر اليهم هو وأصحابه ودفن الأمير زياد إلى جانب البحر تحت جدران القلعة ورجعت المسلمون ونصبوا الجسر بالأخشاب والأحجار تتساقط عليهم وهم لا يفكرون حتى عبروا إلى الجانب

الغربى بأجمعهم واشتد الحصار وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنسا تسعة أشهر .

(قال الواقدى) وإن المدينة كان لها باب سرى تحت الارض من تحت باب الجبل من عند تل هناك يظن من رآه أنه مغارة أو حفر فى الجبل وكان يخرج من يعينه ومن يأتيه بالطعام وغيره سرا تحت ظلام الليل إلى ذلك المكان ويخرج الرجل وفرسه على يده إلى ظاهر السرب فلأجل هذا لا يعجزهم الحصار وكان إذا احتاج إلى أمر مهم يخرج من يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلا ويخرج من يختار من ذلك الباب وكان الملوك القدماء ما وضعوا ذلك الباب إلا لأجل الحصار وكانت عيونه تخرج وتأتيه بالأخبار ، وكان خالد بن الوليد رضى ا للهعنه لما فتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والأرز والعسل وغير ذلك تأتى للصحابة من الفيوم ومن الوجه البحرى تأتى إليهم الميرة .

قال : فأرسل الأمير عياض رضى الله عنه لأمير مياس بن حام وأرسل معه مائتين من المسلمين ومعهم جمال وبغال يأتونهم بما ذكرنا ، وكان خالد قد أرسل يعلمهم بذلك وأنهم يرسلون إلى الفيوم ويأخذون ما يحتاجون إليه ، قال وسار مياس حتى وصل الفيوم ، وكان عليهم متكلما من قبل خالد الأمير عجرفجة .

قال : وسار مياس ومن معه حتى قدموا الفيوم وأوسقوا الجمال والبغال وأرادوا الرجوع إلى أرض البهنسا حتى وصلوا إلى دير هناك فى الجبل . قال هذا ما جرى لهؤلاء .

وأما عيون البطليوس فأخبروه بذلك فاستدعى ببطريق من أصحاب السرير اسمه ميخائيل بن بطرس وكان معروفا بالشدة والبراعة وأمره أن يأخذ معه ألفا من الروم وينطلقوا إلى طريق الفيوم ويكمنوا لهم فى الدير ، ثم يخرجوا عليهم فخرجوا من باب السرب واحدا بعد واحد فى ظلام الليل وساروا حتى وصلوا إلى دير وكمنوا هناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقى الجمعان واصطدم الفريقان وقاتلت المسلمون قتالا شديدا .

(قال الراوى) حدثنا أبو محمد البدوى، أبو العلاء المحاربى ، قال شداد بن أوس ، وكان فى خيل مياس لما التقى الجمعان ، وأحاطت بنا أعداء الله وظننا أن المحشر من ذلك المكان ووطنا أنفسنا على الموت وقاتل الأمير مياس بعد أن سلم الراية لولده منيع فقاتل حتى

قتل ، ثم قاتل من بعده مازن حتى قتل ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس وأسروا الباقين .

قال : وكان في القوم عبدالله بن أنيس الجهني رضي الله عنه أحد سعاة النبي ﷺ ، فلما رأى ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجري وكان قد دعا له رسول الله ﷺ هو وعمرو ابن أمية الضمري بالقوة والبركة في المشي ، وكانا لا تدركهما الخيل العتاق ولا النجب السوابق فسار حتى أشرف على العسكر وصاح النفير النفير اركبوا يا مسلمون .

قال : فتواثب الفرسان إليه وسألوه فقص عليهم القصة فتواثب المسلمون إلى خيولهم فركبها وكل يقول أنا أمضي فعندها استدعى الأمير عياض بعبدالله بن جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب وضم إليه ألف فارس من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الشدة وساروا أول الليل ومعهم رجل من المعاهدين يدلهم إلى أن قربوا من قرية هناك بسفح الجبل فكمنوا هناك إلى أن جن الليل إذ سمعوا حوافر الخيل فتواثبوا إلى خيولهم فركبوها ، وإذا بالروم أقبلوا عليهم والأسارى معهم موثوقون بالحبال على ظهور خيولهم ، وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وحمل القوم واقتتلوا قتالا شديدا فعندها صاح عبدالله بن جعفر رضي الله عنه يا قوم أيعجز أحدكم عن خصمه.

قال : فتواثب الأمراء والسادات رضي الله عنهم يقتلون ويأسرون وبادر عبد الله بن جعفر إلى مقدم الجيش لعنه الله ، وكان عليه درع مصفح فطعنه في صدره طعنة قرشية هاشمية فأطلع السنان يلمع من ظهره وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار ، فلما رأى الروم ذلك انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، فما أصبح الصباح حتى قتل منهم خمسمائة وأسروا الباقين وخلصوا المسلمين من الأسر وغنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم وترك عبدالله بن جعفر الأسارى وخمسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم أن لا يبرحوا حتى يأتيهم ، وأمر عليهم عبدالله بن معقل وساروا حتى أتوا إلى محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نصارى من المعاهدين يبكون وحلفوا لهم أن لا علم لهم بذلك فنزلوا عن خيولهم وأخرجوا لهم زاد فأكلوا وواروا شهداءهم ، وكر عبدالله راجعا إلى

أصحابه وحملوا رؤوس القتلى ورأس عدو الله ميخائيل أمامهم وجنبوا خيولهم وأخرجوا لهم زادا فأكلوا وساقوا الأسارى حى وصلوا إلى العسكر بالميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط .

قال : وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأجابتهم المسلمون إلى مثل ذلك وانقلب العسكر والروم على الأسوار ينظرون ما الخبر فرأوا تلك الرؤوس على رؤوس عدو الله ميخائيل أمامهم فصعب عليهم وكبر لديهم ولطموا على وجوههم وذهبوا إلى البطليوس وأعلموه بذلك فصعب عليه واستدعى بجواده فركبه وصعد على السور حتى أشرف على المسلمين ، فلما رأى ذلك عظم عليه ، وقال ما هؤلاء إنس وإنما هم جن ، فلما رأى المسلمون البطليوس أتوا إلى الأمير فأعلموه بذلك فركب الأمراء معه حتى أتى إلى تل هناك عال مقابل باب قندس واستدعى بالأسارى وعرض عليهم الإسلام فأبوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون إلى ذلك فغضب عند ذلك البطليوس غضبا شديدا وحمل هما عظيما.

(قال الراوى) ثم إن عدو الله استشار أصحابه فيما يفعل وانه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم .

قال : فنهض إليه بطريق اسمه كراكر ، وكان فارسا شديدا ، وقال أنا أيها الملك أكفيك هذا المهم وأكبس عليهم لعلى أن أنال منهم منالا وأريد معى جماعة شدادا ، فقال الملك خذ من شئت فانتدب معه عشرة بطارقة تحت يد كل بطريق ألف وجاءوا إلى كنيستهم وفتحوا الإنجيل في وجوههم وساروا إلى أن وصلوا إلى الأبواب والبطليوس يحرضهم ويوصيهم بالهجمة عليهم ما داموا على غفلة .

ثم أمر الحراس بفتح الباب لهم وهو باب قندوس وكانوا ألف فارس بوابين على الباب، وكان للباب ثلاثة أبراج بين كل برجين باب وشراريف وخرجوا وهم مستعدون لذلك والمسلمون تلك الليلة من جهة باب قندوس معهم زائد بن ثابت وعبيد الله بن عباس وعبد الله بن معقل والبراء بن عازب ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميرى .

(قال الراوى) حدثنا عوف بن سعد عن سعيد بن طارق الثقفى عن أبى يزيد عن

مالك الاشتر ، قال بينما نحن نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا فى مراقدهم من شدة البرد وكثرة السهر ووضعوا أسلحتهم ، منهم من له ورد يقرؤه ومنهم من يصلى اذ رأينا فتح الباب وخرجوا كالسلاهب وبأيديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا على الجيش فتبادرنا اليهم وصحنا النفير دهينا ، يا مسلمون ثوروا فقد غدركم القوم .

فلما سمع المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالاسود الضارية هذا يأخذ سيفه وهذا يأخذ رمحه ، وهذا عارى الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه ، وهذا يشد وسطه بمئزره ، وهذا عليه قميص واحد وثاروا فى صدور الرجال ، هذا وعدو الله قد عطف على جماعة من المسلمين قبل ان ينتهوا ووضع السيف فى عراضهم فما أفاق بعض القوم الا والسيف قد أطاح رأس هذا وقطع زند هذا وطعن نحر هذا وهكذا وكثر الصياح وعظم البلاء وكثر القتال وعدو الله كراكر عليه ديباجة حمراء مقصبة بالذهب تلمع من فوق الدروع وعلى رأسه بيضة عليها جوهر تضئ كالكواكب وهو يهدر كالجمل الهائج ، وهو يرطن بلغته وخلفه جماعة والذين على الاسوار يصيحون ويزعقون بشعارهم ويضربون بقرونهم وبوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مشاعلهم من أعلى السور حتى بقى مثل النهار ، هذا وقد ثارت الامراء أصحاب النجدة وذوو المروءات واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم من ركب جواده عريانا ، ومنهم من ركب فرسه بغير لجام ، ومنهم من أسرع ماشيا ، فلله در الفضل ابن العباس وابن عمه الفضل بن أبى لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو والمسيب بن نجيبة الفزارى والمغيرة ومسلم وأبى ذر الغفارى وأبى دجانة وأبى أمامة وغفر بن عقبة وأبى زير العقيلى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم لقد قاتلوا قتالا شديدا ، وأبلوا بلاء عظيما، وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة من السلمين.

وأما الذين هاجموهم فى أول الوقعة فقتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجلا واقتتل الناس قتالا شديدا ، وأقبل الفضل بن العباس الى لبطريق كراكر لعنة الله وضربه بالسيف على عاتقه الايمن فأطلع السنان يلمع من عاتقه الايسر فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار وأتبعه بالجملة ابن عمه عبدالله بن جعفر فقتل بطريقا آخر ،

ولم تكن الا ساعة وقد أجلتهم بقية الامراء من على أبوابهم وتركوا مكانهم من يثقون به وساروا الى أن وصلوا اليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة نحوا من ثلاثة آلاف من الروم والنصارى .

فلما رأى الروم ذلك فروا نحو الباب وتبعهم المسلمون الى الباب فخرج كردوس عظيم من الروم وحموا المنهزمين وأسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا الى مكان المعركة يتفقدون من قتل منهم .

فإذا هم أربعمائة وخمسة وثلاثون رجلا ختم الله لهم بالشهادة ، فلما رأى المسلمون ذلك شق عليهم وكبر لديهم وأسرعوا تحت الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم فى ثيابهم ودمائهم فى مكان يعرف بالبطحى عند مجرى الحصى ومنقع السيل فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة فى قبر وقدموا أهل السابقة وأصحاب القرآن وكان يعرف ذلك المكان بقبور الشهداء الاخيار ، والدعاء هناك مستجاب مجرب مرارا وتحط هناك الأوزارلمن يكثر من الدعاء والتطوع والاستغفار .

(قال الواقدى) ما حدثت فى هذا الكتاب الا على قاعدة الصدق وأذكر ما وقع من الامور وحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدثين من أصحاب السير ومن سماع كلامه كالدر ، فهذا كالعقد النفيس فى السلوك والتأسيس لا يليق سماعه الا لذوى البصائر والعلماء والملوك فانه نزهة الناظر ويشرح الخاطر ، لم يجمع أحد مثله من أهل السير لما فيه من الامثال والعجائب والاخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدثين يتلذذ بذلك المستمعون، ولنرجع إلى سياق الحديث .

(قال الواقدى) حدثنا عبدالله بن عبد الواحد القارى عن أبى سراقة بن نوفل الخزرجى عن أبى لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات . قال ولما وارينا الشهداء رجعنا الى خيامنا وعدو الله البطليوس قد أغلق الباب وألقى الاقفال وعلوا على الأسور ، قال ولما رجع المنهزمون الى البطليوس صعب عليه وكبر لديه وأظلمت الدنيا فى وجهه وحمل هما عظيما على من قتل من بطارقته وجماعته ونوى المكايد والمصائب للمسلمين .

(قال الراوى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما الصحابة رضى الله عنه فانهم اجتمعوا عند الامير وتذاكروا ما حصل للمسلمين من البطليوس لعنة الله واتفق رأيهم أن يرسلوا الى الامير خالد بن الوليد رضى الله عنه يسألوه أن يسير اليهم بنفسه وبمن معه وكتب كتابا يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عياض بن غانم الىٰ الامير خالد بن الوليد ، اعلم أيها الامير أننا فتحنا الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجد فى الترك والروم والفرس والديلم ألعن من هذا المعلون بطريق البهنسا البطليوس ولا أكثر منه خداعا ولا مكرا ولا حيلة وانها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالرجال ، وقد خدعونا مرارا وقد قتلوا منا رجالا ، فأنجدل بنفسك وبمن معك من المسلمين ، والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم ، وطوى الكتاب وسلمه الى عبدالله بن المنذر فأخذه وأتى به الى الامير خالد فوجده نازلا على النورية، فسلم عليه ودفع له الكتاب ، فلما قرأه وفهم ما فيه استرجع وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلى لعظيم ، ثم التفت الى عبدالله وقال قل للامير عياض ان الامير خالد قادم عليك برجال وأى رجال والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين من المهاجرين والانصار فرجع عبدالله ثانى يوم الى البهنسا ورد الكتاب الى الامير عياض بن غانم .

قال : ثم استدعى الامير خالد بأبى عبدالله الزبير وضم اليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمسير إلى أرض البهنسا وقال لهم : إذا وصلتم الى أرض البهنسا فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، فسار الزبير رضى اللهعنه فلما بعدوا دعا بالمقداد ابن الإسود وضرار بن الازور ودفع لهما مائتى فارس وأمرهما بالمسير على أثر المقداد ، ثم استدعى بسعيد بن زياد بن عمرو بن نوفل خال رسول الله ﷺ وعقبة بن عامر الفهرى ، ودفع لهما مائتى فارس وأمرهما أن يسيرا ، وبات الامير خالد تلك الليلة ، ولما أصبح صلى وصلى معه بقية الامراء من المهاجرين والانصار الاخيار رضى ا لله عنهم .

(قال الراوى) وسار الزبير رضى الله عنه بمن معه حتى أشرف على البهنسا فكبر وكبر ومعه المسلمون وأنشد يقول :

أتيانكم علـــــى خيل عتاق ‌ ‌ ‌ شـــــبيه الريح يوم الاســتباق

عليها كل صنديد همام — شديد البأس يوم الحرب راقى
نذل حماتكم بالسمر لما — نجول بها مع البيض الرقاق
ونقتل كل ملعون وباغ — على الاسلام من أهل النفاق
ونحن حماة دين الله حقا — نقر بأن رب العرش باقى
وأن محمدا خير البرايا — رسول الله للعلياء راقى

قال : وأشرفت الروم على أبواب المدينة ينظرون اليهم ، فما لبثوا غير قليل حتى أشرف عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمرو رضى الله عنهم وكبر وكبرت المسلمون قال ثم أنشد يقول :

أنا الفارس المشهور للحرب فى الوغى — أذل بسيفى كل باغ ومعتدى
وأحمل فى الابطال حملة من له — الى الغاية القصوى أعاظم مقصدى
أنا ابن أبى بكر الذى شاع ذكره — خليفة خير المرسلين محمد
فياويل من عالى حسامى رأسه — ويا ويل من عاجلته بمهند

(قال الراوى) ثم أشرف من بعده عبدالله بن عمر وكبر وكبرت المسلمون لتكبيره ثم أنشد يقول :

أتينا على خيل عتاق وضمر — بكل يمان ذى حداد وأسمر
بكف شجاع باع لله نفسه — يرى الموت فى الهيجاء أفخر مفخر
نذلكم بالسيف فى الحرب والقنا — ونقتل منكم كل باغ ومفترى

(قال الراوى) ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الامير خالد وبقية الامراء الذين معه ، ولما بات أصحاب رسول الله ﷺ وأصبحوا ، قال ضرار بن الازور والامراء للامير غانم : أظنكم أنتم المحاصرون وأعداؤكم فى أكل وشرب فما هذا القعود ؟ ثم رجعوا للابواب وضرار ينشد ويقول :

سأضرب فى العلوج بكل عضب — شديد الباس ذى حد صقيل

وأضـــرم فى عـــــلو الباب نارا	وأرمى القـــــوم بالخطب الجليل
وأترك دارهم منهـــــــــم خرابا	ولم أمـــهل بذى شـــبح كفيل
فويل ثم ويل ثـــــــــم ويل	لهم منى بمشـــــتد العــويل
سأقتل كل باغ كان منهـــــم	بحد الســيف والباع الطـــويل

قال : ولم يزل يتنرنم بهذه الابيات ويرموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالا شديدا فاشتدت حمية عتيد الروم، وجمع الملعون البطارقة من ذوى الشدة والبأس، وكان هو فارسا شديدا وبطلا كما ذكرنا ، وفتح باب الجبل وخرج منه كأنه شعلة نار على جرائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلى الابراج ، واقتتلوا قتالا شديدا وجرح من المسلمين جماعة ، وكانت مقتلة عظيمة وبقية الأمراء لا يعلمون وأنكى من المسلمين جماعة .

قال : فعندها ضجت الامراء أصحاب الرايات وأقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز ، فبرز اليه المغيرة بن شعبة ، فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالا شديدا ، فضربه المغيرة بالسيف فطاح من يده ، وبادر عدو الله الى المغيرة ليضربه ، وإذا بفارس قد أقبل بيده سيف مجذوب فلوح به الى المغيرة واذا هو عبد الرحمن بن أبى بكر فأخذه المغيرة وضرب به البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا ، وكلما أراد المغيرة أن يسطو على العلج يمانع عن نفسه ونظر ضرار بن الازور الى ذلك ، فترجل عن جواده وسعى بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضربه فى حزامه فقطعه ، فسقط عدو الله وهو جاذب المغيرة الى الارض فعندها تكاثرت الروم على ضرار والمغيرة فأرادوا قتلهما ، واذا بثلاثة فوارس قد أقبلوا واخترقوا الصفوف أحدهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، والثانى عبدالله بن عمر بن الخطاب، والثالث المقداد بن الاسود الكندى رضى الله عنهم ، فأزالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم ، وفرقوا الكتائب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله . قال ومال عبد الرحمن ابن أبى بكر وركب ضرار جوادا من خيل المقتولين وأخذوا الأسلاب ، هذا وعدو الله البطليوس لعنه الله تارة يكر فى الميمنة وتارة يكر فى الميسرة وطلب البراز .

فبرز اليه المقداد بن الاسود الكندى رضى اللهعنه وتعاركا وتجاولا وتطاعنا . قال

المقداد بن الاسود قاتلت ملوكا وفتحت قلاعا ولاقيت حروبا فى الجاهلية والاسلام ، فلم أر أخدع من البطليوس ولا أشد بأسا ولا أصعب مراسا منه فتقاتلا حتى كل الجوادان والتفت الى وقال : ما أجرأ فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاث أرجل .

قال المقداد : فمن شفقتى على جوادى طأطأت رأسى لانظر الى قوائمه فضربنى بالسيف ضربة قوية فقطعت الخوذة والرفادة وأثرت قليلا فى رأسى ، فظن المعلون أن خصمه قد قتل ، فلوى عنان فرسه ، فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدم ذكره وأحاط به أصحابه .

قال : فبينما الناس فى أشد القتل اذ أقبل الامير خالد بن الوليد رضى الله عنه ومعه الامراء المتقدم ذكرهم وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وفى أوائل القوم خالد وهو ينشد ويقول :

على الله صبا للقاء جاء يسرع	وصبا على الفرسان بالرمح يقرع
ومن باع لله المهيمن نفسه	وكان إلى الهيجاء بالامر أطوع
فويلك يابطلوس من سيف خالد	اذا اشتدت الهيجاء والحرب يرفع
فلاحم الرحمن بطلوس كافرا	ويلعنه كل الملائك أجمع
فان قدر المولى سأخرب داره	وأتركها من بعده وهى بلقع
بحد يمانى اذا ما جذبته	تذل له كل العداة وتخضع

(قال الراوى) ثم ان خالداً رضى الله عنه حمل بمن معه واقتتلوا قتالا شديدا وقاتل البطليوس لعنه الله قتالا شديدا ، وقتل رجالا وجندل أبطالا ، فعندها حملت الأمراء وأصحاب الرأيات وذوو المروءات اقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الاحمر قتالا شديدا ؛ وعطف خالد على البطليوس وصال عليه ، وكلما مر الى الميسرة يراوغه الى الميمنة ومن الميمنة الى الميسرة ، فعندها عطف خالد وحازه بين الصفوف وحمل عليه ، فعندها فر الى القلب وأحاط به أصحابه وقومه ووضعت الأمراء السيوف فيهم وتبعه الامير خالد وساق جواده الى الباب واقتحمه ، وتبعه قومه وانهزموا الى الباب ودخلوه وتبعهم المسلمون واقتتلوا

عند الباب وقتل من الروم نحو أربعة آلاف ودخلوا الباب وأغلقوه وأوثقوه بالاقفال وعلوا على الاسوار ، وأسر المسلمون نحو ألفاً وخمسمائة فعرضوهم على الامير خالد ، وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الاسلام ، فامتنعوا فأمر بضرب رقابهم وافتقد المسلمون أصحابهم ، فاذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلا ختم الله لهم بالشهادة .

(قال الواقدى) هذا ما جرى لهؤلاء ، وأما عدو الله البطليوس ، فانه حمل هما وحصل له مالا ينبغي شرحه ، وأمر بجمع البطارقة ، فلما اجتمعوا شكا لهم أمر العرب وما لقوا من الحرب ، وقال لهم : فما الرأى عندكم فقالوا : كلنا بين يديك فاذا أمرتنا بالقتال قاتلنا على سور بلدنا ، قال : سأدبر لكم أمرا وهو تدبير من خاض الحروب وعرفها ، ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم وعامتهم ، فاجتمعوا اليه الا من بقى على الابواب خوفا من المسلمين فلما تكاملوا واجتمعوا قال : انى عزمت أن أهجم على القوم فى هذه الليلة وأكبسهم فى أماكنهم والليل مدلهم ، أنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم ، فلا يبقى منكم أحد الا ويتأهب ويخرج معى من بابه ونكبس القوم ، وأخرج أنا بنفسى ومن معى من باب توما وأرجو وصولى الى مسرتى والا أموت بحسرتى وأبيدهم أولا بأول لعلى أن أصل الى أميرهم فآخذه أسيرا وأبلغ مقصدى .

قالوا : حبا وكرامة ، ثم بعث فرقة الى باب الجبل وفرقة الى باب قندوس وفرقة الى الباب الشرقى ، وانتدب معه سادات قومه ومن عرف بالشجاعة وأخذهم معه ، ثم أقبل على القوم قبل انصرافهم وقال سآمر صاحب الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجى من الباب فتخرجون جميعا فامتثلوا ما أمرهم به وقاموا ينتظرون الاشارة ، واما صاحب الناقوس فاحتمله كالسلاهب وخرج البطليوس فى عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال أسرعوا فى مشيكم فاذا وصلتم الى القوم فاحملوا عليهم ومكنوا السيوف والخناجر من رقابهم ، ومن صاح الامان فلا تبقوا عليه الا أن يكون أمير القوم ، ومن أبصر منكم الصليب الذى أخذ منا فليأخذه ومن أتى به أكرمته .

ثم أمر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربة سمعها أهل الأبواب ففتح البوابون

وتبادروا للخروج ، وخرج اللعين وسمع المسلمون الصوت ، فثاروا كالاسود الضارية المشتاقة الى فرائسها ، فلم تصل القوم اليهم الا وهم على حذر الا أنهم غير مرتبين ، فتجاول القوم فى ظلام الليل وسمع الامير خالد ذلك منهم فصاح واغوثاه وامحمدا وا إسلاماه كيد قومى ورب الكعبة اللهم انظر اليهم بعينك التى لا تنام وانصرهم على عدوهم ولا تسلمهم الى شر خلقك ، ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلا خوذة ، وألهته الزعقة عن لبس السلاح وسار الى قومه وهو ينشد ويقول :

فاض دمعى واعترانى حزنى ... ضاق صـــدرى وبرانى شجنى
رب ســـلم من نزول المحن ... وانصر الاســـــلام ياذا المنن
بالنبى الهاشـــمى العدنى ... أحمـــــــد المختار طه المدنى

(قال الراوى) ثم وصل الى باب توما ومعه خمسمائة من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبى لهب وزياد بن أبى سفيان بن الحارث وعبدالله بن جعفر بن أبى طالب والمقداد بن الاسود وزيد بن ثابت وعبدالله بن زيد ومسلم ابن عقيل وأبى ذر الغفارى وعبادة بن الصامت وبحر بن مسلم وعقبة بن نافع والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزارى رضى الله عنه وعلت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والقوم من أعلى الاسوار قد رطنوا بلغتهم وتصارخوا عندما استيقظ المسلمون وحمل خالد على القوم ونادى : يا مسلمون أتاكم الغوث من رب العالمين ، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد ، أنا خالد بن الوليد ، ثم حمل فى وسط الروم بمن معه فقتل رجالا ، وجندل أبطالا وهو مع ذلك مشتغل القلب بالامير عياض وبقية الامراء الذين على الابواب وهو يسمع صراخهم وزعقاتهم .

(قال الواقدى) حدثنا عبدالله بن عون قال حدثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال : كان الروم والنصارى من أعلى السور يرمون بالحجارة والسهام ، ولقيت المسلمون من عدو الله البطليوس أمرا عظيما لم يروا قبله مثله وكان أول من وصل إليه البطليوس لعنه الله فصبرت له المسلمون صبر الكرام وقاتل عدو الله البطليوس قتالا شديدا ، وقال أرونى الذى أخذ صليبى بالامس .

فلما سمع الفضل بن العباس صوته قصد جهته ، وقال ها أنا صاحبك وغريمك أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ فعطف عليه البطليوس عطفة الاسد على فريسته وقال اياك طلبت ثم انفرد له وصادمه فلم تر الناس فى طول الايام ضربا كضربهما فى تلك الليلة ورأى الفضل منه شيئا لم يره فى طول عمره ولم يزالا كذلك الى أن مضى من الليل شطره وكل قرم مع قرمه ولم يزالا فى كر وفر وضربه الفضل ضربة فتلقاها فى حجفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدو الله وظن أنه يأخذه أسيرا واذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجموا على الروم واذا بخولة بنت الازور أخت ضرار قد حملت على فارسان من الروم فجندلتهما وهى تجندل فى الابطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبد الرحمن بن أبى بكر والثانى عبدالله بن جعفر وتبعهما ثلاثة وهم أبان بن عثمان بن عفان فخلصوا خولة بعد أن أحاطت الروم بها وعطفوا على عدو الله البطليوس فكر راجعا فى كردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا وقاتلت الروم من أعلى الاسوار قتالا شديدا ، وكان خالد رضى الله عنه تارة يكر عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس .

وكان عياض بن غانم الاشعرى . عند باب الجبل يرى ذلك القتال فلبس سلاحه ودنا من القوم بمن معه من الامراء مثل المقداد وضرار بن الازور وشرحبيل ومسلم وعقيل وزياد وعبدالله بن العباس وعمر بن أبى ذئب وعبد الرحمن بن أبى هريرة والمسيب والحرث ابن مسلم وزيد بن الحرث وابى ذر الغفارى ومحمد بن مسلمة رضى الله عنه فعطفوا نحو الباب وكبروا وكبر القوم من ورائهم فخرج اليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق يوحنا فاقتتلوا قتالا شديدا فتكاثر الروم على عبدالله بن عبادةبن الصامت فقاتل قتالا شديدا ورمى بحجر من أعلى الباب فقتله وقتل من الامراء وفرسان المسلمين عند الباب زهاء من مائتين وقتل من الروم نحو ألف وحمل عياض والامراء والتقى القوم فصارت الاحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يولون عنهم .

فلما ألجئوهم الى الباب واختلطوا بهم خشيت الروم أن يصيبوا أصحابهم بسهامهم

وحجارتهم فأمسكوا أيديهم وقتل من الروم مقتلة عظيمة ، وأما خالد فقاتل قتالا شديدا ما رؤى مثله فبينما الناس كذلك اذ أقبل ضرار بن الازور وهو ملطخ بالدماء وهو جامد عليه كأكباد الابل . فقال له خالد ما وراءك من الاخبار يا ضرار ؟ فقال أخبرك يا أبا سليمان انى قتلت فى ليلتى هذه مائة وستين رجلا وقتل قومى ما لا يعد وقد كفيتكم من خرج من باب الجبل .

(قال الراوى) وكانت ليلة لم ير الناس مثلها وهجم الامير عياض هو وأصحابه على من بداخل الباب واقتتلوا قتالا شديدا ووصلوا الى ساباط الباب ، وكان له باب آخر فأغلق من دونهم على كردوس من الروم فقتلوا هناك وتسلق المسلمون على البرج وقتلوا من فيه وكانوا خمسمائة وقتل فى تلك الليلة هناك نحو ألف . وأما باب قندوس فكان عليه الزبير ابن العوام وعقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو بن العاص والفضل بن أبى لهب والمغيرة وجماعة من الامراء فتواثبوا الى الباب واقتتلوا قتالا شديدا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلا غير الاعيان ، وأما باب توما فكان عليه خالد وخرج منه البطليوس فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعة نحو مائتين وثمانين رجلا فى المكان المعروف بالمراغة وغلقوا الابواب واستعدوا للحصار وهذا كان أول فتح .

(قال الواقدى) حدثنا سنان بن مفرج العجلانى عن أبى محمد الشاكرى عن زيد ابن رافع عن أبى أمامة قال : وأقام خالد بعد الوقعة على البهنسا أربعة أشهر لا يقاتلهم ولا يناوشهم فطال عليهم المكث وضجروا فأتوا الى خالد وشاوروه فى القتال فأذن لهم وكان جملة من قتل فى وقعة الابواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة .

(قال الراوى) فلما استأذنت الصحابة خالدا فى القتال لم يقدر أن يمنعهم ولما أصبحوا اقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع مثله فاشتد الحصار . فقال أهل البهنسا وقالوا للبطليوس ما بقى لنا صبر على القتال والحصار . فقال لهم اصبروا واثبتوا لعلى أن أكيد العرب بمكيدة، ولما اشتد الحصار عليهم أتوا الى بطريق يسمى توما صاحب الباب وأتاه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مالا وافتح لنا الباب حتى نأخذ لنا أمانا من العرب فأجابهم الى ذلك فصبرهم الى جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضى

نحو مائتين من تجار البلد وخرجوا من باب السر وأتوا الى خالد وصالحوه على أن يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جعلا معلوما واتفقوا على ذلك وكتبوا أسماءهم ورجعوا .

هذا ما جرى لهؤلاء وكان الكلب ابن عم توما حاضرا واسمه أرمياء فمضى إلى البطليوس وأعلمه بذلك فعندها أرسل البطليوس بطريقا يقال له حرفائيل ومعه ألف بطريق وقال اكمنوا واتونى بالخبر على جليته فمضوا وتفرقوا وهم مشاة قريبا من باب توما اذا بهم قد أقبلوا ، فلما رأوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا فعندها تواثبوا عليهم وأمسكوهم وسحبوهم الى البطليوس لعنه الله ، فلما رآهم وبخهم توبيخا عظيما ، وقال ائتونى بالسياط ونصب أخدودا من حديد ، ثم ضربهم ضربا شديدا وأتى بالنار وأحرق جميع أموالهم وأمر باحضار البطريق فأحضر بين يديه فأخذه ومضى الى القصر هو وجميع أعوانه واستدعى بالخشب وصلبهم على أعلى السور وأقاموا هناك يوما وليلة ، ثم أمر بضرب رقابهم وطرح رؤوسهم للمسلمين .

قال الامير عياض للأمير خالد هؤلاء أهل ذمتنا ، وقد قتلهم البطليوس لعنه الله .

(قال الراوى) أما الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه قلق على المسلمين قلقا شديدا فأرسل كتابا الى عمرو بن العاص يقول فيه : ما سبب انقطاع كتبك عنى وأنا فى قلق على المسلمين وعلى خالد ومن معه ؟ واعلم أنك لا ترسل لى الا بالفتح والغنائم وان احتاج خالد الى نجدة فأرسل الى أبى عبيدة ، فقد كاتبته بأن يرسل له جنودا من الشام والسلام ، فلما وصل الكتاب الى عمرو أرسله الى خالد .

فقال خالد : لا نطلب النجدة والمعونة الا من الله تعالى ، ثم ان خالدا عظم عليه الامر واشتد الحصار وكان كل يوم يرجع الى المدينة ويقاتل قتالا شديدا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب وهجم عدو الله على المسلمين وكادهم مرارا وقال خالد للامير عياض وللمسلمين لا شك أن لاصحابنا عيونا وجواسيس ، ثم ان خالدا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبى سفيان وعياض وطافوا حول العسكر واذا برجل من العرب المتنصرة جالس على قطيفة خارج العسكر فأنكر أمره خالد وقال له من أى

العرب أنت ؟ فسكت . فقال له الامير عياض انطق بالحق من لك من الاهل ههنا ؟ فسكت .

فقال له : خذ الماء وتوضأ فلم يحسن ذلك فقال له صل فلم يحسن ذلك فضربوه فأقر بأنهم خرجوا ثلثمائة من باب السر وردوا وبقى هو فضرب عنقه وانقطعت الجواسيس فكانوا يقاتلون قتالا شديدا، وكان لخالد عبد فى خيمته اسمه فلاح يصنع له كل يوم قرصين من شعير واحد له وواحد للعبد فقعد خالد ثلاثة أيام يأتى السفرة فلا يجد فيها شيئا ولم يكلم العبد ، وكان عنده بعض تمر يتقوت به حتى فرغ فعندها قال خالد للعبد : يا ولدى قال الله تعالى ﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾[1] ولك ثلاثة أيام لم تصنع فيها قرص شعير .

قال : يا سيدى ما قطعت عنك ذلك ولكن أصنع لك كل يوم وأعلقه فى طبق الخيمة فلم أجده .

قال خالد : إن لهذا شأنا عظيما ، ثم قال للعبد قف خلف الخيمة وأخف نفسك وانظر ما يفعل هذا ، فلما كان الغد ركب خالد للقتال وصنع العبد القرصين وأكل قرصا ووضع قرص سيده فكان معتاد أن يشيله له ، فجاء كلب اسود عظيم من جهة البلد ودخل الخيمة وأخذ القرص فى فمه ومضى فتبعه العبد حتى أتى الى سرب يخرج منه الماء يجرى من البحر تحت الارض الى تحت سور المدينة من جهة القبلة ويدخل المدينة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد ، فلما رآه العبد رجع وأعلم الامير خالدا فمضى معه ورأى ذلك ففرح بذلك فرحا شديدا ثم أتى الى الامراء واعلمهم بذلك وقال لهم أريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله عز وجل فيمضون معى وجماعة شداد يكونون مقابل الباب .

فاذا فتحنا الابواب دخلوا الينا فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقيل وزياد بن أبى سفيان وأخوه هبار والمسيب بن نجيبة وأخوه والمقداد بن الاسود ورافع وأبو رزين العقيلى

(١) سورة الانبياء : الآية ٨ .

ومثل هؤلاء السادات ، وقد اقتصرنا فى أسمائهم خوف الاطالة ورتب خالد رضى الله عنه عبدالله بن جعفر والزبير بن العوام وابنه عبدالله والفضل بن العباس والفضل بن أبى لهب وضرار بن الازور ومثل هؤلاء مقابل الباب وصبروا الى غروب الشمس وأتوا إلى ذلك السرب ودخلوا اليه فى الماء كل واحد بسراويله وسيفه وكان أولهم الامير خالد ، وكان من دخل يدع سيفه وحجفته مع صاحبه حتى يدخل ويأخذهما حتى دخل ثمانون رجلا ورجع عشرون لم يسعهم السرب وضاق عليهم فولّوا وهم متأسفون لما فاتهم من الشهادة والفتح ، وتواثبت الامراء المذكورون وأخفوا نفوسهم تحت الجدار الى جزء من الليل فتبادروا الى الباب فوجدوه موثقا من داخله فعالجوا الاقفال والروم سكارى ففتحوا الباب وذبحوا كل من وجدوه فى دهليز الباب وكانوا ستين رجلا ، ثم علوا على السور وجماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا على الروم فقتلوا جماعة منهم فى أعلى البرج وقتلوا بطريق البرج وأعلنوا بالتهليل والتكبير الصلاة على البشير النذير .

فأجابهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب الى سوق المدينة وتبادرت جماعة الى القصر ، فلما أحس عدو الله بذلك وأن المسلمين ملكوا عليه الابواب وضع منديلا فى عنقه وخرج وهو يقول : الأمان الأمان وفعل جماعة كذلك فأبى خالد وضع السيف فيهم وقاده أسيرا وقال له يا عدوالله لا أمان لك عندى الا أن تسلم وقبض على جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف وقتل من المسلمين فى تلك الليلة فى وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلا قريبا من سوق المدينة وعند الابواب وعند القصر وجاء عياض ومعه جماعة من الامراء فشكا اليهم أهل البلد ، وقالوا الامان فرق لهم الامير عياض وصار عدو الله يتملق بين أيديهم فغلبوا على رأى خالد حتى صالحهم على ألف وسق من البر والشعير والجزية من العام القابل ، وخالد لا يطمئن قلبه الى شىء من ذلك وغلب الامراء على رأيه وجاءوه وقالوا له لقد أضر بنا المقام بهذا البلد ، فما نراك الا أشفق منا علينا ونرى من الرأى أن ترسل الى عمرو وتعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثقون الى أن يجئ الجواب فعندها كتب خالد كتابا الى عمرو يخبره بذلك .

فلما بلغه ذلك رد لهم الجواب أنهم يستوثقون منه بالأيمان ويأخذون منه ما صالحهم عليه ويتركونه ، ومن صاح الغوث الغوث فاتركوه والا نفر منكم أهل الصعيد ففعل خالد وقلبه نافر وأطلقهم بعد ما استوثق منهم بالايمان فى كتبهم المذكورة وأطلقوه وشرط عليهم أن لا ينزل عندهم أحد الا من يقبض المال فخرجوا الى ظاهر المدينة وبقى عنده فضالة بن زيد السلمي وعون بن ساعدة الكندى ومقوم بن سعيد الجهنى ومائتان من أصحاب رسول الله ﷺ وأخرج الميرة والعلوفة وصار كل يوم يركب ويتودد الى الامراء ووهب وأعطى ولم يترك أميرا الا خادعه حتى طابت نفوسهم عليه الا خالدا والفضل بن العباس والمقداد وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والزبير بن العوام فانهم لم تطب نفوسهم اليه وأقاموا شهرين على ذلك وأرسل جميع الغلال الى خزينته فى هذا الزمن وخزن ما يحتاج اليه واستدعى بكبار قومه ومن يثق به واتفق رأيهم على قتل المسلمين والغدر بأصحاب رسول الله ﷺ وصبروا الى أن مضى جزء من الليل وهجم على المسلمين على حين غفلة فى ألف بطريق وأوثقهم كتافا وجعل فى أفواههم الاكر وفتح الابواب وأدخلهم المدينة وهجم على المسلمين ووضع السيف فيهم وهم رقود فما انتبهوا الا والسيف يقطع فى نحورهم وكانت وقعة عظيمة وثار خالد بمن معه ، وكان الزبير راقدا فسمع الصياح .

فقال : دهينا ورب الكعبة ثم ركب وركبت معه زوجته وقاتلت النساء قتالا شديدا وعدو الله تارة يكر ميمنة وتارة يكر ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل ، وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول :

يا قوم أما قلت لكم فما سمعتم لخالد والتجأ زياد بن أبى سفيان وأخوه هبار وميسرة ابن مسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجندبة الكلبى الى تل هناك وأحاط بهم طائفة من الروم من كل مكان فقاتلوا قتالا شديدا وانحدر زياد رضى الله عنه من التل وتبعه أصحابه فأحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السور بالمعصم وقتلوا زيادا وجميع من ذكرنا من الامراء وقاتلت نسيبة الانصارية أم أبان وأسماء ابنة أبى بكر ونعمانة ابنة المنذر ونظائرهن فى تلك الليلة قتالا شديدا وقتل جماعة من المسلمين وأتى

خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة قال وأطبق عليهم هو وجميع الامراء فهزموهم الى الابواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدو الله وتحصن هو وقومه وغلقوا الابواب .

ولما أصبح أمر بالحصار وأمر باحضار المأسورين وصعد بهم الى أعلى البرج وضرب رقابهم فشق ذلك على المسلمين وصعب عليهم ما فعل عدو الله بأصحابهم وأتى خالد رضى الله عنه ومعه بقية الامراء الى مكان المعركة فوجدوا الشهداء مطروحين ووجدوا زيادا رضى اللهعنه وفيه عشرون طعنة بالرمح وأربعون ضربة بالسيف والى جانبه أخوه هبار وفى رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحدة فى فخذه قطعته فبكى خالد عليهم بكاء شديدا وبكى عليهم سائر الامراء وأبطال المسلمين ونعاهم الامير خالد بهذه الابيات وهى له خصوصا :

هوام دموعى كالسحائب تهمع ... وقلبى من فقد الاحبة يفزع
وأظلمت الدنيا على نور عبرتى ... وكاد فؤادى بالجوى يتقطع
لفقد زياد أحرق البين مهجتى ... وغاب صوابى وهو فى الارض يصرع
لقد كان فى بحر المعامع صائلا ... يزلزل أركان العدا ويضعضع
وقد كان مقدام الفوارس كلها ... بكل مكان للاعادى مقمع
لحى الله يوما فيه حانت وفاته ... وأجفانه مع أسهم الدمع تدمع
أيا سيدا من آل هاشم لم يزل ... له رتبة بالمجد والجود ترفع
يعز علينا أن نراك معفرا ... ورأسك من فوق الجنادل تسفع
بجانبك الهبار أضحى مهبرا ... طريحا على رأس الثرى وهو مطبع
ألا لعن الرحمن بطلوس قومه ... ألعنه مع كل قوم تجمع
لقد غدا السادات من آل هاشم ... نجوما وأقمارا على الناس تطلع

(قال الراوى) ثم بكى المسلمون بكاء شديدا على من قتل منهم من الامراء والابطال وجمعوهم وصلوا عليهم وواروهم فى حفرهم الى جانب التل فاذا هم ثمانون أميرا وثلثمائة وسبعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة .

(قال الراوى) وأقام المسلمون ثلاث سنين الا أنهم يشنون الغارات على السواد والسواحل ومضى القعقاع بن عمرو وهاشم وأبو أيوب وعقبة بن نافع الفهرى بألفى فارس وأغاروا على حد برقة ثم عادوا وهذا أحد الآراء فى فتح المغرب .

قال رضى الله عنه : ولما طال الحصار والمكث على أهل البهنسا اجتمعت المسلمون عند خالد واستشاروه فيما يفعلونه وماذا يكون من الرأى فوثب عبد الرزاق الانصارى وعبدالله ابن مازن الدارى وكعب بن نائل السلمى وأبو مسعود البدرى وأبو سعيد البياضى وقالوا يا قوم قد وهبنا أنفسنا لله عز وجل ولعل أن يكون للاسلام فرج فاصنعوا منجنيقا واملئوا غرائر قطنا وقالوا يأخذ كل واحد منا سيفه وحجفته ويدخل فى غرارة قطن فاذا كان الليل ونامت الحراس فألقونا على أعلى السور واحدا بعد واحد والمعونة من الله فى فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس وكما فعلتم مع رسول الله ﷺ .

قال : فاستصوبوا رأيهم ، فلما أصبحوا قطعوا الاخشاب وصنعوا منجنيقا وصنعوا له حبالا وأحضروا غرائر وملئوها قطنا والرجال داخلها وصبروا الى الليل ودخل هؤلاء السادات رضى الله عنهم بعد أن ضربوا بالمنجنيق حجرا بعد حجر فسقط على أعلى السور والبرج فشرعوا فى رميهم منهم أبو مسعود البدرى وعبد الرزاق الى أن رموهم جميعهم وصاروا فوق أعلى السور ورتب خالد أصحابه على الابواب ، وأما عبد الرزاق وأصحابه ، فلما صاروا بأعلى الجدار نزلوا الى البرج .

فاذا هو مغلق والحراس نيام فنزلوا إلى الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلقين موثقين فذبحوا البوابين عن آخرهم ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم فى جانب سريره فأخذوها وفتحوا الابواب واذا بالباب الثانى الذى ينتهى الى القصر مسدود بالحجارة ، فاحتالوا على قلع حجر بعد حجر فقلعوها ورموا الاحجار وفتحوا الابواب وكل ذلك فى أقل من ساعة بمعونة الله عزوجل ، وصعدوا الى البرج فعالجوه وفتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم ، وخافوا على الباب أن يؤخذ منهم وأن يحال بينهم وبينه وهو باب السور الذى بظاهر المدينة ففتحوه ، وصاحت الروم واستيقظ البطليوس وركب جواده وكان على حذر ،

وركب المسلمون ودخلوا الباب وخرجت البطارقة والبطليوس من قصره وزحفت الروم الى الباب ، وكان أول من قتل فى ذلك اليوم عبد الرزاق وعنان بن مازن وكعب بن نائل السلمى بداخل الباب .

قال : حدثنا قيس بن مازن الحميرى عن عبادة بن سالم السكاكى عن أبى مسعود البدرى ، وكان أول من فتح الباب . قال ليس هو على هذه الصفة وأخبرنا سالم بن حامد عن أبى عبدالله عن أبى محمد الانصارى عن عبدالله البدرى ، قال : كان أبو محمد الحسني يقرأ هذه الفتوح بالجامع الغزى العمرى على الشيخ أبى عبدالله حتى بلغ الى هنا وذكر الفتوح وفتح الباب وان الرجال وضعت فى الغرائر .

قال : يا بنى ليس الامر كذلك ، فقد روى عن أبى مسعود وهو الصحيح عن فتح الباب .

قال : أنهم قطعوا أخشابا ونصبوا سلما للتسلق عاليا علوا جدار المدينة وصبروا الى الليل وأسندوه إلى الجدار وتسلق منهم أربعون رجلا ومنهم السبعة المذكورن وفتحوا الباب كما ذكرنا واستيقظ الروم وخرجوا اليهم بعد فتح الباب ، فكان السابق اليهم عبد الرزاق رضى الله عنه فقتلوه وقتلوا معه من ذكرنا أولا وتسابق المسلمون إلى الباب ، فكان أول من دخل ضرار بن الازور وهو يقول هذه الابيات :

الجن تفزع يوم الحـــــرب من فـزعى ... اذا أتيت الى الهيجـــاء بلا جزع
يا ويل من صنــــــع الارصاد يخدعنا ... ونحن جـــرثومة الامكار والخدع
لأرضين الهى فى جهـــــــــــادهم ... وقتل أبطالهـــم بالســـيف والدرع
ياويل كلب العدا البطلـوس ان وقعـت ... عينـى عليه لارديه الـــى الــنزع
عيب علــــــــــى اذا ما ألتقيه هنا ... وأفلق الــرأس منــه غـــير مرتدع

ثم دخل من بعده خالد وهو يقول :

اليوم يوم الوفا والطعن بالأســـــل ... والضرب بالقضب فى الهامات والقلل
يا ويل بطلوس كلب البهنســـاء اذا ... لقيته بطليق الحـــــــد معتدل

ان لم أذقه بكاســـات المنون هنا — فلا ســـلمت ولا بلغت من أملـــى

قال : ثم دخل من بعده ذو الكلاع الحميرى وهو يقول :

إنى لمن حمير العالين فـى النسب — أهل الثنا والوفـــا والجود والحسب

أسد غضافرة ســـود جحاجحة — نردى الكماة غدا فى الحرب بالقضب

الحرب عادتنا والطعـــن همتنا — وذو الكــــلاع أنا عال على الرتب

تبت يد الـــروم ما يدرون أن لنا — صوارما تترك الاعضــــاء كالقصب

قال : ثم دخل من بعده الزبير بن العوام وهو يقول :

أيا بطليـــوس يا كلبا لعينا — ويا نســـل الطـــغاة الارذليـنا

أتتك حمـــاة ديـن الله حقـا — وأولاد الجـــياد الخـــيرينا

خيار الناس نســـل بنـى نزار — كراما فى الاعـــادى قاطعـــينا

اذا احتبك العجاج بهم تراهـم — بحولك كالســـباع الضاريينا

ولا منهـــم جبان قط يهزم — ولا نذل فتلقـــاه حـــزينا

وليس ترى سوى مقدام قـــوم — أثار الحـــرب صـنديدا أمينا

قال ثم دخل من بعده عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وهو يقول :

أتينا البهنـــسا بكل قرم — شـــديد العزم فى يوم النزال

وجيش فاق فى الآفاق طـرا — على الاعـداء بالسمر العوالى

قال : ثم دخل من بعده عبدالله بن جعفر وهو يقول :

اليوم طاب الطعـن فى اللئام — والضرب فى الأعناق بالحســام

وأنصر الاســـلام باهتمام — ولم أزل عن ســـادتى أحـامى

أنا الشـجاع الفارس الهمام — ومـــردى الاعداء فى الحمام

قال : ثم دخل من بعده الفضل بن العباس وهو يقول :

ألا اننا الســـادات من آل هاشم — ليـوثا ذوى بطش شـديد العزائم

لنا تشهد الابطال فى كل معرك وتذكـــر عنا أهل كل المواســـم
اذا اشتدت الاهوال واستبق القنا رأيت لنا فـــى ذاك فعل الضراغم

قال : ثم دخل من بعده الفضل بن أبى لهب وهو يقول :

لنحوك يا بطلوس عزمى قد طلب بحد حسام كالشـــهاب اذا انتدب
يطير شـــــرار النار مـن لمعانه بكف شجاع الخـيل ابن أبى لهب
فويلك يا ملعـــون منه اذا سطا بصارمه يوم العجـــاج وان وثب

قال : ثم دخل من بعده عياض بن غانم الاشعرى وهو يقول :

لا أنثنـــى يوم الهيـج عن العدا بمهنـــدى الصمصام الا اذ قطع
فالويل للبطلوس من ســـطواتنا لأفرقن بحـــد سيفى ما جمع

قال : ثم دخل من بعده المقداد ابن الاسود وهو يقول :

أنا الكندى كالليث الشـــجاع وانى فى العدا قـــد طـــال باعى
وتشهد لى الرجال بكل حـــرب وللهيجاء منقـــاد الطـــباع
فـــوار ثارات عبد الله انـــى عليه ذاهـــل حـــيران ناعى

قال : ثم دخل من بعده أبان بن عثمان وهو يقول :

نحن الليوث ذوو المعروف والكرم وفى المعامع يوم الحـــرب والهمم
مجندلون العدا فـى كل معـــترك وقاهـــرون لهـم فى كل مصطدم
لا يعجبنك يا بطلوس جيشك فى هذا المقام فمنا الكـــل كالرخـــم

قال : ثم دخل من بعده مسلم بن عقيل ، وهو يقول :

ضنانى الحرب والســـهر الطويل وأقلقنى التســـــهد والعويل
فور اثارات جعفـــــر مع على وما أبدى جـــــوابك يا عقيل
ســـــأقتل بالمهند كل كلب عسى فى الحرب أن يشفى الغليل

قال : ثم دخل من بعده شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمى ، ثم

مالك الاشتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبو ذر الغفارى ثم أبو هريرة الدوسى ثم ابنه عبد الرحمن ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم أبو دجانة الانصارى ثم جابر بن عبدالله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضى الله عنهم . قال ثم الانصارى يتلو بعضهم بعضا بهمم وعزائم .

قال : ثم خرجت الروم وقاتلت قتالا شديدا وتواثبت جماعة من الامراء مثل الزبير بن العوام وابنه عبدالله وعبد الرحمن بن أبى بكر الى باب البحر واقتتلوا قتالا شديدا وتقدم عبد الرحمن والزبير الى الباب والروم على أعلى السور ونزل عن جواده وصلى ركعتين والحجارة تتساقط عليه وهو لا ينزعج لذلك ، وتقدم هو والفضل وعبد الرحمن بن أبى بكر الى الباب وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا إلى أعلى البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف فى الحراس ، وفتحوا الباب ووثب شرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس وأبو ذر الغفارى وأبو أيوب الانصارى الى باب قندوس ووثب المسيب بن نجيبة الفزارى والقعقاع بن عمرو والامير عياض بن غانم الاشعرى الى باب الجبل وفتحوا الابواب واقتتلوا قتالا شديدا وقاتلت الروم قتال الموت الى أن طلعت الشمس وارتفعت ، وقاتل عدو الله البطليوس قتالا شديدا وقتل رجالا وجندل أبطالا واقتتلوا فى الازقة والشوارع وبين الابواب وتقدم خالد وهو يصيح واثارات سليمان وطعنه طعنة صادقة فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار .

فلما رأى الروم ذلك ولوا لادبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفا بوسط البلد وأسر منهم عشرون ألفا ، وأنشد خالد يقول :

وبالبهنسا الغرا أبيدت جيوشنا	ثلاث سنين بابها ليس يفتح
ثمانى الاف هداد جيوشنا	وكل همام عن ثمانين يرجح
فما فتحت الا وقد صار جيشنا	ثلاثة آلاف عداد تسحسح
ولم أر فى أرض الصليب كمثلها	ولا جيشها لما على السور يسرح
ولا مر لى يوم كمثل حروبها	لان بها البطلوس ليث مبجح
وكان له جيش وعدة جيشه	ثمانون ألفا بالحديد توشحوا

وكنا غلبناهم ثمانين مرة ... يخادعنا البطليوس عنهم فنصفح
ثلاث مرار نحن نفتح بابها ... وتريد للكفر الذميم وتجنح
ولقد لعب الهندى يوم فتوحها ... وكلت أيادينا وفى الروم نذبح
ثلاثون ألفا قد محتها سيوفنا ... وأكبادنا من حرها النار تقدح
الى أن ملأنا البر والبحر منهم ... وقد شبعت أسد الفلا وترنحوا
وولت ثلاثون الالوف شواردا ... وعشرون ألفا منهم قد تجرحوا
فمنهم قضى نحبا ومنهم بها طغى ... ومنهم أناس فى المقابر روحوا
وبطلوسهم ذاك النهار قتلته ... وقد كان مقدام الجيوش مرجح
فبادرته فى الحال حتى تركته ... صريعا عليه الغانيات تنوح
وعاجلته فى الرأس منى بضربة ... فأضحى بها شطرين ملقى ومطرح
وعاد بسيف ابن الوليد مجندلا ... تمر به كل الحوادث تفلح
ولما فنى بطلوسهم صار جمعهم ... كما شبه أغنام وغاب المسرح
وقد كان فى بحر الهياج مغلغلا ... تولى سرايا قومنا منه مرح
فلله ما أعداه قد كان فارسا ... يفوق على جيش عظيم ويرجح
وقد فرحت أكبادنا وترنمت ... لعمرك والاكباد بالنصر تفرح
أقمنا بأرض البهنسا بعد فتحها ... ثلاثين يوما للمساجد نصلح
وصرت الى أرض الصعيد معاجلا ... بألفين من خيل الصحابة ترمح
من البهنسا لاسوان جمعا فتحتها ... بعشر شهور بعدها ليس تلمح
وعبدى الثلاثون الذى شاع ذكرها ... وكل فتى يا صاح بالألف يرجح
ورحنا فتحنا الهند والسند كله ... وأسيافنا فى الغمد لله تسبح
وفى كل أرض عسكر قد تركته ... يقيمون دين الحق والحق يوضح
وهذا كلام ابن الوليد الذى جرى ... فكن سامعا معنى الذى لك أشرح

فما مثله فى معمع الحرب سيد ولا مثله فى جوهر النظم أفصح
ومن بعد ذا صلوا على أشرف الورى نبى له كل البرية تجنح
عليك سلام الله ما لاح بارق وما غرد القمرى اذ الصبح يطفح
وأصحابه والآل والعترة التى أقاموا لدين الله والشرك زحزحوا

(قال الراوى) وصار المسلمون يصعدون الى البيت ويأخذون الرجال من بين حريمهم من الروم ويقتلونهم حتى كلت سواعدهم من الذبح وجرى الدم فى الازقة وصارت القتلى فى الشوارع والاسواق مطروحين وخرجت اليهم النصارى والقبط وهم يبكون ويقولون : نحن أهل ذمتكم ونحن عوام وتجار وسوقة وكلنا مغلوبون على أمرنا وقتل خيارنا بأسيافكم وبقية الامراء ويقولون هؤلاء قد صاروا رعيتنا وليس لهم بطش فتركوهم وقالوا بشرط أن تدلونا على من أخفى نفسه فى المغاير والمخابى ، ومن فر من الباب الشرقى وغرق فى الماء فدلوهم على الجميع ولم يزالوا يقتلون ذلك اليوم كله ، وفى اليوم الثانى استدعوا بنجارين يعملون عربات لحمل القتلى من المسلمين وأخذوا دواب أهل السواد من البقر تسحب العربات والفلاحون عملوا عليه وصارا يضعون كل ثمانية وستة وعشرة فى حفيرة ويردمون عليهم الرمل حتى صاروا تلالا وشهروا قبورهم ووضعوهم بدروعهم وثيابهم ودمائهم رضى الله عنهم وأخذوا ألواح رخام وكتبوا عليها أسماءهم وأنزلوها فى مدافن قبورهم ورجعوا الى قتلى أهل البلد فواراهم أهلهم فى قبورهم ، وكان جملة من قتل من المسلمين فى ذلك اليوم نحو أبعمائة وأزيد ، الاعيان منهم صاغر بن فرقد وعبدالله بن سعيد وعبدالله بن حرملة وعبدالله بن النعمان وعبد الرزاق الانصارى وعبد الرحيم اللخمى وأبو حذيفة اليمانى وأبو سلمة الثقفى وأبو زياد اليربوعى وأبو سليمان الدارانى وابن أبى دجانة الانصارى وأبو العلاء الحضرمى وأبو كلثوم الخزاعى وأبو مسعود الثقفى وهاشم بن نوفل القرشى وعمارة بن عبد الدار الزهرى ومالك بن الحرث وأبو سراقة الجهنى والبقية من أخلاط الناس وقتل عند سوق التمارين نحو عشرين ودفنوا هناك وعند سوق الصابون جماعة كثيرة وقريبا من العطارين فى جانب القبور نحو أربعين وقريبا من البحر اليوسفى جماعة عند

السور رضى الله عنهم .

(قال الراوى) ولما وارى المسلمون شهداءهم صعدوا الى قصر البطليوس والى قصور البطارقة ودورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يوصف ، ومن المتاع والحلى والحلل واللآلئ والنمارق والجواهر والبسط والوسائد والمساند واقتتلت الروم على بغلة محمّلة عند باب السر فغلبهم المسلمون عليها وأخذوها فاذا عليها صندوقان فيهما أحجار معادن ، فاشترى رجل من المسلمين من بيت المال حجرا بستة آلاف دينار فباعه على غشوميته بمائة ألف دينار وأخذوا بساط البطليوس ، وكان مثل بساط كسرى سداه حرير وذهب مرصع بالمعادن فأرسلوه مع الخمس الى المدينة ، فجعل لعلى بن أبى طالب فيما حصل له من البساط عشرون ألف دينار وغنمت المسلمون غنائم كثيرة من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك .

(قال الراوى) حدثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبى أمية . قال هدم المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدور وفتحوا خزائن البطليوس واستخرجوا جميع ما فيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيئا أبدا ، وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من الذهب وألف أوقية من فضة ، ومن الثياب والملبوس وغير ذلك ما لا يوصف ، ولما دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور الحرير المنقوشة والاعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد ﴿ **ما اتخذ الله من ولد**(١) ﴾ الآية ، وقال لا اله لا الله محمد رسول الله ، فصاح المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وقرأ عياض الأشعرى ﴿ **كم تركوا من جنات عيون** ﴾ إلى قوله ﴿**وأورثناها قوما آخرين** ﴾ وأخربوا تلك البيعة ، وجعلوا بجانبها مسجدا على أعمده من الرخام مسقوف عليها بتلك الاخشاب وهو الجامع الاول قبل بناء حسن بن صالح هذا الجامع الان وبقية الاخشاب والحجارة جعلوا منها مساجد وربطا .

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١ .

(قال الواقدى) حدثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبى جعدة . قال بمدينة البنهسا أربعون رباطا ، ومن المساجد ما لا يعد وأخربت الصحابة تلك المعالم وبنوا دورا لانفسهم واختطوا بها أماكن وشوارع ، وأقام خالد ومن معه بمدينة البهنسا يصلحون المساجد والربط ويخرجون المعالم شهرا كاملا ، ثم أخرج الخمس وأرسله لعمرو بن العاص ومن معه من المسلمين وهو نازل بمصر على قدر سهامهم ، وقال له أرسل الخمس مع أبى نعيم الانصارى والفضل بن فضالة وأبى دجانة الى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة ، فلما ورد الكتاب على عمرو بن العاص فرح بذلك فرحا شديدا .

ثم كتب عمرو لعمر كتابا مع أبى نعيم صحبة كتاب خالد وسير معه ثلاثين صحابيا حتى دخل المدينة ودخل على عمر بن الخطاب فوجد عنده جماعة وقد أخرج لهم قصعا ومناسف من ثريد ، فلما رآنا عانقنا وتهلل وجهه فرحا وجلسنا كلنا نأكل وهو قائم على رؤوسنا متكئ على عصا رسول الله ﷺ ، فلما فرغنا من الاكل ناولته الكتابين ، فقرأهما وفرح فرحا شديدا ونادى فى الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ﷺ وقرأ عليهم الكتابين واستدعى بالصحابة وقسم عليهم الغنيمة ولم يترك لاهله درهما ولا دينارا ولا ثوبا رضى الله عنه وأخذنى ومضى الى بيته بيت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله عنه وأدخلنى اليه فاذا فيه فراش من أدم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست . فقال لأم كلثوم هل عندك شيء من التمر ؟ قالت لا الا اللبن الا حامض .

قال : ذلك لى وان عندنا ضيفا فحضرت بعكة من سمن وقليل من عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلا من المذكور وأخرجت الباقى لأصحابى وشرعت أحدثه عن البطليوس وهو تارة يبكى وتاره يضحك من فعله ويبكى على من قتل من المسلمين والامراء وخرجنا الى مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك وجاءت الناس يهرعون ويسألون عن أهاليهم منا فأخبرنا عمر من مات ومن قتل فضج الناس وأهل المدينة بالبكاء وعلت الاصوات على من قتل ، وجاء الناس لعلى ولعقيل ولبنى هاشم يعزونهم فيمن قتل وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا

الى مصر بكتاب عمر الى خالد فأمر بالمسير الى الصعيد .

(قال الراوى) هذا ما جرى لهؤلاء . وأما خالد رضى الله عنه فانه بعد شهر ترك أناسا من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بألفى فارس الى أرض الصعيد ، وكانت القبائل من بنى هاشم وبنى المطلب وبنى مخزوم وبنى زهرة وبنى نزار وبنى جهينة وبنى مزينة وبنى غفار والاوس والخزرج ومذحج وفهر وطئ وخزاعة ، وكان الامير عليهم مسلم بن عقيل وأحاطوا بالمساكن ، وجعلوا بالمدينة أسواقا وشوارع وسكن أكثر الصحابة فى جانب البحر اليوسفى وخلوا من الاخر الى الجانب الغربى شارعا واحدا لاجل أن تسبح دوابهم فى البحر ، وأقام مسلم بن عقيل والى عليها الى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وأقام محمد بن جعفر الى خلافة على رضى الله عنه وتولى عليها بعده على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه الى خلافة معاوية ، وكان عبد العزيز بن مروان الاموى واليا وتولى بعده طاهر بن عبدالله وكانت قريش والاشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الاشراف ، وكان لكل قبيلة حارة .

قال أبو المنهال لما فتحت مدينة البهنسا كانت آهلة بالجند فاجتمعت السوقة والمتسببون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفا .

(قال الواقدى) حدثنا حامد بن المزيد عن أبى صالح عن ابن نوفل المرادى . قال كان بمدينة البهنسا أربعمائة بقال حين فتحها يبيعون البقل وغيره وكانت مدينة عظيمة ، فلما وقع بين بنى أمية وبنى هاشم ما وقع أخرجوا منها جماعة واختل أكثرها . قال وتسلسل اليها جماعة من العربان حتى جاء الحسن واخوته فى خلافة بنى العباس فعمر جامعها وأكثر من الزوايا والربط وأقام بها حتى مات .

قال : ورجعنا الى سياق الحديث وخرج خالد بمن معه الى الصعيد ولم يزل يفتح مدينة بعد مدينة الى آخر الصعيد الى عدن وسواكن ، وليس مقصدنا فى هذا الكتاب الا فتوح البهنسا خاصة التى عليها مدار فضائل السادة الشهداء لان بتربتها خمسة آلاف صحابى وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريا من أصحاب رسول الله ﷺ وفى زيارتها تعظم

الاجور ، وقد زارها جماعة من العراق مثل بشر الحافى وسرى السقطى ومالك بن دينار وسحنون ، وزارها من أقصى المغرب أبو مدين وشعيب وأبو الحجاج ، وأبو عبدالله وزارها الفضيل بن عياض ، وروى أن اقليم البهنسا أكثر بركة من جميع الارض كلها، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول : ان رسول الله ﷺ قال « ليس بعد مكة والمدينة والارض المقدسة والطور أرض مباركة الا أرض مصر والبركة هى فى الجانب الغربى » .

(قال)ولعلها البهنسا ،وكان على بن الحسن يقول انه ليس بأرض مصر بالوجه القبلى أرض مباركة ولا أكثر بركة من أرض البهنسا ، وكان أبو على النواوى اذا أتى أرض البهنسا وأتى الجبانة ينزع ثيابه ويتمرغ فى الرمل ويقول : يا لك من بقعه طالما ثار غبارك فى سبيل الله ، وكان أبو على الدقاق اذا مر بجبانة البهنسا يقول يا لك من بقعة ضمت أعضاء رجال وأى رجال طالما عرقت وجوههم فى سبيل الله وقتلوا فى سبيل الله ومرضاته . وقيل للحسن بن صالح لم اخترت هذه البلدة على غيرها ؟ .

قال : كيف لا آوى الى بلد أوى إليها روح الله وكلمته وينزل على جبانتها كل يوم ألف رحمة ولما ولى عبد الله بن طاهر مصر تجهز وأتى الى البهنسا ، فلما قرب من الجبانة ترجل عن جواده وترجل من معه ، وكان الوالى عليها عبدالله بن الحسين الجعفرى فخرج ماشيا وسلم عليه ، ولما وصل الجبانة قال السلام عليكم يا أحياء الدارين وخير الفريقين ، ثم التفت الى أصحابه وقال : إن هذه الجبانة ينزل عليها كل يوم مائة رحمة وانها تزف بأهلها الى الجنة ، ومن زارها تتساقط عنه ذنوبه كما يتساقط الورق من على الشجر فى يوم ريح عاصف ، فكان عبدالله بعد ذلك كل يوم يخرج حافيا فيزورها حتى مات ودفن رحمه الله .

(قال الراوى) حدثنى رجل من أرض البهنسا من أهل الخير والصلاح يسمى عبد الرحمن بن ظهير .

قال : كان لى جار مسرف على نفسه ومات ودفن قريبا من الشهداء الذين بالجانب الغربى ، فبينما أنا نائم تلك الليلة فرأيته واذا عليه ثياب من السندس الاخضر وعليه تاج من الجوهر وهو فى قبة من نور وحوله جماعة لم أر أحسن منهم وجها ولا ثوبا متقلدين بسيوف

وهو بينهم فسلمت عليهم وقلت له يا هذا لقد سرنى ما رأيت من حالك . فقال يا هذا لقد نزلت بجوار قوم يحمون النزيل فى الدنيا من العار ، وكيف لا يحمونه فى الآخرة من النار وقد استوهبونى من العزيز الغفار غافر الذنوب والاوزار وأسكننى جنات تجرى من تحتها الانهار .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : كنت فى كل سنة آتى الى البهنسا وازور الجبانة لما رأيت فى ذلك من الأجر والثواب فحصل لى فى سنة من السنين عارض منعنى من زيارتها، فبينما أنا نائم ليلة من الليالى اذ رأيت رجالا لم أر أحسن منهم وجوها ولا أنقى ثيابا على خيول شهب وبأيديهم رايات خضر ووجوههم تتلألأ أنوارا فسلموا على وقالوا قد أوحشتنا يا ذا النون فى هذه السنة وان لم تزرنا زرناك . فقلت لهم من أنتم ؟ فقالوا نحن الشهداء الاخيار أصحاب محمد المختار بالبهنسا كنا بأرض الروم لنصرة المسلمين على أعداء الله الكافرين فمررنا بك لنسلم عليك وننظر ما سبب انقطاعك عنا .

قال : فى أى أرض أنتم ؟ قالوا نحن سكان جبانة البهنسا ولك علينا حقوق الزيارة لانك من أهل الاشارة . فقال لهم يا سادتى انى لا أعود وحبل الوصال بيننا ممدود ، وما كنت أعلم أنكم تعلمون من زار ، وما كنت أظن فى نفسى اننى بهذا المقدار . قالوا يا ذا النون أما تعلم – أن الشهداء ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[1] – وبهذا نطق الكتاب المكنون ثم تركونى ومضوا فاستيقظت وفى قلبى لهيب النار، فطوبى لمن زار هؤلاء السادات الاخيار.

قال المؤلف : ولقد وضعت فى هذا الكتاب كل نادرة عجيبة وحكاية غريبة ، وهو كتاب كامل المعانى والبيان عظيم القدر والشان لا يفهمه إلا ذوو البصائر والألباب ، ولا يعقله إلا أهل الخطاب ولا يقرؤه الا أهل الذوق والمعرفة ، فهو كالزهر فى الرياض لمن اقتطفه ، نفع به مالكه وكاتبه وقارئه ومستمعه، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

* * *

---

(١) سورة : آل عمران . الآية ١٦٩ .

انتهى المجلد الثاني من كتاب « فتوح الشام »

وهو خاتمة الكتاب

فهرس الجزء الثانى من فتوح الشام